عبد الله القصيمي

صحراء بلا ابعاد



عبد الله القصيمي

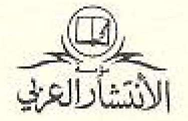
صحراء بلا أبعاد



Arab Diffusion Company

صحراء بلا أبعاد

عبد الله القصيمي



ص. ب. 113/5752 ر. ب. 2070 1103
Email: arabdiffusion@hotmail.com
بيروت - لبنان

الطبعة الثانية ٢٠٠٣

فهرست

أنا احتجاج، أنا رفض دائم..

أنا لست مذهباً، لست معلماً، لست صانع قيود، لست حامل قيود..

أنا أرفض الطغيان والقيود.. أنا أنقدها.. أنا أعدد ذنوبها..

لهذا أرفض التعاليم والمذاهب، لهذا أنقدها، أعدد ذنوبها، عيوبها..

لهذا أنا لست مذهباً.

*

أنا أرفض التعصب والكبرياء والبغضاء.. أنا أنقدها، أعدد ذنوبها..

لهذا أرفض التعاليم والمذاهب التي تحول هذه الشرور إلى مزية، إلى دين، إلى أفضل المزايا، إلى أعنف الأديان..

أنا أنقدها، أعدد ذنوبها.

لهذا لست أنا مذهباً.

*

أنا أرفض، أنا أمقت الحروب، أنا أرفض، أنا أمقت تقسيم البشر إلى مواقع حربية متواجهة..

لهذا أرفض وأمقت التعاليم والمذاهب التي تجعل الحروب، التي تجعل تقسيم البشر إلى ميادين متحاربة، بطولة إنسانية، بطولة وطنية، بطولة مذهبية..

لهذا أنا لست مذهباً.

إن نقد الآلهة أسلوب من أساليب الاشتراط لها.. من أساليب التنزيه.. من أساليب التصعيد.. من أساليب الافتراض الأفضل.

إن نقد الآلهة نوع من الاشتراط العقلي. أنت تنقد، أنت إذن تشترط لمن تنقد شروطاً أفضل.. أنت تنقد، أنت إذن تفترض فيمن تنقد افتراضاً أصعب.

•

إنه حزين، بعاطفته وتفكيره وسلوكه.

إنه حزين، لأنه يعاني ويرى ويحتج.

إنه يعاني ويرى ويحتج لأنه حزين.

إن الحزن فيه ليس منطقاً. إنه صلاة.. إنه عبادة، عبادة للإله والإنسان.

إنه يحزن بأعصاب الكون والآلهة والناس والأشياء.. إنه لا يحزن بأعصابه فقط، كما يحزن الجراد والنمل.. إذن كم هي أحزانه، كم هي أحزان من يحزن بأعصاب كل الآلهة وكل الناس وكل الأشياء.. كم هي أحزان من يحزن بكل ضمير، بكل عين، بكل قلب.. إذن كم هي أحزانه.. إن حزنه نوع من الحب والصلاة، نوع من الاحتجاج ضد الألم والعبث، وفقدان الأخلاقية في الأشياء.

إنه حزين بالتاريخ والموهبة والتدين.

إنه لا يعرف لماذا هو.. لماذا هو حزين.

إنه لا يعرف لماذا هو حزين، كما لا يعرف لماذا هو.

لماذا يموت الناس بعد أن يجربوا الحياة، ويحبوها، ويصادقوا أبناءهم، والآخرين،

والكون.. لماذا يفارقونهم بهذه القسوة البسيطة، بلا أمل في العودة.. لماذا يجيء الناس إذا كانوا لا بد أن يذهبوا..؟

أيتها الطبيعة.

أيتها الآلهة.

إن منطقي لا يستطيع أن يفهم.

إن أخلاقي لا تستطيع أن تغفر.

إن منطقي لا يستطيع أن يفهم، وإن أخلاقي لا تستطيع أن تغفر هذا..أن تخلقي الإنسان ليموت، أن تخلقيه لتقتليه، أن تخلقيه لتعذبيه لتقتليه!

أيتها الطبيعة.

أيتها الآلهة.

إني لا أستطيع أن أفهم ما يحدث.. ما تصنعين. إني لا أستطيع أن أغفره.

هل أنا لا أفهم ما ينبغي أن أفهم، أم أنت لا تفعلين ما ينبغي أن يفعل.. ما يمكن أن يفهم..؟

أيتها الآلهة.

أيتها الطبيعة.

إني أتعذب بك ولك.

إنك تحقير لمنطقي، إنك تعذيب لأخلاقي!

إن خلق الإنسان لقتله لهو أقوى اعتذار.. أقوى كفّارة عن كل المجرمين والمجانين في العالم.

لماذا يحزن الناس.. لماذا يتعذبون ويمرضون.. لماذا يشيخون.. لماذا يسيرون في طريق مغلقة بالموت والأوحال.. لماذا كل طرق الحياة مسدودة بالأوحال.. بالموت..؟

لماذا يعجزون عن الفهم، والرؤية، والنزاهة..؟

لماذا يحقدون ويتباغضون، ويتحاربون ويتشاتمون بالآلهة والمذاهب والأديان.؟

لماذا يثنون كلهم على الحقيقة والحب والصدق، ثم لا يستطيعون أن يفعلوا أو يحبوا ما يمتدحون..؟

لماذا ينادون جميعاً بالمثل والنظريات التي لا حياة لهم إلا بالخروج عليها..؟

لماذا يتلوثون وهم يهتفون بالنظافة، ويسجدون للتراب وهم يغازلون النجوم..؟

لماذا يموت الصباح.. وتنتحر الشموع.. وتكتئب الزهور..؟

لماذا تكون الدموع والأحزان والأخطاء والحقارات.. هل هي ثمن الحياة.. هل هي ثمن الكون.. هل هي ضريبة الكون والحياة..؟

إن كل ما في الكون من شموس وأقمار، وأزهار ومحيطات، لا يساوي دمعة واحدة تنحدر من قلب يعتصره الحزن، أو الشعور بالحقارة أو الظلم، أو التفاهة أو الضياع.

ما أصغر العبقرية التي تخلق كل هذه الضخامة في الطبيعة.. ما أعجز هذه العبقرية التي تسرف في إعطاء كل هذا الوجود الذي لا تفسير له.. كل هذا الوجود الذي لا يريده أحد، ولا يحتاج إليه أحد.. ثم تعجز، أو ثم لا تريد أن تحمي الإنسان أو الكائنات الأخرى الحية من هذه الآلام.. من هذه الأحزان.

ما أصغر.. ما أعجز هذه العبقرية التي تلد كل هذا الكون، ثم تصيب الإنسان بكل هذا العذاب، أو ثم لا تستطيع أن تنقذه من هذا العذاب.

ما أصغر.. ما أعجز هذه العبقرية..

لماذا تسخر الآلهة العظيمة من الإنسان..؟

لماذا تأمره بالعدل والحب، والرحمة والذكاء، وبكل الأخلاق، ثم تفعل هي غير ما تقول..؟

لماذا تصنعه على غير ما تأمره به.. لماذا..؟

إنه حينئذٍ لن يعرف هل هي تريد ما تأمره به، أم ما تنهاه عنه.. هل الأفضل ما تأمر به، أم ما تفعله.. إنه ضائع مقسم بين تعاليم الآلهة وسلوكها.. بين إرادتها وشرائعها.. بين قدرتها وشعاراتها. لقد خلقت فيه عقلاً ناقداً سائلاً، وأحاطته بكل ما يفرض عليه التساؤل والنقد، ثم حرمت عليه أن يسأل أو ينقد. لقد أعطته حتمية التفكير، ثم عاقبته عليه. أعطته السؤال عن كل شيء، ولم تعطه الجواب عن شيء.

إنها لم تخلقه بلا عقل، ولم تقدم إليه ما يمكن أن يعقل.

إنها جعلته عاجزاً عن الاقتناع، وفرضت عليه الاقتناع.

إنها قد طالبته بأن يكون أكبر وأفضل منها، ثم حرمته من القدرة على أن يكون، ثم هددته بالعقاب لو كان.

إنها تطالبه بأن يكون، وإنها لا تريد أن يكون.

إنها تعاقبه إذا لم يتطهر، وإنها تعجزه عن التطهر.

إنه حزين للآلهة بقدر ما هو حزين للكون وللناس ولنفسه.

إنه لا يستطيع ألا يحزن، لأنه لا يستطيع ألا يحتج، لأنه لا يستطيع ألا يرى ويعاني، لأنه لا يستطيع أن يجد ما يتوافق مع منطقه ونظرياته الأخلاقية، ومع احترامه للآلهة والكون والآخرين.

إنه لا يستطيع أن يكون بلا تفكير، وإنه لا يستطيع أن يعيش أو تعيش الأشياء حوله بالتفكير.

إن عقله يشترط له.. يشترط عليه، ولكن كل شيء، حتى وجوده يرفض هذا الاشتراط.. يلغي كل اشتراط.

إنه غريب في الكون وفي الناس، وفي نفسه ومع الآلهة، لهذا تحول الحزن فيه إلى عبادة.

إنه لا يستطيع أن يفهم أو يبرر ما يرى.. ما يحدث.

إنه لا يستطيع أن يفهم أو يبرر لماذا تعيش الآلهة.. لماذا تحب نفسها.. لماذا تفعل إرادتها.. لماذا تريد أفعالها.

إنه لا يستطيع أن يفهم أو يسوغ ذلك، لا بالأخلاق ولا بالتفكير.. لا بالضرورة ولا بالعبث. إن الآلهة في حياتها أقل منها في صورها.. في تاريخها المكتوب والمحفوظ.

إنه في حدوده الإنسانية، أكبر وأفضل من الآلهة في جميع مستوياتها، وفي جميع مستوياته. إنه لهذا حزين.. حزين من أجلها.. حزين لأنه لا يمكن أن يتفاهم معها.. حزين لأنه محكوم بها.. حزين لأنه أكبر منها.. حزين لأنها لا يمكن أن تكون مفهومة، ولا مستساغة.

إنه لكل هذا حزين.. حزين لأنه في كل مستوياته أكبر من آلهته. إنه أكبر منها في منطقه، أكبر منها في أخلاقه، أكبر منها في أمانيه وأحلامه، أكبر منها في أحزانه.. في نماذجه.. في احتجاجاته. إنه بهذا يتعذب بها.. يتعذب من أجلها. إنه بهذا لا يستطيع أن يفهمها، أو يعذرها. إنها لا تستطيع الارتفاع إلى مستوياته، ولا يستطيع هو الهبوط إلى مستوياتها.

إنه لا يستطيع أن يفهم أو يبرر الكون.. هل هو إله.؟

إذن لماذا يقبل نفسه.. إذن لماذا يتعذب ويفسق..؟

هل هو مخلوق لإله أكبر منه يفرض عليه أن يكون موجوداً كما هو.. بكل تفاهاته ونقائصه وآلامه، دون أن يكون له مصلحة أو رغبة أو خيار في وجوده.. دون أن يستطيع التمرد أو الفناء، أو تغيير نفسه أو الغضب لها أو عليها..؟

إذن ما ذنبه..؟

هل هو ضرورة ذاتية..؟

إن هذا شيء لا يمكن فهمه إلا بالجنون، أو مع الصبر الجميل. لا يمكن فهمه إلا بأعمق مستويات الحزن.

ما أعظم الهوان والعذاب، إذا كان محتوماً عليك أن تكون، وأن تكون كما أنت كائن.. أن تكون نفسك فقط، حتماً لا غيرها، لا أكثر، ولا أقل منها.

إن فرض الشيء على نفسه، هو أقبح الأشياء.. هو أقسى الأشياء. ليس لك حرية.. ليس لك قدرة أن تفارق ذاتك، أو أن تبدلها. كم في هذا من الفظاعة.. كم فيه من الوحشية. أنت مفروضة عليك ذاتك.. مفروض عليك وجودك.

أنت تستطيع أن تفارق بيتك.. ملابسك.. وطنك.. أصدقاؤك، ولكنك لا تستطيع أن تفارق ذاتك.. أن ترفضها.. أن تستبدل بها. أنت مفروض عليك أن تكون، وأن تكون كما أنت كائن.. أن تكون نفسك فقط.. لا غيرها.. لا أقل منها ولا أكثر منها. أنت لا تستطيع أن تسافر مغاضباً لذاتك.. مفارقاً لها. كم في هذا من الفظاعة.. كم فيه من الوحشية، من الجنون.

والناس كيف يمكن فهمهم.. تبريرهم..؟

إنهم لا يدرون لماذا جاؤوا.. لماذا يبقون.. لماذا يذهبون.. لماذا يريدون أنفسهم.

إن أسوأ المعاصي أن يكره الإنسان على إرادة نفسه.. إن كل الأشياء مكرهة على إرادة نفسها. أليس أكبر الذنوب أن يكره الإنسان على إرادة نفسه..؟

إنهم لا يدرون من أين جاؤوا، ولا أين يذهبون، ولا لماذا يستمرون بهذا الهوان والعبودية، يدفعون الثمن الباهظ الأليم، لكي يستمروا بنفس الهوان والعبودية يدفعون هذا الثمن الباهظ الأليم.. كما لا يدرون لماذا وجدوا في هذا المكان دون كل الأماكن الأخرى، بهذا الضعف والتلوث دون جميع الاحتمالات الأخرى، ولا لماذا جاؤوا محكومين بالأرباب القاسية، يمزقهم الخوف والقهر، ولم يكونوا هم أرباباً..؟

هل هم وسيلة..؟

هل هم غاية..؟

هل هم وسيلة وغاية..؟

أم هم لا وسيلة ولا غاية..؟

إنه حزين بهم.. إنه حزين معهم.. إنهم فيه يتعذبون.. إنه فيهم يتعذب.

ثم هو، لماذا هو..؟

ماذا يعني..؟

ماذا يريد..؟

ماذا يفهم من كونه هو، دون كونه هم.. كونه هنا دون كونه هناك.. كونه كان، دون كونه لم يكن..؟

ماذا يفهم من إرادته لنفسه.. من دفاعه عنها.. من خوفه عليها.. من منافسته للآخرين.. من كراهته لهم.. من حقده عليهم.. من مصادقتهم. من النفاق لهم.. من الاختلاف معهم..؟

كيف يستطيع أن يعيش نفسه.. كيف يستطيع أن يواجهها.. أن يراها..؟

كيف لا تقتله.. كيف لا يقتلها..؟

كم هي مقادير الوقاحة التي يحتاج إليها، لكي يستطيع أن يعايش ذاته.. أن يخلو بها.. أن يعرفها.. أن يراها.. أن يمارسها من الداخل، دون أن يموت خجلاً ورهبة..؟

كم يحتاج إلى أن يقتل في نفسه مشاعر الاحتشام ومرارة الافتضاح، لكي يستطيع أن يتعامل مع ذاته، مواجهة بلا أقنعة..؟

إننا لنضج استنكاراً لو رأينا ذاتاً أخرى وقد سقطت عنها بعض الأقنعة، ولكننا نرى دائماً ذواتنا دون أية أقنعة ثم لا نفكر في أن نقتلها.

ما أقدر البشر على مواجهة الفضائح.. إنهم جميعاً ودائماً، يواجهون أنفسهم من داخلها.. ما أقدرهم على رؤية الافتضاح دون غضب. إن أفظع أساليبنا في التعامل مع العار والافتضاح هو تعاملنا مع أنفسنا، هو مشاهدتنا لأنفسنا دون أية أقنعة. ما أبشع المشاهدة، ما أوقحها.

*

لا تسيئوا فهمه.. لا تنكروا عليه أن ينقد، أو يغضب، أو يعارض، أو يتمرد، أو يبالغ، أو يقسو. إنه ليس شريراً، إنه ليس عنيفاً، ولا عدواً، ولا ملحداً؛ لكنه متألم.. لكنه حزين.

إنه يبذل الحزن والألم بلا تدبير أو تخطيط، كما تبذل الزهرة أريجها، أو الشمعة نورها. لقد تناهى في حزنه.. لقد تناهى في ضعفه حتى بدا عنيفاً. إنه حزين.. ضعيف، إلى المستوى الذي بدا به عنيفاً.. عنيفاً.

إن كل ما كتبه نوع من الصلاة والبكاء، بلغة حزينة صادقة.

إنه يصلي، ولكن بأسلوب الإنسان المدفون في أعماقه.

إنه بتمرده وتحديه، ليصلي لله صلاة هي أكثر خشوعاً من صلاة جميع المشرعين..

إنه بقسوته على الإنسان، ليحترمه، ويتعذب له، أكثر مما يفعل جميع الشعراء المادحين..

إنه يصلي لله، وللكون، وللإنسان.. ولكن بلغة هي أقوى من كل لغات المعابد، من كل لغات الوعاظ. فلا تخطئوا في فهمه.. لا تحقدوا عليه.. لا تظلموه..

إنه باك وليس لاعناً.. إنه من ضعفه أمام حبه ليرثي لكل الأشياء، حتى ليرثي للآلهة. إنه ليرثي للآلهة ويخجل لها من نفسها.. إن هذا قمة الضعف، أو الحب، أو الإيمان.. إنه قمة العذاب.

ليس نقده إلا رثاء للعالم، رثاء لنفسه..

ليس نقده إلا تمزقاً ذاتياً..

ما أشقى الإنسان الذي يرثي للآلهة. إن الرثاء للآلهة، يعني أن يصطدم عقلك بكل شيء، أن يحمل ضميرك كل مسؤولية التعذب، والتفكير عن كل أخطاء الكون، ومظالمه وعيوبه. إن الإنسان هو أعمق الكائنات حزناً.. إنه الكائن الوحيد الذي يمارس الحزن كفضيلة أخلاقية، كسلوك اجتماعي عام مشروع. إنه يمارس حزنه كتدين. إن الكبار وذوي المستويات الحضارية العالية، لهم أعظم وأدوم أحزاناً من الأطفال، والمتخلفين حضارياً.. لهذا فإن الإنسان وحده، لأنه الحزين وحده، هو الذي يبكي وينقد ويتدين. إن الحزن رقي إنساني.. إن الحزن مستوى إنساني.. إنه طور إنسان، إنسان متحضر.

ليست الدعوات الإصلاحية، ولا النبوات، ولا الأفكار، ولا النقد، ولا الفلسفات، إلا أسمى أساليب التعبير عن الحزن. إن المفكر العنيف، أو الناقد العنيف، أو النبي هو الحزين العنيف.. إنه العاطفي العنيف في عاطفته، إنه الصديق الرحيم.

إن أقسى الناس في نقدهم قد يكونون أرق الناس في قلوبهم. لقد كان الأنبياء أعنف من نقدوا، لأنهم كانوا أعنف إحساساً بالآلام العالمية.. لأنهم كانوا أعنف من تألموا.

ليس في ضروب القسوة والبلادة كلها، ما هو أكبر من أن تكون إنساناً لا ينقد.. أي لا يحزن، ولا يغضب، ولا يحب.. أي لا ينفعل.

إن الذين لا ينقدون، هم الذين لا يرون الآلهة، أو لا يقرأونها، أو لا يتعاملون معها بمشاعرهم، ولا بأخلاقهم.

إن رؤية الآلهة.. إن إدراك ما تفعل، ليهب الموت أو الجنون أو الاحتجاج.. إن الاحتجاج على رؤية الآلهة، على رؤيتها فاعلة، هو أضعف مستويات الغضب.. هو أضعف مستويات الرؤية للآلهة.. مستويات الفهم لما تفعل الآلهة.

إذا غضبتم عليه، فقولوا إنه حزين، ضعيف، باك.. ولكن لا تقولوا شيئاً آخر. إنكم حينئذٍ

تهبطون إلى أردأ مستويات الخطأ والظلم والذكاء. إن الحزين لا يستحق غضبنا.. إنه يستحق احترامنا.. إنه صلاة إنسانية، صلاة للإنسانية مهما جاء تعبيراً قاسياً.. إنه أصفى دموع تتساقط من مآقي الشموس والغيوم، احتجاجاً على التفاهات والآلام، التي لا يجد لها تفسيراً في حكمة الأرباب، أو مصلحة الكون.. إنه الأحزان الكونية التي لم تجد لها قلوباً أو عيوناً سوى قلبه وعيونه.. إنه الاعتذار الأليم عن بلادة نوعه إزاء مأساته.

إنه لا يستطيع ألا يرى..

إنه لا يستطيع أن يتقبل، أو يغفر ما يرى..

إنه إذن لا بد أن يرفض ويحتج..

إنه إذن لا بد أن يغضب ويحزن..

إنه إنسان..

إنه ليس ذباباً.

لا تغضبوا عليه..

لا تتهموه، لأنه قد جاء إنساناً، ولم يجيء ذباباً.

لا تغضبوا عليه..

لا تتهموه..

إنه لم يختر أن يكون إنساناً.

إنه لم يرفض أن يكون ذباباً..

إنه لم يستشر في صيغة وجوده.. في صيغة منطقه.. في صيغة مستوياته النفسية والأخلاقية..

إنه محكوم بمجيئه.. بصيغة مجيئه.. إنه ليس ذباباً.

لا تغضبوا عليه إذا حزن، وإذا رفض، إذا احتج. إنه إنسان.. إنه ليس ذباباً..

إنه لم يرفض أن يكون ذباباً.. إنه لم يخير في مجيئه.. في صيغة مجيئه.

إنه الأحزان المتجمعة المتبلدة في أعصاب كل الطبيعة.. في أعصاب كل البشر، قد تفجرت في أعصاب إنسان واحد، متحولة إلى صلوات لتغطي كل المذاهب، لتغطي كل المعابد.

عيناك.. كيف لا تنفجران

عيناك.. وهل لك عينان..؟

لقد كان مستحيلاً أن تكون لك عينان..

إنك لن تستطيع الرؤية.. إنك لن تطيق الرؤية..

لقد كان شيئاً فوق الطاقة أن ترى الأشياء، أن ترى الطبيعة، أن ترى الآخرين، أن ترى ذاتك، أن ترى سلوكك، أن ترى نياتك..

إن الرؤية هي الموت، هي الجنون، هي الإصابة بالعمى..

*

كل الأشياء تسقط في عينيك.. كل الطبيعة، كل الناس، كل الحشرات، كل الذنوب.

عيناك، كيف لا تنفجران..؟

كل الأحزان تسقط في عينيك.. كل الدمامات، كل العاهات، كل الآهات، كل الآلام.

عيناك، كيف لا تنفجران..؟

كل الغباوات تسقط في عينيك.. كل التناقضات، كل العبث، كل التفاهات.

عيناك، كيف لا تنفجران..؟

كل الطغاة يسقطون في عينيك.. كل العتاة، كل القساة، كل المتألهين، كل الجبارين، كل اللصوص، كل الملوثين، كل القتلة، كل صانعي الحروب والخصومات.

عيناك، كيف لا تنفجران..؟

كل السخفاء، يسقطون في عينيك.. كل الثقلاء، كل الأغبياء.

عيناك، كيف لا تنفجران..؟

كل المسحوقين يسقطون في عينيك.. كل المهزومين، كل الراكعين.

عيناك، كيف لا تنفجران..؟

كل المنافقين يسقطون في عينيك.. كل الكذابين، كل المتملقين، كل الهتافين، كل المهرجين.

عيناك، كيف لا تنفجران..؟

كل البائعين لشرفهم، لكرامتهم، لحريتهم..

كل المتنازلين عن شرفهم، عن كرامتهم، عن حريتهم..

كل الهاربين من الشرف، من الكرامة، من الحرية..

كل من خلقوا بلا شرف، بلا كرامة، بلا حرية.. يسقطون في عينيك.

عيناك، كيف لا تنفجران..؟

كل من يعيشون بالخبز وحده، كل من يعيشون بلا خبز ولا روح، كل من يعيشون بلا مستوى من الخبز أو الروح.. يسقطون في عينيك.

عيناك، كيف لا تنفجران..؟

كل من يعيشون بلا قامات، بلا هامات، بلا عيون، بلا ارتفاع، بلا أبعاد.. يسقطون في عينيك.

عيناك، كيف لا تنفجران..؟

كل من يعيشون بلا غضب، بلا احتجاج، بلا رفض، بلا ارتجاف.. يسقطون في عينيك..

عيناك، كيف لا تنفجران..؟

كل المعابد، كل المعتقلات، كل السجون، كل المعسكرات، كل المؤتمرات، كل الاستعراضات، كل القيود، كل الصحافة.. تسقط في عينيك كل صباح، كل وقت.

عيناك، كيف لا تنفجران..؟

كل الزعماء وهم يخطبون، كل المعلمين وهم يعلمون، كل الوعاظ وهم يعظون.. يسقطون في عينيك.. تسقط في عينيك أكاذيبهم، غباواتهم، نفاقهم، تشوهاتهم.

عيناك، كيف لا تنفجران..؟

كل دمامات الظالمين، كل دمامات المظلومين، كل آثام الآلهة، كل آثام الطبيعة.. تسقط في عينيك.

عيناك، كيف لا تنفجران..؟

كل كبرياء الأذلاء، كل خسة الأخساء، كل حقارة الوضعاء.. تسقط في عينيك.

عيناك، كيف لا تنفجران..؟

كل الوجوه المشوهة، كل الوجوه الدميمة، كل القامات المصلوبة، كل القامات المتحطمة، كل الأيدي المبتورة، كل الأرجل المشلولة، كل العيون المسدودة.. تسقط في عينيك.

عيناك، كيف لا تنفجران..؟

كل دموع المقهورين، كل دموع المحزونين، كل دموع الضائعين، كل دموع الخائفين، كل دموع اليائسين، كل دموع الفاقدين.. تسقط في عينيك.

عيناك، كيف لا تنفجران..؟

كل الأيتام، كل الأرامل، كل المنبوذين، كل المطاردين، كل المحقرين، كل المرضى، كل الشيوخ.. يسقطون في عينيك.

عيناك، كيف لا تنفجران..؟

كل الجثث، كل المقابر، كل النعوش، كل المآتم.. تسقط في عينيك.

عيناك، كيف لا تنفجران..؟

كل الشموع الميتة، كل الشموس الغاربة، كل النجوم الهاوية.. تسقط في عينيك.

عيناك، كيف لا تنفجران..؟

كل الناس يشحبون في عينيك، يتشوهون، يسقطون، ينهارون، يبكون، يجوعون، يموتون.. كل الناس.

عيناك، كيف لا تنفجران..؟

كل الناس يتكررون في عينيك، كل الأيام، كل الليالي، كل الأنهار، كل البحار، كل الشموس، كل النجوم.. تتكرر في عينيك، بلا تفسير، بلا خطة، بلا مذهب، بلا وقار، بلا تهذيب.

عيناك، كيف لا تنفجران..؟

كل الناس يمارسون ذواتهم، يمارسون أوحالهم، يمارسون ضعفهم، هوانهم، خوفهم، داخل عينيك، في عينيك.. دون احتشام، دون استتار.

عيناك، كيف لا تنفجران..؟

كل الطبيعة، كل الآلهة، كل المذاهب، كل النظم تمارس خطاياها، جهالاتها، حماقاتها، أكاذيبها، وقاحاتها داخل عينيك، في عينيك، بلا حب، بلا صدق.

عيناك، كيف لا تنفجران..؟

كل الناس يمرون من عينيك، كل الناس يفسقون بعينيك، كل الناس يشتمون عينيك، كل الناس يتفجرون في عينيك، كل الناس يعاقبون عينيك، يشوهون عينيك.. كل الطبيعة، كل الحشرات، كل الطغاة، كل الأرباب، كل الشموس، كل النجوم.

عيناك، كيف لا تنفجران..؟

كل ممارساتك لذاتك، لتلوثاتك، لصغائرك، لجوعك، لنياتك، لاحتياجاتك، لأعضائك، لتعريك.. تسقط في عينيك.

عيناك، كيف لا تنفجران..؟

كل ذاتك، كل حياتك، تعيش دائماً في عينيك، تتلوث دائماً في عينيك، تهجو دائماً عينيك، تتعرى دائماً في عينيك، تموت دائماً في عينيك.

عيناك، كيف لا تنفجران..؟

*

عيناك.. هل هما عينان، هل هما تشوهان في وجهك.. هل هما رسمان غبيان.. هل هما حشرتان ميتتان في رأسك..؟

عيناك.. وهل لك عينان.. هل لك عينان..؟

لقد ماتت عيناك.. لقد ماتت عيناك.

إن عينيك لم تخلقا.. لقد كان مستحيلاً أن تخلق لك عينان.

إنك لن تستطيع الرؤية.. إنك لن تطيق الرؤية.

لقد كان شيئاً فوق الطاقة أن ترى الأشياء، أن ترى الطبيعة، أن ترى الآخرين، أن ترى ذاتك، أن ترى ممارساتك لذاتك، أن ترى سلوكك، أن ترى نياتك.

إن الرؤية هي الموت، هي الجنون، هي الإصابة بالعمى.

لقد كان شيئاً صعباً أن تخلق لك عينان.. لقد كان شيئاً مستحيلاً.

إن وجهك خراب.. إنه صحراء.. إنه بلا حياة. إن كل الأشياء، تفترسه، تلعنه دون أن يصطدم بها أو تصطدم به، دون أن يناقشها، أو دون أن يراها أو تراه.

إن وجهك خراب.. إنه صحراء.. إنه بلا حياة.

على أي قياس تقتنع بأربابك

حتى أحلامك الكاذبة التي قد يبدو أنك تقتنع بزعمائك ومعلميك وأربابك وتستسلم لهم لأنهم يلوحون بها لك، ويحدثونك عنها بهياج، زاعمين أنهم سوف يقتطعونها لك من جبهة الشمس.. حتى أحلامك هذه، إنها ليست أحلامك.

إن حياتك لم تصنعها لك، إنك لم تصنعها لنفسك. ولكن زعماءك ومعلميك وأربابك هم الذين بصقوها في لهفتك، هم الذين احتلموا بها لك، ثم ذهبوا يخطبون بها، ويحولونها إلى بلاغة سوقية، إلى بلاغة فوق منابرهم، إلى بلاغة منبرية.. ثم ذهبوا يحركون أشواقك إليها، ويساومونك عليها.. يساومون آلامك وحرمانك وضياعك، يساومون موهبة الغباء والغواية فيك، يساومون كل ضعفك وجوعك الإنساني والتاريخي.

حتى أحلامك، إنها ليست أحلامك.. حتى أحلامك.

إن الإنسان سيظل صغيراً كإنسان مهما أصبح كبيراً كخالق.

*

لقد آمنت بكل أربابك وزعمائك ومعلميك المتناقضين المختلفين، المتفاوتين في أخلاقهم وذكائهم وفي كل مستوياتهم.. لقد آمنت بهم جميعاً بمستوى واحد من الاقتناع والحماس، والاستسلام والطاعة؛ متوزعاً بينهم، متعاقباً عليهم، متوزعين متعاقبين عليك.

لقد آمنت بهم كلهم.. لقد كفرت بهم كلهم بأسلوب التوزع والتعاقب.. لقد آمنت بهم وأطعتهم ومت تحت أقدام جنونهم، بمثل الحماس والاقتناع اللذين بهما رفضتهم وعصيتهم وحملت السلاح لقتلهم.

لقد آمنت بكل أربابك وزعمائك ومعلميك المتناقضين المختلفين، المتفاوتين في أخلاقهم وذكائهم وفي كل مستوياتهم، بكل أربابك وزعمائك ومعلميك الذين لم يوجدوا ولا بد أن يوجدوا، والذين قد يوجدون، والذين لن يوجدوا.

لقد آمنت بهم وأطعتهم واستسلمت لهم، متوزعاً بينهم، متعاقباً عليهم.. لقد كفرت بهم بنفس الحماس والاقتناع، بأسلوب التوزع والتعاقب، وأحياناً بأسلوب الجمع بين الشيء ونقيضه في موقف واحد.

إن إلهاً ما، أو معلماً ما، أو زعيماً ما، لم يمت في سوقك كساداً أو يأساً، أو جوعاً من الأتباع والمؤمنين.

إن أي إله، أي معلم، أي زعيم، مهما كانت صفاته وتشوهاته لم ترفض السوق، كل السوق كل الوقت استقباله والهتاف له والاقتناع به. ولكن أي زعيم، أي معلم، أي إله قد اطمأن إلى أن السوق لن تلعنه، لن تطرده، لن تصلبه أيضاً، دون أن يعرف الصفات أو الظروف أو الأوقات التي تجعلها تستقبله بهذا أو بهذا..؟

لقد كان كل زعيم، كل معلم، كل إله يتوقع من السوق الاقتناع به، والطاعة له، والسير وراءه، بقدر ما كان يتوقع منها ـ من السوق نفسها ـ الرفض والطرد والصلب، دون أن يعرف ما الذي يجعلها تلقاه بهذا دون هذا، أو ما الذي يجعلها تلقاه بهذا بعد أن كانت قد تلقته بذاك. ولم تكن السوق تخلف له ظناً، لقد كانت السوق دائماً تتلقاه بهذا أو بهذا، أو بهذا وهذا بأسلوب التعاقب والتوزع، دون أن يعرف الحظوظ، أو الشروط، أو الأسباب التي تجعله يواجه بهذا أو بهذا، أو بهذا وهذا.

إن أي نبي، أي بطل ليس أفضل احتمالات في السوق من أي دجال، من أي مهرج.. إن أي دجال، أي مهرج ليس أردأ احتمالات في السوق من أي نبي، من أي بطل. إن أعظم المعلمين والقادة وأصدقهم ليعرضون أنفسهم على السوق، ليغزون السوق، وهم يحملون التوقعات والتوجسات المضادة والملائمة التي يحملها أكذب الدعاة وأحقر القادة المغامرين الزائفين حينما يدخلون السوق، حينما يغزون السوق.

هل أنت تقتنع وتطيع على نموذج وقياس..؟

هل أنت ترفض وتعصي على نموذج وقياس..؟ وما هذا النموذج والقياس إن كانا، هل تعرفهما.. هل تلتزمهما..؟

إذن لماذا تطيع كل الأرباب والمعلمين والزعماء، لماذا تقتنع بهم كلهم، ولماذا ترفضهم وتخرج عليهم جميعاً..؟

لماذا آمنت وكفرت بهم جميعاً بأسلوب التعاقب والتوزع، وهم نماذج ومقاسات مختلفة متناقضة..؟

لماذا كان النموذج الذي تقتنع به وتلقي بذكائك وكرامتك وحياتك بين يديه، هو نفس النموذج الذي تخاصم وتشاتم وتقاتل..؟

لماذا كان القياس الذي ترفض هو نفس القياس الذي تقبل..؟

لماذا آمنت بكل النماذج والمذاهب والمقاسات والنظم، ثم كفرت بها..؟

لماذا كفرت بها ثم آمنت.. بل لماذا كفرت بها وآمنت في وقت واحد..؟

إن كل مذهب، كل نظام، كل نموذج، كل زعيم، كل معلم، كل رب قد آمنت به ثم كفرت، قد كفرت به ثم آمنت، قد كفرت به وآمنت، قد ظللت مؤمناً به وكافراً، متوزعاً متعاقباً.. وإنك لقادر دائماً على أن تؤمن ثم تكفر، وعلى أن تكفر ثم تؤمن، وعلى أن تجمع بين الإيمان والكفر بالشيء الواحد، بالإله الواحد والمعلم الواحد والزعيم الواحد، بالمذهب الواحد والنظام الواحد والدين الواحد.

إنك لقادر أبداً على أن تؤمن وتكفر، وعلى أن تؤمن ثم تكفر، وعلى أن تكفر ثم تؤمن بكل ما في احتمال الطبيعة والحياة والبشر، بكل ما ليس في احتمال الطبيعة والحياة والبشر من نماذج الأرباب والزعماء والمعلمين، من نماذج المذاهب والنظم والتعاليم، من نماذج الأخلاق والمستويات، من نماذج الكينونة والمصير.

إنه ليس أنت.. إنه ليس مستواك الأخلاقي أو العقلي أو الإنساني الذي يحدد النماذج، نماذج الأرباب والزعماء والمعلمين، ونماذج المذاهب والنظم والمستويات.. إنه ليس أنت.. ليس مستواك هو الذي يحدد النماذج التي تقبل وترفض.. إنها، أي النماذج هي التي تحدد نفسها.. إن قدرتها على المجيء هي التي تحددها وتحدد قدرتك على القبول والرفض. إنها لو جاءت بأي أسلوب آخر لتعاملت بها كما تعاملت بها وعليها بأسلوبها الذي قد جاءت به.. إنه كما جاءت كينونتك، وكينونة شموسك وأقمارك، وأرضك وأنهارك بلا نموذج تعرفه أو تعرف مزاياه وذكاءه، وكما تعاملت مع كل ذلك وتلاءمت وقبلت، وأطعت ومدحت، وشكرت وسكرت، إعجاباً وانبهاراً بلا اشتراط أو تفسير أو اقتناع.. كذلك جاءت نماذجك، نماذج أربابك وزعمائك ومعلميك، ونماذج مذاهبك ونظمك ومستوياتك، وكذلك اقتنعت بها وأطعتها، وكذلك كفرت بها وعصيتها.

إنك لا بد أن تتعامل مع ذاتك ومع الأشياء التي حولك، كيفما جاء نموذجها دون أن تفهم أو تشترط أو تنقد، أو تخضعها لأي نموذج آخر، لأي نموذج تعرفه وتحدده وترفض

الخروج عليه.. وإنك كذلك وبنفس النسبة لا بد أن تتعامل مع زعمائك ومعلميك وأربابك، ومع مذاهبك ونظمك ومستوياتك، كيفما جاء نموذجها دون أن تفهم أو تشترط، دون أن تخضعها لأي نموذج آخر، لأي نموذج تعرفه وتحدده وترفض الخروج عليه. إن إيمانك كسلوكك، كلاهما لا نموذج له، كلاهما لا قياس له.

إن نماذجك.. إن أربابك وزعماءك ومعلميك، لا يجيئون أفضل - إذا جاؤوا أفضل - لأنك لا تقبلهم أو لا تقتنع بهم إلا إذا جاؤوا كذلك، وإنما يجيئون أفضل إن جاؤوا كذلك، لأنهم يستطيعون أن يجيئوا كذلك، أو لأنهم لا يستطيعون أن يجيئوا إلا كذلك، أو لأنهم لا بد أن يجيئوا كذلك، أو لأنهم يريدون أن يجيئوا كذلك، أو لأنه يرضيهم عن أنفسهم أن يجيئوا كذلك، لأنهم يفرحون أن يجيئوا كذلك.

إن الأرباب والزعماء والمعلمين يجيئون أفضل أو أسوأ، كما يجيئون أطول أو أقصر، أصح أو أمرض، أجمل أو أقبح.. إنهم يجيئون كما تجيء الحشرات، كما تجيء بهذه الصورة وبهذا الأسلوب والمستوى، وكما تجيء بالصورة الأخرى وبالأسلوب والمستوى الآخر.. كما تجيء الأحداث والأحزان والآلام، كما تجيء بهذه القباحة أو بتلك. إنهم يجيئون لأنهم هكذا يجيئون، لا لأنك تكرههم على أن يجيئوا بالأسلوب الذي به يجيئون.

*

إنك لا تقنع بأربابك ومعلميك وزعمائك على نموذج أو قياس.. إنك لا تؤمن بهم، أو تطيعهم، أو تموت فداء لأخطائهم ونزعاتهم لأنك عرفتهم، أو اخترتهم، أو جربتهم، أو وجدت بهم، أو لأنك دعوتهم واستغثت بهم فجاؤوا، أو لأنهم جاؤوا تفسيراً لأحلامك، لأنهم جاؤوا أجمل التفاسير لأجمل أحلامك، أو لأنهم جاؤوا وفاق نموذج عشته وعاشك، أو لأنهم جاؤوا على قياس قد جئت أنت على قياسه.

إنك تطيع زعماءك وأربابك ومعلميك لأنك وجدتهم أمامك، لأنك وجدتهم في طريقك، لأنك وجدتهم فوقك، وجدتهم في السوق، وجدتهم مفروضين عليك، لأنك وجدتهم منتصرين على حياتك، على المجتمع الذي وجدته مهزوماً، الذي وجدته منتصراً عليك، مهزوماً بهم.

إنك تطيع زعماءك ومعلميك وأربابك وتقتنع بهم، أو تبدو كالمقتنع بهم، لأنك جئت فوجدتهم يمارسونك، يمارسون أنفسهم ضدك، لأنك جئت فوجدتهم يتغذون بإنسانيتك، بالإنسان المهزوم المدحور فيك.

إنك لا تؤمن بزعمائك ومعلميك وأربابك، إنك لا تستسلم لهم على أي نموذج ولا على أي قياس.. إنك لا تؤمن بهم ولا تستسلم لهم، لأنهم قد جاؤوا على نموذج ما أو على قياس ما.

حتى أحلامك المخدوعة الكاذبة، التي قد يبدو أنك تقتنع بزعمائك ومعلميك وأربابك وتستسلم لهم لأنهم يلوحون لك بها، ويحدثونك بجنون عنها، زاعمين أنهم سوف يضعونها تحت حذائك.. حتى أحلامك هذه، إنها ليست أحلامك.. إن حياتك لم تصنعها لك.. إنك لم تصنعها لنفسك، ولكن زعماءك ومعلميك وأربابك هم الذين اختلقوها واحتلموا بها لك، ثم ذهبوا يخطبون بها، ويحولونها إلى بلاغة لمنابرهم، ثم ذهبوا يحركون أشواقك إليها، ويساومونك عليها، يساومون آلامك وحرمانك وضياعك.. يساومون موهبة الغباء والغواية فيك، يساومون كل ضعفك وجوعك الإنساني.

حتى أحلامك، إنك لم تحتلمها، لم تحتلمها ضروراتك ولا مجاعاتك ولا حياتك.. حتى أحلامك، لقد احتلم بها طغاتك، ثم رموها لك في السوق، ثم رموك بها في السوق، ثم رموا السوق بها، ثم حاربوا بها السوق، ثم حولوها إلى بلاغة، إلى بلاغة مفترسة متوحشة، إلى بلاغة فاضحة لذكائك ووقارك وكبريائك.

حتى أحلامك، إنها ليست أحلامك. حتى أحلامك..

*

كم أنت محكوم عليك بعذاب الغضب والرثاء والاشمئزاز. إنك لم تزل تجد كل إنسان، كل مجتمع.. إنك لم تزل تجد كل الناس قد تجندوا بأسلوب التوزع، بكل ضجيجهم وحماسهم، وسذاجتهم المثيرة وراء زعيم أو معلم أو إله أو مذهب أو نظام، زاعمين، ومقتنعين، أو بادين كمقتنعين، أو زاعمين الاقتناع بأنهم قد اختاروا لأنفسهم أفضل وأعظم الزعماء أو المعلمين أو الآلهة أو المذهب أو النظم، بعد أن جربوه وعرفوه واقتنعوا بتفوقه على كل ما سواه، على كل ما كان وما سوف يكون، وما لن يكون من الزعماء أو المعلمين أو الآلهة أو المذاهب والنظم.

بعد أن جربوه، وعرفوه، واقتنعوا بأزليته، وأبديته، وعالميته، وبحتمية انتصاره العالمي.. بعد أن أقاموا كل المباريات والمقارنات بينه وبين كل نقيض، كل ضد، كل منافس، فوجدوه وحده المطلق، وجدوه المطلق في التاريخ، والمطلق في الزمان، والمطلق في المزايا، ثم وجدوه هو وحده التعبير الكامل عن موهبة الإله إن كان موجوداً، وعن موهبة الطبيعة إن كانت هي الموجودة.. وجدوه هو وحده التعبير الدائم الكامل عن احتياجات الإنسان، عن آماله وأحلامه وطموحه الذي لا حدود له.

كم أنت محكوم عليك بعذاب الغضب والرثاء والاشمئزاز حينما تجد كل قوم يعيرون كل الأقوام الآخرين، أو يشاتمونهم، أو يقاتلونهم، أو يرثون لهم، أو يحزنون لغبائهم وفسادهم، لأنهم لم يؤمنوا بالزعيم أو المعلم أو الرب أو المذهب أو النظام الذي يؤمنون به

هم، لأنهم لم يختاروه، لم يدعوه، لم يعرفوه، لم يجربوه، لم يدركوا مزاياه، لم يدركوا تفوقه على كل ما كان وما سيكون، وما لن يكون كما اختاروه، ودعوه، وعرفوه، وجربوه، وأدركوا مزاياه وتفوقه هم.

كم أنت محكوم عليك بعذاب الغضب والرثاء والاشمئزاز، حينما تجد كل أناس يزعمون أو يعتقدون أنهم قد اختاروا زعيمهم أو إلههم، أو معلمهم، أو مذهبهم، أو نظامهم بعد أن عرفوه وجربوه، وأقاموا المقارنات والمسابقات بينه وبين كل ما عداه فأدركوا تفوقه وتوحده، فأدركوا أنه هو الأزل والأبد، أنه هو كل الحياة.

لقد جربوه، فعرفوه، فاختاروه، فدعوه، فجاء طائعاً مستجيباً.. لقد جاء مستجيباً لدعوة ملحة فاهمة مختارة وجهت إليه. إنه لم يجيء مقتحماً أو مغتصباً.. إنه لم يقتحم على قوم لا يعرفونه، أو على قوم لا يدركون مزاياه وتفوقه، أو على قوم لم يوجهوا إليه دعوتهم بضراعة وإصرار وبكاء، أو على قوم لا يعرفون كيف جاء، ولا من أين جاء، ولا لماذا جاء، ولا لماذا جاء بهذا الغباء، بهذه القسوة، بهذه الدمامات.

كم أنت محكوم عليك بعذاب الغضب والرثاء والاشمئزاز.

كم أنت محكوم عليك لأنك محكوم عليك أن تمارس البشر، أن يمارسوا أنفسهم فوق ضميرك.

*

إن كل هؤلاء الناس، نعم إن كل هؤلاء الناس لا يدركون أنهم لم يختاروا أو يعرفوا أو يشتهوا أو يطلبوا ما لديهم من الآلهة أو الزعماء أو المعلمين أو المذاهب أو النظم.. إنهم لا يدركون، إنهم لا يدركون أنهم لم يقتنعوا بما اقتنعوا به من آلهة أو زعماء، أو معلمين أو مذاهب أو نظم، بل وأنهم لم يوجدوا في موقف من يقتنعون، أو موقف من يعجزون عن الاقتناع.. إنهم لا يدركون.

إن كل قوم لا يعرفون زعيمهم أو إلههم أو معلمهم، أو نظامهم أو مذهبهم، ولا يعرفون من مزاياه أكثر مما يعرفه، أو أكثر مما يعرف من مزاياه مخالفوه وخصومه، وأعداؤه ومحاربوه.. وإن هؤلاء المخالفين والخصوم، والأعداء والمحاربين له لا يجهلونه ولا يجهلون مزاياه أكثر مما يجهل ذلك رعاياه وعبيده ودارسوه والهاتفون له بالمجد والخلود.. وإن أحد الفريقين ـ المحارب له والمؤمن به ـ لم يختر موقفه منه، أكثر مما اختار الآخر موقفه.. وإن كلاً من الفريقين لم يفهم لماذا اختار موقفه، أكثر مما فهم الفريق الآخر، ولم يفهم ما اختار أو من اختار أكثر أو أعمق أو أذكى مما فهم الآخر.

إن كل هؤلاء الناس.. نعم، إن كل هؤلاء الناس لا يدركون أنهم يستطيعون أن ينتقلوا ـ أعني أن ينقلوا ـ من الإيمان بزعيمهم أو بإلههم أو بمعلمهم، أو بمذهبهم أو بنظامهم إلى الإيمان بمخالفه أو بنقيضه، أو بخصمه أو بعدوه، وحينئذٍ يجدون نفس الاقتناع والحماس، والإعجاب والنشوة التي كانوا يجدونها فيما انتقلوا منه، فيما نقلوا منه.

إن كل الناس يستطيعون ببساطة أن يفعلوا ذلك، دون أن يحدقوا في أنفسهم لكي يروا بشاعة الافتضاح، لكي يروا كيف يمارسون الافتضاح، دون أن يقفوا موقف العتاب من أنفسهم، دون أن تغضب عليهم عيونهم، دون أن يغضبوا على عيونهم.

إن الناس ينتقلون، أعني ينقلون من الإيمان بالشيء، من الاقتناع به والاستسلام له إلى النقيض دون أية معاناة كما تنقل الأشياء من مكان إلى مكان، ومن امتلاك يد إلى يد أخرى.. إنهم بالسهولة التي يقتنعون بالشيء ينتقلون منه.. إنهم كما اقتنعوا بالشيء يقتنعون بنقيضه، أعني إنهم كما دخلوا في الشيء دون اقتناع، كذلك ينقلون إلى نقيضه دون اقتناع أيضاً.. أعني أنهم كما اقتنعوا بالشيء دون اقتناع، كذلك يقتنعون بنقيضه دون اقتناع.. إنهم لا يقتنعون مهما اقتنعوا.

إن الناس لا يقتنعون ولا يرفضون الاقتناع، أو يعجزون عن الاقتناع، ولكنهم يكونون هذا أو هذا، ولكنهم يكونون في مكان المقتنعين أو في مكان العاجزين عن الاقتناع أو في مكان الرافضين للاقتناع.

إن الناس لا يفعلون شيئاً لمحاسبة اقتناعهم أو لتصحيحه أو للتأكد منه، بل للاعتذار عنه، بل للتحدث عنه، بل لتسويغه. إنهم لا يحاولون أن يقتنعوا ولكن أن يقتنعوا بأنهم قد اقتنعوا.

إن الطبيعة لم تهب البشر عقولهم لكي يحاسبوا أنفسهم، ولكن لكي يبرروها، لكي يعتذروا عنها. لقد وهبت العقل لكي تستطيع الخروج عليه، لا لكي تتقيد به.

*

إنه لأقسى عذاب أن تحاول فهم الناس، أن تحاول فهم ذكائهم أو سلوكهم أو حياتهم، أو مستوى محافظتهم على كرامتهم وعلى احترامهم لأنفسهم.. أن تحاول ذلك بالمنطق.

إنه لأقسى عذاب أن تحاسب الناس بما يقولون ويعتقدون هم.. أن تحاسب ذكاءهم وسلوكهم بما يقولون ويعتقدون هم.. أن تحاسبهم.

إنه لأقسى عذاب أن تحاول فهم الناس، أو ضبطهم، أو إخضاعهم لمقاييس أو لمستويات من الذكاء، أو الأخلاق، أو القوة أو الشجاعة.. أن تحاول ضبطهم أو فهمهم بمقاييس ومستويات إنسانية، أو بمقاييس ومستويات من أي نوع..

إنه لأقسى عذاب..

إنه لأقسى عذاب أن تنتظر من الناس أن يكونوا أذكياء أو شجعاناً أو متوقرين في ممارستهم لأنفسهم، في ممارستهم لأربابهم ومعلميهم وزعمائهم، ولمذاهبهم وصلواتهم..

إنه لأقسى عذاب أن تنتظر من الناس..

إنه لأقسى عذاب أن تنظر إلى الناس بعمق حينما يمارسون آلهتهم وزعماءهم ومعلميهم، أو حينما يمارسهم زعماؤهم ومعلموهم وآلهتهم.

إنه لأقسى عذاب أن تكون مبصراً لما ترى، مفسراً لما ترى، ناقداً لما ترى، محاكماً لما ترى، سائلاً عما ترى.

إنه لأقسى عذاب أن ترى السادة والأتباع يمارس بعضهم بعضاً.

إن الإنسان مهما كان مبدعاً، مهما كانت موهبته المبدعة فإنه في ممارسته لنفسه ولحياته، ولسلوكه، ولعقله، في ممارسته لزعمائه ومعلميه وأربابه، ولمذاهبه وطقوسه سيظل صغيراً صغيراً.. سيظل صغيراً إلى حد التعذيب لمن يريد أن يفهمه، أو يحاسبه، أو ينظر إليه بعمق ومساءلة وتحسس.. لمن يريد أن يراه مستوى من المستويات، مستوى ما. إن الإنسان سيظل صغيراً في ذكائه وفي ممارسته لنفسه، مهما كانت كبيرة مزاياه الخالقة. إنه لمحتوم أن يظل الإنسان صغيراً كإنسان، مهما أصبح كبيراً كخالق.

*

ومهما كان افتضاح الإنسان، مهما كان افتضاحه شاملاً وعالمياً، فإنه لا مثيل لافتضاحه في شموله وعالميته ووقاحته، حينما يمارس أربابه وطغاته ومعلميه، حينما يطيعهم، ويهتف لهم، ويتصاغر تحت كبريائهم، حينما يجن بجنونهم، حينما يسير وراء كل حماقاتهم دون أي ذكاء أو وقار.

حينما يحولهم إلى تفاسير للتاريخ والحياة والناس والمستقبل.. حينما يحولهم إلى تفاسير معصومة خالدة.. حينما يتحول إلى تفسير حزين لطموحهم الشرير، لعاهاتهم الباهظة.

حينما يشاتم ويعادي كل الناس، كل المذاهب والآراء والنظم من أجلهم.

حينما يفضلهم على كل الزعماء والمعلمين والأرباب الآخرين..

حينما يعجز أن يجد فيهم عيباً أو ضعفاً.. حين لا يجد في خصومهم أو منافسيهم فضيلة من أي نوع.. حينما يجد في خصومهم ومنافسيهم كل العيوب والضعف.

*

إني لا أطيق أن أرى، أن أسمع، أن أعرف.. إني لا أطيق ما أرى، ما أعرف، ما أسمع.. إني لا أطيق.

إني أتعذب، أتعذب.. إني أتعذب.

إنه لا حد لوحشية عذابي حينما أرى السادة يمارسون الأتباع، وأرى الأتباع يمارسون السادة..

إنه لا حد لوحشية عذابي، حينما أرى السادة بجنون، والأتباع يدفعون كل تكاليف الجنون..

إنه لا حد لوحشية عذابي.



حينما تحاكم السحاب

«إنك حينئذٍ سترفض منطق الغمامة التي تسقط مطراً على بلد لا يحتاج إلى المطر، أو يعاقبه المطر.. التي تسقط سيلاً على مدينة تغرقها الدموع، ثم تأبى ـ أي الغمامة ـ أن تزور بلداً آخر يلهث ظمأ إليها، ولا يحيا إلا بها، ويتأرق شوقاً إلى زيارتها.

إنك حينئذٍ سترفض منطق هذه الغمامة وتحتج عليها.. إنها سوف تعذبك بوقاحتها، وبلادتها، وعصيانها البذيء، أكثر مما يفعل لك ذلك منطق طاغية مسعور يسحق مجتمعاً ما.. يسحق مجتمعاً تحبه.

إن لذلك الطاغية الفاجر أعذاره، واحتياجاته، وضروراته إلى أن يسحق ويبطش، مهما كانت أعذاراً واحتياجات وضرورات حمقاء، أو توزع ذاتها توزيعاً سفيهاً.. في أن تمنع بلا بخل، وتجود بلا كرم.. هي كاذبة، أو عدوانية. أما الغمامة فليس لها أي عذر أو أية ضرورة في أن تعاقب بلا غضب، وتثيب بلا رضا.. في أن تعاقب بلا إرادة عقاب، وتثيب بلا إرادة للثواب..».

*

لا تعاني، وإنما توجد فقط

تمارس وحدات الطبيعة بعضها بعضاً بالتناقض والتصادم، وبالتلاؤم والتجاذب والمصافحة دون أن تتعذب بمشاعر الغضب أو الرفض أو الاحتجاج.. دون أن تعاني من الرؤية والاشمئزاز أو الشعور بالغربة.. كما تمارس ذاتها بنفس المستوى.

إن أي شيء في هذا الكون مثل كل شيء فيه.. إن أي شيء في هذا الكون لا يعاني شيئاً من مشاعر الغربة، غربة الكينونة أو الأخلاق، أو الممارسة أو المنطق.. إنه متلائماً متاسقاً مثله متناقضاً متصادماً.

إن شيئاً ما، لا يعاني من تفاهته أو من ضآلته أو من حقارته أو من عذابه أو من ذنوبه، أو من تفاهة الأشياء حوله، أو من ضآلتها أو من حقارتها، أو من عذابها أو من ذنوبها.

إن شيئاً ما، لا يعاني.. إن الأشياء لا تعاني.. إنها توجد فقط.

إن أصغر وأحقر الأشياء يعيش ذاته مثل أكبر وأعظم الأشياء.. إنه يعيش في مواجهة أكبر وأعظم الأشياء.. إنه يعيش في مواجهة أقبح وأوقح الأشياء، دون أن يعاني مما يعيش ويواجه، دون أن تعذبه ضآلته أو حقارته أو ذنوبه.. دون أن تعذبه وقاحة أو حقارة أو ذنوب ما حوله.. دون أن تعذبه مشاعر الرؤية الدميمة الكريهة الفاضحة، أو مشاعر الغربة: غربة الذات والكينونة، أو غربة الممارسة، أو غربة الأخلاق والمنطق.

إنه لا شيء في هذا الكون يعاني من عذاب الشعور بالغربة، لا غربته هو في الأشياء، ولا غربة الأشياء فيه.. لا غربة ذاته فيه، ولا غربته هو في ذاته، ولا غربة ذاته في ذاته.. لا غربة سلوكه أمام منطقه، ولا غربة منطقه أمام سلوكه.

إنه لا شيء في هذا الكون يعاني من غربة الرؤية، لا رؤية الذات ولا رؤية الأشياء حول الذات.. الأشياء المتعاملة مع الذات.

إنه لا شيء يعاني من غربة النموذج، لا نموذج الذات، ولا نموذج الأشياء المواجهة للذات، المصادمة للذات.

إنه لا شيء يعاني.. إن الأشياء لا تعاني.. إن الأشياء توجد فقط.

إن كل شيء في هذا الكون يمارس أبشع وأكبر الدمامات والآثام، وتمارس فيه وضده، وبه ومعه وحوله؛ دون أن يقتله الشعور بالعار أو بالذنب أو بالاستبشاع..

إنه لا يعيش مستوى من مستويات الغربة فيما يمارس هو، ولا فيما يمارس داخل عينيه.. إنه لا يصطدم بذاته ولا بالأشياء حوله مهما تصادم.. إنه لا يملك موهبة التصادم مهما عاش ذات التصادم.. إنه لا يعلم ولا يرى ولا يشعر.. إنه يتصادم مهما تحطم بالتصادم.. إنه لا يملك الإحساس بأنه غريب عن أي شيء، عن أية وقاحة، عن أية بلادة، عن أية دمامة، أو بأن أي شيء غريب عنه. إنه يملك كل التلاؤم حيث لا يوجد شيء من التلاؤم، حيث توجد حقيقة كل التنافر.

إن النهر؛ هذا القديس، القديس، هذا الجواد الفدائي الذي كأنما هو اعتذار سخي تقدمه الطبيعة بشهامة إلى الحياة، لتكفر به عن قحط الآلهة وظمئها وبخلها.. هذا الكائن المتدين الذي كأنما هو دموع الأرض تذرفها رثاءً واستغفاراً واستقباحاً لما يعيش فوقها من الفضائح والخطايا والدمامات، من الآلام والأحزان الباهظة.

إن النهر هذا ليمارس ذاته وسلوكه وعلاقاته بغيره، علاقاته بأي شيء، كما يمارس ذاته وسلوكه وعلاقاته أفسق الفساق، وأطغى الطغاة، وأكبر المجانين، دون أن يعاتب نفسه، أو يعتذر إلى ضميره، أو يهاب التحديق في علاقاته وممارساته. إن أفسق فاجر لو عاش أخلاق النهر ومنطقه لعاتب نفسه ولو أحياناً، أو لكان احتمالاً أن يعاتب نفسه. ولكن النهر لا يفعل ذلك ولا يستطيع أن يفعله.

إنه لا يعاني من الرفض، أو من الاحتجاج، أو من الشعور بالغربة.. بغربته في الأشياء، أو بغربة الأشياء فيه. إنه نهر.. إنه وحدة من وحدات الطبيعة.

ووحدات الطبيعة لا تعاني الغربة، لا تعاني التناقض أو التصادم، أو الرؤية أو الشعور بالذنب، مهما عاشت ذلك، مهما عاشها ذلك.. إنها لا تعاني من الرفض أو الاحتجاج.. إنها لا تعاني من الغربة، لا من غربتها هي في الأشياء، ولا من غربة الأشياء فيها.

إن الشعور بالغربة شعور بالتصادم، بالتناقض، بالبعد، وبالعجز عن الفهم. ولكن الطبيعة لا تعيش الشعور بالتصادم أو بالتناقض أو بالبعد أو بالعجز عن الفهم مهما عاشت ذلك، مهما عاشها ذلك. إنها لا تعاني ما تعيش وتواجه.. إنها ليست إنساناً.

إن الإنسان هو وحده الذي يعاني ممارساته ومواجهاته.. إنه هو وحده الذي يعاني ذنوبه وأخطاءه، وذنوب ما حوله وأخطاءه.

أنت لست دائماً إنساناً

أما أنت حينما ترفض أو تعجز أن تكون نهراً.. حينما تعجز أو ترفض أن تعيش نفسك وتعيش ما حولك، أن يعيش ما حولك نفسه. أن يعيشك، بمنطق النهر، بأخلاق النهر، برؤية النهر، بأحاسيس النهر.

أما أنت حينما ترفض أو تعجز أن تكون نهراً، فستصبح حينئذٍ إنساناً يحمل كل عذاب الإنسان، كل غربة الإنسان، كل معاناة المواجهة والممارسة في الإنسان.

إنك لست دائماً إنساناً.. أنت دائماً طبيعة.. أنت وحدة من وحدات الطبيعة..

أنت أحياناً حجر، وأحياناً شجرة، وأحياناً نهر.. نهر جاف، أو نهر ممتلىء..

أنت أحياناً حشرة، وأحياناً حيوان.. حيوان جميل أو حيوان دميم، حيوان مفترس أو حيوان مسالم.

إنك لست دائماً إنساناً.. أنت دائماً وحدة من وحدات الطبيعة، تمارس الطبيعة كما تمارسك الطبيعة، تمارس نفسك كما تمارس الطبيعة نفسها، تمارس الطبيعة كما تمارس وحدات الطبيعة الطبيعة.

أنت لست دائماً إنساناً، ولكنك دائماً طبيعة. أنت طبيعة أكثر منك إنساناً..

إنك لا تعاني من الغربة.. إنك لا تجد، لا تشعر، لا ترى أنك غريب عن الكون.. أو عن نفسك، أو عن رؤاك، أو عن ممارساتك وعلاقاتك واحتياجاتك، أو عن جوعك.. أو أن الكون غريب عنك. إنك لا تعاني.. إنك طبيعة، لا إنسان.

إن الطبيعة فيك أكثر وأقوى وآصل من الإنسان فيك.. إن الطبيعة فيك أكثر وأقوى وآصل.

إنك لا تعيش أمام الكون، أو أمام نفسك، أو أمام ممارساتك لنفسك، أو أمام ممارسات الكون لنفسه.. إنك لا تعيش أمام شيء من ذلك شيئاً من مشاعر الغربة، أو من منطقها، أو من رؤاها، إلا بقدر ما يعيش ذلك أي حجر، أي نهر، أية نبتة. إنك لست غريباً أمام الأشياء.. إن الأشياء ليست غريبة أمامك. إنك شيء من الأشياء.. إنك لست إنساناً..

إنك لهذا لا تعاني من الرفض، من الاحتجاج، من الرؤية.. لا تعاني من غربتك عن الكون، ولا من غربة الكون عنك.. لا تعاني من العجز عن الفهم، عن التقبل، عن الغفران.. لا تعاني من البعد بينك وبين الأشياء.

لهذا لا تتعذب كما يتعذب الإنسان.. لهذا لا تصرخ استفظاعاً أو رفضاً لذاتك، لما حولك.

ولكنك حينما تصبح إنساناً، فسوف تصبح غريباً عن كل شيء، وسوف يصبح كل شيء غريباً عنك. إن غربتك حينئذٍ لا مثيل لها في وحشيتها.. إنها غربة الإنسان عن الكون، عن نفسه، عن كل الأشياء.. إنها البعد عن الكون وعن النفس بلا حدود، بلا مسافات.

إنك حينما تصبح إنساناً فستصبح بعيداً عن كل شيء، بعداً لا يقاس أو يحدد بالمسافات.. إنه بعدٌ أكبر من كل المسافات، وأبعد من كل الأبعاد.. إنه بعد الإنسان عن الكون.. إنها غربة الإنسان عن الكون، وفي الكون.. إنها البعد بلا مسافات ولا حدود عن النفس وعن كل شيء.. إنها الرفض والاحتجاج، الرفض لكل شيء والاحتجاج على كل شيء.. إنها رفض العقل والشعور واحتجاجهما، رفضهما لكل كينونة وممارسة ورؤية، واحتجاجهما على كل كينونة وممارسة ورؤية.

إن بُعد الإنسان عن الكون، بُعده النفسي والفكري والأخلاقي، أبعد من كل ما في الطبيعة من أبعاد.. إنه أكثر الأبعاد رهبة، وهولاً، وعمقاً، وانصعاقاً.. إنه البعد الذي يزداد كلما خطوت فيه، كلما فكرت فيه، كلما حاولت تقريبه، تقصيره.

إنك إذا أصبحت إنساناً فستعيش بُعدين لا مثيل لبعدهما وقسوتهما: بعدك عن ذاتك، وبعدك عن الكون الذي تعايش وتواجه.. إنك إذا أصبحت إنساناً فسيكون بعدك عن ذاتك ورفضك لها، أعظم من بعدك عن كل ما في الكون من ممارسات ووقاحات، ومن رفضك له.

إنك حينما تصبح إنساناً سيتحول كل شيء إلى تعذيب لك، إلى خروج عليك.. سيتحول حينئذٍ كل شيء إلى تحدٍ، إلى سباب، إلى نقيض لعقلك، لنماذجك، لأمانيك، لأشواقك، لتطلعاتك، لاحتياجاتك.. سيتحول كل شيء إلى تعذيب لك، إلى ابتعاد عنك.

إنك حينئذٍ ستجد كوناً لا تستطيع أن تفهمه، أو تتقبله، أو تغفره، أو تسالمه، كما لا تستطيع أن تعجز أو تكف عن رؤيته.. عن الإحساس به، عن المبالاة به، عن التفكير فيه.

سيكون محكوماً عليك بأن يسقط في عينيك وفي أحاسيسك وفي تفكيرك كون يناقضك كمنطق، ويناقضك كأخلاق، ويناقضك كحياة، ويناقضك كنموذج، ويناقضك كرغبة وشهوة وممارسة.. إنه كون يناقضك كإنسان.

إن كل شيء سيتحول حينئذٍ إلى عقاب لك.. إلى عقاب لعقلك، ولأخلاقك، لمثلك، لرؤياك، لأمانيك. سيعاقبك حينئذٍ كل شيء..

ستعاقبك عيناك، منطقك، مشاعرك، ذكاؤك، حماسك.. سيعاقبك صدقك، حبك، شرفك.. سيعاقبك حينئذٍ نبلك، عدلك، إخلاصك.. ستعاقبك كل مزاياك.. وستعاقبك كل رذائلك.

سيتحول حينئذٍ كل شيء إلى عقاب لك..

سيعاقبك حينئذٍ كل شيء..

سيعاقبك كل شيء بلا فرار، بلا رحمة، بلا عفو عنك..

إنك حينما تصبح إنساناً ستجد كل شيء مذنباً وضالاً وبليداً، ومشوهاً وبذيئاً.. ستجد حينئذٍ القمر.. ستجد السحاب.. ستجد النجم مذنباً وضالاً وبليداً، ومشوهاً وبذيئاً.

إنك حينئذٍ ستجد النهر، ستجد النهر.. هذا الإله الصالح، هذا النبي، هذا العطاء والسخاء.. ستجده مذنباً وضالاً وبليداً، ومشوهاً وبذيئاً.

إنك ستجد كل شيء فاسقاً وظالماً، ومجنوناً وعدوانياً حينما تصبح إنساناً. إن كل ذنوب الأشياء وأخطائها، ودماماتها وأحزانها، وتشوهاتها وبلاداتها ستسقط عليك.. ستعيش فيك إذا أصبحت إنساناً..

إنك حينئذٍ ستعيش ممارساتك كعدوٍ داخلي، كنقيض لك.

الإنسان وحده الشروط

إن الإنسان اشتراط.. إنه شروط غير موجودة.. إنه شروط لا يمكن أن تكون موجودة.. إنه شروط عقلية ونفسية وأخلاقية.

إن الإنسان شروط على نفسه، وعلى كل شيء يعامله أو يراه، أو يتصوره أو يريده، أو يفكره. إن الإنسان لا يساوي أكثر مما تساويه شروطه على نفسه وعلى ما حوله. إن مستوى أي إنسان ليس إلا مستوى شروط.

إن كل الوجود بلا شروط. إن الإنسان وحده هو الشروط. إنه يتصور الشروط ويتمناها، ويحتاج إليها ويفهمها، ويتحدث عنها ويحققها، ويغنيها ويحددها، ويحولها إلى آلهة وأديان، وتعاليم وقوانين، وإلى أشعار وأغنيات.. حتى بكاؤه وأحزانه، إنها تعبير عن الاشتراط، عن شروطه على ذاته وعلى الوجود الذي يواجه ويمارس. إن البكاء والحزن أسلوبان من أساليب الاشتراط الذي يعيشه الإنسان ويتفرد به على كل وحدات الطبيعة.

إن الإنسان كما يشترط على الطبيعة التي يعيشها أو يراها، أو يتصورها ويتمناها، كذلك يشترط على ذاته، على جسده، على جوعه واحتياجاته وضروراته.. على مجيئه وذهابه.. على موته وحياته.

إنه يريد لكل ذلك شروطاً يتخيلها ويفكرها، ويتعذب لها وبها. ولكن حتى جسد الإنسان، حتى جوعه وضروراته واحتياجاته، حتى مجيئه وذهابه، موته وحياته.. حتى كل ذلك، إنه بلا شروط.. إنه يجيء بلا شروط كما تجيء العلة، كما تجيء الحشرة، كما يجيء التشويه، كما تجيء النبتة أو الزهرة أو النهر.. إنه يجيء بلا شروط كيفما جاء.

إن الإنسان مهما كان شروطاً، مهما كان شروطاً صعبة ومعقدة، فإن وجوده ومجيئه دائماً بلا شروط.

إن الإنسان هو وحده المشترط في هذا الكون، المشترط على هذا الكون، المشترط على ذاته. إنه لا يوجد ما هو على شروطه، حتى أعظم الأشياء، حتى أفضل الأشياء، حتى أجمل وأنبل الأشياء. إنها ليست على شروطه.. حتى الشمس، حتى القمر، حتى الجمال، حتى الحياة، حتى الأنهار.. حتى كل هذه ليست على شروط الإنسان. إنها رفض وقح أليم.. إنها رفض عدواني لشروطه.. إنها فسوق، زندقة في كل تفسير لشروط الإنسان، لمستويات شروطه.

إن الإنسان شروط محكوم عليها بالنفي عن هذا العالم، محكوم عليها بالنفي حتى ذاته.

مطالبة بما لن يوجد

إن عذاب الإنسان في أنه شروط، وفي أنه لا يجد هذه الشروط، لا يجدها في ذاته ولا فيما حوله. إنه لا يستطيع ألا يشترط، ولا يستطيع أن يجد ما يشترط. إنه محكوم عليه بما لا يستطيع، وبما لا يستطيع أن يتخلى عنه.

إنك إذا أصبحت إنساناً، ورفضت أو عجزت أن تكون نهراً أو غمامة.. إنك إذا أصبحت إنساني الرؤية والمنطق، والحماس والشعور، والتحديق والشروط، فأنت محكوم عليك بالنفي عن هذا العالم وعن ذاتك أيضاً.. إنك حينئذٍ مطرود بقسوة وشراسة.. إنك مطرود حينئذٍ برؤيتك ومنطقك، وحماسك وشعورك، وتحديقك وشروطك.. إنك إذن مطرود بكل أجهزة ووسائل وأساليب الطرد، مطرود بأقسى وأشمل هذه الأجهزة والوسائل والأساليب.. إنك مطرود بكل معاني الطرد، عن معاني الترحيب.

إنك حينئذٍ مطرود طرداً ذاتياً.. إنك حينئذٍ مطرود بذاتك عن ذاتك، عن وجودك.

إنك حينئذٍ تتعذب بأقسى وأشمل أجهزة ووسائل أساليب التعذيب.. إنك حينئذٍ تتعذب إذا رأيت، وإذا فكرت، وإذا تحمست، وإذا شعرت، وإذا حدقت، وإذا نقدت، وإذا أحببت، وإذا أخلصت، وإذا صدقت، وإذا مارست ذاتك، وإذا مارست ما حولك. إن كل شيء في ذاتك وفيما حولك حينئذٍ يقاتلك، يتفجر فيك، يتحول إلى انفجارات داخل ذاتك.

إنك حينئذٍ الكائن الصغير، المكان الحزين الذي يتفجر فيه كل الكون، كل الأشياء تفجراً دائماً، تفجراً يكرر نفسه، يكرر عمليات التفجر دون أن يستهلك ذاته.

إن الاشتراط هو رفض الوجود بكل صيغه الموجودة، ومطالبته بصيغة غير موجودة، بصيغة لن تكون موجودة. إنه هو رفض الذات، رفض الجسد، بكل صيغهما الموجودة، ومطالبتهما بصيغ لن تكون موجودة.

إن الاشتراط رفض مطلق للوجود بكل صيغه، بكل صيغه الموجودة وصيغه المفترضة أو المشترطة، لأن الإنسان يرفض الوجود بلا فكرة وحافز وغاية.. إنه يرفض أن يوجد شيء بلا فكرة وحافز سابقين خارجين، وبلا غاية متصورة، ومقصودة، ومرادة، ومخطط لها.

إن الإنسان يرفض الوجود لذاته، يرفض الوجود للوجود، يرفض الوجود بلا خطة سابقة، بلا خطة تبحث عن نهاية، عن تفسير، عن غرض فيه معنى الحاجة والشهوة والجوع.

إنه لا يتصور أن يوجد شيء إلا بالأسلوب الذي يوجد به المنزل.. إنه لا يوجد إلا بفكرة وحاجة سابقتين، وبغاية لاحقة.

إنه إذن لن يتصور أو يتقبل أن يوجد شيء ابتداء.. أي أن يوجد شيء أول.. وهذا يعني رفض كل وجود.

إنه غير ممكن أن يكون كل الوجود، أن يكون مبدأ الوجود أو الوجود الأول بفكرة أو بحافز أو بخطة أو لغاية، أو أن يكون له تفسير، أو مدبر آخر، أو مدبر خارجي، أو مدبر سابق.

إن معنى هذا أن يكون الشيء موجوداً قبل نفسه، قبل أن يكون موجوداً.. إن معناه أن يخطط الوجود الذي لم يوجد، للوجود الذي سوف يوجد. إن هذا يعني أنك إذا أصبحت إنساناً فلن تستطيع أن تتقبل مبدأ الوجود.. لن تتقبل أن يوجد شيء.. لن تتقبل أن يكون وجود أول.

لو أصبحت إنساناً..

إنك إذا أصبحت إنساناً، فأنت ترفض أن يوجد الموجود كما هو موجود، بل فأنت ترفض أن يوجد أي وجود بكل الصيغ، بكل الاحتمالات والاشتراطات. إنك حينئذٍ ترفض مبدأ الوجود، فكرته، احتماله، مهما كانت صيغته؛ لأن الوجود في منطقك مرفوض بلا فكرة وحاجة سابقتين خارجيتين، وبلا غاية مقصودة. والوجود الأول لا يمكن أن يكون كذلك، ولا وجود بلا وجود أول.

أنت محكوم عليك بالرفض والاحتجاج والغثيان الدائم الأليم، لو أصبحت إنساناً.. محكوم عليك بالرفض لكل شيء، والاحتجاج على كل شيء، والغثيان من كل شيء.

إنك سترفض ـ لو أصبحت إنساناً ـ الغمامة التي تسقط مطراً على بلد لا يحتاج إلى المطر، على مدينة تغرقها الدموع، ثم تأبى ـ أي الغمامة ـ أن تزور بلداً آخر يلهث ظمأ إليها، ولا يحيا إلا بها، ويهتف لطلعتها..

إنك سترفض لو أصبحت إنساناً هذه الغمامة، وتحتج عليها.. إنها ستعذبك بوقاحتها وبلادتها، وعصيانها البذيء، أكثر مما يفعل لك ذلك شر طاغية مسعور يسحق مجتمعاً ما، يسحق مجتمعاً تحبه.

إن لذلك الطاغية الفاجر أعذاره واحتياجاته وضروراته ـ مهما كانت حمقاء أو عدوانية أو كاذبة ـ إلى أن يسحق ويبطش. أما الغمامة فليس لها أي عذر، أو أية ضرورة في أن توزع نفسها توزيعاً سفيهاً، في أن تمنع بلا بخل، وأن تعطي بلا كرم.. في أن تعاقب بلا غضب، وتثيب بلا رضاء.. في أن تعاقب بلا عقاب، وتثيب بلا ثواب.

إنك ـ لو أصبحت إنساناً ـ لا بد أن ترفض منطق أعضائك التي تجوع وتتغذى.. تجوع

وتتغذى، تتغذى وتجوع، لتعذبك وتلوثك وتشوهك بجوعها وتغذيها، بتغذيها وجوعها، بجوعها ثم بتغذيها.. مثلما ترفض منطق الوحش الذي يفترسك، أو منطق اللص الذي يهاجمك.

إن جوع الأعضاء وممارستها لجوعها، لأوقح وأبذأ، وأظلم وأغبى منطق في هذه الحياة.. إن ذلك لأكثر الأشياء افتضاحاً. إن أعضاءك تجوع لتتغذى، تتغذى لتجوع. أي شيء أكثر من ذلك وقاحة ووحشية وعدواناً عليك.. أي عدو لك ولكرامتك، واحتشامك ومنطقك، أكبر من أعضائك..؟

إنك إذا أصبحت إنساناً، فسترفض منطق ولادتك وصحتك بالعنف الذي ترفض به منطق موتك ومرضك.. إنك سترفض منطق الذكاء والجمال، أو المنطق الذي أبدع الذكاء والجمال، أو المنطق الذي ينتهي إليه الذكاء والجمال بكل التصميم الذي ترفض به منطق الغباء والدمامة، أو المنطق الذي أبدع الغباء والدمامة، أو المنطق الذي ينتهي إليه الغباء والدمامة.

إنك حينئذٍ سترفض منطق أجمل شيء كما ترفض منطق أردأ شيء.. إنك سترفض منطق أي شيء كما ترفض منطق أي نقيض له.

إنك حينئذٍ لن تواجه كوناً تقبل منه وترفض.. تفهم منه وتعجز عن الفهم.. تغفر لأشياء فيه، ويستحيل عليك الغفران لأشياء أخرى. إنك ستواجه كوناً منطق أي شيء فيه، مثل منطق كل شيء فيه.. بداية أي شيء فيه، مثل بداية كل شيء فيه.. غائية أي شيء فيه، مثل غائية كل شيء فيه.. حوافزه الدينية والأخلاقية، لا تختلف في نبلها أو انحطاطها، في ذكائها وغبائها، في قوتها وضعفها، في حبها لك وبغضها للشيطان.

إنك حينما تصبح إنساناً.. حينما تصبح في مستوى الإنسان، في احتمالاته القصوى، في أكثر حدوده بعداً.. إنك حينئذٍ ستجد أنك قد أصبحت غريباً وحيداً، في كون لا تستطيع أن تفهمه أو تسوغه، أو تغفره أو تسالمه؛ كما لا تستطيع أن تفارقه، أو أن تكف عن رؤيته، أو عن الشعور، أو عن الممارسة له، أو عن محاورته.. إنك الغريب الذي لا يستطيع أن يغادر غربته.. إنك الوحيد الذي لا يستطيع أن يستطيب وحدته.

إنك حينئذٍ ستواجه كوناً لا يمكن أن يجيء على قياسك، على شروطك، ولا يمكن أن تجيء أنت على قياسه، أو أن تتنازل عن شروطك لأنه هو بلا شروط. إنك ستواجه كوناً لا تستطيع أن تغفر له منطقه أو كينونته، ولا يستطيع هو أن يتخطى منطقه أو كينونته.

إنك ستجد كل شيء مذنباً.. ستجد الشمس، القمر، النجوم، الأنهار، الحقول، الغمام، الصباح، التاريخ، آباءك، آباء الآخرين، جسدك، أجساد آبائك، أجسادهم.

ستجد كل ذلك مذنباً حينما تجد معذباً أو مشوهاً، حينما تجد في هذا الكون أي عذاب، أي تشويه.. ستجد حينئذٍ كل شيء مذنباً.

إنك ستجد كل شيء معذباً مشوهاً حينما تجد شيئاً معذباً أو مشوهاً.

إنك ستجد الشمس عمياء خرساء حينما تجد أعمى أو أخرس..

ستجد الزهر يبكي ويحزن حينما تجد من يحزن ويبكي..

ستجد كل الناس مسجونين أو مطاردين أو موتى، حينما تجد إنساناً واحداً مسجوناً أو مطارداً أو ميتاً..

ستجد أي شيء في الكون موجوداً في كل الكون.. ستجد كل الكون مسؤولاً عن كل شيء في الكون.. ستجد بعض الكون هو كل الكون.. ستجد أي إنسان هو كل إنسان.. ستجد ذنب الزلزال ذنباً للنهر وللحقل وللشمس، ستجده ذنباً للإنسان، للتاريخ.

إنك ستجد تشويه أي عضو، هو تشويه لكل عضو.. ستجد خطيئة أي كائن، هي خطيئة لكل كائن.. ستجد أي موقف، هو كل موقف.

إنك حينئذٍ لن تجد موقفاً واحداً مسؤولاً وحده، مسؤولاً وحده عن ذنوبه، عن أخطائه. إن ذنوبه وأخطاءه، هي ذنوب وأخطاء كل المواقف الأخرى.

إن ذنوب وعاهات الحشرات، هي ذنوب وعاهات البشر. وإن ذنوب وعاهات البشر، هي ذنوب وعاهات الأرض. وإن ذنوب وعاهات الأرض، هي ذنوب وعاهات الشمس. وإن ذنوب وعاهات الشمس، هي ذنوب وعاهات كل الكون. إن ذنوب وعاهات أي شيء، هي ذنوب وعاهات كل شيء. إن كل الذنوب والعاهات هي ذنوبك وعاهاتك.. إن ذنوبك وعاهاتك هي كل الذنوب وكل العاهات.

إن كل شيء موجود في ذاتك، إن ذاتك موجودة في كل شيء. إن كل شيء يعيشك، وإنك لتعيش كل شيء حينما تصبح إنساناً.. حينما تصبح في مستوى الإنسان، في احتمالاته القصوى، في أبعد احتمالاته عمقاً.

إن الإنسان هو أعظم جهاز استقبال في الكون.. إن عذابه في أنه أعظم جهاز استقبال.. إنه أعظم جهاز تعذيب لذاته.

ما أقسى غربتك ووحدانيتك أمام وجودك وأمام الوجود حولك، حينما يتحول كل شيء تراه أو تعلمه إلى سؤال حاد مقاتل لك: لماذا أنا.. لماذا أنا هنا.. لماذا أنا هكذا.. من أين، إلى أين.. من الفاعل.. من المسؤول.. من المستفيد..؟ دون أن تجد جواباً، دون أمل أن تجد جواباً.

ما أقسى غربتك.. ما أقسى وحدانيتك في ذاتك، فيما حولك.

ما أقسى غربتك، ما أقسى وحدانيتك حينما تصبح إنساناً.

ولماذا تكون إنساناً..؟

إن أشمل وأدوم الآلام هي الآلام الفكرية. إن الآلام الفكرية هي آلام بلا حدود، بلا مقاييس. إن آلامك الفكرية لا تساوي آلامك.. إنها تساوي معنى كونك إنساناً.. تساوي كونك مفكراً ومبصراً، ومتخيلاً ومتوقعاً، ومتجاوزاً لكل ما وجد ولكل ما سوف يوجد.. متجاوزاً لكل ذاتك ولكل عالمك بلا حدود ولا مقاييس. لهذا كانت الآلام الفكرية هي أشمل وأدوم وأقسى الآلام.. لهذا كان الإنسان هو أشمل وأدوم وأقسى الكائنات آلاماً.

إنه هو وحده الكائن الذي يتألم بالفكر.. إنه هو وحده الكائن الذي يتألم بلا حدود.. الذي يتألم بأكثر من آلامه، بأكثر من كل الآلام الموجودة.

ولكن هل يمكن أن تكون إنساناً..؟

ولماذا تكون إنساناً..؟

إنك طبيعة.. إنك وحدة من وحدات الطبيعة. لهذا أنت تمارس ذاتك ووجودك، كما تفعل الطبيعة بلا رفض، بلا احتجاج، بلا حيرة، بلا عذاب؛ مهما عشت العذاب، مهما عاشك العذاب.

إنك لو كنت إنساناً لتحولت إلى آلام كونية. وهل تطيق أو تريد أن تكون آلاماً كونية..؟

إنك لو كنت إنساناً لتألمت بكل آلام الكون، وبآلام ليست في الكون. إن آلام الإنسان أوسع من آلام الكون لأن شروطه أكبر من كل ما في الكون، لأن شروطه فوق كل مستوى كوني.

إني أبارك لك أن تظل طبيعة، ألا تتحول إلى مستوى إنسان.

إني لا أبارك لك أن تصبح إنساناً، تتعذب بكل ما في ذاتك وأعضائك وجوعك، وممارساتك واحتمالاتك، بكل ما في الكون، بكل ما في الناس، بكل ما في المذاهب

والنظم، والأديان والمعتقدات، بكل ما في التاريخ، بكل ما في الزعماء والمعلمين.. تتعذب بكل ما في ذلك من عبث وغباء، وتلوث ومظالم، وحقارات وأحزان، ومن بدايات ونهايات أليمة وعقيمة، متماثلة في حوافزها وغاياتها، في منطقها وتفاسيرها.

إني لا أبارك لك أن تصبح إنساناً حاد الحساب والعذاب والقصاص..

إني لا أبارك لك أن تصبح إنساناً يذهب يحاكم السحاب على ذنوبه وسفاهاته، وعلى كرمه الذي لا يعني في حوافزه ونهاياته أفضل مما تعنيه ذنوبه وسفاهاته.

إني لا أبارك لك أن تصبح إنساناً، إني أبارك لك أن تظل طبيعة.

*

ومهما أصبحت إنساناً، فإنك ستظل طبيعة..

إن الإنسان لا يستطيع أن يكون إنساناً، ولكنه يستطيع أن يكون طبيعة فيه إنسان. فالإنسان ليس هو الذي يصبح كل الإنسان.. ليس هو الذي يصبح كله إنساناً أو كل ما فيه إنساناً.

إن الإنسان هو الذي يظل طبيعة فيه إنسان، أو فيه بعض الإنسان، أو فيه بعض مستويات الإنسان.

إن أحداً لا يستطيع أن يصبح إنساناً.. أن يصبح كل الإنسان.. أن يصبح كله إنساناً. إن أعظم وأسمى إنسان هو الذي فيه قليل من الإنسان.

الإنسان رفض مطلق، ولا يوجد من يستطيع أن يكون رفضاً مطلقاً.

إن الإنسان رفض مطلق، لأن كل تقبل.. لأن أي تقبل هو نقيض للإنسان، نقيض لكل صيغه وتفاسيره.

إن تقبل أي شيء، أي وجود، أي مستوى من مستويات الوجود، نقيض لكل الصيغ والتفاسير والمستويات الإنسانية.

إن تقبل أية حالة من حالات الوجود والكينونة.. إن تقبل أي موجود أي وجود يناقض منطق الإنسان، يناقض كرامته وشرفه وكبرياءه، يناقض نظافته وطموحه، يناقض تفسيره لنفسه، تفسيره للأشياء، تفسيره لمعنى وجوده، لمعنى قبوله لوجوده.

إن قبول الإنسان لذاته، لأعضائه، لكل ما فيها من همجية ووحشية وجوع، ومن فناء وخوف وجبن ووقاحة، ومن أدران لا نفاد لها؛ لهجاء لكل مستويات الإنسان فيه، ولكل احتمالاته وتفاسيره.

إن أي وجود، أي قبول، يناقض كل إنسان، كل معنى في كل إنسان.

إن الإنسان رفض مطلق، رفض لكل وجود، لكل موجود، لأن الإنسان تفسير، لا يكون إلا تفسيراً، والوجود والموجود ليسا تفسيراً، لا يمكن أن يفسرا، ومهما فسرا فهما بلا تفسير.

إن الإنسان، إن الإنسان بكل مستوياته لا يستطيع أن يقبل شيئاً لا يجد له تفسيراً.

لهذا كان الوجود، كان كل وجود نقيضاً لكل إنسان..



التفكير شاهد زور

إن مشكلة كل مفكر وداعية ونبي، مشكلة كل إنسان..

كل من يتكلم ويقتنع، ويحاول حمل الآخرين على الإيمان باقتناعه، إنه إنما يعني ذاته، ويحاول الإقناع بها.. فهل يدري ذلك.. هل يستطيع أن يدريه. ولو درى ذلك، فهل ينفعه شيئاً..؟

إذن، فهل للتفكير، أو الاقتناع، أو للكلمة حينئذ أية قيمة..؟

إننا مع هذا لا بد أن نتكلم، ونفكر، ونقتنع..

*

شجاعة نحتاجها

الأفكار الصعبة المقاتلة هي أعلى مراحل الإنسان، والذين لا يفكرون أفكاراً صعبة، هل يعطون أعمالاً صعبة..؟ إن الأفكار القتالية هي التفسير الكبير الصعب للإنسان.

لقد قاتل الإنسان بأفكاره، أكثر مما قاتل بأسلحته المختلفة في مستوياتها الحضارية. ومهما احتاج البشر إلى السلام وقاوموا الحروب، فسيظلون أبداً محتاجين إلى الأفكار المقاتلة.

نحن اليوم نبحث عن كينونة جديدة، نحن اليوم نواجه كينونة جديدة. وكل كينونة محتوم عليها أن تحمل مزاياها وأخطارها، إنها لا تستطيع غير ذلك.

إنه لا كينونة عظيمة بلا شجاعة.

وأية شجاعة..؟

هناك شجاعة الوجود والحياة.. هناك شجاعة الصيرورة والبقاء.. هناك شجاعة التغير. إن كل الوجود حتى الجماد، حتى كل شيء، محتاج إلى هذه الشجاعة.. إنه محكوم عليه بها،

وإلا لماتت الشموس والأقمار ذعراً، وإلا لماتت الشموس والأقمار من هول الوحشة، والضلال، والعبث.

إن نهوض النبتة تحت الصقيع والهجير والإعصار المميت، لشجاعة تطاول شجاعة الأنهار والجبال والنجوم في مقاومة الهزيمة والفناء.

إنها، وهي تتحدى عوامل الطبيعة المفترسة بدون أن تستسلم أو تهون، لتلقن البشر أقوى المواقف، وتسخر ممن يجبنون ويضعفون، دون أن يضعوا لجبنهم وضعفهم مدى أو ثمناً.

ولكن الإنسان الذي يحتاج إلى كل هذه الألوان من الشجاعات، محتاج أيضاً إلى شجاعات أخرى.. محتاج إلى شجاعات خاصة بالإنسان، تلك هي شجاعة التفكير والنقد، والشك والتكذيب.. تلك هي شجاعة الرفض والخروج على جميع اللغات التي تتكلمها جميع المحاريب والمنابر، والتي تعلم الصلاة بها جميع الآلهة والمعلمين.

إن شجاعة التكذيب هي أخطر وأفضل شجاعات النفس الإنسانية.. لقد كان التصديق عدواً عالمياً متوحشاً، يقتات بالإنسان.. لقد ظلّ التصديق أضخم سجن عاش فيه التاريخ، عاشت فيه مواهب البشر.

إن شجاعة أي مجتمع هي مضمون. وهذا المضمون لا بد أن يكون أعمالاً وأفكاراً وأخلاقاً صعبة. إن الوجود الجديد القوي، لا يمكن أن يعيش في أكواخ الخصائص الفكرية والنفسية، والأخلاقية القديمة السهلة، التي كان يعيش بها الوجود القديم الضعيف السهل.

إن الحياة والتطور خطر.. إننا محكوم علينا بتقبل هذا الخطر بكل ما فيه من آلام، وآثام، وجنون، وخوف.

وكما أننا لا نفر من لقاء الطبيعة المتوحشة، بل نواجهها ونتحداها ونتعامل معها، فكذلك يجب علينا ألا نفر من لقاء الأفكار المتوحشة، بل علينا أن نواجهها بالأسلوب الذي نواجه به الطبيعة وتقلباتها، وأخطارها وجنونها.

نخاف وجوهنا

إن فرارنا من الفكر المخالف يعني الفرار من مواجهة أنفسنا، ومن التعامل بذواتنا، ومن النظر إلى عقولنا. إنه لا مثيل لهذا إلا أن نهرب من رؤية وجوهنا في المرآة، أو من أن نرى الآخرين، لأن أي فكر هو إما نحن أو الآخرون، فالهرب من الفكر هرب من رؤية أنفسنا أو من رؤيتنا لجيراننا.

نحن نقاوم الأفكار الأخرى.. إذن نحن نقاوم رؤيتنا لأنفسنا، ورؤيتنا للآخرين.

وليس بممكن أن يكون الفرار من الطبيعة فضيلة طبيعية أو إنسانية. وبالمنطق نفسه ليس

بممكن أن يكون الفرار من الأفكار مزية قومية أو دينية، كما لا يمكن أن يكون الفرار من النظر في المرآة مزية من أي نوع.

إن العقل الإنساني محتاج دائماً إلى من يعذبونه، ويشحذونه، ويعلمونه التمرد على نفسه، لا إلى من يعطونه المهدئات أو المنومات أو النصائح، ليسترخي وينام ويؤمن. إنه في أكثر المجتمعات وأكثر الظروف، يميل إلى هذا الاسترخاء والرضا والإيمان، بلا نبوات ولا أنبياء ولا معلمين. ومهما حثثناه على أن يعصي ويتمرد، فسيبقى دائماً فيه شيء كثير من الطاعة والقعود. ومهما دعوناه إلى أن يفقد إيمانه، فسوف يظل دائماً مؤمناً.

إن العقل الإنساني متهم دائماً بكثافة الإيمان لا برقته.. إن آلهة الإنسان ومذاهبه تتبدل، يسقط بعضها بعضاً، يغتال إله إلهاً، ومذهب مذهباً، وعقيدة عقيدة، ولكن نفس الإيمان لا يموت ولا يضعف.. إنه ينتقل من هذا الإله أو المذهب أو العقيدة، إلى البديل بنفس العنف والتعصب، والكثافة والغباء.

إننا اليوم ودائماً، ملزمون بمشاركة العالم المتحضر، الذي يصنع الظروف والحياة الجديدة، في السير فوق الجسور والمزالق القتالة، ومواجهة أهوال المنطق الجامح المتكبر على القيود والتعاليم، وعلى الآلهة المتحجرة في المعابد القديمة.

إن علينا أن نتحمل آثام الحضارة، وأخطاءها، ومتاعبها كاملة، وجميع ما فيها من زندقات وخطايا.

إن الذين يريدون تقدماً وإبداعاً بلا زندقة ولا خطيئة، هم مثل الذين يريدون حياة بلا شهوة ولا مغامرة. وليس مما يشعرنا أو يشعر أربابنا بالفخر، أن نظل نقتات بما يصطاده المغامرون الذين لا يحترمون آلهتنا ولا عقائدنا، ولا مما يهبنا المجد أن نعيش في الحضارة بأفكار وأخلاق ونفسيات البداوة، أو أن نظل نؤمن بحكمة الطبيعة، بينما الآخرون الذين لا يؤمنون بهذه الحكمة يصوغون هذه الطبيعة، أو أن نظل نتحدث برهبة عن منطق السماء، وأمم أخرى تقتحم أسوارها وتكتشف عوراتها، وعاهاتها.

فليسقط الخوف.. حتى من الجحيم

إنه إذا كان هذا طريقاً إلى النار، فإن علينا ألا نهاب النار.

إنه لا ينبغي أن نكون أكثر جبناً من أولئك الذين قدموا ودائماً يقدمون إلى النار وإلى الحرية الباهظة الثمن ضحاياها الكثيرة.. يقدمونها إلى النار التي لا يستطيع دخولها سوى المبدعين والزنادقة الكبار.

إن علينا أن نحافظ على نصيبنا من الخطر بشجاعة.

إن علينا أن نتحمل نصيبنا من غضب الأرباب.

إن غضب الأرباب لمجد لمن يستحقونه.. إنه علامة التفوق.

ما أقوى ذلك الإنسان.. ذلك المجتمع الذي يحمل فوق ضميره غضب الأرباب.. ما أقواه.

وليسوا أذكياء، ولا أصدقاء، أولئك الذين يدعوننا لنكون جبناء، نخشى الكفر والنار أكثر مما يخشاهما الآخرون.

ليسوا أصدقاء، ولا فضلاء، أولئك الذين يعلموننا فضيلة الطاعة والخوف من الأخطار النبيلة.

إن الشجاعة هي أن نفعل الخطر، ولو كان فيه دخول النار.

إن الفضيلة هي أن نكون شجعاناً، ولو في تحدي العقاب.

وإذا كان التفكير خطراً، فإن أفضلنا هو الذي يفعل هذا الخطر.

والخوف من النار كالخوف من الموت، ومن المغامرة، ومن المحافظة على الشرف.. كل ذلك جبن.

قد يكون للبشر مستقبل كبير في الجحيم.. قد تكون هي المستقبل، فإذا حرمنا منها حرمنا من هذا المستقبل.. من كل المستقبل.

وقد يكون في دخول الجنة خطر على الأخلاق، وعلى خصائص النضال في الإنسان، فإذا عشنا فيها جميعاً، فقدنا أخلاقنا وعوامل المقاومة فينا.

إنه يجب أن نتافس العالم على النار، كما نتافسه على أسباب المجد، والتفوق في الحياة.

إن الفرار من التنافس على النار، مثل الفرار من التنافس على إبداع الحياة.

إن العبقرية عذاب..

إن الذين لا يتعذبون لا يكونون عظماء..

إن عذاب الكبار أقوى وأدوم من عذاب الصغار..

إن الذي يجرؤ على أن يتحدى الجحيم وما فيها من أهوال خرافية، ويتحدى جميع الآلهة الشرسة المنتقمة، هو أعظم رجولة من أولئك الذين يذوبون فرقاً، ويشوهون حياتهم بالبكاء والاستسلام، والضراعة والدعاء الذليل.

ليسقط الخوف حتى من الأرباب.. حتى من النار.

إن الخوف من التفكير لا يكون فضيلة، إلا بقدر ما يكون الخوف من الرؤية فضيلة،

أو بقدر ما يكون الجبن فضيلة، أو بقدر ما يكون الخوف من قوة البصر أو من الذكاء فضيلة.

والتفكير ليس إما حلالاً وإما حراماً، بل هو إما موجود أو غير موجود، كما أن البصر إما موجود أو غير موجود، وليس إما حلالاً وإما حراماً، إما فضيلة وإما رذيلة.

إن الذين يدافعون عن الآلهة والمذاهب القديمة، ويمتدحونها، لا يفعلون ذلك لأنهم يحترمونها، ولكن لأنهم يخشون ما يمكن أن يجيء من بديل جديد مكانها. إنهم ليسوا مادحين أو محبين للقديم، إنهم خائفون من الجديد. إن المادح لا يمدح ليحترم شيئاً، ولكن ليكسب شيئاً، أو ليدفع شيئاً..

وحتى حينما يكون المدح صدقاً، لا يعنى به نفس المدح.. إن المادح كاذب، حتى وهو صادق.. إن الذي يثني على الزهرة أو على الشمس، لا يقصد الثناء عليها، وإنما يعبر عن ابتهاجه هو. وإن الذي يمدح الإله لا يمدحه، ولكنه يبكي أو يخاف أو يبتهج. إن المديح هو دائماً تعبير عن شيء.. ليس مديحاً.

إن المديح ليس رؤية لفضائل الممدوح، ولكنه حديث عن النفس.. استجابة لها.. ثناء عليها.. إعلان عنها.

إن الذين يمتدحون آلهة أي مجتمع، هم كالذين يمتدحون حكامه، وطغاته، وفساده. إنهم منافقون أو أغبياء، أو مادحون لأنفسهم ولمصالحهم.

إن الشيخ الذي يدافع عن إله مجتمعه، إنما يعني الدفاع عن مصالحه المكتسبة من ذلك المجتمع.. إنه كالذي يدافع عن حاكمه.

أنبياء العصيان

إن الحياة مملوءة بالطاعة، والجبن، والهوان.. إذن فكم هي قبيحة، وأليمة، هذه الحياة..

إن كل الناس على مستويات متفاوتة مهزومون، وضارعون، ومؤمنون بما لا يعرفون ولا يحترمون.. إنهم جميعاً مستعدون على نحو ما، للتنازل عن حدودهم، وكبريائهم، وحريتهم بلا مرارة أو دموع.

إذن كم هو جميل أن يوجد بيننا عصاة يرفضون الإيمان والركوع، وتظل قاماتهم منتصبة شامخة، تهجو القامات الطيعة الراكعة، وتظل عقولهم حصوناً عالية، ترفض الأوامر والإملاء والتهديد، ومفتحة متواضعة، تستقبل جميع النسمات والأعاصير من كل الجهات.

ما أروعك أن تظل واقفاً بين الساجدين.. عاصياً بين المطيعين.. شاكاً بين المؤمنين.. معارضاً بين أصوات الهاتفين.. وأن تقول: «لا» حيث لا يوجد من يقولها معك.

أنت حينئذٍ التعبير الأعلى على أقوى ما في الإنسان.. أنت حينئذٍ المعنى الكبير للكرامة الإنسانية.. أنت حينئذٍ التفسير العظيم لرسالة كل نبي وقديس وفيلسوف.

ما أروع أن تعصي كل ما في التاريخ من آلهة ومعلمين، ومحاريب وهوان.. وأن تعلم من بعدك فنون العصيان.. العصيان الذي لم يبعث أنبياؤه بعد.

إن هذه الدنيا محتاجة دائماً إلى أنبياء يعلمونها فن العصيان، والكبرياء والتحدي.

أما فن الطاعة والجبن والسجود، فما أكثر أنبياءه.

ولكن واأسفاه.. إن البشر لا يطيعون التعاليم ولا الأنبياء، مهما آمنوا بهم، وكرهوا الآخرين أو قاتلوهم، تعصباً لهم..

إن الناس لو حاسبوا أنفسهم أمام أنفسهم، بالمقاييس الأدبية التي صنعوها لها، لشنقوا أنفسهم احتجاجاً عليها، وخجلاً منها.

ما أسخى البشر في غفرانهم لأنفسهم.. في اعتذارهم عنها.. ما أعجز البشر عن رؤيتهم لعاهاتهم.

ما أشد حاجتنا إلى أن نكون سخفاء لكي نستطيع أن نحيا، وأن نتلاءم مع حياتنا.

إننا لا نستطيع أن نحيا أو نسعد لو حاربنا كل سخف في أنفسنا وحياتنا.

ما أقل الذين يمارسون حياتهم وموتهم بالأسلوب الذي يختارونه، لا بالأسلوب الذي يفرض عليهم.

إن سائر الناس يموتون ويحيون، بدون أن يتدخلوا في أسلوب موتهم أو أسلوب حياتهم، أو في مواقفهم منها.. إنهم يحيون كما يموتون، بأسلوب لا يختارونه.

إن الإنسان يفعل ذاته وسلوكه بجبرية ذاتية.

إنه في هذا، لا فضيلة له حينما يكون فاضلاً، لأنه حينما يكون فاضلاً لا يستطيع أن يكون غير ذلك.. إنه لو فعل لتعذب.. إنه في فضيلته هارب من العذاب.. من العجز.. إنه باحث عن اللذة.

وهل الباحثون عن اللذات فضلاء.. هل الهاربون من الألم أنبياء..؟

هل العاجز عن أن يكون جباناً يستحق الثناء..؟

ماتت بلا مشيعين

ولكن لماذا أكتب..؟

لقد ماتت الكلمة، ماتت منتحرة، ماتت بلا شرف.. لقد ماتت الكلمة بلا عزاء، بلا رثاء، بلا مشيعين.. لقد ماتت موتاً عالمياً.

كل الناس يحولون آلامهم ومتاعبهم، وجهلهم وكذبهم، وحقدهم.. وبغضاءهم، ونفاقهم وهراءهم، وجميع غثيانهم إلى كلام.

الأنبياء والأذكياء، والفنانون والزعماء، والحكام وكل الكبار، يحولون ذلك إلى كلام مكتوب.. إلى كلام مفروض على المجتمعات أن تقرأه، أن تسمعه، أن تؤمن به، أن تقاتل أو تعادي من لا يؤمنون به. أما غيرهم فيحولونه إلى كلام، إلى كلام يتعاملون به ويحولونه إلى دين ووطنية وأخلاق، إلى كلام يملؤون به أسواقهم ومعابدهم وصلواتهم وكل معاملاتهم.

إن الكلمة تعني كل نقائص البشر في حالتها التعبيرية بالصوت أو الكتابة، في حالة الاعتداء بها على الآخرين من طريق السماع أو القراءة. إن الكلام هو دائماً نوع من إطلاق النار على تحصينات الآخرين، حتى حينما يستعمل للتعبير عن السلام. إن الذي يقول: السلام عليكم، ليس مسالماً أو محباً أكثر من الذي يقول اللعنة عليكم.

إن كل الناس يتكلمون.. يتكلمون بلا حساب ولا صدق، ولا عدل ولا محبة، ولا علم ولا ذكاء.. كل الناس يتكلمون بلا إرادة لمعنى الكلام، لأنهم في الحقيقة حينما يتكلمون لا يتكلمون، وإنما يئنون أو يغنون، يبغضون أو يكذبون، أو يعرضون أنفسهم عرضاً جنسياً متبرجاً. إنهم لا يجدون أية وسيلة يعرضون بها كل ما في أنفسهم من ضعف وسخف وانحراف بلا قيد غير الكلمة، فالكلمة هي أرخص وأكثر ما يفعلون.. إنها الوعاء لكل فضلات النفس.

إنهم دائماً يتكلمون لأنهم دائماً ينفعلون، إنهم يتكلمون بلا وعاء يحتويهم، وبلا قانون يحددهم، أو يتحددون به. إنه ليس في قدرتهم أن يفعلوا شيئاً بلا أي ذكاء بلا أية حصافة، بلا أي خضوع لقانون الممكن والمستحيل مثلما يفعلون الكلام.. فكل شيء يخضع لنوع من أنواع المنطق، ولحالة من التقيد بالواقع، ما عدا الكلام، فالكلام لا يعترف بأي واقع، ولا بأي منطق.

إن أضعف الناس، وأجهلهم، وأفسدهم، يتكلمون بلغة أقوى الناس، وأعلمهم، وأعلاهم استقامة، دون أن يصطدموا بشيء. ولكن الضعيف والجاهل، لا يستطيعان أن يفعلا فعل الأقوياء والعلماء، مهما تكلما بلغتهم.

كم هو فظيع أن تكون الكلمات التي تتحدث بها أعلى النفوس، هي نفس الكلمات التي تتحدث بها أضعف النفوس. إن معنى هذا أن الكلمة لا تعني شيئاً، لأنها لا تستطيع أن تحمي نفسها من أن تكون الشيء ونقيضه بنسبة واحدة.

إن كل الناس يقولون المحال، ويقولون ما لا يفعلون، وما لا يريدون، وما لا يستطيعون، وما لا يمكن أن يحدث، وما لا يجوز أن يحدث، وما لو حدث لكان وبالاً عليهم، ولأصبحوا هم أول المقاومين له.

إن كل الناس يتناقضون، ويكذبون، ويصغرون، ويقبحون، ويرفعون أصواتهم عندما يكذبون، كما يفعلون ذلك عندما يصدقون.

إنه لا يوجد قانون من قوانين الكلام أو غير الكلام، يفرق بين الصدق والكذب، بين الأذكياء والأغبياء.

إنه لا يوجد قانون يمنع التافه والبليد والكاذب من أن يتكلم، من أن يتكلم كأفضل الناس وأذكاهم وأصدقهم.

عجبي من الآلهة، كيف تطالب الناس أن يعاملوها بالكلمة.. ألم تدرك هذه الآلهة أن الكلمة هي أسوأ وأردأ وسيلة يتعامل بها المتعاملون..؟

عجبي من الآلهة المعبودة بالكلمة.

عملة دولية زائفة

لقد ظلت الكلمة في كل التاريخ أقوى خصم للصداقة والأخوة والسلام بين البشر.. لقد ظلت الكلمة أقوى جهاز لتهديم الذكاء والأخلاق.. إنه لا يوجد جهاز لنشر العداوة، والضلال، وسوء الأدب بين الناس، مثل الكلمة.

أما الوجه الآخر من وجهي الكلمة فلم نتحدث عنه لكثرة ما بالغ الناس في الحديث عنه وعن مزاياه. لم نتحدث عما تصنعه الكلمة من حب وعزاء ومعرفة، لأنه قد بولغ جداً في تقدير الكلام، في إغداق المزايا عليه.

إن الكلمة وحدها هي العملة الدولية التي تتعامل بها كل الدول والأسواق، مع علم جميع من يتعاملون بها أنها عملة زائفة لا تساوي شيئاً.

لقد اتفق جميع الناس على أن يتعاملوا بما لا يساوي أو يعني شيئاً.. فهل هذا ذكاء أم غباء.. هل هو أخلاقية أم خروج على الأخلاقية..؟

وآفة كل متكلم وكاتب، أنه لا يتكلم أو يكتب عن الشيء كما هو، أو كما هو في نفسه هو.. إنه ما من إنسان يقول كلمته لأنها مطلوبة أو واجب قولها، بل لأنه هو

محتاج إلى أن يقولها.. إنه يقولها حتى حينما يجب ألا يقولها، فالكاتب والمتكلم الذي يخاطب الآخرين، إنما يخاطب نفسه لا أولئك الآخرين.. إنه ليس طبيباً يداوي، إنه مريض يتداوى.

إن الكلام هو دائماً تفسير للمتكلم، لا لما يتكلم عنه.. حتى النبوة ليست رسالة إلى الناس، ولكنها حديث مع النفس بصوت مسموع.

إن الكلمة هي أسوأ مستهلك ومفجر لذات الإنسان.. إن الكلمة تستهلك الإنسان أكثر وأسوأ من أي شيء آخر.

لقد صغر الكلام وهان.. لقد أصبح لا يهز أحداً، ولا يصدقه أو يحترمه أحد.

لقد أصبح الناس ينظرون إلى المتكلمين كما ينظرون إلى من يتقايؤون عليهم، أو يشتمونهم، أو إلى من يكشفون عن عاهاتهم الفظيعة المستترة، بصراخ ومباهاة. أو هكذا كان يجب أن ينظروا إليهم، أو هذا هو الذي سوف يحدث في يوم من الأيام، أو هذا الذي لن يحدث في أي يوم من الأيام.

إن المتكلمين قوم يبصقون أنفسهم على الآخرين وكأنهم يتكلمون أو يفكرون.

ولعل البشر لم يخترعوا الكلام ليقولوا الحقيقة، أو ليبحثوا عنها، أو ليستعملوها لذلك، ولكنهم اخترعوه وظلوا يستعملونه للقذف لما في أنفسهم إلى الخارج.. على وجوه وثياب الآخرين.. بل على الآلهة والمذاهب، والتاريخ وكل القيم التي يتحدثون عن إيمانهم بها.

إن من يتحدث عن إلهه أو مذهبه، فإنه لا يعني أن ينظفه أو يحترمه.. إنه يعني أن يلوثه بعاهاته وأحزانه وبلاداته الكثيرة.

إنهم إذا تكلموا لا يقصدون أن يتفاهموا، بل أن يتضاربوا أو يتباصقوا.. إن من يكلمك إنما يضاربك ويبصق عليك.

والكلمة الرديئة في كل احتمالاتها، هي التعبير السخيف عن الاحتجاج على ما في الحياة من ألم وعيوب.

نوع من الافتضاح الأليم

ولكن ما شأن هذا العصر الذي تطورت فيه وسائل التعبير تطوراً لم تعلق به أحلام الآلهة القديمة، والذي تعقدت فيه المشاكل المتعاظمة، وتواجهت فيه الخصومات والخصوم بلا حواجز ولا مسافات، مالكة كل ما في الآلهة من قدرة على التخريب والتقتيل.

لقد أصبحت الكلمة في هذا العصر شيئاً فوق كل أوصاف الخطر والجنون.

أما الشعوب المتخلفة المبتدئة بممارسة الحضارة، وباللهو بها وبوسائلها التعبيرية الضاجة الرهيبة، فقد أصبحت الكلمة فيها عفونة عقلية وأخلاقية، تعافها كل العفونات التاريخية.. وطفولة بعيدة عن كل رجولة.

لقد صارت الكلمة في هذه الشعوب بعد أن تسلحت بأساليب الإعلام الكثيرة الممتازة، نوعاً من الافتضاح الأليم الكبير.. نوعاً من الانتحار الذي ليس فيه شرف الانتحار أو مزاياه..

ما أعظم ما جنت الكلمة على الكلمة في هذه المجتمعات..

ما أعظم ما أفسدت الكلمة الكلمة..

ما أعظم ما أسقطتها، وجعلت المجتمعات لا تتأثر بها ولا تحترمها.

لقد سقطت الكلمة لكثرة استعمالها، ولكثرة ما جاءت كاذبة سخيفة عدوانية.

إن الحديث الدائم عن جمال القمر، وعن عظمة الإله، يضعف التأثر بهما ويحولهما إلى غثيان.. فكيف إذا كان الحديث الدائم هو عن جمال الفأرة، وضخامة النملة، وديمقراطية الطاغية..؟

كيف إذا كان الحديث الدائم هو عن جمال الذباب الذي تحول إلى جمال في الصرصار، أو إلى جمال في القمر..؟

إن إكثار الكلام عن الشيء الجميل يفسده ويسلبه سحره.. فكيف عن الشيء الدميم..؟

من المحتمل أن يأتي زمان توضع فيه قوانين تحرم الكلام والكتابة، كما تحرم شهادة الزور والغش والخيانة، وأن يحتقر فيه الناس الكتّاب والخطباء والمتحدثين، كما يحتقرون اللصوص والقتلة والمفسدين.. كما يحتقرون الصراصير. وقد يحدد عدد الكلمات التي يسمح بها.. قد تحدد الأوقات التي يكون فيها الكلام مباحاً، كما تحدد الأشياء الأخرى، وكما يحدد الطبيب للمريض الدواء والطعام وأوقاتهما.

قد يحدث هذا في وقت من الأوقات، لحماية الكلمة من الانهيار والسقوط المحتومين، ولحماية الإنسان نفسه من شر الكلمة.. وكم نرجو ألا يحدث مثل هذا.

ولكن قد يعقل الإنسان ويدرك بتجاربه وباحتياجات حياته، خطر الكلمة عليه، فيعالج ضلاله علاجاً أفضل من علاج القوانين، ويحدد علاقته بالكلمة كما يحدد علاقته بما يفسد صحته وبما يقتله.

ومع هذا فلو تصورنا الإنسان ممنوعاً من الكلام السخيف، لتصورنا قارورة مغلقة على الكون.. أو لتصورنا بالوناً رقيقاً تجمعت فيه جميع الأعاصير والرياح، دون أي متنفس.

إن الكون، وجميع الرياح والأعاصير، تعيش داخل الإنسان، وحين يتكلم إنما يحاول إطلاقها خارج ذاته.

*

إذن لماذا أتكلم وأكتب، مع أن الفضيلة وحب الناس ليسا في حسابي ولا في حوافزي.. ومع أن الكتابة والكلام ليسا نضالاً ضد شيء، ومع أن المجتمع ليس محتاجاً إلى كتابتي وكلامي، وإذا كان محتاجاً إلى ذلك فأنا لا أبحث عن حاجته، وهو لم يدعني إلى أن أكون له طبيباً، ومع أن الكلام والكتابة لن يهبا من فقد بصره بصراً، أو من فقد يده يداً، ولن يجعلا الغبي عبقرياً.؟

أنا أتكلم وأكتب، لأني لا أستطيع أن أسكت.. كما أني أعمل، لأني لا أستطيع أن أتوقف عن الحركة.. وكما أني أحيا، لأني لا أستطيع أن أموت.

أنا أكون، لأني عاجز ألا أكون.. لا لأني أفعل شيئاً طيباً أو قيماً أو نافعاً، حتى ولا لأني أبحث عن المجد والنجاح، فبحثي عن المجد والنجاح تبرير لعملي لا سبب له. إن المجد والنجاح ليسا شيئاً.. إنهما نوع من الشعارات التي نؤدي بها أنفسنا، ونسوغ تحت ضجيجها تحركاتنا التي لا معنى لها.

وكيف قلت إني لا أستطيع أن أموت..؟

إني أستطيع ذلك.. ألست أستطيع أن أرمي بنفسي تحت أحد أسباب الموت الكثيرة الموجودة أمامي.؟ إذن أنا أستطيع أن أموت كما أستطيع أن أتحرك وأن أتقي الموت..

ولكن كلا.

فأنا لا أستطيع أن أموت، لأني لا أستطيع أن أريد ذلك، إذن أنا لا أستطيع أن أفعله، فالذي يستطيع أن يفعل سبب الشيء، لا يستطيع فعل الشيء.

إن الناس لا يريدون بأعمالهم أن يحققوا شيئاً، إنهم يريدون أن يهربوا من الصمت.. حتى ما يبدو أنه لتحقيق شيء ليس هو كذلك في نهايته.

إن الذين يقيمون جسراً، يقيمونه للمرور فوقه.. ولكن لماذا يمرون، ولماذا يفعلون ما بعد المرور..؟

إنها سلسلة لا تعني غير الهرب من الصمت.

إن هذي هي حوافز العبقرية، وحوافز كل عمل نبيل.. إنها كذلك هي حوافز كل عمل سخيف.

إن الكاتب يكتب للناس ويتحدث إليهم كما يعاديهم ويسبهم..

إنه لا يفعل هذا أو هذا بحثاً عما يريدون، أو عما ينفعهم، بل استجابة لذاته.

إن كل إنسان إنما يتحرك من ذاته إلى المجتمع، لا من المجتمع إلى ذاته. وتحركه إلى المجتمع هو تحرك إلى ذاته.

إنه مهما طاف حول العالم، وتنقل في أبعاد الكون، فإنه لا يعبر إلا المسافة الضيقة جداً، الممتدة بين ذاته وذاته.

إنه لا يستطيع الخروج من ذاته، مهما ضرب في الآفاق، وتنقل بين الناس والأشياء، والمذاهب والآلهة.

إن أفضل ما في الكلمة أنها قد تقرأ وتسمع ويصلى بها، وتفسر بها الآلهة وكل الأشياء ولكنها لا تطاع. ولو كانت تطاع، لكان الموقف أسوأ من الجنون، ومن الفناء، ومن التأخر، ومن الاستحالة، ومن الشيء ونقيضه.

إن المواقف التي تبدو لنا وكأنها طاعة للكلمة، ليست كذلك حتماً. وكما أننا نفعل ضد الكلمة بلا كلمة، فكذلك قد نفعل موافقين للكلمة من غير طاعة للكلمة. إن طاعتنا للكلمة مثل عصياننا لها ـ كلاهما ـ أي الطاعة والعصيان، عمل أنفسنا بتحريض أنفسنا.

كل شيء يتحول إلى كلام، ولكن الكلام لا يتحول إلى شيء.. إن هذا أجمل ما في الكلام ما أقبح الحياة.. ما أقبح الإنسان لو تحول الكلام إلى معناه..

نفكر.. لنرفض التفكير

ماذا يعني أن نفكر.. وهل نحن نفكر..؟

وإذا كنا نفكر، فهل نفكر لنفهم ونتغير.. أم لنتعصب ونتعادى، ونداقع عن أوهامنا وعجزنا..؟

هل نفكر لنفكر.. أم لنرفض التفكير..؟

إن تفكيرنا ليس خاضعاً لنفسه ولا ملك نفسه، ولكنه دائماً ومهما أردنا غير ذلك، خاضع لحالتنا النفسية. وحالتنا النفسية خاضعة لصحتنا وظروفنا، وتاريخنا ومصالحنا، ولأوضاعنا الخاصة.

فالتفكير إذن، ليس حاكماً عدلاً، إنه ليس حاكماً البتة، ولكنه شاهد زور، ولكنه شاهد كذاب لا أخلاق له ولا ضمير.. إنه يلقن الشهادة فيقولها كما لقنها، بلا شجاعة ولا حرية ولا نزاهة.

ليست أحكامنا العقلية على الأشياء أو على أنفسنا أحكاماً عقلية.. إنها التزامات اجتماعية وتاريخية ونفسية.

إن التفكير هو دائماً عميل خائن.. خائن لنفسه، وللحقيقة التي يزعم أنه يتحدث بها، وأنه لا يبحث إلا عنها.

إن الذي يقول: الحياة جميلة، والذي يقول: إنها مأساة.. كلاهما إنما يعبر عن حالته النفسية، مستخدماً تفكيره كسلاح لا كمنطق.

إن التفكير المجرد، أي التفكير بلا حالة نفسية، لا يستطيع أن يحكم على أي شيء بأنه جميل أو غير جميل، وإنه حتماً في ذاته ليس هذا ولا هذا. فالذين يقولون إن الإنسان أو إن الكون طيب، إنما يحسونه كذلك، لا أنهم يعلمونه أو يعقلونه كذلك، فكأنهم حينما يتحدثون عن جمال الكون أو الإنسان والحياة، أو عن جمال المذاهب والآلهة والزعماء؛ إنما يريدون أن يقولوا نحن مبتهجون راضون متلائمون مع أنفسنا ومع ما حولنا.

والذين يقولون عن الإنسان، أو عن الكون، أو عن أي شيء، إنه سخيف.. إنما يعنون أنهم متألمون متعبون غير سعداء، ولا يعنون أنهم وجدوا الإنسان أو الأشياء كذلك.

ودائماً البشر يعكسون حالتهم الخاصة على الأشياء التي يتعاملون معها.. إنهم لا يعكسون أفكارهم، بل مشاعرهم الحزينة المتوترة، أو المبتهجة المستريحة.

إن الصحة الجيدة هي المعدة الفكرية التي تهضم أقسى الآلام والأخطاء والمشاكل، وأكثر الآلهة والمذاهب وحشية، وتحولها إلى ابتهاج وأفكار متفائلة.. وإن الصحة الرديئة تصنع العكس.

إن الصحة والمرض يتحولان إلى أساليب فكرية.. إنهما يتحولان إلى منطق، إلى رؤية.. إنهما يتحولان إلى صفات للآلهة والمذاهب والأشياء والناس.

إن الأفكار ليس لها من ذاتها لون، ولكن ظروفها هي التي تعطيها ألوانها المختلفة. وإن الحالة الصحية هي الوعاء العام لجميع هذه الظروف.. إن صحة الإنسان هي منطقه.. هي حكمه.. هي بصره.. هي أحاسيسه نحو الأشياء.

إن جمال الكون ودمامته، موجودان في جسم الإنسان لا في عينيه أو عقله.

نحن نحكم على الأشياء لأننا منفعلون، لا لأننا مفكرون. والأشياء التي لا تحدث لنا انفعالات، لا نستطيع أن نحكم عليها بعقولنا أي حكم.

إن سقوط الحجر علينا ذنب وخطأ، ولكن سقوط كوكب على كوكب آخر وتدميره له، ليس شيئاً.. ليس خيراً ولا شراً.. ليس ظلماً ولا عدلاً، إلا على احتمال أنه قد يسقط علينا.

وكذلك يختلف نظرنا إلى قتل الإنسان أو الحيوان للإنسان، وقتل الإنسان أو الحيوان للحيوان.

إن مبدأ الاحتجاج والاستحسان ليس عقلياً. ولعل القتل للإنسان أفضل من الصدقة عليه.. لعل قتل الشيخ المريض، أفضل من علاجه ليعيش شيخاً مريضاً مدة أطول.. لعل قتل الطفل طفلاً، أفضل من تركه ليصبح شيخاً مريضاً ثم يموت، لو كان العقل هو الذي يصوغ سلوكنا ومنطقنا.

إننا لو كنا بلا آلام ولا احتياجات خاصة، لأصبحنا محايدين من الكون، ومن كل شيء لا نستطيع أن نعقله ولا أن ننكره، لا أن نراه حسناً، ولا أن نراه قبيحاً.

إن الذي لا يعاني معنى الجوع ولا لذة الطعام، لا يمكن أن يجد فرقاً عقلياً بين طعام وطعام، وبين طعام وغير طعام.. ولهذا فإن الأرباب التي لا تجوع ولا تتألم ولا تلتذ، لا يمكن أن تفرق بين الأشياء، ولا أن تحكم عليها أية أحكام عقلية أو أخلاقية.. إن كل الأشياء حينئذٍ، سواء لديها.

إن كل الفروق بين الأشياء، ليست سوى لذتنا وألمنا.

إن التفكير لا يستطيع أن يحكم، وإنه لا يستطيع أن يعدل لو حكم.

إنه معذور في هذا، لأنه لا يحكم بإرادته أو حوافزه ولا لمصلحته.. إنه تابع.. إنه لا يحترم أو يحتقر شيئاً، أو يتخذ أي موقف من أي شيء إلا مقوداً مأموراً.

إن الكون والأشياء في حكم المنطق وحده، ليست شيئاً.. إنها ليست صواباً ولا خطأ.. إنها ليست جميلة ولا دميمة.. إنها وجود فقط.

إن الفرق بين مفكر يرى في الحياة والبشر وفي جميع الأشياء، أسخف أساليب الفوضى والعبث والدمامة، ومفكر آخر يرى في كل ذلك أسمى معاني الجمال والحب والنظام والذكاء، فرق نفسي.. لا عقلي.

إنه ليس بالعقل أدرك الفلاسفة المتشائمون أن الحياة سخيفة ولا بالعقل أدرك الفلاسفة المتفائلون أنها عظيمة. لقد أدركوا ذلك بالصحة والمرض، وبالتعب والراحة. إن العقل دائماً مسلوب الإرادة والقدرة، بل مسلوب الذكاء. إنه لا يكون ذكياً ولا متحمساً، إلا بالتحريض الذي توجهه إليه القوى الأخرى الخارجية.

كان بعض الفلاسفة مرضى أو متعبين، فجاءت أحكامهم تشاؤمية، فظنوا وظن غيرهم، أن بين الفلاسفة والتشاؤم ارتباطاً.. ولكن تشاؤمهم كان من تعبهم لا من فلسفتهم.. لقد تشاءموا لأنهم متعبون، لا لأنهم مفكرون.

إذن فنحن جميعاً، نحن كل المتكلمين والمفكرين.. المؤمنين والمنكرين، حينما نتكلم ونكتب ونحكم، لا نقدم أدياناً، أو مذاهب أو نظماً، أو حقائق مدروسة مفهومة، مؤيدة بالتفكير الواعي النزيه المحايد، ولكننا نقدم حالتنا النفسية الخاصة بكل تعصب وتحيز، وغباء وغوغائية.. نقدم حالتنا النفسية الخاصة، بلا تهذيب، أو ذكاء، أو تسامح.

إننا ونحن نقدم للناس أدياننا ومذاهبنا ونظمنا، بفخر واستعلاء، إنما نقدم لهم في الحقيقة صحتنا ومرضنا.. قوتنا وضعفنا.. تفاؤلنا وتشاؤمنا.. سرورنا وكآبتنا.. انتصارنا وهزائمنا.. نجاحنا وعجزنا.. أهواءنا ومصالحنا.. نقدم لهم جميعاً ظروفنا وارتباطاتنا التاريخية والاجتماعية، لنطالبهم أن يؤمنوا بها كحقائق مطلقة منزهة. إننا نحاول أن نفرض عليهم أنفسنا بلا أخلاقية، كما يحاولون هم نفس الشيء.

أساليب انتحار

إننا أحياء، والحياة بكل ما فيها من عبقرية ونشاط، وخمول وتفاهات، ليست سوى عملية استنفاد للذات أي للحياة.. فالحياة بكل وسائلها، هي التعبير الكامل عن عمليات الموت.. إننا نحيا، أي إننا نموت.. نحن نبحث عن الموت بأسلوب البحث عن الحياة.

إنني أفكر وأكتب، لأنني أموت، إنني أموت، لأنني أحيا.. إنني أحيا كغلطة غير مقصودة، ولأن موتي وحياتي يتحركان بقانون واحد، وليس في أي منهما معنى أخلاقي أو فكري أكثر مما في الآخر.. إن الذي يحيا أكثر إنما يعني أنه يموت أكثر.

إن المادة التي تتحول إلى حرارة أو ضوء أو حركة، لتصنع قوة أو مظهراً جديداً من مظاهر الحياة، ليست في تحولها هذا، إلا باحثة عن الموت أي عن النفاد.. أو ليست إلا موتاً أي نفاداً.

وكذلك الإنسان في تحوله إلى إبداع، وأعمال كبيرة، وتفكير، وكلام، وهداية للضالين؛ ليس إلا باحثاً عن الموت أي عن النفاد، أو ليس إلا موتاً ونفاداً.

إن كل شيء ينتحر لأن كل شيء يتحرك ويتغير.

إن كل شيء يفنى لمجرد الفناء.. إن كل شيء ينتحر بأسلوبه الخاص.. إن البشر ينتحرون بأساليبهم الخاصة.. إنهم لا بد أن ينتحروا حتى ولو لم يجدوا أسباباً ينتحرون بها، لهذا فإن الذين لا يجدون أعمالاً يدمرون بها حياتهم، فلا بد أن يموتوا بلا عمل.. بالفراغ، والضحك، والملل، وبممارسة الجنس. وقد وجد المستغنون عن العمل الوسائل التي يموتون بها أكثر مما وجدها المحتاجون إلى العمل.

أليس سخيفاً ومحالاً أن نفترض الناس يعملون لكي يحيوا، لكي يحتاجوا، لكي يعملوا، ليستمروا في تكرار هذه العملية الدورية العقيمة..؟

إن معنى هذا، أنهم يعملون ليحتاجوا، وأنهم كذلك يحيون ليحتاجوا. فالعمل يبقي الحياة، والحياة تبقي الاحتياج، والاحتياج يفرض العمل.

إن الذي يعمل في هوان، إنما يعمل لكي يظل يعمل في هوان.. فأي هذه الثلاثة هي الوسيلة، وأيها هو الغاية..؟

إذا كان العمل من أجل الحياة، فالحياة من أجل ماذا..؟

يقولون إنها من أجل ذاتها.. جواب لا يعني شيئاً.

الشيء من أجل ذاته.. حسن، وذاته من أجل ماذا..؟

ذاته من أجل ذاته.

وذاته الأخيرة، من أجل ماذا..؟

ولو كانت الحياة من أجل ذاتها، لاكتفينا بمجرد وجودنا أحياء بلا أي شيء آخر، ولما كان لها نهاية لأنها من أجل ذاتها.

إذن البشر لا بد أن يفكروا، ويكتبوا، ويقتنعوا، ويصنعوا للآخرين المذاهب والنظريات، والأفكار والأخلاق والمثل، وأن يدأبوا على دعوتهم إلى الاستقامة، وإن كانوا لا يبحثون عن المصلحة أو المنطق، أو الفضيلة أو الحب أو الصدق، ولا يبالون بأي معنى أخلاقي، لأنهم إنما يريدون بكل ما يعملون أن يدمروا حياتهم، أن ينفقوها، لا أن يفعلوا الخير لأنفسهم، أو للآخرين.

إن الخير كلمة أو لغة لا تعرفها الطبيعة، كما لا تعرفها أعضاء الإنسان، أو ضروراته التي تصنع سلوكه ورغباته.

غريزة برغوث لا عقل إنسان

إن الناس يعملون ويتحركون لمجرد تحقيق الفناء، كما تتحرك الأنهار والرياح، والشموس والكون كله.

هل تتحرك الأنهار والأعاصير.. هل تتحرك الطبيعة والأشياء استجابة لمذهب، أو لعقيدة، أو لإله، أم لأنها لا بد أن تتحرك.. أي لا بد أن تفنى..؟

وهل يتحرك الإنسان إلا كما تتحرك الأشياء والطبيعة..؟

إن الشمس تبدد ضياءها لمجرد التبديد حينما تذهب تمنحه جزافاً وبسخاء لا معنى له،

ولا عقل فيه. وإن الإنسان ليفعل نفس الشيء حينما يحيا ويمنح العبقريات والفنون، والآداب والنظريات والسلام، أو حينما يصنع الحروب والأحقاد والخصومات، أو حينما يكتب ويفكر، ويملؤه الحماس والإيمان.

ولماذا يملؤه الحماس والإيمان.. لماذا..؟

لغير ما شيء.. لأشياء لا معنى لها.. لأشياء تسحقه وتذله، وتستهلك كل قطرات حياته.

إنه يموت تحت رايات أفواج متلاحقة من الطغاة والأصنام والمذاهب الشريرة، وفي الحروب والأحزان والعداوات، وفي البكاء والغيرة على الآخرين. الذين لا يحمل لهم أي حب أو احترام؛ لأنه يبحث عن الموت، عن أي شيء يموت تحت لوائه.. لأنه يجب أن يموت، لأن موته هو الهدف والتعبير.

لقد فرضت عليه الحياة بلا سبب أو فكرة، وبلا مصلحة لأحد. وإنها بطبيعتها حركة، أي فناء. إنها لا تقبل التجميد ولا تحتمل كذلك. إن الحياة لا توجد إلا في حالة استهلاكها. إننا لا نحيا إلا بأخذنا أسباب الموت. هكذا كان الإنسان، فراح يبحث عن أساليب مهذبة، أو عن أساليب تبدو مهذبة، مع أنها ليست كذلك، ليبدد فيها حياته.

إن الموت انتحاراً أذكى وأكثر تهذيباً من الموت في حرب يشنها طاغية أو مجنون، أو في سبيل عقيدة غبية، أو نظام متوتر متكبر، أو من الموت حزناً، أو تخمة، أو جوعاً، أو بالشيخوخة، أو بأحد الأمراض الطويلة، أو من الموت بالإصرار على الكتابة والتفكير حيث لا تأثير في ذلك على من يكتب ويفكر لهم، وحيث لا إخلاص ولا صداقة لدى من يكتبون ويفكرون.

ولكن الإنسان لا يبحث عن أكثر الأساليب ذكاء وتهذيباً لكي يموت بها. إن الإنسان يموت بالأساليب الذي يختاره الموت له، لا بالأسلوب الذي يختاره الإنسان.

نعم، إذا كانت غاية أعمال البشر كلها هي تحقيق الموت، لأن الحياة كما سبق حركة والحركة فناء؛ فإنهم حينئذٍ لو أبادوا أنفسهم بوسيلة علمية شاملة، لكانوا بذلك أكثر شجاعة وتهذيباً من إبادتهم لأنفسهم بالوسائل العادية المعروفة البطيئة، كالاستغراق في العلاقات الجنسية والعبادات، والكلام والانفعالات الهدامة، وفي مخاصمة الآخرين والاختلاف معهم، وفي البحث عن الآلهة والأديان، والمذاهب والنظريات، وفي الخوف من النار والعار، والمرض والأرق والخطأ، في محاولة النوم بلا جدوى، وفي غير ذلك من صور السلوك والانفعالات التي لا تعني سوى تحقيق الفناء.

إن التحذيرات المتعالية التي تتنادى في كثير من أرجاء العالم اليوم خوفاً على الإنسان من أن يهلك نفسه، ويهلك الحياة معه بأسلوب علمي ممتاز، أي بالحرب؛ ليست إلا خوفاً من الهدف المطلوب المحتوم، ومن أن يؤدى هذا الهدف بأحسن الأساليب وأقواها، وأقربها إلى الرفق بالنفس. وإنها كذلك ليست إلا نوعاً من الورع التقليدي الضعيف الذي اعتاد الضعفاء والوعاظ المتعبون أن يمارسوه كعادة وكأسلوب من أساليب البكاء الذي لا يعني غير نفس البكاء.

إن هذه التحذيرات الخائفة هي مثل الخوف على الميت من الدفن، وعلى المحتضر من الموت.

إن الإنسان مهما كانت قوة حياته، ليس إلا ميتاً ينتظر الدفن.. ميتاً لم يدفن.

وإنه مهما كانت قوة حياته، ليس إلا محتضراً ينتظر الموت.. محتضراً لم يمت.

إن الخوف عليه إذن من أن يقتل حياته قتلاً عالمياً عظيماً بالحروب، أو بأي أسلوب عالمي، ليس إلا خوفاً على المحتضر من الموت، وعلى الميت من الدفن. إن هذا الخوف ليس خوفاً فكرياً.. إنه خوف غريزي كخوف أية حشرة ضئيلة من أن تنتهي أشرف وأسرع وأنظف نهاية.

إن الإنسان يفضل أن يموت أذل وأحقر موتة عادية، على أن يموت أضخم وأعز موتة غير عادية. إنه يرفض أن يموت من أعلى مكان تحت أمجد الظروف، رفضاً لأبشع أنواع الهوان، أو احتجاجاً على أقبح المظالم والآلام وأسباب العار، ليتقبل الموت بالشيخوخة، أو بأمراض القلب والشرايين، أو بالإعدام، أو بحوادث الطرق تحت أحقر الظروف. إن الذي يموت بالأسلوب الأول ليس إلا متورطاً أو مقهوراً، أو مخطئاً في حساباته. إنه لم يختر في ذلك الأفضل والأمجد والأقوى.. لقد فرض عليه هذا الموت بهذا الأسلوب فرضاً.

ولو أننا كنا نحكم بالعقل لما مات منا أحد كما تموت الحشرات والكلاب بأسباب الموت العادية المهينة، ولمتنا جميعاً موتاً عبقرياً عقلياً متفوقاً. إن الذي يرفض أن يموت بيده موتاً نظيفاً عالياً سريعاً، ليموت بالجراثيم أو بالذبحة الصدرية، لا يعبر عن عقل إنسان، بل عن غريزة برغوث.

إن الإنسان يجب أن يموت هو، لا أن يقتل بالأمراض والشيخوخة، والجوع والأحزان، كما تقتل الحشرات بذلك. وبالقوة والاقتناع اللذين يرفض بهما الإنسان أن يشك أو يناقش في قيمة حياته، وفي أن يختار أسلوباً عقلياً ليموت به على أسلوب غير عقلي ـ أسلوب حشري ـ ترفض أحقر ذبابة أن تشك أو تناقش في قيمة حياتها، وفي قيمة الأسلوب الذي تختاره لموتها لو استطاعت أن تتكلم وتفكر. إن البشر دائماً يفعلون بلا

تفكير، ما يقتلون عليه بالتفكير. إنهم جميعاً يفعلون ويتقبلون، ويتمنون من السلوك والمهانات، والحقارات والآلام والذنوب، ما تقتل عليه كل مذاهبهم وشرائعهم، وأفكارهم وتعاليمهم.

إن وجودنا والحكم علينا بالحياة، وقوع في المصيدة. إن جميع ما نفعله ليس إلا محاولة مختلفة الأساليب للخروج من هذه المصيدة، أو للاحتجاج عليها، أو لتدميرها أو للتكيف بها.

إن تكيفنا بالحياة وببذاءاتها، ليس أفضل وأسعد أو أذكى من تكيف الفئران أو أي حيوان بالأقفاص التي توضع فيها، بالآلام والمذلات التي تفرض عليها. إن معنى كوننا نحيا، أننا نعاني ونتجرع حتى حينما نمارس اللذة والسرور. إن الحقد والغيظ، والخوف والحزن، والطموح والمنافسة والتوتر هي الأساليب المألوفة للتعبير عن المعاناة والتجرع.. هي المقاومة الأليمة لهذه المعاناة وهذا التجرع.. هي الرد الأليم عليهما. حتى الحب والانتصار، والتفوق والامتلاك صور من هذه المعاناة وهذا التجرع.

ورفض الانتحار تحت ظروفه الموجبة، ليس سمواً أو ذكاءً إنسانياً، ولا بحثاً عن الأفضل أو الأجدر؛ ولكنه هوان حيواني برر تبريراً إنسانياً.

إن الرفض للانتحار نوع من الرفض للحقيقة الكاملة المواجهة، ولتعاطيها باليد مرة واحدة. إن الذي ينتحر إنما يفعل ما لا بد أن يحدث، بأسلوب أنظف وأكثر سمواً وشرفاً وشجاعة.

أليس موتك بيدك بضربة واحدة، أفضل من موتك بيد عدوك على عدة ضربات..؟

ليس رفض الانتحار فلسفة، ولكنه جبن يتفلسف. إن الشجاعة بكل صورها في كل مواقفها انتحار غير شجاع. إن الجبن، وتقبل العار والهوان بأي أسلوب، وتحت أي مبرر، رفض للانتحار.. لكل أساليبه.

إن الانتحار هو أقوى وأحسم احتجاج على نقائص الذات، أو المجتمع أو الكون.. إنه تسام.. إنه رفض للعاهات. ولأنه كذلك كان الذين يقدمون عليه قليلين جداً، وغير عاديين في الغالب. إن الذين لا ينتحرون هم قوم عاجزون عن الاحتجاج على هذه النقائص احتجاجاً فعالاً.. إنهم عاجزون عن الرفض للحقارات، للمهانات، للعبث، للتفاهة.

*

إن التفكير هو دائماً خطر على العدل، والحق، والصداقة بين البشر، لأنه يستخدم دائماً

لتحقيق هذا الخطر. إنه دائماً سلاح هذا الخطر.. إنه منطقه.. إنه معلمه، نبيه.

إنه لا يوجد من يستخدم تفكيره أو ذكاءه للبحث عن الصواب الذي لدى الخصوم، أو لإنصافهم، أو لإعطاء العدل من النفس.

إن كل الناس، حتى الطيبين منهم جداً، يستعملون تفكيرهم وذكاءهم لهدم الآخرين، للانتصار عليهم، لهدم ما معهم من حق أو فضيلة، أو لتقوية مواقفهم هم، والدفاع عما اختاروه لأنفسهم، أو وجدوا أنفسهم فيه مهما كان سخيفاً ظالماً، مهما كان رديئاً.

وإذن فلعل الناس ـ لو لم تكن لهم أفكار وذكاء ـ يكونون أعجز عن فعل الضلال، والاجتراء عليه، والتباهي به، وعن تفجير العداوات والخصومات بينهم. كما أنهم بدون سلاح قوي أعجز عن أن يستطيعوا الإبادة المتقابلة.

إن البشر يتقاتلون بالأفكار كما يتقاتلون بالسلاح.. إنهم لا يتفاهمون بها، بالأفكار. إذن هل كان من الخير للبشر أن يكونوا بلا أفكار وبلا ذكاء، كما أن من الخير لهم ألا يكونون قد اخترعوا أية أسلحة؛ لأنهم يتعادون ويتقاتلون بالأفكار والذكاء كما يفعلون بالأسلحة.. فهل الأفكار والذكاء أكثر صداقة للإنسان، ولصناعة السلام والحب، من السلاح..؟

واقع بواقع، لا تفكير بتفكير

إن ها هنا تعقيداً أو مشكلة. ذلك أنه إذا كانت أحكامنا على الأشياء ليست أحكاماً عقلية، فإن حكمي في هذا الموضوع وفي أي موضوع آخر يصبح حينئذٍ حكماً غير عقلي. وهذا صحيح، لأن العقل لا يستطيع أن يحكم في أية قضية معتمداً على نفسه، إذ لا توجد فيه ولا له مقاييس من ذاته. إن جميع مقاييسه دائماً من خارجه أو في خارجه. إن جميع مقاييسه دائماً في ذات الإنسان، وفي مشاكله وآلامه وأوضاعه، أو في الظروف الأخرى الخارجية.

إن العقل في ذاته فراغ. إنه ليس أمراً أو نهياً، أو قانوناً أو خروجاً على القانون. إنه ليس ذكاءً أو غباءً، أو مستوى إنسانياً. إنه لا يعرف ما هو الخطأ والشر، أو الخير والصواب. إن العقل لا يوجد في ذاته ولا لها، ولا يعمل من أجلها ولا يتحدد بها. إن حدوده دائماً ليست فيه. إنه لا يفسر أعماله ولا يقومها، ولا يوجهها ولا يستهلكها.. إنه لا يستطيع تصحيحها.

ليس الخير والشر، أو الحق والباطل، هو ما نعقله أو ما لا نعقله؛ ولكن هو ما نجده ونفعله ونريده، أو ما لا نجده ولا نفعله ولا نريده. إن من الممكن دائماً أن يصبح ما هو معقول غير معقول، وما هو غير معقول معقولاً. إن الذي يرفض ذلك ويصر على

تقسيم الأشياء إلى معقولة وإلى غير معقولة، هو موقفي أنا الإنسان من الأشياء، لا موقف تفكيري. إن البشر دائماً هم الذين يقودون أفكارهم، مهما بدا أن أفكارهم هي التي تقودهم.

وإذن فما قيمة أي فكر أو رأي أقوله هنا، إذا كانت جميع أفكاري وآرائي غير عقلية.. وكيف أبطل أحكاماً غير عقلية بحجة أنها غير عقلية، بحكم غير عقلي..؟

والجواب أني هنا أحاول أن أبطل واقعاً بواقع.. أن أبطل حالة نفسية بحالة نفسية.. أن أبطل مجتمعاً بمجتمع، لا تفكيراً بتفكير. إن العقل هنا ودائماً ليس سوى سلاح يخضع لليد التي تقبض عليه. والحياة كلها، بل الكون كله هو إبطال واقع بواقع، هو إزالة شيء بشيء، إنه ليس إزالة تفكير بتفكير.. إنه ليس رداً على تفكير بتفكير.

إن الكون لا يتغير أو يزيل بعضه بعضاً بالتفكير.. وكذلك المجتمع مع المجتمع، ومع نفسه.. وكذلك الإنسان مع الإنسان، ومع نفسه.

حتى الحروب، إنها ليست أفكاراً تحارب وتهزم أفكاراً، ولكنها وجود يحارب وجوداً، ولكنها وجود يهزم وجوداً آخر.

إن الأفكار هي دائماً تعبير عن الوجود وإرادة الوجود. أما الوجود فلا يمكن أن يكون تعبيراً عن أية أفكار.

إنه بقدر ما هو صحيح أن الصخرة لا تسقط على رأس الإنسان لتقتله بفكرة، فإنه كذلك صحيح بنفس النسبة أنك أنت وأنا وكل الناس، لا يقاوم بعضنا بعضاً، أو يدمر بعضنا بعضاً، أو يصحح بعضنا بعضاً بالأفكار أي بإغراء الأفكار، أو بصدقها أو بإرادتها، أو بالدفاع عنها، أو بما لها من قوة قانونية أو مزايا أخلاقية. إنك تقاوم جارك أو خصمك أو منافسك كما يقاوم وجود وجوداً، كما يقاوم حجر حجراً، أو حيوان حيواناً، أو حشرة حشرة، لا كما يقاوم منطق منطقاً.

إنكما حجران، إنكما شيئان يقاوم أحدكما الآخر بقوانين الأشياء. إنكما لستما منطقين يقاوم أحدكما الآخر.. لستما منطقاً يقاوم منطقاً، أو يتفاهم معه.

إن أفكاري هي تعبيري الذاتي بالذهن وبالكلمة عن موقفي النفسي والمادي من الطبيعة والناس ومن نفسي.. وإن أفكار كل إنسان كذلك.

إنه لا يمكن أن تكون مواقفي النفسية والمادية، هي تعبيري عن أفكاري، كما لا يمكن ذلك لأحد من الناس.

إنه لا توجد أية نماذج أو مثل فكرية للأشياء. لا للكون ولا للحياة ولا للإنسان، ولا

للمذاهب أو النظم أو العقائد، أو التقاليد أو الأخلاق، لتوضع على مقاساتها أو لتنقد وترفض إذا خرجت عليها. إن نموذج كل شيء ومثاله هو وجوده وذاته.

إن الأشياء والبشر لا يتقاتلون أو يختلفون بحثاً عن نماذج أو مثل عقلية، أو خلافاً عليها؛ وإنما هم وجودات متعددة تتصادم دفاعاً عن ذواتها ومجالاتها، بلا أي معنى زائد على وجودها.

إن النموذج العقلي أو المثال العقلي هو صورة الوجود لا وعاؤه.. هو صفاته واحتياجاته، لا مبدؤه أو سببه.

إن نموذج البيت أو الجسر الذي يراد بناؤه، هو الإنسان والظروف المادية التي يقام فيها. إنها مادة بنائه. إن نموذجه ليس أفكاراً ولا أخلاقاً.. إنه ليس مستويات موجودة في ذاتها، معروفة بخصائصها المتميزة.

إن المهندس هو الطبيعة، وإن الطبيعة ليست هي المهندس. إن الطبيعة تخلق المهندس، وإن المهندس لا يخلق الطبيعة.

إن الكون هو نموذج المهندس، ولكن المهندس ليس نموذج الكون. إن المهندس يصنع نماذجه من الكون، خاضعاً للكون، آخذاً لها من الكون، متعلماً لها من الكون، مخلوقاً هو من مادة الكون ومن قوانينه وضروراته.

إن الكون ليس صيغة مكتوبة.. ليس صيغة إنسانية. إن العقل ليس سوى أمل ومستوى، وحاجة في الوجود الإنساني. إنه ليس قانوناً أو علة أو تفسيراً في الوجود الكوني، أو في النظام الكوني. إن العقل ليس شيئاً في العالم، ولا شيئاً خارج العالم.. إنه هو تفسير الإنسان للأشياء ولنفسه.. إنه تفسير فقط، وليس وجوداً. إنه هو حركة الكون لا علته، لا غايته، لا ذكاؤه.

إن أي كائن يعيش خارج الكون، يعيش خارج ضروراته وقوانينه لن يجد فيه أي منطق، أي تفسير. إنه لا بد أن يجد فيه شموساً وأنهاراً، وبحاراً وبشراً وحشرات، ولكن لن يجد فيه عقلاً، لن يجد فيه أي عقل. لقد وجد فيه البشر عقلاً، وكانوا يعنون بالعقل طبيعته كما هو، وتلاؤمهم معه. إنه لولا حاجتهم وضروراتهم الباحثة عن التلاؤم، لما وجدوا في الكون الذكاء الذي وجدوه.

إن أية نظرية تجيء من خارج الكون، فلا بد أن تكون باطلة في رأينا نحن سكان هذا الكون، وفي سلوك الكون نفسه مهما كانت عبقرية. مع أن هذا مستحيل إذ لا يمكن أن نفكر خارج الكون، ولا أن توجد أفكار خارج الكون.

إنه أبداً خاضع

ليس التفكير قوة معارضة في أي وقت ولا في أي موضوع. إنه ليس قائداً ولا معارضاً، إنه ليس السلطان ولا مستشاره. إنه دائماً اتباع وهوان، مهما ظن أنه القائد العظيم في كل المعارك والميادين، ومهما زعم لنفسه ذلك. إنه لا يوجد تابع خانع يزعم لنفسه القيادة، يزعم لنفسه المزاعم أكثر من التفكير.

ولننظر كيف يمكن أن يبدل الفكر نفسه على جميع الصور والأضداد، دون أن يشعر بالذنب أو المعاناة.. دون أن يستغفر أو يعتذر، أو يخفي نفسه حياء.

إن في الدين الإسلامي تشريعاً يجعل للذكر مثل حظ الأنثيين في الميراث. وتفكير المؤمن يقول إن هذا التشريع هو أعلى مستويات العدل والمنطق. ولكن لو جاء التشريع ليقول إن للأنثى مثل حظ الذكرين، أو أن الميراث كله للرجل، أو كله للمرأة، أو لا شيء لأحد منهما، أو هو بينهما بالتساوي، لقال هذا التفكير أيضاً نفس القول. لقال إن ذلك هو أعلى مستويات العدل والمنطق.

ويقول الدين بقطع يد السارق، فيقول التفكير الديني ما أعظم وأرحم هذه العقوبة. ولو كان قد قال بفقء عيني السارق أو قتله أو جلده، أو حبسه أو استرقاقه أو تغريمه، أو بقطع رجليه لرأى التفكير الديني في هذا العقاب نفس الرأي.

ويقول أيضاً بجلد الزاني أو رجمه، فيعجب التفكير الديني بالمستوى العالي لهذا الجزاء المتحضر، ويرضى عنه منطق المؤمن إلى المدى الذي يجعله يرى في مناقشته كفراً وغباء. ولكن لو أن الدين قد قال بقطع الأعضاء التناسلية للزاني مكان الجلد أو الرجم، لأعجب ذكاء المؤمن بذلك، ولوجد أنه لبراعته ونزاهته هو أقوى البراهين على وجود الله، وعلى صدق نبوة محمد صلى الله عليه وسلم، وعلى قوة ذكائهما وصداقتهما وحبهما للإنسان.

السارق تقطع يده.. إذن أليس المنطق أن الزاني تقطع أعضاؤه التناسلية..؟

إن قطع الأعضاء التناسلية أستر وأقل تشويهاً وتعويقاً عن العمل من قطع اليد.

السارق تقطع يده.. أليس قطع رجله أذكى لأنه أكثر تعجيزاً له عن السرقة، وأقل تعجيزاً له عن عمل الحياة..؟

إن فقء عيني السارق قد يكون أعقل من قطع يده، قد يكون أعلى مستوى في الرحمة، قد يكون أمتع للسرقة.

وهكذا يعيش الفكر بكل ألوانه وجنسياته في تبعية وهزائم دائمة، في جميع القضايا السياسية والفلسفية والاجتماعية، وفي الأخلاق والتقاليد وكل شيء. إنه أبداً يخضع لما

وجد، أو للإرادة والمصلحة، أو للعادة والخديعة، أو للخوف والتعب.. إنه أبداً خاضع. إنه لا يكتفي بأن يخضع ويرضى ويوافق، بل إنه يناصر ويكذب ويزور، حتى لكأنه أقل من مستشار فاسد لدى طاغية جاهل جبار. إنه يؤدي دوره الذليل المخادع بحماس واعتقاد. إن الفكر لا يخضع بقدر ما يطلب منه، إنه يخضع أكثر. إنه لا يخضع نفاقاً فقط، إنه يخضع إيماناً وتصديقاً.

وهذه ليست افتراضات يراد بها السخرية من الفكر أو تجريحه. إنها صور متواضعة تروي سلوكه المشهود وسلوكه الدائم في التاريخ.. إنها تحكي بتواضع أخلاقه.

لقد آمن الفكر بكل شيء.. لقد برر كل شيء.. لقد دافع عن كل شيء، الأخطاء والحماقات، والمظالم والأضداد في كل زمان. فالإيمان والإلحاد، عبادة الأوثان وعبادة الله، والسرقة والإحسان، والاشتراكية والإقطاع.. كل ذلك تفكير له أنبياؤه وشهداؤه في كل العصور والمجتمعات.

إن هذا المفكر الذي يصوغ أعظم الحجج للتدليل على أن الشيوعية أو الاشتراكية هي وحدها العلاج الشافي لجميع آلام البشر، كان من الممكن تحت ظروف أخرى أن يتحول إلى مفكر مضاد يصوغ حججه القتالة للتدليل على أن الرأسمالية هي وحدها العلاج. إنه لا يوجد فاصل بين الإنسان ونقيضه.. إنه لا يوجد فاصل بين الإنسان مفكراً، وبين نفسه مفكراً آخر. إنه لا يوجد بين الإنسان المفكر ونقيضه المفكر فاصل. إن الفكر المعين.. إن الإله أو المذهب أو الدين ليعيش هو ونقيضه في احتمالات كل إنسان، في ضمير كل إنسان.

إن أمام كل مفكر يدعو إلى مذهب أو عقيدة أو نظام، مفكراً آخر أو مفكرين كثيرين يدعون إلى النقيض بنفس الاقتناع والغباء والجنون. إن الفرق بين من يدعو إلى الشيء ومن يدعو إلى نقيضه، ليس فرقاً فكرياً.

إنه لا ينتظر من التفكير أن يكون منقذاً لنفسه أو للإنسان. إنه لا يستطيع أن يكون كذلك، بل إنه محتاج دائماً إلى من ينقذه.

إن أهواءنا لتنقذنا دون أفكارنا. إن ضلال الفكر وهداه ليسا فيه، لكنهما في القوى التي تحركه. إن تغير الفكر ليس تفكيراً.. إنه اتباع.. إنه لشيء ما.

*

إن البشر جميعاً ليؤملون أن ينقذهم الفكر من مخاوفهم وخصوماتهم واختلافاتهم، من مشاكلهم وأخطارهم على أنفسهم، وإنهم ليلحون عليه أن يفعل لهم كل ذلك، وإنهم

ليطالبون أنفسهم والآخرين بالمزيد من التفكير وبالإخلاص للتفكير، لكي يكون علاجاً لهم من كل ما يشكون، من كل ما يخافون.

إن البشر لا يدركون أنهم مخطئون جداً في هذا التأميل. إنهم لا يدركون أنهم في ذلك كالذين يحاولون التداوي من الداء بالمزيد منه. إن كل ما عندهم من صواب وتوافق، واتفاق وصداقات، وسلام وسعادة.. إن كل ذلك ليس إلا خلق الضرورة، لا خلق التفكير.

إن الحيوانات والحشرات لو أصبحت مفكرة كالإنسان لازدادت تعادياً واختلافاً وتقاتلاً.

إن وحدات الطبيعة لو كانت تملك فكراً مثلما يملك الإنسان، لأصابها التنافر. إنها حينئذٍ قد تقيم الحروب فيما بينها.. إنها حينئذٍ قد تصاب بالدمار الشامل.



إن التحدث عن الأشياء بلا رسالة، إن التحديق الطويل التائه في الأفق البعيد، في الأفق المطلق حيث لا شيء، هما التفسير الكامل لمعنى الكاتب.

إن الكاتب هو التحدث والتحديق بلا أفق، بلا رسالة.

إنه لمحتوم على المجتمع أن يقيم معارضة من نفسه ضد نفسه.

إن الكتاب هم دائماً أركان هذه المعارضة.. إن في تصميم كينونتهم أن يعارضوا كل الأشياء المتقررة المتحددة، من الحقائق والأفكار والمذاهب، من الرجال والنظم والتقاليد والعقائد.

إن في نية الأشياء ـ كل الأشياء ـ أن تحافظ على وجودها، أن تقاوم عوامل التغير. إن المفروض أن يكون عمل الكتاب قلقلة هذه الأشياء، وإكراهها على الحركة والتغير، أو على الزوال.

*

محارب.. وليس عازفاً

الكاتب يعمل في الناس لا من أجلهم.

إنه لا يجيء لأن دعوة ملحة وجهت إليه، إنما يجيء متطفلاً.

إنه يجيء لاضطراره إلى المجيء، لا لحاجة الآخرين إلى مجيئه. إنه سقوط على المجتمع، لا موت في سبيله. إنه يقرأ نفسه على المجتمع، ويستمع إلى نفسه، بواسطة المجتمع.

إنه لا يتحدث إلى الناس، ولا عن الناس؛ وإنما يتحدث عن نفسه إلى نفسه في بيوت الناس، ومخادعهم ومكاتبهم وخلواتهم، بالكره منهم.

ومع أن موضوع الكاتب موضوع فدائي، فإن حوافزه وأهدافه ذاتية، مسرفة في ذاتيتها.

إذا وجدنا كاتباً يذوب حزناً ودموعاً على الخاطئين والمتألمين والمظلومين، فهذا الكاتب لا يمتاز بامتلاك مقادير من الفضيلة أو الحب، أو النزاهة أو الشجاعة. إنه قد يكون ممتازاً بالحقد والوحشية، والبغض والكآبة الروحية، وبالجبن أيضاً.

إن الكاتب مشغول بنفسه وبآلامه عن أية آلام أخرى. إنه يتحدث عن شؤونه هو، بأسلوب يوهم القارىء الذكي أنه يتحدث عن شؤون الآخرين، وإنه إنسان مصوغ من الحب والرحمة.

إن المشكلة أن عيوب الكتّاب لا تنفصل عن أفكارهم، فإذا قرأنا لأي كاتب كان معنى هذا أن نقرأ جميع ما فيه من نقائص على أنها رسالة إنسانية موجهة إلينا، من إنسان يعيش مع الآلهة.. من إنسان تتعلم منه الآلهة.

إن الكتّاب قوم يبيعون همومهم على الناس. إنهم يلقون بها فوقهم بالإكراه.

إن الكتّاب بطبيعتهم عدوانيون، مهما أعطوا من نتائج جيدة. أليسوا يفرضون أنفسهم على المجتمعات، ويطلقون عليها كل ما فيهم من هراء وتعب وضلال..؟ حتى حينما يعطونها أزهاراً ومسرات وحباً، لا يقصدون أن يفعلوا ذلك. إن الكاتب مفترس، إنه يقتات بمن يبكي عليهم، وبمن يشقى بحبه لهم.

ليست مهنة الكتابة إلا آلاماً خاصة توزع توزيعاً عاماً.

إن جميع الفنون ليست إلا أساليب عرض أو استعراض للذات أو فرار منها. إنه ليس فيها ما هو تضحية أو محبة. إن كل الأعمال الفنية والعقلية، كالتفكير والشعر والنبوة، والرغبة في الإصلاح، ليست سوى ظواهر عصبية أبرزتها قدرة ممتازة على التعبير، على الافتضاح في السوق.

لقد كان المفروض دائماً أن الكاتب رسول يجيء ليخالف المجتمع، ليتعبه، ليغيره. إنه ليس شاعراً مداحاً يطلق نفسه في الأسواق لامتداح رذائلها، لامتداح ضعفها وأوهامها. المفروض أن الكاتب كائن محارب، وليس مغنياً.

إن موضوع الكاتب هو حياة الإنسان وكل ما له علاقة بحياته أو تأثير عليها. إنه ينتقدها ليطورها ويهذبها لأنه رسول يدعو إلى عالم أفضل. إن الله لم يبعث رسولاً مداحاً يمدح ما هو موجود أو يمدح المجتمع، ليفسده بالثناء وبالرضا عما يمارس، عما يعاني.

إن الرسول ـ أي رسول ـ هو دائماً هجوم وإقلاق وإثارة، وإحداث للألم.. إنه دائماً أسلوب من أساليب القلق والتشاؤم الذي يتحول إلى شك ومحاولة لتغيير الناس والأشياء.

إن الرسول لا يمكن أن يتحول إلى قصيدة امبراطورية، أو قصيدة سوقية ليتملق بها فساد امبراطور أو ضعف جمهور.

إن الذي يتملق مشاعر الأسواق ليس أقل جريمة من الذي يتملق مشاعر الحكام. إن الحافز لمتملق المجتمع، هو نفس الحافز لمتملق التاج. والخطأ هو نفس الخطأ، والربح هو الربح، والنتيجة هي النتيجة.

إننا لا نستطيع أن نفترض الكاتب شيئاً ما غير أن نفترضه رسولاً.. ولكن الكاتب في أكثر الظروف لا يحمل رسالة رسول، إنه لا يحمل رسالة ما.

إنه مداح، أو متلائم، أو مصلٍّ في المعبد الذي يصلي فيه السلطان أو تتجمع فيه أقدم وأقوى الأوثان. إنه إما عابد للسلطان والخليفة، أو عابد للتاريخ والسوق.

فرار من وقاحة الحقيقة

ماذا يكتب..؟

إنه لا يريد أن يتعب نفسه أو يتعب جمهوره. لقد تحول إلى قارع طبول، إلى منشد، إلى خطيب في معبد تاريخي أو حكومي.

لقد وجد جماهير غافلة متفائلة، راضية عن نفسها وعن ضعفها، عن أمسها وعن يومها وعن غدها.. عن آلهتها، عن معلميها، عن قبورها.. عن كل آلامها.

وجدها تعيش كل الغباء، كل الهوان دون أن تبكي أو تعصي أو تلعن.

وجدها مصدقة لا تعرف الشك ولا تريده، وجدها فاقدة لكل مزايا النقد.

وجدها تملك أحقاداً وأوهاماً صغيرة نبيلة، فلم يحاول أن يرهق نفسه، أو يورطها في أن يخالف هذه الجماهير أو يعلمها أو يصطدم بها.

إنه لم يحاول أن يفجع هذه الجماهير.

لقد كان في سلوكه هذا كذاباً لا نبيلاً.. لقد كان مداحاً لا نبياً.

كان الأسلوب السهل أن يتملق ويمدح ففعل.

لقد حمل المعازف ليغني لها أغاني الاسترخاء والاطمئنان البليد.. ليغني لها أغاني الرضا عن كل ما تعاني وتمارس من أكاذيب وتفاهات، وشقاء وأحزان، وطغيان وهوان.. عن كل ما في الحياة من عار وتحطيم وهزائم، ومصير بذيء كريه..

إن الجماهير تكره التشاؤم، وتكره أن تعرف نفسها، أو تعرف الحقائق، أو تعرف أنها لا تعرف.

إنها تكره التشاؤم لأنه نوع من النقد، وتكره النقد لأنه ينطوي في معناه على المطالبة بالتغيير، والتغيير مخيف لأنه تعب وخطو إلى المجهول.

وهي ترحب بالتفاؤل لأنه تسامح مع الضعف والألم، لأنه تسويغ للعجز والانتظار والاستقرار، وللهرب من الشعور بالنقص وبالالتزامات الثقيلة، لأنه تسويغ لكل عذاب وهوان.

إن الذين يبشرون بالتفاؤل، هم إما منافقون أو مستغلون أو أغبياء، أو مرددون لشعارات ألّفها قوم من الدهاة تحت أغراض مذهبية أو سياسية.

إن الحاكم الفاسد في أكثر المجتمعات تأخراً وهواناً وفساداً، هو أكثر الناس تفاؤلاً وإيماناً بمزايا التفاؤل.

إن التفاؤل إما بلادة أو حيلة، ما لم يكن مزاجاً نفسياً.

إننا نجد أشد الناس تفاؤلاً هم المستفيدين من السوق أو المجانين.

إننا نجد الشعوب البدوية المقهورة أكثر تفاؤلاً من الشعوب المتحضرة. إننا نجد الأغبياء يتفاءلون أكثر من الأذكياء.. إننا قد نتفاءل في دعوتنا لأننا متشائمون في داخلنا.

إن التفاؤل محاولة للرضا عن النفس، وعن وسائلها في الحياة بكل ما سوف تؤدي إليه من نتائج. إنه جبن وبحث عن العزاء المريح. إنه مجاملة بأسلوب ما، لشيء ما.

إن التفاؤل فرار من وقاحة الحقيقة، ومن ألم الإحساس بها.

إن التشاؤم الهدام ليس تشاؤماً، إنه خوف قتال أو هزيمة كاملة.

أما التشاؤم، فإنه رؤية للواقع بكل ما فيه من وحشية، إنه اعتراف بهذا الواقع، وتحدث عنه بجسارة.

إن الجماهير تنقاد للذين ينشرون فيها فلسفة التفاؤل وتهبهم إيمانهم وقيادها. إنها تريد وتشتهي أن تنخدع لهم لأنهم يربحونها

إنه إذا نزل السوق داعيتان: داعية تفاؤل، وداعية تحذير، يتحدث عن أن كل إنسان لا بد أن يموت، لا بد أن يشيخ، عن أن كل إنسان ممكن أن يتعذب، أن يهزم، أن يفقد أسنانه. فمعروف جداً من الذي سوف يجلسه السوق على عرشه.

ما أقسى الطبيب الذي يقول كل الحقيقة لمرضاه.. ما أقل الذين يؤمنون حينئذٍ بتقواه أو بنبوته، أو بقيمته، أو بمعرفته لعمله.

إن من يدعون إلى البقاء تحت سفح الجبل سيلقون أتباعاً أكثر من الذين يدعون إلى صعود القمة الخطرة.

إن الذين يبشرون بالأوهام السهلة، يكونون أنبياء أكثر من الذين يأتون بالمعجزات.

إن الحياة احتمال دائم، وكذا الحقيقة.

إن الحقيقة ليست هي إذن أن نتفاءل فقط. إن التفاؤل ينقلنا من أن نبقى احتمالاً، إلى أن نتحول قدراً.

ليس معنى التشاؤم الاستسلام والبكاء. إن معناه تقوية الجسور، والبحث عن الوجه الآخر من الكون، ومن الحياة، ومن الناس.

وكثيراً ما يكون التشاؤم حالة لا فكرة، ولعله دائماً كذلك. إن المرضى والضعفاء، يكونون في الغالب ودائماً متشائمين. أما الأصحاء والأقوياء، فهم في الأكثر أو دائماً متفائلون.

إن التشاؤم والتفاؤل غالباً أو دائماً حالة ذات. إنهم ليسا ظروفاً ولا منطقاً.

إن التفاؤل قد يهبنا الراحة، ولكنه لن يهبنا الحقيقة. قد تكون راحة المتفائلين كراحة المخدرين، قد تكون راحة تؤدي إلى التعب والضعف.

إنني لا أدعو إلى التشاؤم الكئيب.

إنني أدعو إلى رؤية الحقيقة بكل احتمالاتها وأخطارها، مع الابتسام والغناء إذا كان ذلك مستطاعاً.

وهل أنا أدعو..؟

هل أدعو.. أم أعبر.. هل أنا معلم أم باك، واجد، واصف رآءٍ، مخبر..؟

إنني أدعو إلى التفكير المتشائم والحياة المتفائلة.. أدعو إلى أن نتشاءم إذا فكرنا، وإلى أن نتفاءل إذا مارسنا الحياة.. إذا مارسنا الحب.. إذا مارسنا النوم.. إذا مارسنا علاقاتنا بالآخرين.

والكتاب الأردياء يختارون دائماً الوسيلة السهلة المألوفة. يختارون أن يغنوا للنائمين، بدل أن يوقظوهم أو يحركوهم. لقد وجدوا أن أيسر ما يصنعون أن يغمدوا قراءهم في أنفسهم، أن يحولوا شهوات الحياة فيهم إلى أحقاد وآمال لا تتعب من الانتظار.

والكاتب في الأغلب، متهم بأنه يختار الطريقة المضللة المريحة. إنه لا يعلم قراءه.. إنه يخدعهم.. إنه يدرسهم أنهم أذكى الناس وأقواهم، وأشرفهم وأعرقهم فضيلة، وأنفذهم في وعي الأمور، وأنهم منتصرون وصائرون إلى جميع ما يشتهون، وأنهم مبرؤون من العيوب، وأن كل حقائقهم حقائق خالدة.

إنه ليزعم لهم أن الله وأن الطبيعة لم يوجدا ولم يقبلا وجودهما إلا لكي يعملا من

أجلهم. إنه ليزعم لهم أن اللّه والطبيعة لم يقبلا عبقريتهما إلا لكي يصباها في أنهار شهواتهم وتفاهاتهم.

إنه يزكي من غير وقار، مشاعرهم وأوهامهم بكل ما فيها من ضغينة وصغار، وضلالة وعقم.. إنه يملأ الزقاق الفارغة بالهواء الفاسد.. إنه لا يترك لهم فرصة لاستنشاق الهواء النظيف.

إنه يكرر قراءه على أنفسهم.

إنه لا يقطع لهم من ذاته شيئاً، ولعله لا يملك شيئاً يمكن أن يقطعه لهم. إن تكراره لهم يجعله يضربهم في أنفسهم، فيعطي النتيجة التي يعطيها ضرب أرقام معينة في أرقام مثلها.

إنه يضرب أحقادهم في أحقادهم.. إنه يضرب أوهامهم في أوهامهم، وضعفهم في ضعفهم، وتفاؤلهم في تفاؤلهم، وثقتهم بأنفسهم في ثقتهم.

إنه إذن لا يغيرهم.. إنه يضاعف حماسهم لبقائهم في طفولتهم، في هوانهم وآلامهم.

كان الشاعر القديم ينافق الحاكم وحده.

أما الكاتب الحديث، فينافق الحاكم والجمهور معاً.. إنه يقول لكل منهما ما يريده، لا ما يغيره أو ما يصدمه. لهذا أصبح الكاتب أشد احتياجاً إلى النضال ضد الصدق. لقد أصبح الكاتب في الأغلب أحد أعداء الحقيقة الشرسين.

إن الكتاب لقيود على المجتمعات وعلى التاريخ، لقد ظلوا في كل التاريخ كذلك، ولكنهم قيود غير ملزمة.

لائحة اتهام

أما الكاتب العربي.. فأتهمه بأنه لم يكن بطلاً، ولا فدائياً.

إن البطولة نوع عظيم من التحدي والعصيان. إن البطل هو الذي يتمرد على المجتمع، هو الذي يتمرد على أخطاره ومغرياته، هو الذي ينتصر أو يموت دفاعاً عن شيء، هو الذي يموت لأنه بطل، لا لأنه يدافع عن شيء.

إن البطل يموت لأنه بطل، لا لأنه يحمي أو يريد شيئاً.. إنه يموت كما يموت الحيوان الشجاع، إنه لا يموت لأنه صاحب رسالة.

إن البطل لا يسير في الطريق العام بل يخرج عنه، هو لا يطيع كما تطيع الجماهير، هو لا يرضى عما ترضى عنه، أو يؤمن بآلهة السوق أو أخلاقها أو تعاليمها.

إن البطل دائماً إزعاج وخروج على المقررات والقوانين، وعلى آلهة السوق.

إن الكاتب العربي لم يستطع أن يكون بطلاً.. لم يستطع أن يتحدى أو يعصي أو يخالف القوانين.. لم يستطع أن يموت.. لم يجرؤ على الدخول في حوار حرّ مع الموت، مهما كانت شروط الحياة عليه، مهما كان فسوق الحياة به.

إنه دائماً راكع ومطيع.. إنه يطيع القوة، ويطيع الجماهير والتقاليد، والأفكار المعروضة في السوق.

إنه يطيع كل الأوامر.. إنه يخاف أن يعصي أو يخالف.. إنه يعبد كل الأصنام في كل المحاريب.. إنه يتحول إلى داعية خوف وطاعة.. إنه يعلم الجماهير كيف تطيع وتخاف.. إنه يسوغ لها ذلك ويدعوها إليه..

إنه رسول مضاد.. إنه رسول مضاد لمعنى كل رسالة.. إنه يلوث السوق أكثر من أن يحاول تنظيفها.

إنه دائماً يقرأ على الجماهير أنفسهم، ويهبهم ما معهم، ما عندهم.. إنه يعلمهم ما يعرفون.. إنه دائماً يفسر لهم إلههم، ويقرر مزاياه.

وإذا تحدى الكاتب العربي أو قاوم فلا يحتمل أن يكون شجاعاً. إنه لا بد أن يكون تاجراً أو مخدوعاً، لا بد أن يكون آمناً من الخطر ولو في حسابه، وأن يكون قد قدر فوجد أن موقفه هذا يمنحه من المكاسب أكثر مما يمنحه الموقف الآخر المضاد.

إنه يعارض حيث تكون المعارضة مغنماً لا مخاطرة. إن المعارضة عنده دائماً نوع من البحث عن الربح، لا عن التضحية. ليست المعارضة عنده صراعاً مع الخطر.. إنها مغازلة ومساومة، ومتاجرة وإعلان.. إنها هرب من احتمالات الخطر.. إنها تملق للخطر.

لم يقف الكاتب العربي في وجه الخطر فلم يدفع الثمن.

إنه قد يرى الوقوف في وجه الخطر غباء، أو عصياناً للإله لا يمكن غفرانه.

لقد وجد شهداء للبطولة في كل كتاب الشعوب العظيمة، أما كتاب العرب فقد وجدناهم أمام الخوف، أمام أي احتمال للخطر أكثر ركوعاً من الباعة والعمال وأصحاب الحرف. إنهم لو فعل بعضهم شيئاً فيه مخاطرة، لكان نوعاً من الخطأ في التقدير أو التورط.. إن ذلك لن يكون تحدياً ولا شجاعة.

الكاتب العربي يكون متحدياً أو شجاعاً..؟

لقد وجدناهم يعبدون الله والشيطان في وقتين مختلفين.. إنهم لا يعبدون الله لحكمته،

ولا يعبدون الشيطان لأصالته أو بسالته أو لرفضه. إنهم يعبدونهما لضعفهم وخوفهم وجوعهم.

ويكذب غباء

وأتهمه بأنه ليس ناقداً.. إنه لا يعرف الحدود الفاصلة بين الأكاذيب الكبيرة وبين الحقائق.. إنه قارىء وسامع وهاو للخرافة.. إنه ليس مساحاً يخطط الحدود ويضع العلامات.. إنه قارىء لا يعتقد أن الحروف تكذب أو تخطىء مهما يكن غير قارئ.

إن الإشاعة والخبر المكذوب، والحديث في السوق، والكذبة السياسية، والتصريح الرسمي.. إن كل ذلك حقائق عنده، يصنع منها أربابه ومذاهبه، وعقائده، وأحكامه على الأشياء والناس والحياة. إنه يفسر بها السياسة العالمية والدول والأشخاص، والآلهة والكون والمواقف. إنه يصنع منها كل الغذاء الذي يطعم به خرافه.

إنه يكذب غباء، تصديقاً لمن يكذبون دهاء.. حتى الكذب دهاء لا يستطيعه.. إن ذلك مستوى عقلي.. إنه مستوى صعب.

إن الدهاء قوة مهما نافق، وهل يستطيع أن يكون قوياً.. هل يستطيع الكاتب العربي أن يكون قوياً، على أي تفسير من تفاسير القوة..؟

إنه لاحتمال يصدم المنطق أن يكون الكاتب العربي قوياً أو شجاعاً.. إنه لاحتمال سخيف مذهل.

إنه يأخذ كل حقائقه من الإذاعات والصحف، وأحاديث المجالس، ومن النقوش فوق القبور. وهذه كما هو محتوم تجيء متناقضة.

إذن كيف يتصرف..؟

إنه تارة يتعدد ويتناقض بتعدد وتناقض هذه الحقائق. إنه يذهب في أشواط لا تنتهي بين التصديق والتكذيب، بين الصعود والهبوط في مجال واحد.

ومهما تناقض، مهما آمن بالشيء ونقيضه، مهما آمن بالله وعبد الشيطان، مهما آمن بالحرية وهتف للطغيان، مهما امتدح الخالق ولعن مخلوقاته، فهو غير متناقض. إن إدراك التناقض مستوى أعلى من نفس التناقض.

وتارة يمسك بطرف واحد، ويصدق أحد الجانبين المتناقضين، ويراه الحقيقة كلها. إنه يرفض ما يناقضه، إنه يأخذ حينئذٍ بمبدأ الحقيقة الواحدة. إن الحقيقة عنده دائماً غير منقسمة.. إنها يملكها كلها جانب واحد، إنسان واحد أو زعيم واحد أو مذهب واحد.

إنه يتجه هذا الاتجاه حينما يكون التناقض عليه محرماً.. حينما يكون عاجزاً عن التناقض، وعاجزاً عن أن يقتنع بهذا وبهذا، لأنه خائف أو منافق.. لأنه لا يملك قدرة فكرية أو ثقافية تجعله يشك ويتناقض.

إن أسوأ ما يحدث لأي إنسان في هذه الدنيا أن يكون عاجزاً عن التناقض لأنه جبانٌ أو بليد. قلت ذات مرة لمثقف كبير يشرف على مؤسسة ثقافية في بلد عربي كبير أيها المتألق، فجاءت في أذنه «المتقلب» بدل المتألق، فقال لقد بالغت وجاملت، متى نستطيع أن نكون متقلبين.. ذلك مستوى من الحرية متى نبلغه.. كيف نبلغه..؟

هو لا يملك تجربة ولا معرفة، تجعله يستطيع التمييز بين المستحيلات والممكنات. إن البشاعة والاستحالة، والظروف والقرائن، لا تؤثر في عزمه على التصديق.

لقد سمع الشيء أو قرأه، أو اشتهى تصديقه، أو ولد به، وهو يوافق مذهبه السياسي أو الفكري أو الديني، إذن هو صادق.

وهل له مذهب ديني أو سياسي أو فكري..؟

أليس هو مقلداً للسوق، أو خائفاً من الخليفة..؟

إنه لا يقرأ الخبر من داخله أو من ظروفه، بل من حروفه ومن السوق، ومن رغبته هو.

إن الفصل بين الصدق والكذب في تقديره هو اتجاهه هو، هو مخالفته أو موافقته. إن ما يوافق هواه أو مذهبه، أو مزاجه الثقافي أو خوفه، هو الصدق، وإن ما يخالف ذلك هو الكذب.

إنه لا يفهم الحياة بقوانين الحياة.. إنه لا يحكم على الخبر بأخلاق الخبر.

إنه ليس شيئاً فوق المحاريب أو الجماهير.. إنه لا يملك مستويات ذهنية أو أخلاقية أو ذاتية فوق المحاريب أو الجماهير.. إنه يعلم المحاريب والجماهير مستويات جديدة للهبوط، للهبوط النفسي والعقلي.. إنه داعية، إنه داعية ضعف وهبوط، داعية انهزام.

إنه يحول قراءه إلى أعشاب يحرقها بالتهاويل والأكاذيب الممتصة للطاقات الانفعالية.

إن تعويد الإنسان على ابتلاع الكذب يفسد عليه وعيه وشجاعته. إن الذي يعتاد الاستسلام للأكاذيب البذيئة، يهون عليه الاستسلام للحقائق البذيئة.

لا يعالجون.. بل يشتمون

وأتهمه بأنه لم يبلغ مرحلة الوعي. إنه لا يرتفع إلى القدرة على فهم القضايا التي تواجهه، وإنه لذلك لا يرتفع إلى مستوى القدرة على علاجها.

إنه يكتب ويفسر ويعلل، ولكن بدون أن يفهم. إنه يفسر أصعب وأكبر القضايا، دون أن يخشى الخطأ.. دون أن يهاب.

إن ثقته بنفسه وبتفاسيره عظيمة، عظيمة كثقته بأربابه ومعلميه وتاريخه.. إنه لا يخطىء.. إنه لا يخاف الخطأ، لأنه لا يعرف الحدود بين الخطأ والصواب، لأنه لا يعرف أخلاقهما.

إن تفاسيره للأشياء دائماً سابقة وثابتة. هو لا يدرك أنه لا توجد حقيقة محددة أو مفسرة تفسيراً سابقاً منتهياً، وإنه لذلك لا يمكن أن تفهم الحقائق من ذاتها، وأن أي شخص أو شعب أو موقف لا يمكن أن تفسره مثله ولا نظرياته، إنما تفسر ظروفه، كما أن ظروفه أيضاً هي التي تضع له مثله ونظرياته. إن هذه الظروف خاضعة أيضاً لظروف أخرى، إنها إذن غير متقررة.

إن رؤية الأشياء غير مفسرة أو مقررة، تعني في حسابه الطعن في الإله الذي يبالغ في احترامه، بقدر ما يبالغ في عصيانه.

إذن لا يوجد موقف ولا تفسير ولا شخص متحدد، كذلك لا توجد حقيقة متحددة ولا دولة متحددة، إذن فالذين يتخذون موقفاً متحدداً أو يفهمون الحياة فهماً متحدداً، هم قوم خارجون على قوانين الحياة والأشياء.

إن الكتّاب العرب لا يفهمون المشاكل ولا يعالجونها، ولكن يشتمونها. يشتمونها بكل ذكاء، بكل اقتناع بالذكاء، أي بذكائهم.

إنهم يشتمون المشاكل أكثر مما يفهمها الآخرون.. إنهم يقتنعون بشتمهم أكثر مما يقتنع الآخرون بفهمهم.. إنهم عاجزون فكرياً عن التحرك بالسرعة بالقوة التي تتحرك بها الظروف والأحداث والناس. إن تعقيدات الأسباب والمسببات وتحركاتها، أقوى من تحركات طاقاتهم الذهنية والتفسيرية. إن الشمعة أصغر من الشمس بقدر ما موهبتهم أصغر من المشاكل.

إن الحوادث دائماً تسير في طريق متعرج مخادع، في طريق متناقض. إن كاتبها يحتاج إلى عمليات فكرية مماثلة. إن أخلاق الحوادث مرهق ومضلل لأضخم العقول.

الكتاب العرب لم يتعلموا أن يفهموا ويفسروا، إنما تعلموا أن يسبوا ويتهموا. إنهم متفوقون على جميع كتّاب العالم في السباب والاتهام، في سباب واتهام كل شيء، كل أحد.

إنهم لم يعيشوا في مجتمعات تعالج الأزمات بالتدبير والإعداد، إنهم لذلك لم يتعلموا أن يعالجوها بالتفكير.

وهل العجز فيما يملكون، أم في استعمال ما يملكون.. هل العجز في قدرتهم العقلية، أم في استعمالهم لهذه القدرة العقلية..؟

لقد وجدوا في بيئات تكثر في الصياح حين الخطر، فصاروا هم يكثرون من الصياح كذلك عند وجود المشكلة. إن الصياح أقوى أساليبهم في علاج المشاكل.

إنهم لا يختلفون في فهمهم وتفسيرهم للمشاكل، لأنهم في الحقيقة لا يفهمونها ولا يفسرونها؛ إنما يتكلمون فيها، إنما يصيحون ويشتمون ويهددون. وهذا أعلى مستويات الفهم عندهم.

إنهم يتكررون جميعاً في تصور واحد ثابت، في أسلوب واحد من السباب والصراخ.

إن الذين يفهمون موضوعاتهم لا يمكن أن يتفقوا عليها.

إن الذين يتفقون على معتقداتهم، على مرئياتهم، على فهمهم، على تصوراتهم، على تفاسيرهم لأربابهم، لمذاهبهم، لاحتياجاتهم لأنفسهم، هم قوم لا يعرفون ذلك.

إنه إذا عرض موضوع على قوم فسيكون أكثرهم اختلافاً عليه هم أكثرهم وعياً واحتراماً له، وسيتفق عليه أولئك الذين لا يعونه ولا يحترمونه.

إن جميع كتّاب العرب يحيون بروح واحدة، بروح قد أضعفها طول تقمصها للتاريخ. إن نبياً واحداً يعيش دون أن يتغير أو يختلف في عقل كل كاتب عربي، ليصوغهم جميعاً صياغة واحدة، فلا يختلفون في الكتاب المنزل ولا في تفاسيره.

ولعلهم غير محتاجين إلى وعي الأشياء وعلاجها، لعلهم يهربون من ذلك. إن قراءهم طيبون ومتواضعون. إنهم لا يحوجونهم إلى صعود هذا المرتقى، بل لعل هؤلاء القراء يهابون ويستنكرون الكتّاب الذين يتعمقون في الفهم. الذين يتعمقون في الفهم، ويصعبون الأشياء الصعبة على قرائهم. إن الذين يصعبون فهم الأشياء على قرائهم، هم قوم يقاتلون قراءهم، يشاتمونهم، يحقرونهم. لعلهم يرونهم متعبين، لا بد من رفضهم والكفر بما عندهم.

إن البشر في الأكثر يرحبون بمن يدللون مشاعرهم، لا بمن يعلمون عقولهم. إن العقول يجب أن تنام لتجن الحياة، والويل لمن يريد أن يوقظ العقول النائمة.. إن استيقاظ العقول نوع من الجحيم، نوع من الجنون.

إنهم يعطون أحكامهم قاطعة لا ترجيح فيها ولا شك. إن القول بالاحتمال يخيفهم ويرهقهم، فيفرون إلى القول باليقين. إن الاحتمال ضياع، وتيه، وتمزق.

إنهم بهذا يغلقون كل احتمالات المعرفة المتجددة. إنهم يفرضون آراء معينة. إنهم يرهبون المخالفين.. إنهم يفترضون خونة.

إنهم يصبون البشر في إنسان واحد.. في إنسان بليد.

إنه لمن الصعب أن يفكر أو يتجدد قوم قد انتهوا من معرفة الحق، وعينوه تعييناً لا يقبل الخلاف أو المناقشة.

إنه صعب جداً أن يوجد بين هؤلاء من يجرؤ على مخالفة الآراء المسلمة التي تؤمن بها السوق على أنها حقائق نهائية، سواء أكانت هذه الآراء سياسية أم فكرية أم دينية.

قد يجرؤ الكاتب على الانتحار، ولكن هل يجرؤ على مخالفة من يحكمون على الأشياء أحكاماً قاطعة متعصبة..؟

إن الذين لا يشكون هم الذين لا يعلمون.

إن العلم دائماً شك.. إن الجهل دائماً يقين.

إننا كلما علمنا الشيء وأحطنا به ازددنا شكاً.. إن المبصرين هم أكثر من العميان شكاً في مرئياتهم.

إن كلمة يقين لا تعيش إلا خارج الكون والحياة والناس.

إنه أقل من الكذب

وأتهمه بأنه لا يتحرى الصدق، ولا يحترم الحقيقة.

بل إنه لا يستطيع الصدق ولا يطمح إليه. إنه يكذب ويشعر أنه لا بد أن يكذب، وأن من الذكاء أن يكذب، وإنه يعيش في مجتمع لا ينتصر فيه إلا من يكذبون.

بل أتهمه أكثر.. إنه لا يكذب.. إنه أقل من الكذب، لأن الكذب حالة من حالات الوعي والمعرفة.

إنه لم يصنع له مثلاً فكرياً عظيماً يموت دونه، يدافع عنه، يغضب له.

متى مات أو تعذب، أو دافع أو غضب من أجل موقف فكري..؟

متى رفض أن يركع، أو يهون أو يكذب احتراماً لمثل فكري..؟

متى دافع عن أية حقيقة كما يدافع الحيوان عن موقفه بلا حقيقة..؟

إنه لا يتحمس للمعاني الإنسانية الكبيرة.. ما هي المعاني الإنسانية الكبيرة..؟

ما هو الصدق.. ما الكذب..؟

إنهما ليسا أجرين متفاوتي القيمة. إنه ليس بينهما فاصل يعترف به ويحترمه. إنهما حقيقة واحدة تعطي طعماً واحداً ونتيجة واحدة.

إنه لا يموت إذا لم يصدق.. إذن لماذا يصدق..؟

إنه لا يستطيع أن يشتري السلع بأسعار أقل إذا لم يكذب.. إذن لماذا لا يكذب..؟

إذن كم هو ذكي لأنه يكذب، لأنه لا يصدق..؟

ثم ما هي الحقيقة..؟

إنها هي أن يصل إلى أغراضه من كل الطرق، من أقرب الطرق.

إنه يكذب دائماً، يكذب حتى حينما يكون صادقاً. إنه يصدق أحياناً لأنه كاذب، لأنه يريد أن يفهم فهماً كاذباً.

إنه يعارض أو يؤيد.. إنه يمدح أو يذم بلا حقيقة، بلا شرف.

إنه إذا لم يكذب، فليس لأنه يحترم الحقيقة بل لأنه يخشى الكذب، أو لأنه يريد أن يكون وقحاً. إن الإنسان يصدق أحياناً وقاحة لا صدقاً.

إن الإنسان يصدق أحياناً، حينما يكون الكذب ذنباً أو بذاءة، لأنه لا يبحث عن الصدق أو الفضيلة.

ليس لمواقفه الفكرية قيمة ولا دلالة فكرية. إنه لا يتحرى الصدق في أي موقف فكري إلا بالمقدار الذي يتحراه فيه المعلن عن أحد مساحيق التجميل.

إنه لا يدرك قوة الحقيقة، إنه لهذا لا يحترمها، إنه لهذا لا يضحي في سبيلها.

إن الجاهل لا يمكن أن يتعذب دفاعاً عن مثل فكري، لأنه لا يدرك قيمته. إن احترامنا للحقيقة منطلق دائماً عن إدراكنا لقوتها. إن الذين لا يحترمون الحقائق هم قوم عاجزون عن معرفتها. إن الذين يحترمون الحقائق لا بد أن تكون لهم مزايا فكرية. إنه من أجل أن تكون لنا فضائل أخلاقية يجب أن تكون لنا مثل فكرية.

إن الكاتب العربي لا يبالي بالحقيقة، وإنما يبالي بموقفها منه. إن تأييده وخذلانه لها قائمان دائماً على هذا الحساب. إنه إذا مدحها كان كاذباً بقدر ما يكون كاذباً إذا ذمها.

إنه قد يمتدح الحق ويدافع عنه، بالحافز الذي يمتدح به الباطل ويدافع به عنه. إنه كاذب في هذا، بقدر ما هو كاذب في الآخر. إنه متهم حينما يقف الموقف النبيل أكثر. إن من وراء موقفه النبيل ـ لو وقفه ـ حوافز وأهدافاً غير نبيلة.

إنه يعادي الحقيقة الكبيرة أكثر من عدائه للحقيقة الصغيرة. إن الحقيقة الكبيرة تخلق المنافسة والخوف والحقد، أكثر مما تصنع الحقيقة الصغيرة. إن الحقيقة الكبيرة تغضب وتخيف من يحتاج إلى رضاهم. إن الحقيقة الكبيرة تخاصمه وتتحداه أكثر.

إن الكاتب العربي لا يرى في القضايا الفكرية والأدبية، أكثر من انفعالات صغيرة يستجيب لها أو لا يستجيب بقدر ما فيها من تأثير على منافعه الخاصة، على أهوائه، على تقاليده، على أربابه، على مخاوفه.. إنه لا يستجيب ولكنه يسير، يطيع، يخاف.

إن أحكامه تشبه مبارزة كلامية سريعة تافهة تقع بينه وبين بائع متنقل في مساومة صغيرة. إنها تشبه محادثة مع صديقة مغرورة تهوى الإعجاب والإطراء، ويوجب الأدب لها ذلك.

إنه لا يعتقد أن للتاريخ أو للكرامة أو للمجتمع عليه حقاً أو حساباً. إن احترامه لنفسه ليس في حسابه، ليس افتراضاً من افتراضاته.. إنه متواضع جداً في تقديره لكرامته.

إنه لا يستطيع أن يتخذ مواقف متضادة، أو يشعر مشاعر متضادة إزاء الأشياء المتضادة. إن أحكامه لا تتغير على الأشياء المتغيرة لأنه لا يحكم على الأشياء. إنه يلائم فقط نفسه ووضعه مع الأشياء المتضادة، مع المذاهب والطغاة والآلهة، ومع السوق وحماقاتها البذيئة الصغيرة.

إن مستواه في بحثه عن التلاؤم، ليس أكبر كثيراً من مستوى أي كائن آخر يعيش بالتلاؤم.

إنه عاجز عن التحمس للشيء العظيم، عاجز عن الاستهجان المتحمس للشيء الرديء.

إن الحماس الغاضب، والحماس الراضي فوق ذكائه، فوق شجاعته.

يردون قبل السؤال

إن الكتّاب العرب لم يستطيعوا أن يخلقوا مولوداً فكرياً أو أدبياً عربياً، لقد ظلوا مظاهر ولادة ولم يتطوروا إلى ولادة.. إنهم لم يجروا عمليات المخاض الصادق.

إنهم لم يعطوا قيادة، ولا حرية، ولا مذهباً من المذاهب السياسية، أو الأدبية، أو الاجتماعية، أو الفكرية التي يعيشونها، أو التي يعيشها العالم.

إنهم لم يوجدوا ولم يغيروا.. بلى، لقد غيروا.. لقد مسخوا وشوهوا.

إن جميع المذاهب والقيادات، والفلسفات التي يحيا بها العالم، لم يضع الكتاب العرب واحداً منها. إنهم لم يضيفوا إليها أو يطوروها، أو يدخلوا أية تعديلات جيدة عليها..

كلا، إنهم لم يستطيعوا أن يصبحوا فاهمين مفسرين لها.. إنهم لم يستطيعوا أن يصبحوا شراحاً. لقد كان كل حولهم أن يتهموا ويسبوا تلك المذاهب والثقافات، أن يرفضوا احترامها والاعتراف لها بالقيمة أو التفوق. إن اعترافهم لها بأية مزية ينافي الوطنية، ينافي الاستقلال وكراهة الاستعمار.. إن احترام الآباء والنفس والوطن، ينافي الاعتراف بمزايا

الآخرين.. إن التاريخ المجيد ينكر هذا الاعتراف.. إن الآباء الكرام يرفضون الاعتراف بمزايا الآخرين، إن هذا الاعتراف يحقرهم، يعذبهم.

لم تربح الإنسانية ولا قومهم من وجودهم شيئاً.. وإنها لن تخسر كذلك لو لم يوجدوا، لأنهم لم يعطوا ولم يغيروا إلى الأفضل.

إنه لو بتر مكانهم من شريط المعرفة العالمية لما تبين مكان البتر.

كلا، إني هنا أفترض لهم مكاناً.. نعم إن لهم مكاناً، هو مكان التشويه والتغيير، والعاهات المستديمة.

إنهم يتكلمون في كل شيء، ولكن بأسلوب التهديد والكبرياء. إنهم يحلون كل مشكلة ولكن قبل أن يقرؤوها.

إن الفضيلة عندهم ليست أفكاراً، أو ابتكاراً، أو تواضعاً. إنها غرور، وتحد، واحتقار، وعداوة. إنها افتخار بالتاريخ، وبالآباء، بالمجد الذي قد مات، بالمجد الذي لم يوجد، بالمجد الذي هو كل العار وكل الضعف، بالمجد الذي أعطى كل هذه الهزائم وهذا الهوان.

إنهم يعيرون ويفاخرون، وهذا أقوى ما يفعلون. إن خصومهم ضعفاء، وأغبياء، ومهزومون، وبلا شرف، وبلا إباء، وبلا تاريخ، وبلا مجد.. أما هم فمعهم كل التاريخ، وكل الحقيقة، وكل المستقبل، وكل الشرف، وكل الذكاء، وكل المجد.

إن جميع ما يصنعون ليس إلا عملية إحراق لحماسهم وحماس الآخرين. إنهم يحولون توهج النفوس إلى جهود صغيرة من الانفعالات الضائعة، من القبضات بالأيدي المرتدة.

إنهم يهيجون المشاعر ولكنهم لا يعلمونها ولا ينظفونها. إنهم يجعلون من قرائهم غباراً تاريخياً. إنهم يصعدون إلى المجد الصغير الكاذب، بالسقوط فوق جماهيرهم.

إنهم مع هذا ليسوا منفصلين عن مجتمعهم، ليسوا نقصاً في جهاز كامل، ليسوا رذيلة واحدة في مجتمع من الفضائل. إنهم لغة لمجتمع، لغة تتكافأ مع المجتمع.. إنهم هم المجتمع متحولاً إلى تعبير.. إنهم هم المجتمع متحولاً إلى كتاب.

صحراء بلا أبعاد

قد نبحث عن اعتذار للكتّاب.

قد نقول: إن طغيان الحكام وتبلد المجتمعات، كانا يفرضان عليهم العجز والتفاهة.. قد نقول إن النبوغ يخنقه الخوف والقهر، والظروف الرديئة.. قد نقول إن نبوغ الكتاب وشجاعتهم قد قهرهما الخوف.

ولكن هذا الاعتذار يصوغ المشكلة ولا يحلها.

إن رسالة الكاتب هي أن يعلم الحرية، أن يوجدها، أن ينصرها على خصومها، أن يضعف أولئك الخصوم أو يزيلهم.

إن الحرية هي ولادة الكاتب، هي خلقه، هي عطاؤه الدائم، هي إحدى عطاياه الضخمة الكثيرة.

إن القول بأن الكتاب كانوا يعيشون تحت الخوف والكبت، يعني القول بأنهم عاجزون، ومقصرون، ومسؤولون، وأنهم لم يقاوموا ولم يفعلوا شيئاً.

إن المفروض على الكاتب أولاً أن يعطي نفسه الحرية، ثم أن يعطيها الآخرين. إن عجزه عن أن يكون حراً هو معنى المشكلة، هو معنى التهمة.

إذا لم يعط الكاتب الحرية فماذا يعطي.. إذا لم يستطع أن يقول.. فماذا يعني..؟

إنه مذنب إذا لم يكن حراً، وإنه مذنب أكثر إذا لم يستطع أن يكون حراً.

أنت مذنب إذا حكمك العدو، ومذنب أعظم إذا لم تقاومه. إذا سلمت له خوفاً من مقاومته.

ليس المطلوب من الكاتب أن يجد الحرية فيباركها.. أن يجد الطريق مفتوحاً واسعاً أمامه فيسير فيه متراخياً ينشد الأناشيد لمجد الحرية.

إن المطلوب منه أن يتعذب، أن يخاطر، أن يبدع ظروفه واحتياجاته. إنه بقدر ما هو مفروض على عمال المناجم والمصانع، والعاملين في الأرض أن يوجدوا عملهم، كذلك مفروض على الكاتب أن يناضل لإيجاد الحرية. إن أولئك مطلوب منهم أن يزيلوا كل ما يعوق عملهم وإنتاجهم، وإن الكتاب مطلوب منهم أن يقودوا المعركة ضد طغيان الحكم، واللاهوت، والرجعية، وكل ما يؤخر ازدهار التفكير الحر.

حينما نسوي الكتاب بعمال المناجم والمصانع والأرض.. ألسنا نبالغ في امتداح الكتاب..؟

إن انتصار أعداء الحرية يبرر اتهام الكتاب لا براءتهم. إنهم بقدر ما يكون توطن الأوبئة دليلاً على ضعف المستويات الصحية، كذلك يكون فقدان الحرية دليلاً على ضعف الكتاب وإفلاسهم.

إن وجود الدكتاتورية في أي مجتمع يعد اتهاماً عنيفاً للكتاب، إنه يمكن أن يكون اعتذاراً عنهم. إن المفروض فيهم أن يمنعوا وجود الطغيان لا أن يكون وجوده محللاً لنفاقهم وهوانهم. إن هزيمة الطغيان والغواية هي التفسير لمعنى الكاتب، هي المعنى لوجوده. إن وجودهما معاً يعني أن أحدهما لا معنى لوجوده.

حينما نفترض الحرية موجودة، والمجتمعات متطورة واعية، والحكم صالحاً عادلاً، وكل شيء على ما يرام، فما هو موضوع الكتاب حينئذٍ.. ما هي أعمالهم.. لماذا خلقتهم حينئذٍ الجحيم.. لماذا أسقطتهم حينئذٍ النجوم الغاضبة على الأرض المريضة بالكتاب والمعلمين، والطغاة وبالبشر أيضاً..؟

لماذا إذن يعيشون.. لماذا إذن يقرأ لهم الناس.. لماذا يتحملون تكاليف وجودهم..؟

إن الكاتب العربي ليس متهماً فقط بأنه خائف مكره. إن هذا أصغر ذنوبه.. إن خوف الكاتب قد يكون ذا دلالة كبيرة. إن الكاتب الذي يخاف، هو الكاتب الذي قد يكون خطيراً ومخيفاً. أين الكاتب الخائف لأنه مخيف..؟ أريد أن أعزي نفسي، أريد أن أجاملها برؤيته.

لقد أصبحنا لا نراه، أصبحنا لا نسمع به، أصبحنا لا نتوقع حضوره.

أريد أن أرى كاتباً خائفاً.. أريد أن أرى كاتباً خائفاً لأنه قد يكون مخيفاً.. أريد، أريد أن أراه، أن أراه.

إن الكاتب العربي متهم بأنه في ذاته ليس كبيراً.. إنه متهم بأنه ضعيف، ومجدب من داخله.. إنه صحراء بلا اتساع أو أبعاد.

إنه ليس قوة داخلية عظيمة منعها الضغط الخارجي من التعبير عن قيمتها. لقد كان الكاتب العربي يصنع ضعفه من داخله. لقد كان بهذا الضعف الداخلي يخاف الحرية والتفكير.. لقد كان يعاديهما ويحتلم بالأشباح والخرافات.. لقد كان هو نفسه يبتكر المبررات الأخلاقية والفكرية، والدينية والتاريخية، لتسويغ طغيان الحكم ورجعية المجتمع، والخوف من التطور والحرية.

إننا على امتداد التاريخ نجد هؤلاء الكتاب، أو نجد أكثرهم في أول القافلة يحدون للطغيان وللمجتمعات الضالة.. نجدهم يشرعون لها الخرافة، وعداوة العقل والعدل والحضارة. لقد كانوا هم المحلل الأدبي لكل المظالم والغوايات الفكرية. إنهم لم يكونوا يفعلون ذلك بقدر ما يخافون ويكرهون.. لقد كانوا ينافقون ويكذبون ويصوغون الأباطيل والتفاهات، متبرعين ومبتدئين، ملقاً أو متاجرة أو مزايدة أو اعتقاداً.

إن كثيراً من طغيان الطغاة ورجعية الجماهير، إنما أخذا بالتعليم والتلقين عن هؤلاء الكتاب. لقد تعلم الطغاة والناس منهم، بعض ما يفعلون ويعتقدون عن هؤلاء الكتاب. لقد تعلم الطغاة والناس منهم، بعض ما يفعلون ويعتقدون من ظلم وجهل وتأخر، ولم يتعلموا هم من هؤلاء الطغاة والناس ضعفهم وإفلاسهم.

لقد علموا الطغاة، ولم يتعلموا من الطغاة. لقد علموا الجماهير، ولم يتعلموا من الجماهير. إن الخوف لم يفرض عليهم تعاليمهم السخيفة وضعفهم المهين.

أيها الكتاب سنجدكم في كل التاريخ، المعلمين للطغاة طغيانهم، وللجماهير أوهامها.. سنجدكم دائماً أنبياء ضالين كاذبين، سنجدكم وراء كل غباء.

لو أصبح شجاعاً كالذباب

والفضيلة الإنسانية لن يستطيع الخوف أن يخفيها أو يسحقها. إنها لا بد أن تظهر بأية صورة، أن تعبر عن نفسها في أي شكل من الأشكال. وإذا لم يحدث ذلك فليس السبب هو الخوف والإكراه، بل الإفلاس والتفاهة. إن الفضيلة لا تموت عجزاً عن وجود الطريق، لا تموت لأنها لم تجد وسيلة للتعبير.. إنها تموت لأنها غير موجودة.

إن الأقوياء يستثيرهم الطغيان ويطلق فيهم مزيداً من الرغبة في المقاومة والقدرة عليها، وليست العبقرية إلا أسلوباً عالياً من التحدي. إننا نجد في التاريخ دائماً أن التحدي للألم والخوف، هو الذي صنع أعظم وأفضل انتصارات الإنسان.

ولو كان الخطر أو الخوف يقتل أو يوقف التقدم والمغامرة، لما وجد شيء عظيم أو شيء قوي في هذه الحياة.

إن من وراء كل شيء عظيم.. إن من وراء كل نضال، من وراء كل موقف، كل حركة، كل وجود، كل كينونة صغيرة أو كبيرة.. إن من وراء كل ذلك أخطاراً ومخاوف، ولكنها عجزت عن قتل المغامرات والإقدام في الحياة.

إنه لا توجد أية قوة مهما كانت باطشة تستطيع أن تسحب من النفس البشرية موهبتها، أو تمنعها من التدفق الخارجي بأسلوب من الأساليب.

إن الخوف لا يكون دائماً، إنه لا يكون في كل الاتجاهات.

إن هنالك أشياء كثيرة لا نخاف من التعبير عنها، ولا نجد من يحاسبوننا عليها. إنه توجد أيضاً أوقات نشعر فيها بالأمان، نشعر أن الخطر قد سقط من فوق رؤوسنا. فإذا كنا نملك موهبة عقلية أو فنية إنسانية، فسوف نجد حينئذٍ الفرصة للتعبير عن هذه الموهبة. إن الموهبة مقتحمة لا تمنعها الحواجز.. إن الحواجز لا تخمدها، إنها تثيرها.

إنه توجد حالة واحدة فقط لا نستطيع أن نعطي فيها، ولا أن نفعل، أو نعبر.. إن تلك الحالة هي أن نكون فاقدين لما يمكن أن نعطيه، أو نفعله، أو نعبر عنه. إن الفاقد هو فقط الذي توجد أمامه الحواجز ويراها، هو الذي يراها.

إنه لو كان الكاتب العربي يختزن في داخله مزية قوة لاستطاعت هذه المزية أن تشق

طريقها إلى الخارج إما بالانتصار أو بالحيلة والتنكر، وإما بالتماس الفرصة وإما بالانتحار البطولي.

إن المزية الفكرية والأخلاقية لا ترى في مثل هذا الانتحار خطأ أو شيئاً فظيعاً أو تضحية خارقة. إن المقاومة حتى الموت ليست شيئاً خارقاً.. إن الحيوانات تفعلها دون أن تطالب بأن تنصب لها التماثيل.

إن كثيراً من الجنود في الميدان يقاتلون قتالاً يعلمون أنه نوع من الانتحار..

إنهم، إن الجنود في الحروب ينتحرون بدون أن يفروا أو يبكوا..

إن عمال المناجم، والبحارة، والتجار، وغير هؤلاء، ليقدمون دائماً في أعمالهم العادية على مثل هذه المغامرات الانتحارية، بينما تكون احتمالات الخطر عليهم أعظم جداً من احتمالات الخطر على كثير من الكتاب الذين يرفضون أن يكونوا شجعاناً ومغامرين، الذين يرفضون أن يكونوا في مستوى العمال والجنود والصيادين.. أن يكونوا في مستوى الذباب الذي يهاجم حتى الموت.

ثم لا يشعر أولئك أنهم قد صنعوا بطولة أو شيئاً خارقاً. إنهم يفعلون ذلك ثم لا يطالبون التاريخ أو ينتظرون منه أن يضعهم في ديوان البطولات. إن هؤلاء ليفعلون كل يوم من المخاطرة، ما لا يستطيع أبسل كاتب عندنا أن يفعل مثله مرة واحدة في كل حياته.

إن هؤلاء الجنود، والعمال، والتجار، والبحارة، ليقدمون على الموت من غير أن يقتلهم الخوف. أما الكتاب فلا يجدون في أنفسهم من الشجاعة أو الاشمئزاز، ما يجعلهم ينتحرون انتحاراً بطولياً، كما ينتحر الأقوام الذين لا يكتبون ولا يفكرون.. لا ينتحرون كما ينتحر الذباب في صراعه مع الإنسان دفاعاً عن شرفه، ووجوده المتحدي لتفوق الإنسان عليه.

متى نرى الكاتب العربي أمام الطغيان في شجاعة الذباب أمام الإنسان.. متى نراه.. متى نراه كذلك..؟

كيف يكون هؤلاء الناس البسطاء أشجع من الكتاب الذين وضعوا أنفسهم مفسرين لمعاني الموت والحياة، لمعاني الشرف والعقيدة والبطولة، وواضعين للقيم الإنسانية المختلفة..؟

كيف يكون الذباب أشجع من هؤلاء الكتاب..؟

إن الذباب في أساليبه الاقتحامية لهو أضخم هجاء لجبن الكتاب. ليت الكتاب يتعلمون من الذباب أساليبه الانتحارية المتحدية لأعظم احتمالات الخطر، إذن لأخافوا كل طغيان وكل غباء.

ما أقوى الكتّاب، ما أعظم خطرهم على الطغاة والأكاذيب لو أصبحوا في شجاعة الذباب.

إن مستويات الإنسان المختلفة تستنكر عليه أن يتقبل الحياة بلا شروط. إن قيم الإنسان العقلية، والأخلاقية والأدبية، التي ألزم بها نفسه، تنكر عليه أن يحيا كيفما كانت الحياة. إن الحياة الإنسانية مشروطة دائماً أو هكذا ينبغي أن تكون، أو هكذا تقول التعاليم.

حتى الحيوان لا يقبل حياته بلا شروط مع أنه يعيش من غير قيم أخلاقية أو فكرية. إنه لا يوجد إنسان واحد يمكن أن يقبل حياته غير مقيدة بقيود أخلاقية وأدبية، ما لم يسقط إلى كل أعماق الهوان. فالبشر مهما هانوا يحيون دائماً بشروط، بشروط ولو شروطاً نظرية، إلا إذا فقدوا كل المستويات الإنسانية.

إذن كيف يقبل هؤلاء الكتاب حياتهم بدون أن يشترطوا لها شروطاً ما..؟

كيف يقبلون أن يحيوا بلا حرية ولا تفكير ولا كرامة..؟

كيف يتقبلون أن يسلبهم الخوف والنفاق والملق، كل مزاياهم وشجاعتهم، كل نخوتهم، كل غضبهم..؟

كيف يستطيعون أن يعيشوا كل هذا الضعف والارتجاف.؟

كيف يستطيعون أن يصلوا كل هذه الصلوات تحت أحذية الطغاة..؟

كيف يستطيعون أن يتعروا في السوق هكذا..؟

إن الكتاب الذين يتنازلون عن حريتهم تحت الخوف والإكراه، هم قوم قد قبلوا الحياة بلا أي شرط. إن هذا أبشع ما يفعله أضعف وأذل البشر بأنفسهم.

إن الشروط المطلوبة من الكتاب هي أن يفعلوا ما يجعلهم ينتحرون أحياناً بالطريقة التي انتحر بها سقراط الذي قيل لنا إنه كان عظيماً.

ولكن هل يمكن أن يكون في الكتاب إنسان عظيم.؟

إن الكتاب الذين نراهم ونمارسهم جعلونا نرتاب في أن يكون في الكتاب عظماء في شجاعتهم ومواقفهم. لقد جعلونا نرتاب حتى في سقراط الذي قيل لنا إنه كان عظيماً.

حتى الحشرات، إنها تنتحر دون أن تسلم بلا شروط.. إذن كيف لا يرتفع الكتاب إلى مستوى الحشرات..؟

بمنطق الحشرة

أنا دائماً أفكر وأتساءل:

هل الأفضل، هل المطلوب أن نعيش في أمان واستقرار وجبن واسترخاء، ثم نموت في هوان.. أم أن نعيش في خطر وقلق وخوف ومغامرة، ثم نموت في مركب..؟

أليس في الموت خيار..؟

أليس الأفضل أن نختار فيما لا بد منه..؟

هل الخير للبشر، هل المطلوب منهم أن يكونوا موجودين فقط، يتغذون بحشرات الأرض وبقولها، وينامون في غطيط، ويجلسون هادئين، يجلسون في الظل صيفاً وفي الشمس شتاء، ينفقون حياتهم في الإشاعات والاحتلام، وفي الأحاديث المكررة، وفي الصداقات التافهة، وفي السير على الطرقات في ذهول، وفي احتراف العلاقات الجنسية، وفي إعطاء البنين والبنات، ليكونوا طعاماً دائماً للموت ولشهوات الطغاة ولغباوات المعلمين ومحترفي المذاهب.. ليكونوا أحزاناً للآلهة، ولأنفسهم، ولآبائهم، وللآخرين.. ليصبحوا مشكلة لمن يبحثون عن غذاء الإنسان الذي لا يعرف لماذا يوجد، لكي يتحول إلى مشكلة غذائية..؟

لماذا لا يحاولون الصعود إلى قمم الخطر والانتحار فوق النجوم..؟

لماذا لا يخاطرون ويؤثرون في الناس والأشياء..؟

لماذا لا يصنعون الخطر والخوف والقلق، لأنفسهم وللآخرين..؟

لماذا يريدون أن ينفدوا في سكون، وأن يضيعوا مثل هباء..؟

لماذا لا يحاولون أن يخافوا، ويقلقوا، ويتعذبوا، ويصنعوا القلق والخوف، والعذاب للآخرين، ثم يشنقون أو يحترقون مثل شهاب فقد نفسه، بعد معركة باسلة مع جيش من النجوم..؟

إن الأمان الذليل، هو أبشع هدايا الحياة للحياة.. إن الخوف العظيم، هو أعظم ما يهب الإنسان عبقرياته وهمومه العظيمة البهيجة.

هل قيمة الحياة في نفس الحياة.. أم في أسلوب ممارستها وإبداعها..؟

إني هنا أسأل الكتاب الذين يتقبلون أن يكونوا أي شيء، كل شيء من الهوان، لكي يبقوا فقط من غير شروط لبقائهم، من غير ثمن سوى مجرد وجودهم.

أليس الموت في معركة باسلة ضد الطغاة، أشرف من الموت في معركة ذليلة مع الأمراض..؟

إني لست أجد فرقاً بين حياة أي إنسان وحياة أية حشرة تأكل وتتناسل وتموت مثله. إني لا أجد فرقاً بين حياة مثل هذا الإنسان وحياة أية نبتة ضعيفة، إذا كانت حياته لا تساوي أكثر من مجرد وجوده حياً. إن روعة الحياة في الأخطار والحماقات الباسلة. إن الخوف والخطر، هما أروع فنون الحياة.. إنهما شعرها وعبقريتها.. إنهما نشواتها الباسلة، نشواتها المبدعة.

كم هي الكائنات الدنيا التي تظفر بالعلف الرديء والمأوى الرطب، وبالأمان الذليل، وبالأعمال الجنسية الموفورة، وبالتناسل الخصب.. تناسل الحشرات، ثم الموت المضمون، ثم القبر المريح جداً..

هل الإنسان أفضل من هذه الكائنات إذا كانت أعماله لا تتفوق على أعمالها.. إذا كان وجوده لا يعني إلا وجودها.. إذا لم يكن لديه من الحرية والكرامة والقدرة على الرفض، أكثر مما لديها..؟

أليس الانتحار في ضجة، خيراً من الحياة في سكون..؟

أليس الموت منتصباً فوق الصليب، أعظم نشوة من الموت منطرحاً على الأرض..؟

أليس الموت متحدياً، أكبر سعادة من الموت مستسلماً..؟

لماذا يجبن الكتاب والمفكرون..؟

هل يخافون الموت، والعذاب، والضياع..؟

وأي موت، وضياع، وعذاب، أفظع من السقوط والنفاق، والاسترقاق العقلي والأخلاقي..؟

أي عذاب وضياع، وموت أفظع من هذا السقوط، حينما يمارسه من يفسرون للناس أخلاق الإله، وقوانين الكون، ويعلمون الحياة البسالات ومزايا الموت الشجاع..؟

كيف يكون أجبن الناس وأكذبهم، هم الذين يعلمون الناس الشجاعة والصدق..؟

إن أشد الناس عذاباً وضياعاً وموتاً، هم الأدباء والمفكرون إذا تحولوا إلى كائنات بلا كرامة، وإلى حرس مذهبي ديني للطغيان والفساد، ولبلاهات المجتمع ونقائصه، دون أن يكون لهم ثمن أكثر من أن يعيشوا كما تعيش الحشرات في الشقوق.

إني أفكر في نفسي فأخجل من كوني حياً، من كوني إنساناً حين أجدني لا أحقق أو أحترم ما أزعمه للحياة وللإنسان من قيم، ولا أعطيهما شيئاً غير أن أستهلكهما في مذلة وركوع.. أستهلكهما في سلوك حشري ذليل..

إني أخجل من خوفي، وحقارة مطالبي واحتياجاتي، ورضاي بمجرد كوني موجوداً، كوني حياً آكل وأتناسل، وأموت، وأخاف الطغاة، وأموت من خوفهم.

وسوف يكون احتقاري لحياتي وخجلي منها أقوى وأذكى لو افترضت نفسي أديباً، أو مفكراً، أو صاحب مذهب.

ماذا يربح أي إنسان من مثل هذه الحياة.. لماذا لا يهاجم ويموت منتحراً، كما يموت اللص الشجاع دون أن يسلم نفسه، وكما يموت صائد الثعالب القطبية تحت الجليد..؟

ولكن هذا تساؤل ساذج. إن الناس لا يموتون ولا يحيون، ولا يجبنون ولا يشجعون بالمنطق.

إنه لو كانت الحياة بالمنطق لكان الطلب على حجز الأماكن فيها قليلاً جداً. إن أحداً ما، لم يتحول إلى كائن حي، ولم يبق حياً تحت إملاء منطقه العظيم. إن الإنسان لا يستشير منطقه في مجيئه أو في بقائه، أو في قيمة مجيئه وقيمة بقائه، أو في قيمة ما يمارس من تفاهات وصغائر، إلا بقدر ما تستشير الحشرة منطقها في إصرارها على الدفاع عن نفسها.

الحياة.. رفض للتغير

إن الناس لا يفرون من الموت لأنهم يحبون الحياة، أو يكرهون الموت.

كيف يكرهون شيئاً لم يجربوه، كيف يكرهون صديقاً يحل لهم جميع المشاكل المستعصية، بمودة وقلب رحيم حلاً نهائياً، ويعالج الآلام الكبيرة بذكاء وحسم وصداقة..؟

وكيف يحبون الحياة، وهم لم يعانوا أية حقارة، أية تفاهة، أي عذاب، أي خوف، أي مرض، أي موت. أي انتظار للموت، أي جوع، إلا كهدية من هدايا الحياة..؟

إن البشر يبحثون عن الغيبوبة والراحة والسكون والهرب من المسؤولية، وعن النوم العميق.. والموت يحقق لهم كل ذلك. إنه هو وحده الذي يحقق لهم ذلك.

إنهم يفرون من الموت لأن الموت تغير وفراق، فهم يرفضون أن يموتوا، أي يرفضون أن يتغيروا أو يفارقوا. إنهم أحياء، فلماذا يقبلون أن يموتوا، أي أن يكونوا شيئاً آخر..؟

ورفض التغير والفراق، هو الذي يمنح المعتقدات القوة والبقاء.. إنه هو الذي يصنع الجبناء، لا حب هذه المعتقدات والنظم، لا حب الحياة.

إن هذا هو الذي يجعل المجتمعات دائماً بطيئة الحركة، هو الذي يجعلها تعادي دعاة التجديد، وتصلبهم على أبواب المعابد في أغلب الأوقات. إنها لا تفعل ذلك خوفاً من الفساد، ولا احتراماً للأرباب، ولا اقتناعاً بمزايا وتفوق ما لديها من سلوك وعقائد، وخرائب تاريخية. إنها لم تقم أية مقارنة بين ما تحافظ عليه، وبين ما تخاف منه.. إنها إذن ليست إلا رافضة للفراق والتغير.

إن كل تغير وفراق في الدنيا هما تغير وفراق جزئيان، إلا الموت، فإنه تغير وفراق كليان. إنهما تغير وفراق لا مثيل لهما فيما يمارس البشر من تغير وفراق، لهذا فكل تغير وكل فراق هما أسهل من الموت. لقد قبل الناس أنواع التغير على مراحل وجرعات، مع أنهم فيما يظهر لم يقبلوا الموت الذي هو تغير كلي.

إن البشر جميعاً يشق عليهم بدرجات متفاوتة، أن يغيروا عقائدهم وأخلاقهم، وأفكارهم وأوضاعهم التي ألفوها، وارتبطوا بها طويلاً. إن الخروج من شيء إلى شيء، يجد الإنسان فيه دائماً معاناة ورهبة.

إنه لهذا يهاب الموت، ويهاب تغيير نفسه، ويهاب كذلك تغيير عقائده وأزيائه النفسية.

إنه يتغير ويريد التغير كما يموت بلا تدبير.. إنه يفعل ذلك بالضرورة.. إنه يريد التغير ويتغير في الأكثر بدون أن يريد التغير.. والتغير لا يلتزم بإرادة التغير، كما أن إرادة التغير لا تلتزم بأي مذهب أو نظام أو منطق. إننا نتغير دون أن نريد التغير، كما نريد التغير بعد أن كنا لا نريده.

إنه لما كان الموت فراقاً ممتازاً، كان الفرار منه أيضاً بطريقة ممتازة. إننا لو كنا أمواتاً وعرض علينا أن نصبح أحياء لوجدنا في ذلك مشقة ورهبة، ولكرهنا أن نصبح أحياء للسبب نفسه، أي خوفاً من التغير والفراق. إننا حينئذٍ قد نكون جبناء جداً.. إننا حينئذٍ قد نتنازل عن كل كرامة، خوفاً من أن نصبح أحياء كما نفعل خوفاً من أن نموت.

ومع هذا فيبدو أن الناس يفرون من الحياة كما يفرون من الموت. إنه ليبدو أنهم في فرار دائم من الحياة. إنه يظهر أن أكثر تصرفاتهم وتحركاتهم، ليست سوى محاولات فرار من الحياة، ولكنه فرار متنكر متستر. إن هذا هو الفرق. إن البشر ليبدون صانعين مريدين للموت، أكثر مما يبدون صانعين مريدين للحياة. وإنهم ليتحدثوا عن إرادتهم للموت، مثلما يتحدثون عن إرادتهم للحياة.

استشراف المستقبل

إن الموقف الصحيح للكاتب أن يكون دائماً معارضة وتحدياً، وألا يكون داعية ولا مسجل مشاهد، حتى الحقائق نفسها إذا وقف منها موقف المسجل أو الواعظ أو المؤيد، كان خارجاً على نفسه. إن الموقف الصحيح للكاتب أن يكون دائماً تجاوزاً ورفضاً.

إنه لا ينبغي للكاتب أن يتحدث عن المجتمع، أو الحياة، أو الناس، كحقيقة موجودة أو حقيقة سوف توجد. إن المفروض أن يتحدث عن ذلك كحركة دائمة لا صورة لها، مقبولة أو ثابتة، أو مفضلة على الصور الأخرى.

إن موضوع الكتّاب هو دائماً شيء غير موجود، هم ليسوا ماضياً ولا حاضراً. إنهم دائماً تخط لما هو موجود ولما سوف يصبح موجوداً. إنهم لا يقفون عندما وجد ليمجدوه.. إنهم يبشرون بالشيء الذي لم يوجد، وبالشيء الذي لا يعيش في صورة. إنهم دائماً يبشرون بفكرة، بفكرة لا تتحول إلى صورة، إن الصورة قيد.. إنهم لا يبشرون بفكرة، ولكن بحركة. إن الفكرة صورة، إن الفكرة قيد، إن الكاتب لا ينبغي أن يكون قيداً من أي نوع.

إن كل مجتمع يحتاج إلى فكرة تسبقه وتتفوق عليه، وتتحول أملاً وشوقاً محركاً، تتحول هدفاً محتجباً، وتكون أكبر من الماضي والحاضر ومن المجتمع نفسه.

إن كل إنسان، إن كل مجتمع محتاج إلى فكرة تتخطاه أو يتخطى بها نفسه، وتكون أكبر وأفضل منه.

إنه لا بد من جسر فكري يمتد إلى المستقبل امتداداً لا يحده شيء. إن مادة هذا الجسر الفكري هم الكتاب بأفكارهم، وأحلامهم، وتمردهم على كل ما وجد من الأكاذيب، ومن الحقائق أيضاً، ومن الأفكار كذلك.

إن الحقيقة الموجودة كالفكرة الموجودة ليست هدف الكاتب، إن هدفه الحقيقة التي لم توجد، بل هدفه الحركة والتغيير لا الحقيقة.

إن الكاتب هو الاحتجاج الدائم على كل حقيقة موجودة، هو التخلي الدائم، والرفض الدائم، للحقائق الموجودة.. إنه السفر الدائم خارج الأشياء والناس، خارج الحقائق والمذاهب، خارج كل ما وجد.

إن الكاتب العظيم عدو لما وجد.. إنه عدو لنفس الحقائق الموجودة.. إنه ينقدها، ويكشف عيوبها، ويتفوق عليها، ولا يرضى عنها.

إنه يبحث ويسير ولا يقف عند شيء.. إنه لا يقف. إنه يظل يبحث ويسير بلا هدف نهائي معين.. إنه يظل يبحث ويسير حتى ولو خلف وراءه كل الحقائق.

إن التحدث عن الأشياء بلا رسالة. إن التحديق الطويل التائه في الأفق البعيد، في الأفق المطلق حيث لا شيء، هما التفسير الكامل لمعنى الكاتب.. إن الكاتب هو التحدث والتحديث بلا أفق، بلا رسالة.

إنه لمحتوم على المجتمع أن يقيم معارضة من نفسه ضد نفسه.. إن الكتاب هم دائماً أركان هذه المعارضة.. إن في تعميم كينونتهم أن يعارضوا كل الأشياء المتقررة المتحددة من الحقائق والأفكار والمذاهب، من الرجال والنظم والتقاليد والعقائد..

إن في نية الأشياء ـ كل الأشياء ـ أن تحافظ على وجودها، أن تقاوم عوامل التغير. إن

المفروض أن يكون عمل الكتّاب قلقلة هذه الأشياء وإكراهها على الحركة والتغير أو على الزوال.

إن كل شيء يحب ذاته، إن أي شيء لا يحتاج إلى نصيحة من الخارج لكي يحب ذاته. إن المطلوب من الكتاب أن يضعفوا هذا الحب.

إن الأشياء والناس يخافون التغير ويقاومونه.. وإنهم مع ذلك يريدونه ويفعلونه، أو يفعلونه ولا يريدونه، أو يريدونه ولا يفعلونه. إن هذا يحدث أيضاً.. إذن هم محتاجون إلى ما يساعدهم على اختيار أحد الاتجاهين.

إن الحياة بكل ما فيها من أشياء وناس محتاجة إلى الحركة والتغير، أو هكذا يجب أن نفترضها. ولكنها على نحو ما، ترفض الاستجابة لهذه الحاجة. لهذا كان لا بد أن يكون عمل الكاتب هو مقاومة هذا الرفض، هو الدعوة إلى ما ليس شيئاً، ليزاحم الشيء المتوقف المتجمد، ليحوله إلى حركة وتغير، ليضع مكانه حركة وتغيراً.

قيادات نواح

إن عمل الكاتب ليس احتياجاً اجتماعياً، مثل عمل النجار والحداد والعالم في الأرض وأمثالهم. إن الناس لا يعرفون ماذا يريد منهم الكاتب، ولا ماذا يريد لنفسه، كما يعرفون ماذا يريد النجار والحداد، وكما يعرفون ماذا يريد النجار والحداد منهم. وإن الكاتب نفسه لا يعرف ماذا يريد بما يفعل، كما يعرف الحداد والنجار ماذا يريدان بما يفعلان، أو حين يفعلان.

إن الكاتب حينما يكتب ويعالج، ويبكي ويصيح، غيرة على المتألمين والمظلومين والمتأخرين، وعلى الأخلاق والحقوق الضائعة، لا يعني ما يقول ولا يعتقد أنه يستطيع أن يفعل شيئاً مما يلزم نفسه بالدعوة إليه. إنه لا يقصد أن يفعل للآخرين، أو أن يحبهم، أو أن يستجيب لاحتياجاتهم، أكثر مما يقصد مثل ذلك الخباز الذي يقف طويلاً طويلاً بصبر جميل أمام النار لكي يعد الخبز للجائعين الذين لا يعرفهم، والذين قد يكرههم ويلعنهم، والذين قد يستحقون كراهته ولعناته.

ولكن الكاتب حينما يفعل ذلك، إنما هو إنسان متألم يبكي ويصرخ من فداحة ألمه الخاص. وبالاستمرار يتحول البكاء الخاص بسبب الألم الخاص، إلى عمل منظم كبير، يفسر تفسيراً اجتماعياً.

إن أحزان القديس والمعلم الخاصة، تتحول إلى صلاة عامة للمؤمنين. إن توتره وقلقه لمرض ابنه، أو لموت زوجته، يتحولان إلى أخلاق لأتباعه.

إن جميع الأعمال القيادية هي من هذا المستوى، فالزعماء والمصلحون، والحكام والروحانيون، هم قوم متألمون يحولون آلامهم الخاصة إلى بكاء، ثم يحولون بكاءهم إلى شرائع وأديان، وبطولات وفلسفة وقيادة، أي ما لم يكونوا منافقين يؤدون أدوارهم بالخداع والكذب، والبكاء المزيف.

إنهم إما أناس يبكون لأنهم متألمون، أو أناس يتباكون لأنهم ماكرون.

إن الكاتب لا يبكي لأن الناس محتاجون إلى بكائه. إنه يبكي لأنه هو محتاج إلى أن يبكي ويتألم. إن الكاتب لا يقصد أن يهب المجتمع حتى ولا بكاءه وأحزانه.

وقد قبل البشر هذا البكاء، وهذا الكذب بالبكاء كظاهرة اجتماعية، لأنهم محتاجون إلى الكذب والنفاق، وإلى من يعبر لهم عن احتياجهم هذا تعبيراً اجتماعياً قيادياً. إن البشر لم يخدعوا حين قبلوا الكذب والنفاق، ولم يخدعوا حين قبلوا البكاء كرسالة من السماء.. إنهم لم يخدعوا، لقد قبلوا ذلك لأنهم محتاجون إلى قبوله.

إن المجتمعات تحول أعمال البكاء والحزن إلى قيادات وفنون، وفلسفات وصلوات، وأعمال باردة.. حتى البكاء، والنواح، والحزن، لا بد له من قيادة.

إنه بقدر ما احتاج الإنسان أن يحزن ويبكي ويصيح، احتاج إلى من يصنعون له ذلك، وإلى من يصلون به، وله، وعليه، صلاة الحزن وصلاة الجنائز.

إن أكثر القيادات ليست سوى قيادات نواح وحزن. إن الحاجة إلى النواح والحزن، هي التي تهب القادة والمعلمين مزاياهم التاريخية والاجتماعية.

ولو أن البشر كانوا بلا أحزان ولا بكاء، لسقط الكثيرون من قادتهم ومن معلميهم الخالدين، بل لما وجدوا. لقد وجدوا لأن في نفوس الناس دعوة لهم بالمجيء.

وإذا جاء الكاتب مغنياً لا باكياً، فهو إنما يغني لنفسه أحاسيس نفسه. إنه يغنيها بصوت مسموع وأسلوب مثل أسلوب الإعلان. إنه لا يغني للناس وإنما يغني حيث يسمعه الناس. إنه حين يغني لا يريد أن يغني الناس، وقد يريدهم أن يبكوا.

إن جميع ما ابتكره الإنسان من آداب وفنون، وتعاليم وصلوات، ومزامير، لم يكن إلا غناءً للنفس أو بكاءً على النفس. إن محاولاته التعبير عن آلامه ومسراته الخاصة، هي التي أعطته صيغته الاجتماعية والأخلاقية.

إن الكاتب ليس وظيفة اجتماعية.. إنه مشكلة خاصة حوّلها المجتمع إلى تعبير اجتماعي.. إنه مشكلة خاصة، مشكلة نفسية، أو اجتماعية، أو عقلية، أو صحية.. إنه مشكلة مارست نفسها بالمجتمع، أو ضد المجتمع، أو مع المجتمع.

إن على الكاتب أن يظل دائماً غناء أو بكاء، فإذا تحول إلى داعية.. إذا تحول إلى مؤمن يدعو إلى الإيمان بعقيدة، أو بحقيقة، أو بنظام، أو بمذهب، أو برجل، أو بحكم، كان زائفاً ومهرجاً، وشيئاً مثيراً للاشمئزاز.. إنه حينئذٍ ليس بكاءً ولا حزناً.. إنه شيء أسخف من كل ذلك.

هراء شائع

نعجب كثيراً كيف يعيش أقوام على الأوهام.. كيف يعيشون على كل هذه الأوهام، ولكن لا بد أن نعلم أن للأوهام من قوة الإغراء مثلما للحقائق أو أكثر.

إنه لا يوجد من يعيشون بالحقيقة وحدها. إن قيمة أي مذهب كائنة في قدرته على الإقناع والتأثير، لا في قوته الذاتية ولا في سلامة منطقه. كما أن قيمة كل حياة هي في قوتها، لا في صدق منطقها، أو فهم منطقها.

إن الناس يحيون في الخرافة، ولكنهم لا يحيون بها. إنهم يعيشون في شعاراتها وضجيجها، ولكنهم لا يعيشون بعطاياها. إن الحقيقة هي وحدها التي تعطي وتحيي. إن الخرافة قد تحرك الحياة ولكنها لا توجدها، إنها تهز ولكن لا تخلق. فالحقيقة هي وحدها التي تتحول إلى حقيقة، أما الكذب فإنه يظل دائماً كذباً.

إن الخرافة تعيش بقوة الحقيقة، ولكن الحقيقة لا يمكن أن تعيش بقوة الخرافة، إن الأكاذيب لا تقول نفسها، إنها تحيا دائماً خارج ذاتها، إنها تحيا عالة على غيرها.

إن الذين لا تصنع حياتهم إلا الباطل ومع هذا يحيون، فالمعنى أنهم يحيون على حساب حقائق أخرى، على حساب حقائق الآخرين. إنهم يحيون أيضاً بقدر ما لديهم هم من حقائق اضطرارية لم يصنعوها، ولم يستطيعوا أن يتركوها لأنه لا وجود لهم بدونها.

إن الإنسان مهما كان خرافة، فلا بد أن يكون فيه شيء من الحقيقة وإلا لمات. إنه لا بد أن يكون حقيقة ولو في أعضائه التناسلية، ولو في جهازه الهضمي.

إن الإنسان لا بد أن يكون حقيقة مهما كان خرافة، ولكن هذه الحقيقة قد تكون في حياته لا في منطقه.

إن الحياة لا بد أن تكون حقيقة، مهما كان المنطق خرافة. إن الحياة لا يمكن أن يكون فيها شيء من الخرافة، مهما كان في المنطق من خرافات.

كانت توجد دائماً أكذوبة كبيرة تقول إن الكتاب أصدقاء للناس، وإنهم طيبون ومضحون بأنفسهم في كرم خارق، وإنهم لهذا اختاروا أن يكونوا كتاباً يعالجون الفساد والظلم، ويدعون إلى الخير والفضيلة، ويبكون آلام الناس في صدق عجيب وأحزان باهظة.

تقول هذه الأكذوبة لقد أصبحوا كتاباً ضد راحتهم ومصلحتهم، ضد شهوتهم لأنهم فدائيون يتعذبون من أجل الناس أروع عذاب.

ولكن هذا الزعم مثل كثير من المزاعم التي لا يوجد أي احتمال لصدقها، ومع هذا يصدقها الجميع حتى الذين كذبوها، لكثرة ما كررت ولأسباب أخرى.

إن الكاتب أو المصلح الذي يتلهب بكاء وحسرة على الناس ليس صديقاً لهم أو رحيماً بهم، أكثر من القاتل أو السارق أو اللاعن لهم. إن القلم ليس أنبل قلباً أو أخلاقاً، أو أكثر إنسانية من السوط والسلاح، أو أعواد المشنقة. إنه شيء من ذلك يستعمل بأسلوب آخر.

إن الكاتب يختار طريقه بالضرورة والظروف والصدفة، لا بالحب ولا بالإيمان، كما يختار القاتل أو اللص عمله. إن الحوافز التي تجعلنا نلعن الناس ونحصبهم بالحجارة وهم يسيرون في الطريق إلى أعمالهم أو إلى المعابد، وتجعلنا نبيع لهم المحرمات والمخدرات، هي نفس الحوافز التي تجعل منا كتاباً ومصلحين، ومعلمين للأطفال في المدارس العامة، أو تجعل منا أطباء وأنبياء. إن عملنا في الحالتين نوع من التغذي بالآخرين، من الاعتداء عليهم، من التعامل بهم بلا بحث عن حاجتهم أو مصلحتهم. والكتاب والزعماء وجميع من يمارسون أنفسهم فوق الآخرين أو بواسطة الآخرين، إنما هم قوم يؤدون عملية جنسية، فيها كل معاني الشبق والافتراس والقذف والنشوة. إنه ليس فيها أي شيء من مشاعر الحب أو الاحترام أو الفداء. إن حوافزها عدوانية مهما كانت نتائجها غير ذلك.

هل الذين يركعون تحت أقدام النساء الفاتنات فضلاء أم مفترسون..؟

هل الطبيب الرحيم الذي يعالج الناس، يعطف عليهم وتؤذيه آلامهم، أكثر من الجلاد الذي يمضي فيهم حكم الإعدام..؟

هل اختلاف الطبيب والجلاد في مهنتيهما، راجع إلى اختلافهما في مستويات الحب.. في القدرة على الحب..؟

هل المغني الذي يذيب نفسه في غنائه ليطرب الناس، يحبهم أو يصادقهم أكثر مما يفعل ذلك من يحفرون قبورهم، أو يخيطون أكفانهم..؟

هل الحشرة التي تلقح الأزهار بالحياة، أفضل في قصدها وتدبيرها من الحشرة التي تنقل جرثومة المرض..؟

إن الطبيب كان يمكن أن يكون جلاداً.. إن الجلاد كان يمكن أن يكون طبيباً. إن قلب هذا يمكن أن ينقل إلى هذا كما يمكن نقل قلب هذا إلى ذلك، دون أن يشكو أو يرفض القلبان.

إنه لمن الهراء الشائع أن يقال مثلاً: إن فلاناً يعمل لوجه الحق. إن الحق بالنسبة للإنسان، هو الإنسان دائماً. إنه لا حق خارج ذات الإنسان. إنه لمحال أن نستجيب لغير إرادتنا، مهما كانت قوة الإكراه أو الإغراء. إنه إذا ضحى إنسان ما بنفسه تحت أي شعار مثير، فهو إنما يضحي بنفسه لمصلحة نفسه، أو بإغراء نفسه لنفسه، أو بضغط من نفسه على نفسه. إن القيم والناس، بل إن الآلهة هم أدوات وطعام لشهواتنا وسلوكنا.. إنهم ليسوا أهدافاً لنا. إن كل الأشياء ليست سوى مجالات وشعارات لشيء واحد هو الرغبة. وحتى من وقف مع الحق هو كاذب، إنه إنما وقف مع مصلحته وهواه.

إن مواقف الناس تختلف لاختلاف أهوائهم ومصالحهم، لا لاختلافهم في احترام الحق.

والبشر ليسوا ضالين أو منحرفين حينما يطيعون رغباتهم.. إن هذه قوتهم ومزيتهم وطبيعتهم. إنه لا يمكن كما لا يجب إصلاح أو تغيير نياتهم، أو ما فيهم من خضوع لشهواتهم.. إنه ليس ممكناً ولا مفيداً أن يكونوا بغير شهوات.. إنه ليس ممكناً أو مفيداً، أن يخرجوا على هذه الشهوات.. إنهم إذا خرجوا عليها كانوا داخلين فيها من باب آخر.

إن الفرق بين الصالحين والفاسقين هو فرق في توزيع الرغبة، وفي ظروفها، وأساليبها التعبيرية، لا في الاستجابة للحق أو الاستجابة للهوى. لقد كان الهوى القوي هو الحق القوي في جميع العصور، ولدى جميع الشعوب والأفراد. وإذا كان الحق في الواقع غير الهوى، فإنه لن يكون حقاً في أنفسنا ما لم يصبح هوى من أهوائنا. إنه لو كان حقاً ولم يكن هوى لكان حقاً مواتاً لا حراك فيه. ولهذا فإن الفاضل جداً يعد رديئاً جداً في المقاييس الأخلاقية، لأن الفاضل جداً هو إنسان متبع لهواه جداً كالرديء جداً.

إن القلم في يد الكاتب.. إن الكلمة في فم المصلح، كالسلطة في قبضة الطاغية. إن كليهما دفاع عن الرغبة لا عن الناس أو الحق. بل إن كليهما هجوم لا دفاع عن شيء.

إن إطلاق النار على الطائر الضعيف وإطعامه الحب، أسلوبان من أساليب الوحشية أو من أساليب الرحمة، ولكنهما ليسا أسلوبين مختلفين على أي حال.. إنهما معاً إما وحشية وإما إنسانية، ليس أحدهما غير الآخر، ليس أفضل أو أردأ من الآخر.

وإذا تحدث أي كاتب عن أي شيء، لم يكن يعني بالحديث ذلك الشيء الذي تحدث عنه، ولم يكن كذلك يبحث عن مصلحة المجتمع إلا بقدر ما نبحث نحن عنها حينما نختار أن نكون لحادين للموتى أو مولدين، نسهل قدوم الوافدين الجدد إلى هذه الحياة لكي يصبحوا لحادين، أو محتاجين في يوم محتوم إلى اللحادين.

فإذا تحدث الكاتب عن الله، أو عن الأبطال، أو عن الجماهير، أو عن الخير والشر، والظلم والعدل، والوطنية والخيانة، فإنه لا يعني الحديث عن شيء من ذلك، إنه يتحدث عن

ذاته إلى ذاته.. إنه لا يعرض موضوعات، إنه يعرض ذاتاً واحدة هي دائماً ذاته. وإذا تغنى بفضائل الدين، أو الديمقراطية، أو الشعب، فهو لا يريد أن يمتدح غير نفسه. إن وقوفه موقف المادح، إنما يعني وقوفه موقف الحاكم أو القاضي، أو صاحب المنطق الذكي المتفوق. إنه بذلك يبالغ في امتداح نفسه، إنه بذلك كأنما يريد أن يقول: أنا صاحب الشأن.. أنا صاحب الاهتمامات المتفوقة.. أنا المسؤول.. أنا الموثوق به.. أنا واضع قيم الأشياء.

إن الكتّاب يريدون أن يقتنعوا بأنهم هم الذين يضعون للمجتمعات قيمها الأدبية، وقد يصدقهم الآخرون في هذا الاقتناع. إنها لقضية مسلمة في حسابات الكتاب لأنفسهم.. إنها لقضية لا يفكرون أن أحداً قد ينازعهم فيها وهي أنهم هم الواضعون لكل القيم.

ولكن كيف..؟

إن القيمة الأدبية لا تعني إلا البحث عن القيمة المادية. إنه لا يمكن تصور أية قيمة أدبية معزولة عن المادة. إن قيمة الأشياء تساوي نفس الأشياء، لأن كل شيء يساوي مادته، لأن كل شيء يساوي ذاته، يساوي وجوده.

فهل يمكن أن يكون الكتاب هم واضعي القيم المادية، أي واضعي قوانين المادة..؟

إن الصدق والشجاعة مثلاً قيمتان أدبيتان أي ماديتان، فهما يعنيان معنى أخلاقياً، لأنهما يعنيان معنى مادياً أي يبحثان عنه. فهل الكتاب هم الذين وضعوا القيمة المادية للصدق والشجاعة.. وهل أحد غيرهم قد وضعها..؟

إن في المسألة شيئين هما: كون الصدق والشجاعة قيمة مادية، ثم معرفة هذه القيمة.

ولا دخل للكتاب في الأول، لأنه قانون من قوانين التوافق والتناقض المادي الحركي. إن أحداً ما لا يستطيع أن يضع قانون التوافق والتناقض مع الأشياء، وإنما يتحدث عنها ويفسرها وينتفع بها. إن القيم المادية كالقوانين المادية لا توضع، وإنها كذلك لا تنتزع. إنها هي وجود الشيء، وجوده الذاتي.

وأما الثاني وهو معرفة هذا القانون، فالمعرفة المجردة ليست وضعاً، هذا من جهة.

ومن جهة أخرى يشك كثيراً في أن الكتّاب يعرفون قوانين الحركة والتناقض والتوافق فيها، أو يعرفون القيم المادية أكثر من الآخرين الذين يعيشون هذه القوانين والقيم. إنه يشك في أنهم يعرفون قيمة فصل الربيع بالنسبة للأزهار، أو قيمة المرأة، أو قيمة النفاق في المجتمع، أو التلاؤم معه، أو قيمة الترفع عن الهوان، أو قيمة الصداقات، أو قيمة المحافظة على الشرف والكرامة، أو قيمة الحرية والاستقلال بالنسبة للتطور والرخاء والابداع، أو قيمة التبكير صباحاً

إلى الحقول والمصانع.. إنه يشك كثيراً في أن الكتاب يعرفون هذه القيم المادية والأدبية، أكثر مما يعرفها الآخرون المباشرون للحياة.

إن الكتاب لا يعرفون مزايا الأشياء التي لا يتحدثون إلا عنها، أفضل من الآخرين. إنهم لا يعرفون مزايا الحب والسلام والأمن، أو شرور البغضاء والحروب والخوف، أفضل مما يعرف ذلك غيرهم. إن الكتاب هم الذين يتحدثون عن القيم، وليسوا هم الذين يضعونها أو يعرفونها.

ومع هذا فالقيم التي يتحدث عنها الكتّاب والمعلمون، ليست في الأغلب هي القيم الأدبية أي المادية الموجودة في قوانين الحركة والمادة المتناقضة والمتوافقة؛ بل دائماً يعمل الإنسان والحياة والمادة بعيداً عن هذه القيم. وحتى هؤلاء الكتاب أنفسهم لا يمكن أن يعملوا أو يحيوا داخل قيمهم، ولو أنهم التزموا القيم التي يتحدثون عنها لماتوا حتماً، لأنها قيم غير مادية أي غير كونية.. إنها قيم منعكسة عن أنفسهم، لا عن حركة المادة التي هي القيمة الحقيقية الوحيدة الموجودة في هذا العالم. إن كل القيم الأدبية ليست إلا قيماً مادية، إنها بحث عنها أو تفسير لها أو لغة من لغاتها.

إن الكون والإنسان والحياة تعمل دائماً بقيمها المحتومة، غير مبالية بتعاليم المعلمين، إلا بقدر ما يبالي القمر بمن يتغزلون بجماله، طالبين إليه أن يدنو منهم، ليضعوا قبلهم الحارة على محياه الوضاء.

إن جميع ما في هذا العالم من جماد وأحياء وبشر، يصنعون قيمهم بقانون الحركة والضرورة والإمكان الذاتي، كما يصنع النهر مجراه، ثم يعرفون هذه القيم كما يعرف الكوكب طريقه في الظلام. إن الفرق فرق في المستوى لا في النوع.

إن الكتاب وغيرهم من صناع الكلمة، لا يضعون قيم الحياة أو قيم الإنسان، ولا يعرفونها. إنهم فقط يتحدثون عنها، إنهم لا يتحدثون عنها في الأكثر، ولكن يتحدثون عن قيم أخرى هي ضد قيم الحياة. لهذا كان الكون والإنسان في أغلب الأوقات محتاجين إلى أن يتمردا في سلوكهما وقوانينهما على ما يقول أصحاب الرسالات والتعاليم، لهذا ظلا يتقدمان، والكتاب أيضاً يتقدمون ولكن بقدر ما يتعلمون من قوانين الحركة.

إنه لو كانت الحياة والإنسان يخضعان للقيم الموضوعة.. إنهما لو كانا يخضعان لإلهام الكتاب والمعلمين والأنبياء، لكانت النتيجة فاجعة حقاً.. إنه لو كان الكتاب والمعلمون يخضعون لتعاليمهم هم، لماتوا عجزاً عن التوافق مع الحياة، ولظلوا متخلفين عن المجتمعات التي يعيشون فيها. إنه مهما كانت قيم المعلمين والكتاب ضد الحياة فإن أعضاءهم ليست

ضدها.. إن أعضاءهم ليست أقل خضوعاً لأوامر الشيطان من أية أعضاء أخرى. إن هذه هي مزيتهم.. إن أعضاءهم تحيا كأعضاء الناس.

إن الإنسان كان يستطيع أن يعيش ويتطور، ويفعل الفضيلة بدون قيم مكتوبة أو مصنفة. إن الحياة، والتطور، والفضيلة، تصوغها وتهدي إليها الحركة الباحثة عن التوافق مع الضرورة.. إنها لا تصوغها النظريات الرائعة المكتوبة.

إن القيمة هي دائماً الحكم الخارجي على الشيء، إنها ليست سببه ولا قانونه.

إن البشر يزرعون الأرض، ويشيدون المصانع، ويطورون أسلحة القتال وأثاث المنازل، ويتوافقون مع قوانين الطبيعة، ويتقون شرورها، بغير حوافز ولا قيم أخلاقية، أو أدبية، أو إنسانية. إنهم كذلك يحيون ويؤلفون سلوكهم النفسي والأخلاقي. إنهم كذلك يتصلون بالنساء، وينجبون الأطفال، ويلتزمون بتربيتهم. إنهم كذلك يكرهون الآخرين، ويحبون أنفسهم.

نقد، لا تعليم

إن القيم المكتوبة ليست غير مجدية وغير ضرورية فقط، إنها ضارة جداً نظرياً. إن القيمة المكتوبة تتحول إلى قيد عقلي قد يسوغ به المجتمع جموده وخوفه من الأشياء الجديدة. وقد كانت الحياة دائماً في تطورها، محتاجة إلى أن تناضل، لتتخطى القيم والنظريات السابقة المعترف بها، وتتخطى جميع المعلمين من أنبياء ورواد ومفكرين. ولكن لقد كان نضال الحياة ضد نفسها، لتكون أعظم منها، أقوى من نضالها ضد تعاليم المعلمين والكتاب. إن التعاليم مهما كانت قوتها وبلادتها، عاجزة عن مقاومة الحياة. إنها عاجزة عن تعويقها، عن تضليلها. إن التعاليم ليست إلا عزاء لمن عجز عن تخطيها والخروج عليها.

هل يكون معنى هذا أن الكتاب والدعاة يتحولون إلى جهاز تعويق في المجتمعات..؟

هل يكون معناه أن المتمردين والعباقرة منهم هم الذين يناضلون لإبطال القيم المؤخرة التي يصنعها ويدعو إليها المعوقون..؟

هل يكون معناه أن قيمة الكتاب الجيد هي إزالة آثار الكتاب الرديء. وأن الكتّاب الممتازين ليسوا هم الذين يعلمون الحياة ولكنهم هم الذين يحمونها من التعاليم..؟

إن الكاتب العظيم يحمي الحياة من التعاليم. إن التعاليم اعتداء على الحياة.

إن على الكاتب إذن أن يكون ناقداً دائماً، وألا يكون معلماً أبداً.

إن الكاتب لا يعطي المجتمعات شيئاً.. إنه لا يريد، وإنه كذلك لا يستطيع أن يعطيها. وإنها هي لا تأخذ منه شيئاً ولا تريد، كما لا تستطيع أن تأخذ.

إن المجتمعات تريد من الكاتب أن يحدثها عن نفسه، أو عن نفسها، أو عن أي شيء، أو عن لا شيء. إنها تريده أن يظل يحدثها، يحدثها دائماً. إن الإنسان يريد أن يسمع، ويتحدث، وأن يتعرى أمام الناس، وأن يتعرى الناس أمامه. إنه يجد في هذا فناً وراحة ومسرة، وإن كان لا يدري لماذا.

وقد عبد البشر دائماً الفنون لأنها عمل من أعمال التعري. إن أكثر الفنون إغراء هي أكثرها افتضاحاً وتعرية. إن الفنان العظيم هو أقدر الفنانين على الإلقاء بملابس الناس عن جلودهم وأعضائهم، وعلى الإلقاء بجلودهم وأعضائهم عن نفوسهم، وبنفوسهم عن فضائحها وعاهاتها.. إنه عدو الاستتارة.. إنه افتضاح.

ولقد تقبلت المجتمعات الكتاب، ورحبت بهم في أحيان كثيرة، لأنهم يحدثونها عن فضائحها وصغائرها وآلامها.. لأنهم يبكون عنها وعن أنفسهم، ويتعرون أمامها، ويعرونها أمام نفسها وأمام الآخرين. إن في شهوة البشر البحث عن العراة، والتعري، وعن المأساة في جميع صورها، والإعجاب بمن يحدثونهم عن ذلك. إن التعري والتعرية فنان خالدان من فنون البشر.

إنهم يجدون لذة وعزاء في الافتضاح والألم، وقد هتفوا لكل الدعاة والكتاب، والفنانين، والمفكرين البارعين والمتوحشين في عرض الإنسان في الطريق العام عارياً مفضوحاً باكياً ضعيفاً. لقد كانت الأعلام ترتفع للشعراء والقصاصين والدعاة الفضاحين الذين يجيدون كشف العورات، والحديث عن المآسي، وعن الضعف البشري، ويجيدون كذلك البكاء والأحزان. ولعل ذلك أسلوب من أساليب الدفاع عن النفس، لعله أسلوب من أساليب الاحتجاج على الطبيعة الغبية الظالمة التي تعاقب وتعذب بلا ذكاء، أو شفقة، أو مصلحة لها أو لأحد.

والذين يقبلون بلهفة على قراءة الكتب المقدسة، والروايات، وكتب النقد والتفكير الهدام، ويعجبون بالفنون الأليمة والبذيئة، لا يفعلون ذلك لأنهم ذوو ذوق أو موهبة أو فضيلة أو رحمة، ولكن لما يجدون من لذة كأنها لذة الجنس في الحديث عن المتألمين والخاطئين، وعن الآثام الكبيرة، وعن حقارة الإنسان وضعفه، وضياعه وسوء مآله. إنهم يبحثون عن الفضائح والصغائر، والآلام والهموم في التاريخ وفي المجتمعات، أو في الخيال ليشاهدوها في أسلوب استعراضي جارح، ليجدوا في أنفسهم العزاء والنشوة والارتياح. إن الاطلاع على أحاسيس الآخرين رغبة كبيرة من رغبات البشر، أما الاطلاع على أعضاء الآخرين الداخلية والتحديق فيها فرغبة أكثر وحشية.

هل نحن محتاجون إلى التغذي بالحديث عن الناس وعن آلامهم، مثل احتياجنا إلى التغذي بالخبز..؟

هل البشر لا يزالون مفترسين يأكل بعضهم لحوم بعض، ولكن بأسلوب متخف، لهذا وجد الكتاب وعملهم هو التغذي بالناس وتقديمهم كطعام، على موائد الآخرين بالحديث عنهم.. وجدوا مكانهم في كل المجتمعات..؟

إن المجتمعات تريد أن تتغذى بالكتّاب، بمشاعرهم وهمومهم وصغائرهم، كما يتغذون هم بها، لهذا تقرؤهم بشهوة. إنه ليس في حوافزها أن تتعلم منهم.. إنه ليس في حوافزهم أن يعلموها.

إنه لا يوجد أي احتمال للصدق لو زعمنا أننا نبحث عن الفائدة الفكرية، أو الأخلاقية، أو الوطنية، أو الحضارية، حينما نقرأ بحماس شديد رواية طويلة مثيرة، تحكي أقسى مأساة إنسانية، فيها كل أنواع الشقاء والانحراف والزلل. إننا حتماً نجد متعة روحية في قراءة مثل هذه الرواية، ولكن ما أسباب هذه المتعة..؟ إنها على كل حال ليست حب الحق أو المعرفة. إننا بالقراءة كأنما نريد أن نشاهد أعضاء الناس وآلامهم وعاهاتهم، كأنما نشاهد ذواتهم الداخلية، نشاهدها من داخلها.

إن فكرة الكاتب العظيم أن يهاجم ويرفض، أما الكاتب الرديء ففكرته أن يتوافق ويؤيد.

إن الكاتب العظيم يهاجم الشمس لأنها أقل مما ينبغي، أما الكاتب الرديء فيصلي للشمعة لأنها أكثر مما ينبغي.

الكاتب العظيم ينتقد الخالق لأنه خلق الحياة، أما الكاتب الرديء فيثني عليه لأنه خلق الموت.

إن الكاتب العظيم لا يحارب لأنه يؤمن بشيء أو يبحث عن شيء.. إنه يحارب لأنه مدفوع من داخله لأن يعطي ذاته بلا ثمن، بلا تفسير.

إن التحدي فيه استجابة للذات، انطلاق ذاتي، لا رسالة.. إن الذي يكتب لأنه مؤمن أو لأنه يطلب شيئاً، هو واعظ أو تاجر، لا كاتب.

إن قلب الكاتب لا يعمل لأنه مؤمن أو لأنه يطلب شيئاً، وهكذا يعمل عقله وقلمه.

إن شخصية الإنسان الأخلاقية والنفسية منفصلة عن شخصيته الفنية.. إننا لهذا لا ينبغي أن ننتظر من الكاتب ولا من النبي أن يلتزم بتعاليم دعوته، ولا أن يكون أكثر استجابة أو إخلاصاً لها من خصومها.

إن الدعوة إلى الأشياء أسلوب لا موقف. إن النبوة ليست التزاماً.. إنها تعبير عن أزمة ذات.. إنها تعبير عن ازدحام داخلي.

إن النبي هو إنسان يعاني من داخله.. إن نبوته محاولة للالقاء بهذه المعاناة إلى الخارج،

للالقاء بها على الناس بأسلوب الحب لهم.

إن الدعوة إلى الشيء لا تعني غير مجرد الدعوة.. إنها لا تعني إرادة ذلك الشيء أو التقيد به. إن البشر لا يكونون أنبياء أو كتاباً بحوافز أخلاقية، إنهم يكونون كذلك بحوافز نفسية تحت الظروف الملائمة. إنهم يحزنون، ويخافون، ويغضبون، ويصرخون، ويحبون، ويكونون عصبيين من غير أي مغزى أخلاقي.. إنهم هكذا أيضاً يصبحون دعاة من غير أن يلتزموا دعوتهم أو يحترموها، بل ومن غير أن يريدوها..

إن الإنسان ـ أي إنسان ـ لا يحيا عمله، وإنما يحيا به..

إن العلاقة بين الفن والأخلاق، مثل العلاقة بين الإيمان بالله والإخلاص لأوامر الشيطان..

إن الكاتب والنبي، يدعوان إلى الفضيلة وإلى مجد الإنسان، بالنية التي بها يتألمان، ويغضبان، ويكرهان الآخرين..

إن الكاتب، والمصلح، والنبي، قوم يبكون على أنفسهم بحجة البكاء على الآخرين.

العبقرية المضادة

لقد ضيقت وسائل المواصلات والاقتحام الحضاري الذي لا حيلة في دفعه هذا العالم.. لقد ذهبت الفرصة على أهل الكهف، على من يريدون أن يفروا من العالم ليعيشوا ويكونوا كما يريدون ويستطيعون، بين آلهتهم البليدة القانعة بنفسها، وبعبيدها المتخلفين.

رثائي لمن يريدون أن يعيشوا في هوانهم وغبائهم وتخلفهم فلا يستطيعون، لأنهم لا يتركون.. ثم يتعذبون لأنهم لا يستطيعون أن يظلوا كما كانوا.. ثم لا يقدرون أن يكونوا كما يجب أن يكونوا، أو كما ينتظر أن يكونوا..

رثائي لمن لا يستطيعون أن يبقوا في كهوفهم، ثم لا يستطيعون أن يواجهوا الخروج.. ثم لا يستطيعون أن يواجهوا العالم الذي يخرجون إليه.. أن يواجهوا النور الذي يفرض عليهم قوته.

*

شعور في ملابس خبز

إن الإنسان لا بد أن يكون حالة، لا بد أن يكون موقفاً.. فالذي لا يستطيع أن يكون رديئاً، لا بد أن يكون صالحاً. والذي لا يستطيع أن يكون صالحاً، لا بد أن يكون رديئاً. إنه كما يستطيع أن يفعل الشر والتأخر بحماس وقوة، فإنه أيضاً يستطيع أن يفعل الخير والتقدم بنفس هذا الحماس وهذه القوة. إنه إذا أغلقت في وجهه أبواب النار ذهب يطرق أبواب الأخرى، لأنه لا يستطيع أن يعيش خارجاً عنهما معاً. إنه لا يستطيع أن يعيش بلا مكان.. إنه لا يستطيع أن يعيش في فراغ، أن يعيش بلا جنة، ولا نار.. بلا آمال في الجنة أو بلا آمال في النار.

إن الإنسان لا بد أن يكون شيطاناً أو قديساً، أو هما معاً.

إن المجتمع الصالح القوي هو الذي يضطر الناس إلى أن يفعلوا الفضيلة.. أن يكونوا من أهل الجنة، لأنه يحرم عليهم أن يكونوا من أهل النار.. لأنه يجعلهم عاجزين عن أن يفعلوا الرذيلة.. إنه لا يشيد لهم ناراً.

أما المجتمع الضعيف الفاسد فيفعل عكس ذلك. إن البعد بين إرادة الرذيلة وإرادة الفضيلة.. بين إرادة الجنة وإرادة النار، بعد يساوي البعد بين شعورين متناقضين.. إنه بعد لا يوجد إلا في ذات الإنسان.

ماذا يريد البشر من جميع ما يمارسون، ويعتقدون، ويتمنون..؟

يريدون أن يحققوا حالة شعورية..

وماذا تساوي هذه الحالة الشعورية..؟

إن جميع الماديات وغير الماديات لا تعني عندهم أكثر من أن تصنع لهم مستوى شعورياً معيناً.. إن قيمة الشيء المادي في أنه يعطي هذا المستوى الشعوري.

إن البشر يبحثون عن الثقافة والأفكار الجديدة.. إنهم يصنعون الحضارات، والمصانع الضخمة، والأديان، والآلهة، والأكاذيب والمخترعات.. إنهم يزرعون الحقول والمطابخ.. إنهم يهتمون بالنساء، والأصدقاء، وبالمجد، والشهرة.. إنهم يصنعون كل ذلك، لأنهم بذلك يصنعون مشاعرهم، يصنعون مشاعر معينة ملائمة، ويهربون من مشاعر أخرى مضادة. فالحالة الشعورية هي كل مطالب الإنسان، كل اهتماماته وأهدافه.

إن الإنسان أشياء كثيرة تمر كلها من طريق واحد هو شعوره.

إن البشر مادة تبحث عن شعور.. إنهم شعور يبحث عن نفسه بالبحث عن المادة. إن الأشياء التي تمنح الإنسان هذه الحالة الشعورية هي أثمن ما في هذه الحياة.. أثمن ما في حياة الإنسان.. هي كل ما في الحياة.

نحن نحيا بالشعور ونموت بالشعور.. نحن نقتات بالشعور ونجوع بفقده. إن الخبز ليس إلا شعوراً.. ليس الخبز إلا شعوراً متحولاً، أو شعوراً يتحول.. إنه شعور في ملابس خبز.

هل نحن فكرة أكثر من كون الحشرات فكرة..؟

نحن لا نساوي أكثر من أنفسنا.. وكذلك الحشرات.

نحن لا نريد إلا أن نكون أنفسنا.. وكذلك أيضاً الحشرات.

نحن لا نريد ـ وكذا الحشرات ـ إلا أن نمارس أنفسنا. إن الفرق بيننا وبين الحشرات هو

فرق التفوق فقط.. إن فرق التفوق بيننا وبين أرقى حيوان، لا يفوق كثيراً فرق التفوق بين أدنى حشرة وأرقى حيوان. إن الشمس لم ترد أن تكون لنا، أكثر مما أرادت أن تكون لأصغر حشرة.

إنهم يقولون: هذا منطق الضعفاء، سنقول نعم، ولكن ما منطق الأقوياء.؟

إن الأقوياء والضعفاء يجيئون ويبقون وينتهون بلا منطق.. إنهم ليسوا منطقاً على كل حال. إن قوة القوي في منطقها، تساوي ضعف الضعيف في منطقه.. كما تساوي قوة الحيوان المفترس، عجز الحشرة الضعيفة.

هل في الحجر الكبير منطق أكثر مما في الحجر الصغير..؟

إن تفوق الشيء لا يعني إلا أنه متفوق. إنه لا يوجد لهذا معنى أكثر من أن رقماً أكبر من رقم.. هل في أكبر رقم معنى أخلاقي أو عقلي أكثر مما في أصغر رقم..؟

إن الفرق بين الإنسان وبين أضعف حشرة فرق في تفكير الإنسان لا في تفكير الطبيعة أو قصدها. إن الفرق بين الفضيلة والرذيلة يساوي الفرق بين رصاصة تقتلني، ورصاصة أقتل بها أعدائي، أو أقتل بها المخالفين لي في الدين، أو الوطن، أو العرق، أو الظروف، أو التاريخ، أو الحضارة.

ما أهداف وحوافز ومشاعر الإنسان المتحضر المتفوق، البالغ أعلى مستويات التقدم والقوة.. ما هي نهاية أشواطه.. ماذا يريد ويفعل بكل مزاياه القوية..؟

ما الفرق بينه وبين أضعف وأجهل إنسان، في الحوافز والأهداف والمشاعر..؟

ما مشاعر وأهداف أعظم إنسان.. ما مشاعر وأهداف أصغر إنسان.. ما الفرق بين قوة هذا وعبقريته وفضائله، وبين ضعف هذا وجهله وغبائه ورذائله.. من أين ينبعان وفيم يصبان..؟

ماذا يريد الأنبياء.. ماذا يريد المكذبون بهم..؟

ماذا يريد الآلهة.. ماذا يريد الشياطين..؟

من هم المثاليون.. من هم الأنانيون..؟

أيها الأقوياء.. أيها الضعفاء.. أيهم الخير والمنطق.. أيهم الشر والخطأ..؟

ما قيمتي أنا الإنسان، إذا كان كل ما أريده وأفعله أن أوجد فأجوع، فآكل، وأنام وأتناسل كالحشرات.. أن أخاف.. أن أظلم وأظلم.. أن أخاصم وأتكبر، وأحب نفسي وأكره الآخرين.. أن أتعصب لأبنائي.. أن أعادي من أجلهم أبناء الجيران.. أن أشتهي الغباء.. أن أصنع الأكاذيب والآلهة، والطغاة والقيود لنفسي وللآخرين.. أن أحارب

الحقائق.. أن ألعن الأقوياء والمخالفين المتفوقين.. أن أستهلك ذاتي في ذاتي، ثم أخيراً أهرم، أمرض، أعمى، أجن، أموت..؟

ثم أذهب أزعم بكل كبريائي وسذاجتي وإيماني، أني أنا ضمير هذا الكون وعقله وتفسيره؛ بل أزعم أن جميع ما تعمله الآلهة وتستطيعه، وتشغل تفكيرها به في ملئها الأعلى أن تسخر لي الأشياء، أن تشرف على صياغة تفاهاتي وشهواتي، أن تبعث إلي بالرسل والكتب، باحثة عن صداقتي وصلواتي، أن تغضب وتثور وتفقد وقارها لأني خضعت لقانون ذاتي، واستجبت لطبيعتي، وتصرفت مثل حيوان مقهور، وعجزت عن مقاومة القوانين والرغبات التي صنعتها تلك الآلهة نفسها، ووضعتها في أعضائي وفي طريقي.. ثم ترضى وتتهلل سروراً لأني آمنت بما لا أعلم، لأني فعلت ما لا أحب، لأني قتلت في نفسي حوافز الحرية والتفوق، لأني أذللت كرامتي وكبريائي بالصلوات، وبالبكاء خوفاً ممن خلقني لأنه يحبني، لأنه صديقي.

ويذهب يتعاظم عندي هذا الزعم حتى أحوله إلى معابد وصلوات وأنبياء، إلى ثقافات وتقاليد وأحقاد تاريخية نبيلة، إلى حواجز وحدود بيني وبين نفسي، بيني وبين الآخرين..؟

لقد حولنا ضعفنا إلى أكاذيب، ثم رفعناها إلى السماء، ثم هبطنا بها إلى الأرض في مواكب من النبوات والعبقريات والمثاليات، وفي أنواع أخرى كثيرة من البطولة والشرف والدين والفضيلة. لقد كان الكذب السماوي.. لقد كان الكذب على السماء، والكذب باسم السماء.. لقد كان إحدى عبقريات الإنسان العظيمة.. لقد كان التدين والكذب معنيين من معاني الإنسان.

أقل تشاؤماً من الحقيقة المتفائلة

سيرى الطيبون أن هذا تشاؤم.. إنه تشاؤم هدام.

نعم، إن رؤية الحقيقة والتعبير عنها بقدر ما فيها من قسوة وكآبة، كان يعد دائماً تشاؤماً.. إنه تشاؤم.. إنه تشاؤم. نعم إنه كل التشاؤم. إن الحقيقة هي دائماً تشاؤم.. إن الحقيقة هي أقسى مستويات التشاؤم. إن أي متشائم هو أقل تشاؤماً من أية حقيقة متفائلة.

لهذا كان الإنسان يهرب من رؤية الحقيقة. كان يصنع الأقنعة الكثيرة الواقية من رؤيتها. لقد كانت أكثر عقائده ومثالياته وفلسفاته، أساليب مختلفة من هذه الأقنعة. كان الإنسان يكذب ضد نفسه على نفسه.. كان يحول هذا الكذب إلى شرائع وفضائل.. كان يصلها بأبعد حدود الأزل.. كان يفسر كل شيء تفسيراً مريحاً لأعصابه ومخاوفه وضعفه. إنه لم يكن ينظر إلى الأشياء كما هي، بل كما يريد ويستريح.

المتفائلون يرون الأشياء بأمانيهم.. إنهم لا يرونها بعيونهم، بصورها.

أما المتشائمون فإنهم أيضاً يرون الأشياء في أنفسهم، من خلال أنفسهم؛ ولكنهم لفرط إحساسهم يرونها رؤية أقرب إلى إدراك عيوبها وعاهاتها، إلى إدراك الآلام المخبوءة فيها.

إنه لهذا كان المتشائمون في الغالب أصدق حكماً على العالم من المتفائلين.

التفاؤل يخلق أحياناً الغباء والهوان، والتواضع والانتظار لما يكون. أما التشاؤم فقد يبدع الاختراع والتجديد، والقوة والخيال، لأنه خطر وقلق، وتطلع وتخط لما كان، وكراهة لما هو موجود. إن التشاؤم نقد عنيف.. إن أي تشاؤم لن يكون أكثر مما في العالم؛ لهذا هو دائماً صادق. أما التفاؤل فهو دائماً أكثر مما في العالم؛ لهذا هو دائماً كاذب.

لقد أعطى المتفائلون الأحلام الجميلة، وأعطى المتشائمون الحضارات والفلسفات والاحتجاج.

إن التشاؤم لا يمكن أن يكون طريقاً من طرق الفرار، لأنه لا فرار. إننا مهما دعونا الناس إلى أن يحتقروا الإنسان، أو يحتقروا العالم وما فيه من دمامات وآلام وأخطاء، فإنهم لم يستطيعوا أن يحتقروا شيئاً من ذلك إلا بقدر ما فيهم من استعداد وقدرة على هذا الاحتقار. وإنهم مهما احتقروا الإنسان والعالم، فإنهم لن يتخلوا عنهما أو يهربوا منهما.

إن التفكير المتشائم ليس خطراً على الحياة، ولا على الإبداع فيها أو الافتتان بها؛ وإنه كذلك ليس خطراً على الإنسان. إنه مهما جاء الفلاسفة المتشائمون، ومهما أبدعوا في تحقير هذا الوجود والزراية به وبمن فيه، فسيمضون في طريقهم دون أن يضعفوا من حب الإنسان لأخطائه، لنقائصه، لتفاهاته، لآلامه.. وبدون أن يضعفوا من العلاقة بين البشر والأرض.

إن علاقة البشر بالأرض، بأوحالها، لن يضعف غوايتها أي متشائم. كما لم يضعفها جميع مواكب الأنبياء والمعلمين الذين جاؤوا ليحاربوا الأرض، لكي ينصروا عليها السماء.

لقد جاء الأنبياء يبصقون على الدنيا، على كل عبقرية فيها.. لقد جاؤوا ليحولوا كل شيء إلى مناحة.. لقد جاؤوا ليلعنوا كل ما كان وكل ما سوف يكون.. ليرجموا الإنسان كحشرة كافرة ذليلة بكل شهب السماء وغضبها؛ فماذا حدث..؟

إن الناس لا يرهبون التشاؤم لأنه خطأ عقلي، ولكن لأنه تحذير. إنهم يرحبون بمن يقول لهم اطمئنوا، لا بمن يقول لهم احذروا. إن الحذر التزام.. إن التحذير تكليف وإلزام. أما الاطمئنان فتخل عن الالتزام؛ لهذا كانت الدعوة إلى التفاؤل رشوة يقدمها الزعماء والمعلمون إلى السوق الباحثة عن الاطمئنان.

إن التشاؤم هو أن ترى الليل وأنت في النهار، وأن ترى الموت وأنت في الحياة، وأن ترى

الشيخوخة وأنت في الشباب، وأن ترى الخطر وأنت في الأمن، وأن ترى الخطأ وأنت في الصواب.. هو أن تستوعب الأشياء في إحساسك وتفكيرك استيعاباً محيطاً.. أن ترى كل الأشياء منظراً واحداً.. أن ترى الشمس حينما تكون طالعة، وحينما تكون غائبة ومتلاشية، منظراً واحداً ممتداً. إن الذين لا يرونها إلا حينما تكون طالعة، هم إما أغبياء وإما جبناء.

التشاؤم لا يعني كره الحياة أو الإنسان، بل فهمهما، والعطف عليهما، والدفاع عنهما.

مسوخ تشير لمجرد احتمالات

العبقرية هي الإنسان مصبوباً في قالب مادي، على مستوى ما. إنها هي نهاية حالة يبلغها الإنسان في تكوينه المادي والنفسي. فإذا عجز عن بلوغ هذه الحالة، عجز عن أن يوجد مستوى العبقرية.

إن الإنسان عملية مادية. إنه عملية مادية على مستوى فكري نفسي. إن هذه العملية الفكرية النفسية المادية، هي التي تصوغ حياة الإنسان وكل حضاراته. فالشعوب ـ وكذلك الآحاد ـ التي تبلغ المستوى الكافي في تكوينها العضوي والكيميائي، والتي ترتفع فوق الأمراض والموانع الثقافية والاجتماعية، تنطلق في طريقها انطلاقاً لا حيلة في رفضه، لتحقق طاقاتها كل احتمالاتها. أما الضعفاء والمرضى، فإن اتجاهاتهم وغاياتهم تجيء تافهة وعاجزة ومنحرفة. إنهم لا يستطيعون أن يفعلوا شيئاً عظيماً، ولا أن يتكافؤوا مع أنفسهم أو مع ظروفهم. إن الآلام والضعف والبكاء يمتص جميع ما يحتمل أن يكون فيهم من ذكاء وإبداع.

إن عواطف هؤلاء وقواهم تعجز عن التدفق إلى الخارج.. خارج الذات. إنها تنصب كلها في ذاتها، وهذا إما لعجزها عن الانطلاق إلى الخارج، وإما لانحرافها في اتجاهها. إنها في صراع ذاتي يشغلها، يستهلكها عن الاتجاه إلى مقاومة الطبيعة، إلى إحداث الطبيعة. إنها تشبه الجماعات والجيوش التي يشغلها القتال بين وحداتها، عن قتال العدو المواجه المتربص.

إن حضارة الإنسان هي التعبير الأعلى عن صحته.

وهذه الصحة تعني أمرين: جهازاً فكرياً سوياً، وجهازاً جسمياً سوياً.

إن المرضى وناقصي التكوين تهبط فيهم طاقات الحياة وشعورهم بها.. إنها تختل وظائفها، ويستولي عليهم خمول شعوري وفكري وعضوي. إنهم يعجزون عن الدفاع وعن الهجوم.. إنهم يفقدون الحرية والسيطرة على أنفسهم، بل ويلعنون أنفسهم كما يلعنون الحرية. ثم ـ وهذا عجيب ـ يتشبثون بالواقع الذي هم فيه كيفما كان، لا يحاولون تغييره، ولا إسقاطه، لأنهم لا يشعرون بالقدرة على الهدم والبناء والتغيير.

وحينئذٍ تتجمع معانيهم كلها في الإرادة، ثم تنصب هذه الإرادة في نوع واحد منها هو إرادة البقاء مهما كان أليماً، وقد يكون صحيحاً أن إرادة البقاء في المتألمين والضعفاء أقوى منها في الأقوياء السعداء. ثم تهون فيهم إرادة الفكر والقوة، والرفض والمخاطرة. إن جبناً رهيباً يصرفهم عن المحاولات القوية.. إنهم يشغلون بالغريزة الأولى وهي إرادة البقاء في مستواه الأدنى، عن كل شيء سواها.

إنك لن تجد ضعيفاً أو مريضاً كامل الحرية أو الإرادة، أو قوي الخلق. إن الأمم لا تستطيع أن تتسلق الأحداث العالية بدون حرية وإرادة، وسلوك قوي. إنه لا توجد معركة من معارك الحياة يمكن أن ينتصر فيها الضعفاء أو المرضى، حتى المباريات الرياضية معروفة نتائجها على احتمال واحد، على احتمال واحد لا يتغير.

إن مقادير الدماء التي تنصب من الشرايين إلى المخ، وإن مقادير ما في الشرايين المحيطة به من دماء، لتقرر احتمالات العبقرية. إنها تحدد النشاط الذهني الذي يقرر مصير الإنسان. إنه حينما تنقص الدماء المتدفقة إلى المخ يعجز عن النشاط وتهبط أعماله الفكرية.

إن مقدار الدم في المخ، بل وفي الجسم كله محكوم بالصحة والمرض، وبالغذاء. إن أي خلل يصيب إحدى الغدد يصيب تصرف الإنسان كله ووظائفه العضوية بالضلال والإعياء. أما إصابة الأعضاء الرئيسية فشيء يعني ما هو أكبر. إن النقص في بناء أحد هذه الأعضاء يقضي على المرء بأن يكون تشويهاً في جميع أعماله واستجاباته. إن كل عضو من هذه الأعضاء له نسبة مفروض أن يرتفع إليها، وإلا كان غير كامل أو متوازن في وجوده، وفي أداء وظيفته، وكان عاجزاً عن بلوغ المستوى البشري الأفضل.

إن تقدير أية آلة من الآلات.. إن تقدير أجزائها، لا بد أن يكون وفق الغرض الذي أنشئت من أجله، والوظيفة التي سوف تؤديها. إنه لا بد أن يكون أيضاً التناسب بينها وبين عملها صحيحاً، فإذا اختل هذا التناسب في التقدير جاءت آلة عقيمة.

إن الإنسان بأجهزته العديدة، مفروض فيه أن يؤدي أعمالاً فكرية وعضلية ونفسية تمكنه من أن يكون متلائماً وقوياً وحراً. فإذا جاءت هذه الأجهزة أو بعضها مريضة أو ناقصة، جاء عاجزاً عن أن يكون كذلك. إن النقص في مقاييس العظام، في الشبكة الصدرية، في الساقين أو العضدين، في الذراعين، في الأصابع، في البنان، في عظام الجمجمة، في القلب، في الرئتين، في الجهاز العصبي.. نعم، إن النقص في هذه الأعضاء قد يعوق الإنسان عن الذكاء، عن التوازن، عن القوة، عن أن يكون سوياً. إن الضعف الصحي العام خطر على كل المستويات والاحتمالات الإنسانية.

وهذه الأعضاء والأجهزة الإنسانية لن تكون تامة إلا إذا كانت متحررة منذ نشأتها إلى

تماماً؛ ولا سيما في أوان تخطيطها الأول.. متحررة من المرض ومعوقات النمو والتكامل.. وهذه الملايين من الأجساد البشرية التي ساء تخطيطها، وجاء بناؤها تشويهاً، إنما جاءت على هذا المستوى الحزين، لأنها كانت منذ وجودها مستذلة للمرض، والقحط والمسغبة التاريخية. إنها لم تنم نمواً حراً كبيراً.. لقد جاءت تشويهات ومسوخاً تشير إلى احتمالات الإنسان،وتذكره بها في ألم واحتجاج، دون أن تعطي صيغته الكبيرة.

حياة دون شروط الحياة

نحن الآن أمام أزمة صحية عامة.. أمام شعوب لم تبلغ الحد الأدنى في بنائها التكويني، فلم تستطع لذلك أن تكون ذكية، ولا مبدعة، ولا عزيزة، أمام المنافسات والتحديات؛ تحديات الطبيعة وتحديات الخصوم. إنها لم تستطع أن تكون سوية في مواجهتها لنفسها ولما حولها.. هنا أمراض، وعجز، ونقص في التغذية.. هنا حياة لا تجد شروط الحياة.

لقد توارثت آلامها هذه في أجيالها المتعاقبة، حتى نسّق الضعف والتشويه أكثر أفرادها، حتى صنع منها هذا الحطام البشري الذي امتاز بمزيته الفريدة، وهي أنه كلما كثر قل. إن التخلف الصحي في كثير من المجتمعات والناس أخطر من التخلف الحضاري. إنك بلا صحة، أنت أسوأ وأخطر منك وأنت بلا حضارة، بلا أخلاق، بلا ذكاء. إن جميع مزايا الإنسان تصبح عقاباً له، وعقاباً للمجتمع إذا كان لا يملك صحة. أما أن تكون حاكماً مطلقاً ومريضاً، فهذا يساوي كل الجنون، مالكاً كل القوة.

ليست الحضارة شيئاً سوى العبقرية. وليست العبقرية شيئاً سوى العقل والشهوة. والعقل والشهوة ليسا شيئاً سوى الجسم. والجسم ليس شيئاً سوى الصحة المتكاملة، وسوى الحياة النظيفة، والقدرة على التلاؤم مع النفس، ومع الظروف المواجهة.

إن أي انحراف يصيب بناء هذا الجهاز المادي، يقضي على السلسلة كلها بالعجز والضلال. ولو أن الصحة والقوة تفجرتا في شرايين هؤلاء الخاملين المستسلمين.. إنه لو تغيرت مساكنهم وموائدهم، لكان احتمالاً قوياً أن ينبعثوا ويتغيروا ويتمردوا على هوانهم العريق.

والشعب المريض تهبط طاقاته الأدبية. وإذا هبطت هذه الطاقات في شعب، تهاوت خطوط دفاعه النفسية والفكرية. وأصبح شعباً مفتوحاً أمام غزو الأكاذيب من كل نوع: الفكرية، والسياسية، والحزبية، والوجدانية. وحينئذٍ تأخذ الاتجاهات والدعايات العديدة المتناقضة المتصارعة حوله وعليه بلا أدنى مستوى من الأخلاق تضغطه وتضلله وتقتحمه؛ فلا يعرف أيها يختار، ولا أيها يصدق، كما لا يعرف أن ينقدها أو يقاومها.

إنه ضعيف ومحتاج.. ولأنه ضعيف لا يقاوم.. ولأنه محتاج يصدق ويتقبل كل ما يرمى إليه من أرخص الخرافات والوعود التي لا تصدق. والمريض أكثر المحتاجين.

إن الخرافات والأكاذيب النفسية أول ما تنبت، وأقوى ما تنبت، تحت ظروف الضعف والحاجة. فالمريض قد يصدق حينما يخبر أن مغارة معينة تشفي من فسوق الأعضاء التناسلية، أو أن نبياً قد بعث ليشفي من الموت والشيخوخة والهموم والأحقاد، أو أن تعويذة دينية أو غير دينية، تزيل كل ألم وشكوى وحاجة وخوف. ولكن من الصعب أن يصدق ذلك السليم القوي.

إنه لهذا ينجح محترفو الإصلاح من كل لون في الأمم المريضة، مهما ضللوا. ما أكثر الأنبياء والمصلحين والسحرة بين الأقوام المرضى. ولو أن أي إنسان ادعى النبوة بين قوم من المجذومين والبرص، لكان من المحتمل جداً أن يؤمنوا به، وأن يجربوا الإيمان به، على أفضل الافتراضات في حصانتهم العقلية. ولكن لو أن نبياً صادقاً بعث في قوم من الأصحاء الأقوياء المتكاملين، لكان حرياً ألا يؤمن به منهم أحد. ولو آمنوا به لكان حرياً ألا يطيعوه، أو ألا يبالغوا في تقدير قيمته التعليمية أو الإنسانية.

إن المرضى والضعفاء لا يتوافقون مع الحضارات والمذاهب القوية، لأنها تكلفهم ما لا يطيقون وما لا يفهمون. لهذا يلجون في إنكارها واجتنابها، وفي خلق المسوغات الأخلاقية أو الدينية لهذا الاجتناب والإنكار. إنهم لا يستطيعون أو يهابون، وحينئذٍ يتحولون إلى فضلاء. إن الذين يرفضون الأفكار أو النظم أو المذاهب، أو الحياة الجديدة لا يفعلون ذلك لأنهم فضلاء، ولكن لأنهم ضعفاء أو هيابون.. وأحياناً لأنهم مستغلون. والبشر ليسوا فضلاء أو غير فضلاء، ولكنهم أقوياء أو غير أقوياء. والفضيلة والرذيلة هما أسلوبان من أساليب التعبير عن القوة والعجز، أو عن الخوف والإقدام، أي عن المرض والصحة. إنه لو ارتفعت الطاقة الأدبية في هذه المجتمعات التي تعد متاحف للخرافات الضعيفة، ونوادي مفتوحة أمام كل المشعوذين.. إنه لو ارتفعت الطاقة الأدبية في هذه المجتمعات التي تقاوم، أو تعادي كل التغير والحضارات القوية، كما تعادي كل المتفوقين وكل المذاهب والأفكار الجديدة؛ لكان من المحتوم أن تحطم متاحفها، وتغلق نواديها، وتفتح جميع أبوابها لجميع الحضارات والمذاهب والأفكار، دون أن تخجل من شيء أو تهاب شيئاً؛ ولكن ارتفاع الطاقة الأدبية محتاج إلى ارتفاع في مستويات الصحة.

إن كل المرضى ضعفاء.. إنهم لا يستطيعون أن يكونوا وحدهم. إنهم يهابون ذلك. إنهم لهذا يخترعون الآلهة والمعتقدات الرهيبة المستحيلة التي يجدون فيها الحماية والأمان، ويستمسكون بها استمساكاً عنيداً. إن أكثر المجتمعات آلهة وعقائد، هي أضعفها.

الألم صانع الرسالات

إن المسؤول الأول عن الآلهة وعقائد آسيا وإفريقيا، هو المرض.. هو الضعف الذي يسبب الخمول، والذي يصبح شوقاً بليداً إلى أغبى الغوايات، ويتحول إلى دعوة لكل مشعوذ لكي يجيء في موكبه البليد.

ليست الفلسفة ولا الفضيلة هي التي جعلت الهنود يعيشون في هذا الجو المختنق المتصارع بالأرباب والأكاذيب العقلية، وبالأنبياء المتبلدين. إنهم يريدون أن يؤمنوا، لأنهم ضعفاء ومرضى. إن إرادة الإيمان ظاهرة من ظاهرات الضعف.. إنها ظاهرة من ظاهرات المرض. وهؤلاء القديسون والأنبياء والملهمون الذين يزرعون الإيمان والعقائد والآلهة غير الحضارية في سهول الهند، وكل آسيا وإفريقيا الواسعة؛ لماذا جاؤوا، ومن أين جاؤوا..؟

إنهم تعبير عن الهرب، عن الضعف، عن المرض، عن الألم.

إن الألم هو الذي يلهمهم ويرسلهم.. هو الذي يجعلهم أنبياء وقديسين. وهو أيضاً الذي يجعل المجتمعات تؤمن بهم، وترحب بقدومهم إذا قدموا، وتحتلم بهم وتنتظرهم إذا لم يقدموا. فالمعتقدات والآلهة، والقديسون والكاذبون في أي بلد، يساوون ما في ذلك البلد من آلام وأمراض، ومشاكل غير محلولة. وهؤلاء يستغنى عنهم، ويطلب الشفاء منهم بالصحة والقوة البدنية، وبالغذاء الجيد، وليس بالمنطق، ولا بالأنبياء، ولا بالمصلحين الطيبين.

إن الناس لا يضلون لأنهم لا يجدون الهدى، ولكن لأنهم يريدون الضلال. إن الضلال ليس له مبرر أو مفسر من ذاته، بل من ذات الضال. إن التفكير المحايد لا يصوغ عقائدنا، ولكن يصوغها احتياجنا إلى الاعتقاد. إن الاختلاف بين آلهة البشر وعقائدهم، ليس راجعاً إلى الاختلاف في طبيعتهم الفكرية.. إنه راجع إلى اختلاف ظروفهم المادية والنفسية. إن الاختلاف في التفكير نفسه، راجع إلى الاختلاف في هذه الظروف. إن الناس لا يفكرون ثم يريدون، ولكنهم يريدون ثم يفكرون، أو ثم لا يفكرون. إن من لا يريد أن يفكر، لا يمكن أن يفكر.

إن آلهتنا وعقائدنا لم تصنعها أفكارنا ولا فضائلنا؛ وإنما صنعتها آلامنا وفقرنا. إن الإيمان أنين لا غناء.. إنه ألم لا لذة. إن الإيمان ليس بحثاً عن الجمال.. إنه تعبير عن الضعف، والدمامة، والأحزان.

ومع هذا يبدو أن المرض كالألم قد يثير في المريض نشاطاً. إن المرض يحدث قلقاً.. والقلق يدفع إلى عمل شيء بحماس.. إنه يرفض السكون داخل الذات.

إن المريض ببعض الأمراض يكون متوتراً، يكون مصاباً بالحساسية. والمصابون بالتوتر

والحساسية، يحاولون أن ينفسوا عن آلامهم بأنواع كثيرة من أنواع النشاط الفكري والسلوكي. إن كل تفكير وسلوك ليس إلا هرباً.. ليس إلا تنفيساً عن قلق أو عن ألم. وهنا قد تتعاظم الغريزة الجنسية، أو حب الإصلاح، والدعوة إلى الدين والفضيلة والغيرة. وقد تتحول المسألة إلى نوع من الوحي والإلهام. لهذا فقد يوجد نوع من القرابة بين الدوافع الجنسية، والميل إلى الإصلاح والغيرة على الأديان والأخلاق. والجامع بين هذا وهذا، هو مرض التوتر والحساسية والقلق. إن المرضى قد يكونون هم أكثر الناس محاولة لعلاج الناس، واهتماماً بمشاكلهم وآلامهم. إنهم يتحولون إلى قادة ومصلحين وأطباء سماويين وإنسانيين، لأنهم مرضى. إنه يوجد في التاريخ عباقرة مرضى، وهل هم عباقرة لأنهم مرضى.. أم هم عباقرة ومرضى دون أن يكون هنا سبب ومسبب.. أم أنهم عباقرة ولو لم يكونوا مرضى، ولكن المرض حول عبقريتهم إلى نشاط..؟

إن أمراضهم جعلتهم مناضلين متحدّين، لأنها قد جعلتهم متحركين لا يستقرون، فأثاروا عجاجات هائلة في التاريخ، أو أثاروا شيئاً من الغبار في وجه التاريخ. ولو أن هؤلاء كانوا أصحاء فهل يجدون حينئذٍ في أنفسهم من التوتر ما يكفي ليدفع بهم إلى الآفاق البعيدة..؟

إن المتألم يتعالج من ألمه بالنشاط والتفكير، والعبقرية والعمل من أجل الآخرين. إن التألم هرب.. والهرب يتحول إلى شيء ما.

قد يكون معنى هذا أن المرض يعجل باستهلاك الطاقة الموجودة على نحو سريع، وأسلوب اضطراري متوتر، صائح صادم، من غير أن يوجد الطاقة أو يزيد في مقاديرها. إنه حينئذٍ يشبه الاحتراق والانتحار.. إنهما فناء. ولكنه فناء متوهج صادم. وهذا قد يغير مجرى النهر، ولكنه لا يوجد النهر. قد يكون هتلر أو بوذا مثلاً مريضاً. إن مغامرات أحدهما وتعاليم الآخر لم تهب البشر طاقة، ولكنها استهلكت الطاقة الموجودة بطريقتها الخاصة، أو تعاملت معها كذلك.. وهكذا يصنع المرض.

إنها ليست كل الأمراض تصنع ذلك. إنها أمراض خاصة وهي التي تصنع الحماس والتوتر والتوهج، أما سائر الأمراض فتصنع الهبوط المعجز عن الانتاج وعن الاستهلاك معاً.. إنها تصنع الخمول والخوف والهرب.. إنها تصنع البكاء والأنين والشكوى، وشتم الأصحاء وحسدهم، واتهامهم بدل الإبداع.

إن الجسم المريض هو شر ما تهدي الحياة إلى الحياة.. كم هي مسؤولة الأمراض عن تأخر الحضارة.

إن الحياة لا تعطي أفضل احتمالات عطائها، إلا وهي في أفضل احتمالات وجودها. هكذا هي في النبات والحيوان.. هكذا هي في الإنسان.

إن الحروب والأحقاد والعداوات، ثمار شريرة للصحة المفقودة. فالمريض يستطيع ويشتهي أن يصنع العداوة والبغض والتعصب، أكثر مما يستطيع أو يشتهي أن يصنع الحياة. إنه يلائمه أن يكون عدواً وهداماً أكثر مما يلائمه أن يكون صديقاً أو عبقرياً. إن الهدم والأحقاد، والبغضاء والتعصب، والمخاصمة والمعاداة للناس هي تقوى المرضى وعبقريتهم.. هي فضيلتهم النفسية والأخلاقية.. هي نشيدهم الروحي.

إن الانتصار على الأمراض انتصار على أسباب من أسباب العجز عن الذكاء والعبقرية.. إنه انتصار على أسباب من أسباب الإيمان بالخرافة وبالآلهة، والدعاة الزائفين.. إنه انتصار على أسباب من أسباب الحروب والخصومات. إن الهيئات الدولية تفكر في كثير في مشاكل العالم العديدة الخطيرة، ولكن لا يبدو أنها تدرك أن التخلف الصحي في العالم هو أخطر هذه المشاكل، أو هو سببها، أو هو بعض سببها، أو هو المعمق والمديم لها أو المحول لها إلى خطر.

هل تخلفنا الصحي هو واهب تخلفنا الحضاري..؟

إن جميع الأسباب التي يمكن أن تذكر هنا قد ترجع كلها إلى أسباب صحية، لأن الأصحاء أقوياء، والأقوياء يفعلون كل احتمالات وجودهم، والذين لا يفعلون هم عاجزون، هم عاجزون.

هل الأمراض والمسغبة هي وحدها أسباب هذا التخلف الصحي.. أم أن هذا التخلف هو تعبير عن تخلف آخر..؟

هل هناك أسباب تاريخية وراثية هي التي تصنع وجودنا الصحي المتقدم والمتخلف، وتصنع كل وجودنا..؟

هل مقاييس البدن هي بعض الحالة الصحية..؟

إن الضعفاء يفجرون انفعالاتهم في ذواتهم، أما الأقوياء فيحولونها إلى أفكار، إلى أسفار بعيدة. إن التوازن النفسي في مواجهة المشكلة هو أقوى وأفضل صفات الرجل المتحضر، الرجل القوي.

إن كل الناس ينفعلون، ولكن كيف يتصرفون في مواجهة انفعالاتهم..؟

الضعفاء يبكون، يصرخون، يلعنون الآخرين، يتهمون التاريخ بالتآمر ضدهم، وضد آبائهم وآلهتهم وتاريخهم، وضد تفوقهم الذي قهره الآخرون.. ثم يموتون حزناً.

أما الأقوياء فيصنعون كالأطباء المهرة. إنهم يشخصون الألم، ثم يعالجونه بصمت ورصانة. إن الانفعالات هي أعظم وأقوى ما يملكه الإنسان في هذه الحياة، ولكن ما أعظم الفرق بين البشر في ممارساتهم لانفعالاتهم.

إن أغبى ما يفعلون أن يبددوا هذه الانفعالات في عمليات هدامة صاخبة.

إن المشكلة في نفسها ليست مشكلة، ولكن المشكلة في أسلوب القدرة على مواجهتها والتوازن معها. إنه ليس الفرق بين من ينهضون ومن يسقطون، يساوي الفرق بين مشكلة ومشكلة؛ ولكنه يساوي الفرق بين تفكير وتفكير.. بين قدرة وقدرة.. بين سلوك وسلوك.

إن حدود أية مشكلة هي الإنسان نفسه، لا نفس المشكلة. إنه لا يمكن تفسير المشاكل أو تقديرها معزولة عن الإنسان. إنه لا يمكن وجودها بدون وجوده، ولا تصورها بدون تصور قدرته وعمله فيها.

إنه لا توجد في هذا الكون أية مشكلة، وإنما يوجد إنسان يواجه شيئاً أقوى منه، ولو في تصوره ومخاوفه. إن الإنسان هو المشكلة حينما وضع أمام نفسه وأمام ظروفه.. إنه لا مشكلة غير الإنسان.

ممارسو حضارة، لا متحضرين

لقد وجدت فينا الصحافة قبل أن يوجد الصحفي.

إن الصحافة إلزام حضاري.. نحن نعيش في الحضارة، إذن لا بد أن توجد فينا الصحافة، وإن لم يوجد الصحفيون. إن هذه هي المأساة.

لقد جاءت إلينا الصحافة بدون أخلاقها ومواهبها الكثيرة الصعبة، كما جاءت إلينا أدوات الحضارة الأخرى.. كما جاءت إلينا السيارات وأجهزة الراديو، والمطابع والقوانين.. كما جاءت إلينا الشعارات الحضارية كالديمقراطية والحرية، والاشتراكية والقومية، وغير ذلك؛ دون أن تكون في وعينا أو ثقافتنا، أو أخلاقنا أو مزاجنا النفسي، فصرنا ممارسي حضارة، ممارسي أساليب حضارية، دون أن نكون متحضرين، وكذلك أصبحنا ممارسي صحافة، دون أن يوجد فينا صحفيون.

الصحافة مطبعة وورق، وصور وفن إخراج، وبيع وشراء، وكلام كثير. وهذا كله قد جاءنا مستورداً. أما الصحفي فوعي وفكر، وشجاعة وحرية، وحضارة ونقد، وإبداع ونزاهة، وعمليات كبيرة وشاقة، وهذا كله لم نستطع أن نستورده. إن الصحفي مستوى إنساني.. إنه موهبة كموهبة الاختراع والاكتشاف.

إن الذين يصنعون الحضارة قد يستطيعون أن يصنعوا الصحفي، وقد يعجزون. إن وسائل الإغراء والإغواء، والإفساد والتحطيم، والتعجيز والإرهاب للصحفي قوية، بشعة إلى المدى الذي يجعل الإفلات منها أو الانتصار عليها مستحيلاً. أما الذين لا يصنعون إلا البداوة وأخلاقها فكيف يستطيعون أن يخلقوا صحفياً..؟

إن المزايا والاشتراطات التي لا بد أن يملكها الصحفي أقسى وأكثر من التي لا بد أن يملكها المخترعون والمكتشفون. إن الصحافة فن متصل بكل احتياجات المجتمع وأخلاقه وظروفه، متصل بالإنسان، بكل مزاياه ورذائله ووجوده.. كيف يفهمه.. كيف يفسره ويعالجه ويقوده.

إن الصحافة فن يحتاج إلى كل فن.. إنها الصلوات اليومية التي تقتات بها أشواق المجتمع، وحياته المولودة مع كل صباح. ما أصعب الفن الذي يحتاج إلى كل فن.. ما أقل من يستطيعون أن يملكوا كل احتياجات هذا الفن.. ما أعظم خوفي على الصحفي الذي يراد له، الذي يريد لنفسه ألا يتعامل مع الغواية، مع الغباوة، مع الخوف.. ما أضيق وأخطر الطريق الذي يسير فيه الصحفي الذي يرفض أن يكون ملوثاً أو جباناً، أو ضالاً أو بليداً.. ما أضيق وأخطر الطريق الذي يسير فيه الصحفي النظيف.

لقد تحولت الصحافة في كثير من العالم إلى عدو لئيم للإنسان. إنها أكاذيب ونفاق، وعجز وبيع للإنسان باسم الدفاع عنه.. إنها لتضيف إلى آلامه وعداواته، وأوهامه وجهله، وتوتراته النفسية والعصبية، وإلى طغاته ونقائصه وهمومه مزيداً من ذلك، مزيداً.

الصحافة في البلدان العربية وفي أكثر بلدان العالم غزو للإنسان، غزو لذكائه، لأخلاقه. إنها لا تفهم الحقيقة.. إنها لا تحترمها.. إنها لا تبحث عنها.. إنها لا تحاول أن تدفع ثمنها، أن تقف معها، أن تدافع عن شرفها.. إنها في كل حالاتها بلا شرف. إنها ليست فساداً فقط. إنها غباء.. إنها جهالة.. إنها افتضاح.. إنها قوم من المنحلين والمرتشين، والضعفاء والمنافقين يعرضون في السوق عرضاً دائماً أسوأ ما فيهم، يعرضونه على أنه أسمى رسالة إنسانية ووطنية وأخلاقية، يعرضونه على أنه تضحية في سبيل الإنسان تفوق جميع التضحيات.

إن هؤلاء الذين يشرفون على هذه الصحافة هم أردأ شخصيات المجتمع، إما منذ البداية، وإما بالتعويد وبالممارسة والاستمرار.

إنه لمن المحتوم أن الذين يمارسون أنفسهم كل يوم في الكذب والنفاق، والبيع، تحت وطأة الخوف وإلحاح الحوافز التجارية على مستوى كل ما في السوق من تلوث وغباء وتناقض، لا بد أن يكونوا أردأ الناس، أتعس الناس. إنهم يضعون أخلاقهم وعقولهم في عرض دائم للبيع والمساومات..

كم تعذبني هذه الصحافة.. كم أخافها.. كم أدعو إلى الخوف منها. إنها تتكلم في كل شيء؛ ولكن بغرور وجهل، وجرأة وضوضاء.. إنها تعالج جميع الأمراض والمشاكل؛ ولكن كما يعالج المشعوذ مشاكل زواره وأمراضهم.. إنها تفسر كل الأزمات الدولية بالأسلوب

الذي يفسر به الشيخ والقسيس التفجرات الذرية، أو الحكمة الربانية في خلق الذبابة، أو المغزى العظيم الرحيم في إصابة ابن الجيران اليتيم بمرض السل، بمرض الشلل.

القاتل الفادي.. اللص الواهب

هذه الصحافة، هل تعطي شيئاً.. هل هي احتياج من احتياجات المجتمع..؟

لو افترضنا العالم بدونها هل نفترضه حينئذٍ أفضل.. هل نفترضه حينئذٍ أسوأ..؟

ما هي أكبر أدوات التضليل والتهديم في العالم المتخلف، في العالم الذي تحكمه الدكتاتوريات.. أليست أكبر هذه الأدوات هي الصحافة المقروءة أو المسموعة أو المرئية، كالإذاعة والتلفزيون وأمثال ذلك.؟

إنها هي أجهزة الطرق الدائم القوي لعقول الشعوب، لعواطفها، لأعصابها. إن الصحافة تصبح في البلد الذي يحكمه الدكتاتور لسان هذا الدكتاتور الفاسق، وسوطه الرهيب، وصليله الدائم الفاجر بالآذان، المصمّ للآذان. إن الصحافة تحت طغيان الدكتاتور تتحول إلى أفسق وأكذب نبي، أما في البلدان المتخلفة التي تحكمها الحرية الحزبية الفاسدة، المتخاصمة بالمصلحة، فإن الصحافة فيها تتحول إلى أسوأ أداة للتخاصم والمتاجرة بالمذاهب والمثل، والآلهة والزعماء.

الصحافة في الأوضاع الشريرة أقوى جهاز عرض وتبرير، أقوى جهاز يعرض به الحاكم الطاغية طغيانه ويبرره، ويعرض به الحاكم الفاسد فساده ويبرره، ويعرض به الصحفي الكاتب كذبه ويبرره. إنها أداة قتال ضد المجتمع.. إنها تبيع الناس وتضللهم، وتفسدهم وتسلبهم الحرية والذكاء، حينما تبدو وكأنها تعلمهم وتحررهم، وتعالجهم وتصلحهم، وتقاتل دونهم.. إنها القاتل الفادي.. إنها اللص الواهب.

إن أية صحيفة تصدر في أي بلد متخلف لتكون مثل زميلاتها السابقات، لتدور في المدار نفسه، لهي تجارة محرمة.. إنها حرب الإنسان، على ذكائه، على قيمه وآماله.

إن الصحافة بطبيعة مهنتها، محكوم عليها بأن تكون في حالة زواج أو مخادعة للأقوياء، وفي حالة مغازلة كاذبة ومخادعة للضعفاء. إنها لا بد أن تمارس الخيانة أو الخداع على نحو ما.

إن أخطر ما فيها أنها تبدو كرسالة في أسلوبها ولغتها، مع أنها حرفة في تصرفها وحوافزها. إنها في جميع احتمالاتها ليست نصيحة أو غيرة، أو نبوة يقدمها الأذكياء، أو الذين يعرفون، أو الطيبون، أو الزعماء، أو الأنبياء إلى الشعوب، لتعليمها أو حمايتها من الضلال والاستغلال.. ولكنها في كل حالاتها، ليست سوى سلاح عقلي وعاطفي، يطلقه

الأقوياء الماكرون والمتحالفون معهم؛ يطلقونه على الجماعات المقهورة في جميع أماكنها وأوقاتها، إطلاقاً وحشياً مزعجاً، بلا رحمة ولا نية طيبة. إنه سلاح يطلقونه كما يطلق الصيادون أسلحتهم على الحيوانات والطيور الفاضلة. إن الصحافة ليست إلا أسلحة تطلق على حيوانات تتكلم اللغات، وتؤمن بالمذاهب والآلهة، والطغاة واللصوص، والمعلمين الأغبياء، وتدفع ثمن الأسلحة التي تطلق عليها.

إنه لن يوجد ما هو أكثر وحشية في خطورته على فضائل العقل والاتزان من الصحافة حينما تقع في قبضة دكتاتور متوحش الطموح. إن البشر في كل تاريخهم لن يقاتلوا بنبي فيه كل هذا الفسوق وهذه الشرور، كما قوتلوا بالصحافة التي يحكمها دكتاتور يحكم مجتمعاً متخلفاً.

في كل مراحل التاريخ كان الأقوياء والأذكياء الممارسون للحكم والقيادة، المنتفعون بالاستعلاء على الآخرين يحتاجون دائماً إلى أسلحة عقلية وعاطفية، يخضعون بها الشعوب من داخلها، ويسحقون بها وعيها ومشاعرها، ويمزقونها بها في إرهاق دائم. وكان كثير من التعاليم والعقائد والطقوس هي هذه الأسلحة في العصور القديمة، لهذا كانت تمارس صباح مساء وفي كل وقت، مثل الصحافة.

أما في العصر الحديث فقد أصبحت الصحافة هي هذا السلاح. إنها الوسيلة القوية لتبليغ الأديان والمذاهب الحديثة، وللتذكير بها، ولإثارة الحماس لها، وللدعوة إلى الآلهة الجديدة. إن الطغاة لم يجدوا في تاريخ آلة مثل الصحافة يقهرون بها روح المجتمع ويسوقونه بها إلى أخطر الحماقات.

الصحافة في المجتمعات المتقدمة لا بد أن تكون خائنة أو مخادعة على نحو ما. أما في المجتمعات المتخلفة فلا بد أن تكون مع الخيانة والخداع جاهلة وغبية، وسخيفة بلا حدود ولا ضوابط.

إنه ما من صباح رأيت فيه هذه الصحافة أو غيرها من وسائل التعبير الأخرى إلا وذهلت كيف يستطيع أي مجتمع أن يتكلم أو يعيش بهذه التفاهات والغباوات. ولكن هذه المجتمعات لا تعيش بهذه العقول التي تشرف على إخراج هذا الغباء وهذه الحماقات.

إنها تعيش بعقول أخرى قادمة من بعيد.. إنها تتكلم من نفسها وتعيش بغيرها. إنها لا تعيش بالعقول أو الأخلاق التي تصنع صحافتها. إن حياتها حينئذ ستصبح في مستوى صحافتها. والناس لا يعيشون لأنهم يعرفون أو لأنهم يستحقون، كما لا يعيشون بقدر ما يعرفون أو يستحقون.

لقد ابتكرت الحضارة الصحافة، وإنه لمفروض علينا أن نكون متحضرين. إن هذا يعني أن

توجد الصحافة في مجتمع من المجتمعات وإن لم يوجد فيه الصحفي.. أن توجد فيه الصحافة قبل أن توجد فن الصحافة وأخلاقها. إن هذا يساوي أطباء ومستشفيات وممرضين بدون طب وعلاج، أو يساوي علاجاً ومستشفيات وعمليات جراحية كبيرة بدون أطباء وجراحين.

إن إنساناً لا يعرف القراءة لو رأى صحافتنا لكان محتملاً أن يحركه الإعجاب بها. أما لو كان يعرف القراءة والفهم، والتفكير والحضارة، لهاله الفرق بين الذات والثياب، بين الصورة والحقيقة، ولرأى حينئذٍ نعوشاً معطرة بالرياحين، مغطاة بالأكفان المتحضرة.

أما المستقبل فإنه حتماً يعني المزيد من افتضاح الصحافة المقروءة والمسموعة، المرئية والمصورة. ستزداد الصحافة افتضاحاً في العالم العربي، وفي أكثر العالم. سيزداد الطغاة والحكام تسلطاً عليها وقهراً لها، وستزداد هي ممارسة للهوان والغباء والسقوط والافتضاح. ستصبح العار الأكبر لهذا العصر وللحضارة، وللمجتمعات التي تعيش فيها مثل هذه الصحافة، وتعيش هي على مثل هذه الصحافة.

سيكون ممكناً أن يعير هذا العصر، ويعير كل بلد، بأن فيه صحافة... سيكون ممكناً أن يعير الإنسان متهماً بأنه صحفي.. سيقال: هذا صحفي. أي هذا كذب وغباء، وهوان وافتضاح وعدوان.. سيهبط الذكاء والأخلاق، والتهذيب والشجاعة، والصداقة والحب، والرغبة في السلام بين البشر، لأنهم يدرسون هذه الصحافة.

إلزام بالافتضاح

إنه لهول.. إنه لهول أن نجد شعباً بأسره يتحول في آلية ذليلة إلى معبد، وإلى جهاز دعاية، حينما يتحول كل شيء فيه: الصحافة والإذاعة، والكتاب والمعلقون والفنانون.. حينما يتحولون كلهم بلا معاناة إلى صدى تابع، يكررون وينشدون بنفس واحد، وأسلوب كأسلوب الصلاة، رأياً أو مذهباً أو سباباً معيناً، أو المطالبة بالسير في طريق معين؛ لأن حاكماً أو زعيماً أو قائداً روحياً معيناً قال ذلك، أو أمر به، أو اتخذه أسلوباً من أساليب الدعاية ضد قوم أو قادة آخرين، ضد شيطان أو شبح اخترعه لغرض سياسي، أو لعداوة شخصية، أو لعقدة نفسية، أو لحقد، أو حيلة ومكراً.

إن الشياطين والأعداء، والخصومات والحروب التي جعلت الإنسان يسير في طريق كئيب مسدود بالآلام والمخاوف والأحزان؛ إنما تخلقت في نفوس الزعماء والحكام والمعلمين، ومكائدهم. إنها لم تكن تعبيراً عن حاجة الإنسان أو الحياة.. إنها لم تكن استجابة لمطالب الإنسان أو الحياة.

إن من الفظاعة أن يعادي شعب شعباً.. أن يعادي حاكماً أو زعيماً أو مذهباً.. أن يحول عداءه هذا إلى عقيدة وتاريخ وحرب، وإلى صفات وتفاسير إله، لأن حاكماً أو زعيماً أو قائداً روحياً أراد هذا العداء، أو فرضه على شعبه وأتباعه، أو وقع فيه تحت ظروفه النفسية أو التاريخية أو الاجتماعية الخاصة.

إن من الفظاعة المضاعفة أن يغير ذلك الزعيم أو الحاكم رأيه في أعدائه أو في معاملته لهم.. أن يراهم أصدقاء طيبين بعد أن كان يراهم خصوماً وأشراراً خائنين، فيأمر بالثناء عليهم بعد أن كان الطعن فيهم عبادة في محاريبه البذيئة الكئيبة، فيصبح أتباعه والخاضعون لحكمه أو لتعاليمه ملزمين بهذا التنقل من النقيض إلى النقيض، ملزمين بهذا الافتضاح.

ولا يخطر على البال هوان أو تحقير أفظع من أن يفرض على الإنسان حقد زعمائه وأنبيائه. أن يفرض عليه غباؤهم ونقائصهم الأخرى، لتصبح له عقيدة ووطنية، وصلاة وأخلاقاً. إنه في كل المجتمعات لا يوجد رأي جماهير بل ولا رأي مفكرين؛ وإنما يوجد رأي واحد بل شهوة واحدة، وجهاز يتحرك فيتحرك كل شيء بالتتابع، بالآلية.

وأنا لا أستطيع أن أكف نفسي، أن أحميها من احتقار ذلك الكاتب أو المفكر الذي يؤمن ويكفر، ويبدل ملابسه العقلية، يمدح ويذم، ويتحرك على كل الجبهات مغيراً مواقفه من الأشياء؛ لأن حاكمه أو زعيمه أراد ذلك أو فعله. إني بصدق وعمق لأهنىء هؤلاء القوم الذين يستطيعون بهذه السهولة أن يخلعوا عن أنفسهم كل مشاعر الاحترام لأنفسهم دون أن يبكوا، دون أن تذبل أجسامهم من طول مضغهم للهوان.

إن هؤلاء لو ركعوا للطغيان وهم يبكون، ويئنون، ويحترقون، يعصون من داخلهم، لكان من المحتمل الغفران أو الرثاء لهم.. أما أن تهوي كل سياط الهوان على عقولهم وهم يغنون ويرقصون، ويمضغون اللبان، بل ويتبادلون التهاني بإنجاب الأطفال، فهذا شيء تحت كل معاني السقوط، تحت كل فضائل التراب، تحت كل كبرياء الحشرات.

إن الفسق بالرأي والذكاء، والمذاهب والعقيدة، بل وبالإله؛ لهو شر دواعي الفسوق.

ومن هم الذين يفسقون بالإله..؟

إنهم هم الذين يحولونه إلى تفاسير لآثامهم.

إن الناس يعدون الحاكم الذي يغتصب أعراض النساء فاجراً يستحق العقاب والمقاومة، ولكنهم لا يرون ذلك في الحكام والزعماء والدعاة الروحيين الذين يفسقون بالعقول والضمائر، والأخلاق والذكاء؛ بل وبالآلهة.. ما أكثر الفاسقين بالآلهة.

ما أبشع أن تتفق آراء الناس في الأشياء.. أن يؤمنوا ويكفروا جميعاً. أن يؤيدوا أو يعارضوا بلا خلاف.. أن يتحركوا بالجملة. إنهم حينئذٍ ليسوا بشراً. إن البشر تعدد عقول، تعدد أخلاق ومواقف.. إنهم رفض.. إنهم احتجاج.. إنهم مستويات. إنهم لا يتفقون إلا إذا ماتوا، أو حولهم الطغاة إلى أهون من الموتى.

إذا اختلف حاكم أو زعيم، أو نبي أو كاهن، مع آخرين أمثالهم من الحكام والزعماء، والأنبياء والكهان والشيوخ فلن يوجد من يفكرون، أو يسألون، أو يعارضون في هذا الخلاف؛ وإنما يوجد أتباع لهذا وأتباع لذاك.. أتباع كلهم يؤمنون ويهتفون، كأنهم أشياء تقتسم.. تقتسم بالحظ، والصدفة، والمغالبة، وبالتاريخ والإرث. لهذا لا نجد لا فكراً ولا حرية ولا رفضاً حين يقع خلاف أو صدام بين هؤلاء وهؤلاء؛ إنما نجد كفراً غبياً وإيماناً غبياً. إن إقناعهم بهذا أو هذا ليس باقتناع.. إنه اتباع.

إن المؤيد غبي جاهل.. إنه ليس خيراً منه المعارض. إن التأييد والمعارضة هوان وانطراح، وليسا تأييداً ولا معارضة.

إن البشر لن يجدوا في كل ما يجدون ما هو منكر وهوان، مثل أن يجدوا أن الشعوب تتعامل، تتعادى، تتحارب، تختار مذاهبها وآلهتها، وأفكارها وأخلاقها، وأصدقاءها وأعداءها من خلال ذوات الحكام والزعماء، والدعاة الروحانيين.. من خلال أهوائهم ومخاوفهم، وجنونهم وخصائصهم النفسية والعقلية.

إنه لن يشوه البشر شيء مثلما يشوههم أن يتحولوا إلى أنابيب لتمر من خلالها كل ما في القادة من ضعف وسوء وألم وفضلات غير نظيفة.. أو أن يتحول القادة إلى نوع من الأنابيب لتمر من خلالها الشعوب، لتضيع في صحارى الجنون والمغامرات والأحقاد.

إن إنساناً واحداً يصاب بالجنون أو بالسفه أو بالغباء أو بالحقارة فيصاب مجتمعه كله بذلك، أو يصاب به كل المجتمع العالمي.. إذن ما أعظم كبرياء الإنسان.

إن البشر لم يفطنوا حتى اليوم إلى أن قادتهم هؤلاء هم الذين يصنعون الخلاف بينهم ويؤكدونه. وأنهم هم الذين يصنعون الخصومات والعداوات الكبرى التي تنتهي بالحرب أو بالاستعداد الدائم للحرب. وأنهم هم الذين يقيمون بينهم الحدود والحواجز المخفورة بالأسلاك الشائكة والمكهربة، وبالآلهة وبالعقائد المتعصبة، وبالجيوش الكبيرة التي لا تعني في جميع حالاتها إلا الموت أو التهديد بالموت، أو الإنفاق عليها لأنها قد تصنع الموت أو تهدد بالموت.

إن أفظع الأشياء أن اختلافات السادة والأرباب، أن تنافسهم، أن تناقض أهوائهم وما لذلك من أثمان باهظة، لا تسدد حساباتها من دماء هؤلاء السادة والأرباب. إن الإنسان هو

الذي يسدد الحسابات المتبادلة بين السادة والأرباب: حسابات الغباء والحماقات.. حسابات الدم والعذاب..

ما أعظم العدل.. ما أعظم الذكاء أيها الكون النبيل.

إنه ليس في الدنيا كلها ما هو أغلى ثمناً، وأعظم وحشية، من المصارعة بين الزعماء والقادة.

إن مصارعة الثيران وكل الحيوانات، لهي شيء طيب وإنساني في حساب هذه المصارعة. إن اسبانيا بكل فنها المتوحش، لتبدو بلداً من الملائكة إزاء ما يحدث في العالم من خصومات ومبارزات، وصراع بين أحقاد وغباء أقطابه وأربابه.

وإذا كان وحوش العالم الكبار يصرون على أن يتقاتلوا، أن يتعادوا، أن يفعلوا الجنون فليت البشر يعرفون كيف يجعلونهم يصنعون ذلك على حسابهم الخاص.. أن يمنعوهم من أن يؤدوا ألعابهم الجنونية فوق رؤوس الشعوب أو بعضلات الشعوب. ليتهم يعرفون كيف يجعلونهم يتبارزون بالسيوف مبارزة فردية كما كان القدماء يفعلون.. إذن لكان ذلك أقرب إلى العدل والشجاعة وأخلاق الفروسية. إنهم هم الذين يتعادون؛ إذن يجب أن يدفعوا هم وحدهم ثمن عداوتهم.. ولكن أين الحكم..؟

إن المشكلة أنه لا يوجد إنسان عام للأعمال العامة، وإنسان خاص للأعمال الخاصة. إن لكل إنسان عام شخصية خاصة يحيا داخلها حينما يجب أن يكون إنساناً عاماً يحيا خارج ذاته. إن شخصيته العامة تحيا داخل شخصيته الخاصة.

إن أخطر الأشياء أن يكون للإنسان العام شخصية فردية ـ أي أن يحيا ويفكر، ويتألم ويتلذذ من داخل ذاته. إن معنى هذا أن يخضع كل ما في المجتمع لخصائص شخص واحد، لآلامه وظروفه وأخطائه.. إن معنى هذا أن تتحرك الدنيا كلها.. أن تساق كلها بآلام فرد أو بمخاوفه، أو بطموحه أو بجنونه، أو بأي شيء من أخلاقه وتفسيراته النفسية أو العقلية للمواقف العامة الكبرى.

إنه لا يوجد من يتصور أن جبلاً كبيراً قد يمر من سم الإبرة، ولكن الناس لم يزالوا يشاهدون هذا، لم يزالوا يشاهدون ملايين الناس يمرون من خلال غلطة رجل واحد، أو شهوته أو كبريائه، أو من خلال تعاليمه المنحرفة.. يمرون إلى الموت أو إلى العبودية الدائمة، عبودية العقل والعقيدة، والمذهب، أو عبودية العذاب.

نعم لم يزل الناس يشاهدون الملايين يمرون من ثقب الإبرة، يمرون من خلال حماقات وأحقاد، ونقائص ومخاوف رجل واحد.. إنهم لم يزالوا يشاهدون الجبل يمر من ثقب الإبرة.

إنه خطر كبير أن تكون للحاكم أو للزعيم أو لأي رجل عام صفات إنسان، ولكنه بغير هذه الصفات لا يستطيع أن يكون حاكماً ولا زعيماً ولا إنساناً عاماً. إنه بغير نقائصه لا يكون، وبنقائصه يكون، ولكن ما أخطر ما يكون.

إن كل زعيم وحاكم ليس إلا إنساناً ملوثاً صغيراً، بينما يطلب منه ويفترض فيه أن يكون في نظافة الإله، في ضخامة الإله. إنه إنسان عادي في منصب إله.. إنه يطلب منه أن يكون في حجم الشمس، في ارتفاع الشمس، بينما هو في حجم الهباءة، في هوان الهباءة، في سقوط الهباءة.

لقد حاول الإنسان في تاريخه الطويل أن يعالج بلا قدرة هذا المأزق. لقد راح لذلك يفترض كائنات مركبة تركيباً عجيباً لتقود حياته، لتسوغ العدالة والمنطق في هذا الكون. لقد افترض آلهة غريبة التكوين، آلهة فيها بعض صفات البشر وليس فيها صفاتهم الأخرى، لكي تكون هذه الآلهة قادرة وفاعلة، ولكن بلا خضوع للصفات الأخرى التي تجعلها محكومة بها، كما تحكم الزعيم أو الحاكم أو القائد شخصيته الخاصة أو صفاته وهمومه الخاصة، فيكون في ذاته العامة محكوماً بذاته الخاصة.

وقد تناقض الإنسان في تصوره للإله. لقد تصور أنه لا بد أن يكون كاملاً.. ثم تصور أنه بدون النقائص والأغراض الذاتية، لا يمكن أن يفعل شيئاً، أو أن يدبر شيئاً، أو أن يرغب في تدبير شيء؛ لأن حوافز الفضيلة والقوة هي حوافز الرذيلة والضعف.. ثم تناقض مرة أخرى، فذهب ينزه هذه الرذائل، ويحولها إلى فضائل، لأنها رذائل إله.

إن صورة الإله إذن في ذهن الإنسان أنه كائن له رذائل البشر وفضائل الآلهة، أو له رذائل البشر دون فضائلهم. إنه لم يستطع أن يتصور هذه الفضائل إلا في رعاية هذه الرذائل.

لقد تصور الإنسان الإله مزيجاً لا مثيل له من الصفات الرهيبة الحزينة المخيفة المتناقضة المستحيلة. لقد أراد أن يكون أحسن الأشياء فجاء أقبح الأشياء.

لقد كانت دائماً الصورة المثالية التي ابتكرها البشر لمن يقودون الجماعات أو يحكمونها أو يعلمونها صورة منزهة عن ذاتها. فالذات خطر على الفضيلة، خطر على القانون والعقل في تصورهم. والأمر كذلك حتماً؛ ولكن لا فضيلة، ولا قانون، ولا عقل، بغير الذات. فالمعلم أو القائد الذي يخضع لذاته، كيف يمكن أن يكون منزهاً أو عادلاً أو عاقلاً دائماً..؟

والذي لا يخضع لذاته، كيف يمكن أن يكون قائداً أو معلماً أو شيئاً..؟

إن إرادتك لذاتك هي نفس إرادتك لنقيضها. إنه لا توجد إرادة للذات، وإرادة لنقيض

الذات. إنه بالخضوع للشيء يطلب الخروج عليه. إنك بطاعتك لذاتك تخرج عليها، وبخروجك عليها تطيعها. إن طريق الطاعة هو طريق الخروج.

ولكن المعلمين والقادة والحكام والزعماء الذين يحكمون المجتمعات، هم محكومون أيضاً بتلك المجتمعات على نحو ما، حكماً غير مباشر. وقد كان هذا شيئاً طيباً، ولولا ذلك لكان الخطب أكبر.

إنه كلما ضعف هؤلاء السادة، ضعفت الاحتمالات التي تجعل الشعوب تتصافح بالسيوف، ويزحف بعضها على بعض، تحت رايات يقودها الحمقى والمجانين، والمرضى والمنحرفون، والطامحون والمقامرون بالبشر.

إنه لولا الحكام والزعماء والمعلمون الخالدون، لفقدت الخصومات والعداوات بين الشعوب أعظم أسبابها.

أيها الطغاة.. أيها المعلمون.. يا آلهة البغض ومعلميه، وصنّاعه وحراسه.. يا آلهة البغض والأحقاد، والأحزان والحروب والخصومات.

متى نعرف كيف ننقذ إنسانيتنا منكم.

يا آلهة البغض ومعلميه، وصنّاعه وحراسه.. يا آلهة البغض.. يا معلمي البغض.. يا حراس البغض.

متى نعرف كيف نعصيكم.. كيف ننفيكم.. كيف نكون أذكى منكم، أقوى منكم..؟

تلاقٍ، ما أقساه.. ما أعجبه

إن العصر الذي نعيش فيه دكتاتور. وهل من الجائز وصف العصر بالدكتاتور..؟

إنه عصر يفرض نفسه بلا أخلاقية على الأقوياء والضعفاء.. على الذين يريدونه ويستطيعونه، وعلى الذين يرفضونه ويعجزون عنه. إن المشاكل والالتزامات والابتكارات الشاقة تتعقد فيه، وتتراكم بجنون ووحشية. إنه في فرضه نفسه ليس مهذباً ولا متحضراً.. إنه لا يجامل أو يرعى الفروق بين من يفرض نفسه عليهم من حيث القدرة، والعجز، والذكاء.

إن أقوى الأمم وأغناها وأعظمها تقدماً، لمهددة بالهزيمة والتخلف أمام عمليات التنافس الوحشية بين الأقوياء الخائفين، الصانعين الخوف للآخرين. إن كل دولة مكرهة على أن تدخل حرب المنافسة غير مختارة، غير مستأذنة ظروفها أو موهبتها، أو باحثة عن الأفضل أو الأنفع.

لقد ضيقت وسائل المواصلات والاقتحام الحضاري الذي لا حيلة في دفعه، هذه الدنيا،

فأصبح البشر جميعاً يقفون أمام معلم واحد، يفرض كل تعاليمه على كل من أمامه بلا رفق أو تسامح أو نبل..

لقد أصبح البشر يعيشون في غرفة واحدة، لتتلاقى فيها جميع الخلافات والأحقاد، جميع صور التقدم والتأخر، كل المعرفة والجهل، كل المزايا والرذائل، كل الخوف والحب.. لتتلاقى العقيدة ونقيضها، لتتلاقى فيها جميع أطوار التاريخ.. الأقمار الكونية، والتداوي من المرض والجهل والفقر وعدوان الطبيعة بالتعاويذ وقراءة النصوص المحفوظة. إنه تلاقٍ ما أعجبه، ما أقساه، ما أجمله، ما أقبحه.

لقد ماتت الحدود والمسافات.. لقد ذهبت الفرصة على أهل الكهف، على من يريدون أن يفروا من العالم، ليعيشوا ويكونوا كما يريدون ويقدرون، بين آلهتهم القانعة بنفسها وبعبيدها.

إن ما يحدث في أي مكان يراه الجميع، ليفرض نفسه على حياتهم وأفكارهم وبلادهم قسراً. إن حضارة أي شعب مفروضة على كل الشعوب.

إنه لمن المستحيل أن يخفي قوم أنفسهم عن العالم.. أن يفروا منه.. أن يخفوا أنفسهم عن أنفسهم؛ بقدر ما هو مستحيل أن يخفى عليهم العالم، أو لا يعاقبوا بما يصنعه ويعرفه ويقوله الآخرون. إن ما يصنعه الآخرون قد يصبح عقاباً لمن لم يصنعوه، لأنه يفرض عليهم بلا رحمة أو فرار. إنه يفرض عليهم كعقاب لهم.

لقد أصبح الفرار من الدنيا مستحيلاً.. لقد أصبح هذا العصر مفروضاً على الجميع بوحشية وحتمية. إنه لا يوجد اليوم من يستطيعون أن يبقوا متأخرين كما كانوا، أو كما يتمنون.

لقد أصبح التأخر أمنية عزيزة لا تنال، لا يظفر بها مريدوها بالمستوى الذي يريدون.. لقد أصبح التقدم عذاباً يفرضه هذا العصر على جميع من يعيشون فيه.

إن كل عصر هو على نحو ما، هزيمة ومقاومة للعصور التي كانت قبله. غير أن مقاومة هذا العصر للعصور التي كانت قبله مقاومة لا شبيه لها في مزاياها، وقوتها، وحتمية انتصارها.

لقد أضحى التخلف مطلباً شاقاً، فمتاعب التقدم وتكاليفه أقل ثمناً من متاعب التأخر وتكاليفه، أو ليست أكثر ثمناً.

لقد أضحت القدرة على التأخر عبقرية مضادة.. لقد أصبحت عبقرية فاضحة.

ما أقوى هؤلاء الذين يستطيعون ألا يتقدموا في هذا العصر.. ما أقوى من يستطيعون أن يعيشوا خارج العصر الذي يعيشون فيه.

إن الذين يريدون أن يظلوا متأخرين كما كانوا، قد يحتاجون إلى موهبة أقوى وأكبر من الموهبة التي يحتاج إليها الذين يتقدمون ويتحركون.. أو يحتاجون إلى موهبة هي أكثر بشاعة وتعذيباً. إن من وقف في مجرى التيار الزاحف، لينااله التعب ويحتاج إلى البذل من نفسه أعظم ممن سار مع ذلك التيار. أما من سار ضد التيار فذاك أكثر تعباً، وأعظم حاجة إلى العبقرية.

إن المتخلفين ليناضلون أقسى نضال لكي يبقوا متخلفين. إنه لا يمكن أن يظل مجتمع من المجتمعات محافظاً على مستوى تخلفه ما لم يناضل بعذاب لمقاومة التقدم. إن التخلف نضال هائل ضد النفس والطبيعة. ومع هذا، فالتقدم والتأخر كلاهما مع الطبيعة وضدها؛ لأن الطبيعة غير متحددة في سلوك الإنسان؛ وإن كان المتأخر يحتاج إلى نضال أعظم أو أكثر غباء وإيلاماً، لكي يستطيع أن يتأخر.

ليس التخلف هو أن نترك التقدم، بل هو أن نعمل عملاً كبيراً مضاداً ودائماً لكيلا نتقدم. إن المتأخرين يناضلون ضد حياتهم وشهواتهم ليتأخروا، لكيلا يتقدموا.

إن الحياة بأفكارها وشهواتها وقوانينها تفرض علينا أن نسير، أن نتطور. إن محاولتنا البقاء متأخرين معناها مقاومة جميع قوانين الحياة؛ لهذا كان التخلف شاقاً.. إنه ليس مؤلماً وحزيناً فقط.. إنه شاق.. إنه عذاب.

إن محاولتنا ألا نتقدم، تشبه محاولة النهر ألا يسير في مجراه.

كم هي المجتمعات التي تعد الجيوش وتشب الحروب، وترصد الاعتمادات المالية الضخمة، وتقيم أقوى وأبهظ الأجهزة الدعائية، وتسخر كل إمكانياتها المختلفة، وتخترع الأفكار والمذاهب، والأديان والآلهة والفلسفات، وتزيف الدعاة والمصلحين، وتصنع العلماء والخبراء، وتشتريهم.. كم هي المجتمعات التي تفعل كل ذلك لتستطيع المحافظة على مستوى تأخرها، لتقاوم قوانين التطور وحوافزه..؟

إن ما بذلته الإنسانية من دماء وعرق. إن ما ابتكرته في كل تاريخها من حيل وذكاء لكي تبقى متأخرة، لأكثر مما فعلته من ذلك لكي تتطور وتتقدم..

كم من الحروب خاضها البشر.. كم هي الثقافات والنظريات التي ابتدعوها ليحافظوا على أوضاع موجودة أليمة متخلفة.. كم هم الأنبياء والمعلمون الذين جاؤوا ليكونوا سدوداً عالية لتمنع الحياة من أن تتقدم، من أن تتغير، من أن تتخلى عن غبائها ومظالمها ودماماتها.. كم هي الطاقات النفسية والفكرية والأخلاقية التي ينفقها الإنسان الشرير لكي يبقى حقوداً وظالماً، ولصاً ومعتدياً، وبغيضاً مبغضاً، وغبياً ونذلاً، ولكيلا يكون فاضلاً نبيلاً، عادلاً ذكياً صديقاً للناس وللحقيقة.

إن الحاكم الفاسد المتأخر، المقاوم للتقدم والحرية، ليتعذب، ويتعب، ويخاف، ويناضل، أكثر من الحاكم الآخر.. إن الكراهة التي يواجهها ويواجه بها مثل هذا الحاكم، لأعظم من المغانم التي يحصل عليها، ومن العناء المطلوب منه بذله ليكون مستريحاً، وفاضلاً، وآمناً، ومحباً ومحبوباً أكثر.

حراسة ضد النفس

إذا أراد مجتمع أن يظل متأخراً فماذا يفعل ليكون كذلك..؟

إن عليه حينئذٍ أن يحرم كل تفكير جديد.. أن يحرم كل حافز وقانون من حوافز وقوانين التطور. إن هذا يعني أن يوجد أفكاراً وثقافات مضادة للأفكار والثقافات الجديدة المحرمة.. أن يغلق جميع النوافذ التي قد تتسلل منها هذه الأفكار والثقافات المحرمة لمزيد الاحتماء منها.. أن يوجد جيوشاً ضخمة لتستطيع حماية ذلك المتأخر، لتستطيع أيضاً قمع الحوافز والقوانين الطبيعية التي لا بد أن تكون خطراً دائماً يهدد سلامة الوضع المراد حمايته.

إن الإنسان الذي يريد أن يحرم على نفسه التفكير والتغير، ماذا يجب عليه أن يصنع..؟

إنه لا بد أن يوجد من نفسه حرساً ضد نفسه.. أن يوجد حرساً من الأفكار، والعقائد، والأكاذيب، والانفعالات، والتصرفات الرديئة.. إنه لا بد أن يوجد حرساً ضد نفسه.. أن يوجد حرساً من الغباء، والهرب، والمقاومة، والثبات أمام تحديات الحياة وتحديات الأشياء، والأفكار والأساليب الجديدة.. إنه لا بد أن يصبح جندياً رديئاً.. أن يصبح جندياً رديئاً جداً في معركة باسلة رديئة ضد نفسه.

إنه يحارب نفسه لكيلا يكون أفضل.. إنه يصنع القيود ويتكلف ثمن صنعها ليضعها على عقله وقدميه لئلا يفهم ويتحرك وينطلق.

إنه لا توجد أمة تستطيع أن تعيش كما تريد هي.. إنها لا بد أن تعيش كما تفرض عليها ظروفها، كما يفرض عليها العالم الذي يحيط بها، والذي لا بد أن تتعامل معه.. إن كل ما تستطيعه أن تقاوم. ولكن نفقات هذه المقاومة أغلى وأخطر جداً من الاستجابة لما لا بد من الاستجابة له. إن المعركة للتأخر معركة ضد النفس، أما المعركة للتقدم فإنها معركة مع النفس، فأي المعركتين أقسى وأبهظ ثمناً..؟

ومع هذا فما من مجتمع أو إنسان إلا ولا بد أن يضع بعض موهبته لمقاومة التقدم. إن أحداً لا يستطيع أو يريد أن يتقدم كل التقدم.. أن يستجيب لكل احتمالاته الممكنة بكل قوته، بكل إرادته.

رثائي لهؤلاء الذين يريدون أن يعيشوا في غبائهم وهوانهم وتخلفهم، فلا يستطيعون..

ثم يتعذبوا لأنهم لا يستطيعون أن يظلوا كما كانوا.. ثم لا يستطيعون أن يكونوا كما يجب أن يكونوا.

رثائي لمن لم يستطيعوا أن يبقوا في كهوفهم، ثم لم يستطيعوا أن يواجهوا الخروج إلى الدنيا خارج الكهوف، خارج مقابر التاريخ.

الذات والموهبة

إن أقوى عيوب العبقرية أنها لا توجد نفسها، أنها لا تعرف كيف توجد؛ كما لا تدري من أوجدها، ولا لماذا وجدت، ولا لماذا كانت هنا ولم تكن هناك، لماذا كانت لك ولم تكن لي، لماذا كانت، لماذا لم تكن..

كم هم معذبون أولئك الذين لا يتكافؤون مع ظروفهم. إن أشد منهم عذاباً هم أولئك الذين لا يتكافؤون مع أنفسهم. إنه محتوم أن من لا يستطيعون أن يتكافؤوا مع أنفسهم، لا يستطيعون أن يتكافؤوا مع ظروفهم. كم هي مأساة أن تكون في الإنسان مزية كبيرة دون أن تكون مزاياه الأخرى متكافئة معها، وحينئذٍ لا تستطيع أن تنمو، أو تعبر عن نفسها تعبيراً حراً، فتموت أو تتمزق، أو تتحول إلى شذوذ أو عذاب، أو إلى عاهات نفسية وفكرية.

إن المشكلة الدائمة أن الإنسان مهما كان متكافئاً وسوياً، فستظل قدرته واحتمالاته وذكاؤه أقل من مشاكله واحتياجاته ومن الكون الذي فرض عليه أن يعيشه. إنه لهذا لا بد أن يظل دائماً متوتراً ومهزوماً، ومتألماً وعاجزاً عن شيء. إن أعظم ما يصيب أي إنسان، أن يكون له فكر وذكاء وحماس، ثم لا يكون له وعاء ذاتي، ولا ظروف تتسع لذلك وتتحمل تبعاته، وتحوله إلى نشاط كبير.. ثم لا يكون له جسم صحيح، ولا شجاعة ولا إرادة، ولا قدرة ولا حالة نفسية سوية، ولا ظروف اجتماعية ملائمة. وإن أشقى الناس كذلك، لهو من يملك وعياً لا يملك معه إرادة، ولا خصائص نفسية وبدنية ملائمة.

سيكون من أعظم انتصارات العلم أن يتوصل في المستقبل إلى جعل الإنسان متكافئاً مع ذاته.. إذا أعطاه ذكاء أعطاه إرادة.. وإذا أعطاه إرادة أعطاه قدرة وسروراً. إن الذكاء بلا سرور هو أبشع عقوبات الحياة. إن السرور بلا ذكاء هو أغبى تصرفات الحياة. إن الحياة بلا قدرة عليها، لأسوأ من الموت. وإن كل أخطاء العالم وأسباب شقائه ترجع إلى عجزه عن التكافؤ مع ذاته، مع ظروفه.

إن البشر يتعاملون ويمارسون أنفسهم كقوانين طبيعية، لا كبشر.. كقوانين التوافق والتناقض.. كقوانين التصادم والتلاؤم. إنهم قوانين لا عقول. إن لهم عواطف وأفكاراً وعقولاً؛ ولكن هذه كلها تعمل بقانون طبيعي، لا بقانون أخلاقي أو فكري. إنهم يتعاملون

معنا ومع أنفسهم، كما تتعامل الفيضانات والزلازل، والبراكين والأوبئة.. كما تتعامل الشمس والقمر، والنجوم والغيوم. إنهم لا يبحثون معاملاتهم معنا ليعرفوا نفعها أو قتلها لنا، هل نريدها أم نضيق بها.. إنهم لا يبحثون معاملاتهم معنا في أنفسنا، بل في أنفسهم هم.. إنهم حينما يتعاملون معنا، إنما يتعاملون مع أنفسهم من طريقنا.. إنهم لا يتعاملون معنا، لأنهم يرون ذلك حقاً أو واجباً أو سروراً لنا.. إننا أشياء لهم، لا بشر مثلهم.. إنهم يعاملوننا بقوانينهم لا بقوانيننا، بشعورهم لا بشعورنا.. إنهم يحكمون علينا بظروفهم، لا بظروفنا.. إنهم يهتمون بنا ـ إذا فعلوا ـ لإرضاء أنفسهم، لا لإرضائنا.. إنهم يدينوننا بأسبابهم هم، لا بأسبابنا نحن.. إنهم وحدهم هم المقياس لنا ولكل شيء.. إن آلامهم ومسراتهم، هي وحدها حدود الآلام والمسرات، وحدود كل شيء.. إنهم هم دائماً وحدهم الشيء، ونحن الصورة. إن الضربة التي تقتلنا، تساوي في حسابهم الضربة التي تحيينا إذا كانت إرادتهم تتعلق بالضربتين بمستوى واحد. إنه لا توجد أية وسيلة لجعلهم يحبوننا ويروننا كما يحبون ويرون أنفسهم.. إنهم مرضى بأنفسهم لا أشرار.. إنهم مستبعدون لأنفسهم، كاستبعاد أنفسهم للطبيعة ولظروفها.. إنهم لا يستطيعون أن يصوغوا أخلاقهم أو عواطفهم كما يتصورون ويشتهون.

عدوان غير محضور

ليست الصداقة عطاء؛ إنها أخذ.. إنها فرض للذات على الآخرين.. إنها فرار من الذات.. إنها تعبير عن الألم.. إنها تعبير عن مأساة الإنسان.. إنها تعبير عن تناقض الإنسان مع الشمس، مع الطقس، مع كل الأشياء المفروضة عليه.

إننا حينما نصادق لا نريد أن نعطي، أن نعالج، أن نزرع حباً أو سروراً.. إنما نريد أن نطرح أنفسنا، مآسينا، أحزاننا، خوفنا، حيرتنا، عجزنا.. أن نطرحها على من ندعوهم أصدقاءنا.

إنها علاقة جنسية لكن بدون عملية إنجاب للأطفال.. إنها ليست أريحية إنها بكاء بعيون الآخرين..

إن الصداقة عدوان بأسلوب آخر، بلغة أخرى.. إنها عدوان.. إنها عدوان لا تعاقب عليه القوانين، أو التعاليم، أو الأديان.

قد أشعر أني أملك فكراً ووعياً، ولكني لا أملك إرادة تتناسب مع هذا الفكر أو الوعي.. قد أشعر أني أملك إرادة أو حافزاً، ولكني لا أملك قدرة أو تصميماً يتناسب مع هذه الإرادة أو هذا الحافز.. قد أدري ولكني لا أستطيع، ولا أستطيع أن أتحول إلى مستطيع.. قد أدري

أني لا أعني شيئاً، ولكن كيف أستطيع أن أتعامل مع هذا الشيء الذي لا يعني شيئاً بقدر ما يساوي..؟

إذا كنت أعرف، فهل أفعل بدون أن أريد، بدون أن أستطيع. وهل أستطيع أن أكون مريداً مستطيعاً لأني أعرف، بقدر ما أعرف..؟

إن البشر يفعلون إرادتهم وقدرتهم بقوانين من إرادتهم وقدرتهم. إن ذواتهم هي التي تصنع ذواتهم. إنهم لا يستطيعون أن يفعلوا ويريدوا، إلا بقدر ما يملكون من قدرة على أن يفعلوا ويريدوا. إن الذين يفعلون الحياة ويغامرون، هم الذين يريدون ويقدرون، وليسوا الذين يعرفون. إن حياة الإنسان أذكى من تفكيره، أعني أوقح من تفكيره وأجرأ على فعل التفاهات والعبث من تفكيره.

نحن لا نستطيع أن نصنع للآخرين قدرة وإرادة وعبقرية، إلا بمقدار ما نستطيع أن نصنع لهم وجودهم وذواتهم وحياتهم.. إلا بقدر ما يستطيعون هم أن يصنعوا ذلك لأنفسهم.

لماذا يختلف الناس في مستوياتهم..؟

هل الاختلاف يرجع إلى الاختلاف في التفكير والذكاء.؟

ولماذا يختلفون في الذكاء والتفكير.؟

إن الذين صنعوا الحضارة وجميع الانتصارات الإنسانية الكبرى، لم يكونوا عقولاً وذكاء فقط. لقد كانوا كذلك إرادة وقدرة، وجهازاً نفسياً عظيماً. إن البشر يصنعون حياتهم كما يصنع النهر طريقه، لا كما يصنع المهندس بناءً أو جهازاً. إن البشر لا يخططون حياتهم، ولكنهم يكونونها.

والتخطيط الفكري كيف يحدث..؟ إنه صياغة الذات، لا صياغة العقل.. والعقل نفسه، إنه صياغة الذات. إن قوة الناس في ذواتهم، لا في أفكارهم. والقدرة ليست هي فقط قدرة الحجر والحجر، والسفينة والموجة، والسوط والظهر.. لقد كانت قبل ذلك هي القدرة النفسية.

وكيف نملك القدرة النفسية، وكيف نفقدها..؟

إن نفس أي إنسان لتحتوي كل ما في الأرض من تجارب، وقوة وضعف. إن في نفسك ونفسي كل ما كان موجوداً هنا، وما هو موجود الآن هنا. إن في أنفسنا نحن البشر، جميع حشرات الأرض وأزهارها، قوتها وضعفها، انتصاراتها وهزائمها، تطورها وتخلفها، أحزانها ومسراتها. إن هذا هو الذي يصوغ أنفسنا، ويفاوت بينها، كما تصوغ القوانين الطبيعية ظاهرات الكون، وتفاوت بينها.. هذا جبان النفس ضعيفها، وذلك شجاعها قويها، أولئك

ضعفاء الأجسام والأعصاب، والحواس، والآخرون أقوياؤها مثل كل الأشياء.. هذه شجرة صاعدة مورقة مثمرة قوية، وأخرى ليست كذلك. إن هذه شمس.. إن هذا قمر.. إن هذه صحراء.. إن تلك حقول.. كالبشر؛ بلا عدل بلا محاباة بلا مقاييس.

إن موهبة الإنسان أن يتحدى هذه الأقدار.. أن يحولها إلى ما يريد، لا أن يظل ينظر إليها، يرقبها متعذباً بها، واعظاً مصلياً لها.

*

إن السعادة هي مقدار التوافق مع الظروف ومع النفس.

إن للسعادة ترجمة واحدة في جميع لغات العالم، هي التوافق بين الذات والذات. بين الذات والأشياء التي تتعامل معها أو تمارسها، أو تعيشها بتفكيرها وخيالها، وأمانيها وبكل همومها النفسية.

لهذا كانت السعادة مستحيلة، لأن هذا التوافق مضاعف الاستحالة.



طبيعة التفكير العربي

نحن لا نؤمن بالفكر، لأننا لا نؤمن بالخلق والابتداع.. إننا قوم متبعون.. إننا نلعن الابتداع.. إننا ندعو إلى فضيلة الاتباع..

إن أعظم أعمال الفكر أن يخلق ويبتدع. إذن هو حرام.. إذن هو زندقة.

إننا نكره الفكر ونخافه،لأننا نكره ونخاف التجديد في الحياة.

إن المفروض فينا.. إن المطلوب منا أن يكون كل منا متبعاً لا مبتدعاً.

وإذا كان التجديد في المذاهب، والتقاليد، والأخلاق، والنظم، والقوانين، منكراً ومروقاً، فكيف إذن يكون التفكير جائزاً أو فضيلة..؟

*

مجرد تضييق للشقة

نعني بالتفكير العربي تفكير كل من يتكلمون اللغة العربية كلغة قومية. ومن الصعب الحكم بأن نوعاً من أنواع التفكير قد أصبح طبيعة، إذا كان المراد بالطبيعة الشيء الذاتي الذي يوجد مع الشيء وجوداً ذاتياً لا تعليمياً، ثم لا ينفك عنه بالتعليم.

وإذن ليس هذا هو المراد. وإنما المراد تلك الخصائص المكتسبة بوسائل خاصة من وسائل الاكتساب الفكري. ومن الصعب كذلك الحكم بأن هناك خصائص فكرية ولو مكتسبة ينفرد بها شعب أو طائفة. إن أفكار الأمم وكذا وسائلها تتداخل وتتشابه في أمور كثيرة ولو تداخلاً وتشابهاً متفاوتاً. إذن نحن نعني بالخصائص هنا تلك السمات التي تتناول التفكير العربي، وإن تناولت غيره على وجه من الوجوه. إن التفكير العربي مثل سواه من التفكير الإنساني خاضع للظروف العامة التي تخلقه ثم تصبه في قنواتها وتصرفه لحسابها.

إن الشعوب العظيمة تجيء أقدر على التحكم في ظروفها وتسخيرها من الشعوب الأخرى، وكذا الأفراد. إن حياة هذه الشعوب كلها ليست سوى نضال عنيف دائم للظروف. والحضارة كلها في كل مستوياتها ما هي إلا مقاومة الظروف والدخول معها في معارك دائمة. وتفوق الإنسان على ما سواه لا يعني إلا تفوقه في حربه ضد الظروف. إن الكائنات الأخرى لا تقاوم الظروف، وكل ما تفعله، كل إبداعاتها وعبقريتها الغريزية أن تتلاءم مع الظروف وتتكيف بها، لتصبح مجالاً أو مناخاً ملائماً. أما الشعوب المتأخرة فإنها عاجزة عن مقاومة الظروف مقاومة تتحول إلى انتصار، إنها في الأكثر مستسلمة لها استسلاماً عقلياً ووجودياً.

إن مزايا أقدر الشعوب ليست في حسن ظروفها، ولكن في التغلب عليها. بل إن سوء الظروف قد يصنع مزايا المجتمعات، كما أن آلام الفرد وقسوة حياته قد يصنعان منه نبوغاً ومزية. فقسوة الظروف وكذا جودتها قد تصنع ضعفاً وقد تصنع قوة على مستوى استجابتنا لها واستعدادنا لتلقيها. فقوم يحولون الظروف القاسية إلى مزية، وآخرون يحولون المزية إلى هوان.. قد يحطمنا الألم وقد يشيدنا.

إن جميع الاختلاف الذي نجده بين البشر ليس له من سبب سوى اختلافهم في القدرة على تكييف ظروفهم. إنه لا بد من المجال، ولكن الإنسان هو الذي يحول ذلك المجال إلى وجود إنساني. والذين يعجزون وظروفهم رديئة لا بد أن يعجزوا لو كانت ظروفهم جيدة. والذين يبدعون وظروفهم جيدة لا بد أن يبدعوا لو كانت ظروفهم رديئة. إن موهبة الإنسان متحركة محتالة، فإذا وجدت ظروفاً ملائمة عملت فيها، وإذا لم تجد احتالت على أن تجعل غير الملائم ملائماً، وعلى أن توجد حالة أخرى ملائمة، وعلى أن تعوض عما لا تجد. ولهذا فقد تكون قسوة الظروف طريقاً إلى الابتكار والتفوق والقوة. قد نتصور سكان الجحيم أذكى وأقوى وأعظم ابتكاراً وأفضل نفوساً وأخلاقاً من سكان الجنة. وقد نتصور سكان الجنة أغبياء وضعفاء مترهلين لأنهم لا يمارسون ذواتهم ممارسة فيها معاناة، لأن ظروفهم مواتية سهلة. قد تكون الجنة هي أقسى عقاب تخيله الإنسان لنفسه.

إن كل أعمال الإنسان هي ناتج التحدي بين موهبته وظروفه. إن الموهبة لا تساوي نفس الموهبة، كما لا تساوي نفس الموهبة مع استجابة الظروف لها. فالتحدي للموهبة جزء من الموهبة، ولا موهبة بلا ظروف متحدية.

إن كفاح الظروف القاسية وجميع الظروف قاسية في مواجهتها للإنسان ـ هو عمل الإنسان المتفوق في هذه الحياة. إن هناك دائماً منطقة فاصلة بين حاجات الكائن الحي ورغباته، وبين طبيعة الكون التي لا خيار فيها. إن الكون والإنسان لا يلتقيان التقاء كاملاً،

إن كل ما يصنعه الإنسان المتحضر أن يضيق من مساحة هذه المنطقة الفاصلة، وقد يستطيع إزالتها في يوم من الأيام. وليست الظروف المقاومة للإنسان كلها كونية، إن منها الاجتماعية والنفسية وغير ذلك.

وظروف الأمة العربية ليست خير الظروف ولا شرها. إنها من خير الظروف، وليس خطأ محتوماً أن يزعم زاعم أنها خير الظروف. فإذا أراد بعض المفكرين أن يفسر تخلف الوجود العربي بقسوة الظروف أو جودتها، كان خطؤه خطأ لا يمكن الدفاع عنه. وإذا فسرنا تخلفنا بتخلف مستوياتنا الاجتماعية والثقافية والسياسية كنا كمن يفسرون النتيجة بالنتيجة، أو السبب بالسبب، مع أن المفروض تفسير النتيجة بالسبب، أو السبب بالنتيجة.

نعم، إن السبب يفسر بالنتيجة بقدر ما تفسر النتيجة بالسبب. وهذا ليس تعقيداً فكرياً. إن البشر هم الذين يطردون كينونتهم ومستوياتهم، وهم الذين يتركونها متخلفة، فنحن المسؤولون عن تخلف مستوياتنا، وليست مستوياتنا مسؤولة عن تخلفنا، فتخلف مستوياتنا هو معنى تخلفنا. والذين يملكون ظروفاً جيدة، هم الذين يصنعون ظروفاً جيدة. والذين يعيشون ظروفاً رديئة، هم الذين لم يستطيعوا أن يصنعوا ظروفاً جيدة.

*

لا يغيرون، بل يستجدون

إن إحدى خصائص التفكير العربي عجزه عن التفوق على ظروفه، وعلى تكييفها تكييفاً كبيراً. إنه يوجد دائماً برزخ من الغموض والرهبة بينه وبينها، يجعله دائماً عاجزاً عن الاقتحام، عن أن يكون فعالاً. فالظروف الطبيعية ـ بل والاجتماعية ـ في تصوره الأصيل كائن مقدس، جبار أزلي أبدي، لا ينبغي كما لا يستطاع تغييرها. إنه يراها قطعة من الألوهية. يرى الظروف قطعة من لحم ذات الإله. لقد خلط بين الطبيعة ونفسه ومجتمعه، وبين الله. فالتقديس والقوة الواجبان للإله، واجبان كذلك للكون، لأن الإله هو واضح الكون، وواضع فيه كل ما فيه من حكمة وبراعة وخلود. فالإيمان إذن بالله يوجب الإيمان بالكون، والاستسلام له، والرضا بكل ما فيه، وبأنه خير، وعدل، وفكرة، وأبدية.

إن كل ما يحدث حتى الأمراض، والقحط، والظلم، والجوع، هو حكمة، وعدل، ولطف من الله بعباده. وقد عدوا كل هذه الآلام طريقاً إلى الجنة، وإلى قلب الله الرحيم الفاضل. فالمرض، والظلم، والألم، ثواب وحكمة وشهادة. وقد كانت هذه الشرور في تقديرهم من أفضل ما خص به الأنبياء والصالحون.

إن هذا التفسير للكون، جعلهم يبررون كل ما يصيبهم تبريراً مستسلماً متديناً، فلا

يقاومون مقاومة منتصرة. وإذا فعلوا أو رأوا غير هذا فخارجون على عقائدهم ومتناقضون. لقد اضطرتهم الحياة إلى أن يتناقضوا ويخرجوا على تعاليمهم، ولم يكن ممكناً أن يلتزموها لأنها ضد الحياة، فهي لحظة فرار من الحياة. إن التعاليم موقف قد تجمد. إن التعاليم هي حالة إنسان ما، أو قوم ما، تحت ظروف ما، في وقت ما، يراد لها أن تصبح هي كل الحالات، في كل الأوقات، تحت كل الظروف، لكل الناس. إنها قوة زمن يراد لها أن تكون قيود كل الزمن. إن الأفكار هي أقوى أعداء الحياة لأنها تحديد، والحياة إطلاق. إن الأفكار تكون قوية كلما كان المجتمع ضعيفاً ومغلقاً. إن كل البشر في كل العصور يتناقضون مع أديانهم ومذاهبهم، وهذا التناقض مع أنه محرج وافتضاح، فهو خير من التوافق.

إنه لم يوجد من يستطيعون أن يتوافقوا مع تعاليمهم دائماً، وهذا ليس شراً. ولولا التناقض لماتوا. إنه لولا التناقض لمات جميع أصحاب التعاليم، لقتلتهم إذن تعاليمهم المناقضة لحياتهم. إن التناقض هو الخروج في لحظة ما، على الذات في لحظة أخرى. التناقض هو مخالفة الذات للذات، أو تخطي الذات للذات، أو تخطي الذات للذات في لحظتين مختلفتين، أو في أسلوبين مختلفين. وقد عجز التفكير العربي عن الفصل بين الحوادث ومحدثها. لقد مزجوا بين الحوادث ومحدثها بسبب تصورهم لله. لقد تصوروا الله كما يتصورون أنفسهم، وكما يتصورون حكامهم الطغاة.

لقد تصوروا الله قوة مطلقة مباشرة، لها الأخلاق والانفعالات والأغراض التي لهم، بل لأبشع الناس. فهو يفعل الشيء فعلاً مباشراً بلا أسباب، ويضع القصد فيه كما يفعلون هم، وكما يفعل حكامهم المتفردون المطلقون، الحاقدون الأنانيون، الخائفون المحتاجون.

إن كل ما في هذا الوجود هو أجزاء من ذات الله، ومن شعوره وتفكيره. إنه محسوب عليه، منسوب إليه، مطلوب منه.. إنهم يضيفون إليه أصغر الأشياء وأكبرها، حتى ليطلبون منه وينتظرون أن يشعل لهم عود الثقاب ويرتي لهم ثيابهم إذا أصابها التمزق، ويرد الحبيب الغائب والهارب، ويهدي الحاكم الضال الظالم واللص والمجرم والقاتل، كما يلقون عليه تبعات كل ذلك.

ولأنهم متناقضون لم يفهموا أن يسألوا: وإذن فلماذا لا يفعل الله ما يريده إذا كان يفعل الأشياء فعلاً مباشراً ويستطيع أن يفعلها..؟ إنه حينئذٍ يرضي نفسه إذ يحدث ما يريد، وما هو الصواب والحق والحكمة. وحينئذٍ أيضاً يريح عبيده الضعفاء الأغبياء من المعاناة والعجز، ويريح نفسه من المطالبة المرهقة الضائعة.

إنهم لا يتصورون أنه يمكن الفصل بين الصانع وصنعته، لا يتصورون أنه يمكن أن تعيب العمل ثم تمدح العامل. كما لا يتصورون أن يرضى العامل بتغيير ما عمل أو تهذيبه، من غير

أن يشعر بالمهانة والنقد والتجريح. بل ذلك في تصورهم قدح في مقدرته وأخلاقه. إنهم لهذا لا يعمدون إلى التغيير بل إلى السؤال. فإذا كانوا في بلاد لا يزورها المطر إلا قليلاً لم يفكروا في محاولة تغيير هذا العقم الطبيعي، وإنما يظلون يدعون ويستسقون وينتظرون دائماً الاستجابة حيث لا جواب، حيث لا مجيب.. وكذلك يفعلون إذا أصابهم الظلم. إنهم إذا استمسكوا بدينهم فلن يغيروا الظلم الذي ينزل بهم اقتداراً، ولكن يرجعون إلى من ظلمهم يلتمسون منه الرحمة والإحسان،أو يسألون له الهداية أو الهلاك إذا لم تكن الهداية ممكنة.

رضوخ لعبوديتين

ومن الصعب حقاً الجمع بين الإيمان بأن الله قد خلق هذا الكون وكل ما فيه من آلام وشرور بحكمته ورحمته، وبين الإيمان بأنه يجوز مع ذلك محاولة تغييره أو الفرار منه أو كراهته، لأن معنى هذه المحاولة أن ذلك الشيء الذي يراد تغييره أو الفرار منه شر، أو أن فيه شراً، وحينئذٍ فالله حينما خلقه خلقاً مباشراً، إما أن يكون مريداً للشر، أو عاجزاً عن دفعه، وكلا الافتراضين بعيد، بعيد عن أن يكون ثناء عليه سبحانه. فانتهوا من هذا إلى الرضا بكل ما هو حادث، إلى الإيمان بأنه أعلى مستويات التدبير والحكمة. وهذه الانحدارات الفكرية نهاية محتومة للقول بالخلق المباشر. إن الله فوق المخلوقات. إن الله أيضاً هو المخلوقات، إن الله فوق القوانين الأرضية، إن الله هو نفس هذه القوانين. هذا هو منطق المؤمن، هذا هو منطق الإنسان. ومع ذلك فالناس يزعمون أنهم يعيشون ويؤمنون بالمنطق، وأن لهم منطقاً يتعاملون به. إن الشعوب التي يحكمها حكامها حكماً مباشراً تدرك بأن الاشمئزاز من حكمهم، أو الإنكار له هو اشمئزاز من الحاكم نفسه واتهام له. وأن الحكام أنفسهم يدركون ذلك أيضاً، فلم يقدر أولئك على الإنكار، ولم يسمع هؤلاء بالإنكار.

لقد خرج من هذا عبودية اجتماعية وسياسية كاملة. لقد اجتمعت على هذه الشعوب عبوديتان: عبودية الكون، وعبودية الحكام. وبالعبودية الأولى ذلوا لكوارث الطبيعة، لم يقاوموها أو يفروا منها، بل أو ينكروها وينقدوها، وبالعبودية الأخرى استسلموا لأظلم أساليب الحكم وأفسده بصبر ينافس صبر الأرباب. إذا فعل الله أو الحاكم شيئاً هو غاية الجنون أو الظلم، قالوا هذا غاية الحكمة. وإذا فعلا نقيضه قالوا أيضاً نفس القول. إن نظرية وجود الله في أحداث الكون هي المنطق لهذه الأخطاء، فإن الاعتقاد بأن العالم لا يوجد ولا يمارس نفسه إلا بتدبير الإله المباشر، يؤدي إلى الجنون الفكري، أو إلى التناقض. وبقدر ما يتناقض المؤمن ينجو من هذا الجنون. لقد أصبح التناقض ذكاءً وأخلاقية، لأنه يحمي من الجنون المحتوم. إن العقائد لا تستطيع أن تحول البشر إلى مجانين مهما كانت مجنونة، ما لم يكونوا هم مجانين.

من في خدمة من..؟

لم يتصور التفكير العربي المذهب الآخر القائل: بأنه لا صديق للإنسان في هذا الكون، وأن جميع ما فيه يتحرك لحسابه هو، لا لحساب الآلهة، ولا لحساب الإنسان. وإن الإنسان هو وحده صديق الإنسان، وأن حاجاته إنما تؤخذ من الطبيعة اغتصاباً، وأن البشر ليسوا إلا حيوانات متفوقة.. إنهم ليست لهم قداسة ولا مركز إلا ما يصنعونه لأنفسهم.. ليس الله في خدمتهم، كما أنهم ليسوا في خدمة الله.

إن الشيء لا يقبل لأنه قد حدث، وإنما يقبل لأنه قد حدث كما نريد، وإذا قبلناه وقد حدث على غير ما نريد، فذلك نقص في تفكيرنا أو في قدرتنا. إن الكون يجب أن يكون إرادة لا وجود، أي يجب أن يكون كما نريده، لا كما نجده.

ولكن كيف..؟

وهل يمكن أن تكون الآلهة كما نريدها، أم هي دائماً كما نجدها..؟

ولماذا كان الاعتقاد أن الآلهة لا يمكن أن تكون كما يراد، وينتظر منها..؟

لماذا لا تكون كما ينبغي أن تكون..؟

لماذا افترضوها دائماً ضد النموذج، ضد الإنسان، ضد احتياجاته ومنطقه وضد أخلاقه..؟

لماذا تمدح بكونها فعالة لما تريده.. أليس الامتداح والفضيلة بأن تكون فعالة لما يراد منها، أو لما نريد نحن عبيدها منها..؟

ولماذا تريد ما لا يريد المحتاجون..؟

لماذا تجيء إرادتها تعذيباً للضعفاء، وخروجاً عليهم، ورفضاً لاحتياجاتهم..؟

هل هي في خدمة ذاتها، أم في خدمة عبيدها..؟

لا يشترطون لوجودهم شيئاً

والتفكير العربي لم يستطع أن يتصور السعادة أو المثالية، أو النظافة أو الشموخ الذاتي في هذه الحياة أو في الإنسان. إنه لا يدرك كمال الإنسان ولا كمال الأشياء.. إنه لا يسعى لتحصيل هذا الكمال ولا ينتظره لأنه مستحيل. حتى الفضيلة الأخلاقية لا ينتظرها في هذا العالم.. لا ينتظرها من البشر لأنهم مخلوقون، محكوم عليهم بالسقوط والعجز والدنس لكونهم عبيداً. إنهم عبيد، إذن لن يكونوا شيئاً عظيماً أو نظيفاً. وهم يبررون لحكامهم ولأنفسهم وللآخرين كل الأخطاء والغباء والخروج على القوانين والأديان بهذا المبرر. إنهم مهما فعلوا فمعهم عذرهم المقبول. إن عذرهم أنهم بشر.

إن حقارة البشر وتلوثهم والحكم عليهم بالآلام الدائمة معنى من معاني كمال الإله وسعادته، بل هو أعظم معاني الإله. إن كل شيء يقبل بنقائصه. إنه لأسلوب من أساليب التدين والاحترام للإله أن تعتقد بأن النقص في الأشياء طبيعي لئلا تنافس الإله في تفرده بالكمال. إن الشيء له الوجود فقط، وما زاد عن الوجود فهو فضل يقبل، ولا يشترط. ثم توجد في اعتقادهم وتصورهم الديني مثالية واحدة تجب الدعوة إلى تحصيلها والتحدث عنها، وإن كانت مستحيلة في الواقع. تلك هي المثالية الدينية، تلك هي المثالية الدينية كعبادة وعذاب في سبيل الإله، لا كرقي إنساني.

إنهم ينكرون وجود السعادة والمثالية لأنهم يرون الوجود هبة من خالق واهب. إنهم يشعرون أن الهبة غير ممكن أن تكون كاملة، لأنهم يعتقدون أنهم هم وكل الكائنات قد أوجدوا لغاية معينة، قد أوجدوا لكي يبتلوا بسائر ضروب العذاب ليجربوا.. إنهم يمتحنون بالطاعة، وبالكف عن المعصية، وبمقاومة الشيطان، ومقاومة كل إغراء، وبالمرض والجوع والظلم وجميع أنواع الشقاء، ويمتحنون أبداً بالصبر على الله، وبالصبر عن الله. إنه لا شيء يحتاج الصبر عليه إلى أقسى معاناة مثل الصبر على الله. إن الله ليبدو كشيء لا يمكن الصبر عليه، إذن ما أشد عذاب من يستطيعون أن يصبروا على الله. إن الصبر على الله يعني أن تقتل كل رؤيتك وتفكيرك، وغضبك واحتجاجك. إنه يعني أن تغفر ما لا يمكن غفرانه، وتعقل ما لا يمكن أن يعقل، وترى ما لا تستطاع رؤيته.

إن الصبر على الله، وعن الله، هو معنى الإيمان بلا تساؤل، أو رفض أو اشتراط.

إن الامتحان في تصورهم لن يكون سعادة ولا مسرة، ولو لم يكن عذاباً لما كان امتحاناً. لقد جاؤوا ليتعذبوا هنا، لكي يلقوا جزاءهم العظيم هناك. والذين لا يتعذبون لا يأخذون شيئاً، لأن الإنسان ليس وحده في هذا الكون، ليس لذاته، ولكنه أجير مغلوب عند القوة العظمى التي تملك كل الموجودات، والتي لا تعطي إلا المتعذبين.

إن الذين يفقدون الإيمان بانتصار الإنسان وسعادته، يفقدون مولداً ذاتياً عظيماً. إنهم يفقدون توهج الشوق والرغبة والتطلع. إنهم يفقدون المحاولة الباسلة المتكررة الباحثة عن السعادة والكمال، ويرضون بأقل شيء في الحياة، وبكل الآلام والتفاهات. إنهم لا يشترطون لوجودهم قدراً معيناً من الشروط. إنهم لا يشترطون شيئاً.

حريتنا أن نختار عبوديتنا

التفكير العربي يؤمن بالتوحيد.. توحيد القوى في قوة، والتبعات كلها في واحد. وينكر التعدد ويراه ضد الطبيعة والأخلاق، وضد الله.

إنه كما وحد الإله وحد كذلك السلطان، وجمع له الحقوق المفرقة، وجعله واهباً ومالكاً كل العطايا والمخاوف. إنه لم يدع لنفسه شيئاً غير أن يدعو ويرجو. إنه يشعر بحاجته إلى أن يظل عبداً أو طفلاً يؤمر، وينهى، ويرعى، ويبسط على ظهره السوط فيبكي ويتألم.

هو دائماً في حالة فرار من نفسه. إنه لا يريد ولا يستطيع أن يكون حراً. إن الحرية تقتله وترهبه. إن الحرية صورة أخرى من صور العبودية والعذاب. إننا حينما نطالب بالحرية إنما نعني المطالبة بنوع جديد من أنواع العبودية. إن جميع الحريات في العالم تتحول إلى قيود وطقوس بعد أن تنتصر. ليست كل التحركات التحررية إلا تجديداً في العبودية. إن الذين يحيون في النظام الديمقراطي هم مستعبدون لنظامهم، إنهم يهربون به من أنفسهم وحريتهم. إن الفرق بين ما ندعوه حرية وما ندعوه عبودية، هو فرق بين عبوديتين، هو فرق بين عبودية نختارها، وعبودية تفرض علينا. العبودية التي نختارها حرية، أو ندعوها حرية أو نحسبها كذلك. والحرية في كل احتمالاتها هي محاولة الانتقال من عبودية قديمة إلى عبودية جديدة. وحرية الإنسان هي حريته في اختيار عبوديته.

إن كل نضال البشر مقصود به هذه الحرية في اختيار العبودية. يقصد الناس بكل نضالهم أن يخرجوا من عبودية لا يريدونها، أو من عبودية قديمة إلى عبودية جديدة، أو من عبودية ذات أسلوب، إلى عبودية ذات أسلوب آخر.

إن عملية الخروج هذه، هي التي صنعت جميع الحضارات والأفكار والإبداع الإنساني. إن الشعوب العظيمة هي التي تختار عبوديتها وتغيرها دائماً. إنها في حركة دائمة سريعة، أما الشعوب الذليلة فتفرض عليها عبوديتها. إنها عاجزة عن الحركة والاختيار، حتى اختيار القيود. إن عبوديتها تظل دائماً قديمة، وبأسلوب واحد، ومفروضة.

إن الإنسان والمجتمع لا يستطيعان إلا أن يكونا حالة. لا يستطيعان إلا أن يكونا حالة وإيمان وتوافق. والإيمان والتوافق يتحولان إلى حالة.. أي إلى عبودية.

إن كل المجتمعات تستعبدها نظمها. إنها تجد شراً ومروقاً في محاولة التخلص منها. لقد صنعت نظمها لتكون لها قيوداً. إن الإنسان والمجتمع يريدان أن يخططا وجودهما، يريدان أن يكون لهما مكان وصورة، والمكان والصورة تقييد.. إنهما لا يطيقان أن يكونا فراغاً غير متحدد أو إطلاقاً. والإنسان والمجتمع أيضاً لا يمكن إلا أن يكونا التزاماً.

إن قيمة أي نظام ليست في أسلوبه بل في نتائجه. ليست فيما يريده ولكن فيما يعطيه.

إن المطلوب هنا أن نكون نحن الذين نختار عبوديتنا، لا أن تفرض علينا. إن هذا الاختيار هو موضوع الحرية وتفسيرها، إنه هو الفرق بين الأحرار والمستعبدين.

رئيس الحزب هو الحزب

لم يستطع التفكير العربي أن يقر معنى التعديد في السلطان والتبعات، ولا في الأفكار أو الأديان أو المذاهب أو الأخلاق والضرورات. إنه لا يستطيع أن يرى أو يستوعب أكثر من شيء واحد. إن الأمر والطاعة والإخلاص، إن كل ذلك يجب أن يكون لواحد. إن كل من عدا هذا الواحد فليسوا سوى أتباع أو عبيد، عليهم أن يؤمروا فلا يسألوا لماذا ولا إلى أين، وإن كانت لهم حاجة فليلتمسوها سؤالاً، فإن نالوها فهبة وتفضلاً، وإن حرموا فليس لهم أن ينكروا أو يغضبوا. أما الأخذ غلاباً فشيء ليس في الحساب. لقد استدل المرحوم الملك عبد الله في مذكراته على وجوب تفرد الحاكم بالآية القرآنية القائلة: ﴿لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا﴾.

إن بعض الشعوب العربية تنسب إلى حكامها ما تنسبه إلى الله، فالرخاء والنصر والقوة، بل والمطر وجودة الأحوال الجوية عطاء وذكاء من الحكام. ومنذ أيام وفي أكبر البلاد العربية نشر نبأ، وكان نبأ كاذباً عن اكتشاف الغاز الطبيعي في منطقة ما، فكتب صحفي كبير جداً، وقديم محترم في أكبر صحيفة يومية تصدر في ذلك البلد العربي، يقول إن الطبيعة لم تهب نفسها، ولم تجد علينا إلا احتراماً وتكريماً لزعيمنا. وفي اليوم الذي نشر فيه هذا الجنون لم ينتحر أحد من الغضب أو العار.

إن هؤلاء الحكام الذين يتفردون في الإلقاء بشعوبهم في أية جحيم، في أية صفقة، في أية مغامرة، من غير أن يعارضوا أو يشاركوا؛ إذا أعطى أحد هؤلاء الحكام أو أقر مشروعاً، أو وقع على الميزانية، أو اعتمد الانفاق على مصنع، أو وافق على تخفيض الأسعار، بل أو على رفع الأسعار، أو على قبول قرض من الخارج، عد ذلك منحة وتفضلاً منه، كأنه خلق أو كسب لرعاياه شيئاً من الجحيم بقوته وعبقريته المبدعة.

إن هؤلاء لا يعلمون أن جميع ما يصنعه هؤلاء الحكام ليس إلا توزيعاً لما يعطون هم، وتصرفاً فيه. ليس إلا تصرفاً ليس فيه عطاء ولا ذكاء، بل فيه كل الجنون والغباء والسرقة. إنهم لم يعرفوا مصدر قوة حكامهم ولا أسباب اختصاصهم بهذه القوة.

إنهم لم يعلموا أنهم هم الذين خلقوا هؤلاء الحكام، وخلقوا مجدهم، وقدرتهم على المساومات، والمضاربات، والمغامرات بهم، وعلى دخول السوق العالمية للبيع والشراء بالشعوب.

إنهم لم يعلموا أن الحكام بدونهم بشر، أفراد صغار جداً، أصغر من الأفراد العاديين، الذين يستطيعون أن يكسبوا حياتهم بنشاطهم وذكائهم. وأنهم كانوا أكبر أو أصغر منهم لما كانوا شيئاً.

إن في طبعهم أن يخضعوا فخلقوا من يخضعونهم بالحيلة، أو بالكذب، أو بالعصا.

إني أفكر دائماً في هذا الإنسان العبقري الضال، الذي يخاف أن يكون حراً، فيذهب يخلق الآلهة والأصنام، والحكام الأقوياء الطغاة، ليزعم أنهم هم الذين خلقوه.

إن التربية الدينية التي تشيد بقيمة الخضوع للوحدانية مسؤولة على نحو ما عن هذا الغباء الأليم.

إن التربية التي صنعتها روح القبيلة المقدّسة للطاعة، طاعة الكبار والأقوياء والآباء والرؤساء، مع أن تلك التربية ليست إلا تعبيراً عن حالة، مسؤولة كذلك. لقد كانت لتلك التربية ضرورات وفوائد في العصور السحيقة يوم كان الصغار يتبعون الكبار من الآباء وغيرهم، ويعملون مثلهم ومعهم أعمالاً تقليدية لا فكر فيها، إذ لم يكن الفكر قد ولد بعد، كالذي يفعله صغار الحيوانات مع كبارها. أما في هذا العصر فإن هذه تربية عقيمة، إنها تنأى بالإنسان عن عصره الكبير إلى ماضيه السحيق.

إن التفكير العربي قد عجز عن أن يؤمن بالحزبية المتعددة الحرة لرسوخ الوحدانية فيه، حتى في الحزب الواحد أو في الأحزاب المتعددة التي أوجدتها شهوة التقليد للحضارة الغازية، نجد الفردانية في سلطانها المطلق. إن رئيس الحزب هو الحزب كله، إن له الرأي والأمر والفضل جميعاً، وما الحزب بكل ما فيه إلا حلية له. إنه صورة للقبيلة القديمة بشيخها المحتبي بردائه أمام خيمته يوزع البداوة، ويوزع أوامره، ونواهيه، ويرتفع فوق الشك والنقد والمناقشة. والأحزاب الأخرى الموجودة مع الحزب الذي يجب أن يكون له التفرد، لا بد أن تكون أحزاباً مارقة وخائنة، لا بد أن تكون رجعية غبية، لا بد أن تقاوم بهذا الاعتقاد. إن للحق دائماً صورة واحدة، إن له دائماً منظراً واحداً، ووجهاً واحداً. الوحدانية هي المبدأ المطلق في كل الأشياء.

ما أكثر النكسات التي تصيب الشعوب العربية وترتد بها إلى طغيان الوحدانية، متفلتة بها من علامات الديمقراطية، أو شعارات الديمقراطية الوافدة إليها من وراء حدودها الجغرافية والنفسية والتأريخية. إن الشعوب العربية تهتف دائماً من داخلها لكل وثبة أو غزوة فردية يعاقب بها مجتمعه أحد العسكريين المتفلتين من قفص النظام، المنطلقين من أدغال التاريخ، ليكون فرداً لا مثيل لفرديته، ليكون عقاباً لئيماً لكل كرامة وذكاء وشجاعة في الإنسان، لأن المسؤولية الجماعية ليست في طبعها. إن الجماعة يجب أن تكون دائماً مقودة تقودها الآلهة والطغاة.

وقد وجدناهم، حينما ينهض فيهم أحد الطغاة المتفردين المرتدين عن أخلاق الحضارة، القافزين في الظلام على الحكم، يهتفون بكل الأساليب ومن وراء كل أجهزة الدعاية،

يمجدون حكم الفرد، ويحمدون الله على ردهم إلى الحق، ويستمطرون اللعنات القوية على البدعة الاستعمارية الأجنبية الملعونة بدعة الحزبية والديمقراطية، ويدعون وهم طربون في تبيان أضرار هذه البدعة، وكيف لعنها الله في كل كتبه على ألسنة جميع الأنبياء والمصلحين، وكيف روّج لها فيهم الأعداء، والغزاة، والرجعيون، والأبالسة.

وقد كانت الديمقراطية في العالم العربي دائماً تمثيلاً بلا فن ولا مسلاة، يؤديه ممثلون زائفون أمام نظارة من الأغبياء والنائمين. لقد كانت القصة كلها تشبه أعمال الصبيان حينما يمثلون دون الكبار. ولم يكن الحكام يشعرون أنهم في موقف حقيقي يلزمهم بشيء غير ما يريدون. لم يكونوا يشعرون أن هذا التمثيل يعني شيئاً من الحقيقة، أو أنه قد يتحول إلى حقيقة.

وتوجد عقيدة قديمة قد صارت أو كادت طبيعة في التفكير العربي، معناها أنه لا يمكن الظفر بالعدل ولا بالحكم الصالح، ولا بالحياة الطيبة، إلا إذا حكم فرد سماوي عادل، ويضربون الأمثال لهذا الأنبياء والخلفاء وأمثالهم ممن حكموا متفردين، فأعطوا الحياة والناس كل العدل والحب والقوة، والكمال والجمال.. أعطوهم كل حكمة السماء وارتفاعها وأخلاقها، كما أعطوهم كل بركات الأرض، كما أعطوهم كل كبرياء الأرض وشموخها، ونظافتها، وذكائها.

حريق وقوده الناس

وحكم الفرد معناه أن شعباً بأسره، بأفكاره وآماله، وعواطفه وكل طاقاته، يصب كله في ذلك الفرد، ثم يتحرك جميع ما فيه ويعمل ويريد ويفكر داخل نفس ذلك الحاكم الفرد. إنه ليس في الحياة كلها عبودية ولا مسخ أشنع من هذا. إنه شر ضروب الاسترقاق الجماعي الذي هو شر جداً من أساليب الاسترقاق القديم.

إن الحاكم الفرد مهما افترضناه عظيماً وشريفاً ومريداً للإصلاح وحب الإنسانية، لا بد أن تفسده مخاوفه وطموحه.. سيكون ولا بد خاضعاً لحساباته الخاصة، لمصالحه، وهمومه، وانفعالاته المتعددة المتقلبة، ولطاقاته الفردية المتوزعة بمقدار توزع سلطانه المطلق، ولشعوره أنه واحد، واحد يحكم بالإكراه كوناً واسعاً هائلاً من الاحتياجات، والآلام، والتاريخ، والبغضاء، والأفكار، والعواطف، والطاقات، والاحتمالات المتناقضة الرهيبة.. يحكم كوناً هائلاً واسعاً من الناس بالإكراه. إن مثل هذا الإنسان لا بد أن يكون ظالماً ومتقلباً، وضالاً وعاجزاً، بل ومجنوناً. إن شر ما في الحاكم المطلق أنه يتركز حول نفسه. والناس قد يرضون عن الخطأ الذي يختارونه لأنفسهم أكثر من رضاهم عن الصواب الذي يفرض عليهم. وهذا يحمل أكبر معاني الخطر على الحكم المطلق، وعلى المجتمع الذي يحكم بالوحدانية.

ويرى المرحبون بمثل هذا النوع من السيطرة أن تجميع السلطان في واحد، هو الضمان للوحدة الفكرية أو للوحدة الشخصية في الأمة. والوحدة الفكرية أو الشخصية، هي السبيل إلى الوحدة في العمل والاتجاه والشعور.

ولكن كيف..؟

إن الوحدة الظاهرة المفروضة لا تعني الوحدة الحقيقية، ولا تمنع وجود الفرقة الفكرية والانشقاق المتواري خوفاً من الظهور، بل إنها تزيدهما. والوحدة الفكرية لا توجب وحدة في الاتجاه والعمل والشعور، لأن الاختلاف حينئذٍ في الأغراض والمصالح والظروف، سوف يقسم هذه الوحدة. إن الانقسام المتعادي المتحارب بين المتفقين في أفكارهم، بل بين الذين لا أفكار لهم، أقوى وأكثر وحشية منه بين المتخلفين في أفكارهم. إن الخلافات الفكرية ليست هي التي تصنع العداوات والبغضاء، والحروب والشرور بين البشر، بل تلك وحوش أخرى. وهي توجد حيث لا تفكير، أكثر مما توجد حيث التفكير. إن أشد الناس اتفاقاً هم أشدهم اختلافاً، وتعادياً، وتنافراً في الأغراض والنيات والمصالح. إنك إذا منعت الناس من أن يفكروا، جعلتهم يختلفون، ويتباغضون، ويتنافرون أكثر. وهذا المنع يجعل احتمالات الخلاف المسلح أقوى. إن الوحدة الفكرية لا يمكن فرضها بالقوة. إن القوة تنمي الخلاف الفكري ولا تمنعه. وإذا خاف التفكير تحول إلى بغض، ومؤامرة، وحقد، وإشاعة، وخيانة أحياناً.

وإذا لوّح لنا التاريخ بحكام تفردوا فكانوا عظماء ومصلحين، فالتفسير لهذا أن الحاكم المطلق يشبه النيزك الهاوي في الظلمة.. بقدر ما يكون مضيئاً يكون مدمراً ومنحدراً.

إن إشراق الحاكم المطلق ولمعانه ليس إضاءة، ليس نوراً، بل احتراق، بل حريق وقوده الناس.

ما هو العدل..؟

إن العدل ليس صورة جامدة يراها الناظرون فيعرفونها أو ينكرونها، ليس رؤية. ولكن العدل أن يكون ـ مهما اختلف في تحديده ـ شيئاً غير الاستجابة لأكثر ما يمكن من ضرورات الحياة ومشاعرها. إن العدل هو القوة على أوسع مدى. وهذه الاستجابة لضرورات الحياة لن تكون ممكنة أو كاملة تحت حكم القوة المستبدة المتفردة، مهما كانت فضائل هذه القوة. إن العدل فكر وإرادة، ولهذا فإن معاملة الجماد لا تسمى عدلاً مهما كانت نبيلة.

وإذا كانت الطبيعة قد أخطأت في نزوة من نزواتها، فوهبت البشر حكاماً مستبدين قد عدلوا أو أصلحوا، فإن الحياة لم تنهض على الفلتات والأخطاء.

ومع هذا فليست فضائل الحكام المتفردين التي تبهر أحياناً بعض الأبصار السريعة الانبهار، إلا انعكاساً لفضائل الديمقراطية.

إن فضائل الحاكم المطلق ليست إلا استهلاكاً للرصيد الإنساني الضخم، المتجمع على مرّ القرون. إن جميع فضائل الحاكم الفرد، هي أن يكون مدفوعاً بفضائل الديمقراطية ومقلداً منافساً لها، وآخذاً عنها ومنها. إنه يعمد إلى ما أبدعته عبقرية البشر ونشاطهم في كل تأريخهم، تحت كل ظروفهم، تحت كل مذاهبهم ونظمهم، تحت كل مستوياتهم، فيحوله إلى تهديد وضجيج، وإلى مواقف استعراضية بذيئة غبية.

إن أبعد ما وصل إليه التفكير العربي من صور الحكم المثالي هو حكم الشورى، ولكن ما هي الشورى..؟

إن المستشير ليس ملزماً، ليس عليه أن يخضع للمشورة أو للمشير، وإنما له أن يسمع متفضلاً، ثم له الرأي والأمر الأخيران الباتان. أما المستشار فليس له إلا أن يعرض رأيه برهبة وتواضع، دون أن يلزم أو يصر.. إنه ناصح فقط.. إنه واعظ باكٍ خاضع. والمستشارون حول الطاغية يشبهون الحرس. عمل كليهما المحافظة على الطاغية وتقويته وتوكيده. إنهم كالذين يذوقون الطعام أولاً، خوفاً من أن يكون فيه ما يقتل. إنهم كالمحظيات ينتظرن شهوة الطاغية حول سريره. إن مستشار الحاكم المطلق، يشبه المرأة التي تعرض نفسها بضراعة وذلة. إن المستبد يطلب مستشاره بالأسلوب الذي يطلب به مثل هذه المرأة.

المفروض دائماً أن المستشارين عند الحاكمين بأمرهم يعينون تعييناً، فهم إذن لن يكونوا إلا مدداً للطغيان، لن يكونوا إلا أفاعي صغيرة تنفث سمها في رأس الأفعى الكبرى ليكون فتكها أفعل. فحكم الشورى إذن ليس حكماً ديمقراطياً، لأنه يحمل معنى الإلزام.. والديمقراطية إلزام لا نصيحة.

وقد كان القدماء يمتدحون الشورى لأنها قوة وعطاء للمستشير. إنها آراء الآخرين تلقى أمامه ومصابيحهم توقد في منزله. إن المعنى في هذا خدمته هو، ومساعدته على الانتصار، ليبقى ويزداد طغياناً واتقاء للأخطار. فالشورى للحاكم الواحد كأنها الجنود والأموال والرقاب توضع تحت تصرفه ليستقوي، ويفعل بها كيف يشاء وكيف يرى أنه يستديم سلطانه وتفرده. إنها كعملية نقل الدم لمن نفدت دماؤه، أو لمن يخشى أن تنفد دماؤه، وليس في هذا ما يفيد المحكومين. إنه أخذ منهم، لا أخذ لهم. وهذا هو المشهود في البلاد التي يحكمها أفراد لهم مستشارون. إن مستشار الطاغية لا بد أن يكون طاغية. إن كل قادر طاغية، أما النبل فهو الحيلة الأخيرة من حيل العجز تتحول فضيلة إنسانية، بعد أن تعجز عن أن تبقى فضيلة افتراسية.

إن جمع المستشارين حول الحاكم الفرد، إن هذا النظام ـ نظام جمع المستشارين تحت أقدام الحاكم الفرد ـ ليس أفضل، ولا أقل فسوقاً، من نظام جمع الجواري والمحظيات حول سرير الطاغية. إن مستشاري الطغاة ليسوا إلا محظيات وجوارٍ، ولكن على مستوى أكثر فسوقاً وإفساداً.

وإذا أعطى القادر عدلاً من نفسه أو إيثاراً أو نحو ذلك، فمن المؤكد أنه يخفي وراء ما فعل ضعفاً ما، ولو ضعفاً نفسياً. وإذا كان من المقرر دائماً أن القادرين خير من العاجزين، فإن خير الحاكمين هم العاجزون.

طفولة تاريخ

إننا نؤمن بالوحي الخارجي، بالرسالة الصادرة عن الواحد. نحن لا نزال نؤمر، ونتلقى، ونؤمن. نؤمن بالرسالات الكاملة، وبالرجال المتفوقين بمزاياهم الغيبية، وبالحكام الأقوياء المستبدين ذوي المواهب الخارقة. إننا لا نزال نؤمن بأن علينا أن نظل أتباعاً يؤمرون فيطيعون. لا معنى للحرية، ولا لحكم الشعب لدى من يرون أن الحياة وحي، وأمر، وطاعة، ووحدانية.

إن فكرة الوحدانية، منبثقة عن الاتكالية بقدر ما انبثقت هذه عن تلك.. فتفكيرنا ينقلنا من التوحيد إلى الاتكال، وإرادتنا تنقلنا من رغبتنا في الاتكال إلى التوحيد، فالوحدانية والاتكالية كلتاهما إذن نتيجة وسبب للأخرى، وهما معاً متولدتان عن العجز والجهل، فجهلنا بأسباب القوة في هذا الكون يجعلنا نخطىء في التقسيم والتخصيص، وعجزنا المتولد عن الجهل، وعن الضرورة معاً، يجعلنا ننقاد بسهولة لهذا الخطأ لنصبح اتكاليين.

إن أشد الشعوب اتكالية هي أشدها وحدانية وإن أشدها وحدانية هي أعجزها عن الانتصار على الظروف العقلية والمادية. وكلما تقدمت الإنسانية في طريق المعرفة والقوة، تخلت عن صديقيها القديمين، الوحدانية والاتكالية. وهذان الصديقان أو العدوان، هما أبداً سبيل البشر إلى عبودية الأخلاق، وعبودية الفكر منذ كان التاريخ.

لقد كان الإيمان بالوحدانية تعبيراً عن مستوى تأريخ، أو مجتمع أو إنسان. إن الفضيلة ليست انفراداً. إن الانفراد ليس فضيلة.

إن الاعتقاد بأن التفرد فضيلة أو مزية نوع من الأنانية الغبية، أو من طفولة التاريخ. إذا اشتهيت أن تكون وحدك القادر، أو الجميل، أو الذكي، أو العالم، أو الإله فأنت كائن مريض، شاذ بليد. إن اشتهاءك هذا مثل أن تشتهي أن تكون وحدك الموجود، أو المبصر، أو السامع، أو المتزوج، أو الذكر، أو الأنثى. إن الإله الذي يرفض أن معه آلهة، كالنبي الذي يرفض أن يكون بعده أنبياء، كالزعيم الذي يرفض أن يوجد زعيم سواه.

همّ كثيف موحش

والتفكير العربي يترقب دائماً الموت، وقيام الساعة، وفناء هذا العالم، وفساد كل شيء. إن تذكره لهذا وإيمانه به يستغرقانه استغراقاً فظيعاً كئيباً.

إن صاحب الصّوْر مُصيخٌ ينتظر الإذن ليزيل الكون ويزلزله بزئيره المدمر.

إن ملاك الموت لواضع يده الباطشة على الزناد لإطلاق رصاصاته القاتلة على القلوب.

إن الأرض تهتز تحت الأقدام تهيوءاً للموت والزوال.

إن الكواكب والشموس تتهيأ للتهاوي فوق الرؤوس.

إن النفوس تتحرك ذعراً وانتظاراً.. إن من أصبح فليس له أن ينتظر المساء.. إن من أمسى لم يكن له أن ينتظر الصباح.

إن الأمل الواسع الكبير لغفلة ونسيان يعاقب عليهما اللّه، وتستنكرهما الفضائل الدينية.. إنك لا تكون محباً للّه، ولا نظيف النفس، ولا قويم الأخلاق، إلا بأن تخاف وتخاف، تخاف من الموت، ومن قيام الساعة، وفناء العالم، ومن عذاب القبر، وعذاب الآخرة.. إلا بأن تخاف، وتخاف حتى تموت خوفاً، وحتى تفقد شهية السرور، وشهية الطعام، وشهية العبقرية والذكاء، وحتى تحمل فوق فكرك كل مقابر الدنيا، كل سكانها.

لقد اختلف الشيوخ والمحدثون والفقهاء في عمر الدنيا بعد أن اتفقوا على أن زوالها يأتي فجأة، ويمكن أن يحدث في أية لحظة. لقد وضعوا مؤلفات كثيرة في هذه القضية. قدر قوم عمرها بخمسمائة سنة، مبتدئة ببعثة الرسول عليه السلام، واستدلوا بأحاديث وروايات منقولة عن الرسول وأصحابه. وآخرون كانوا أكثر سخاء في حسابهم فقدروا لها ألف عام، من هؤلاء الشيخ السيوطي وغيره. واستدلوا أيضاً بنوع آخر من الأحاديث والأخبار.

وقد وضع السيوطي كتاباً صغيراً أسماه «الكشف عن مجاوزة هذه الأمة الألف» ذكر فيه أن أحد العلماء المعاصرين له قد أصدر فتوى حدد فيها عمر العالم بعد وفاة الرسول بألف عام بل بأقل، فأنكر هو هذه الفتوى واستقل الألف، ورآه عمراً لا يكفي لأمة محمد عليه السلام، ولا يكفي كذلك لكي يتلقى اللّه من العبادة والخضوع له، ما يرضيه وما يصح أن يكون ثمناً مقبولاً لخلقه العالم والناس، ولا يكفي أيضاً للفراغ من إعداد الجنة والنار وتزيينهما بما يلزم، ثم لا يكفي لينال الشيطان مجده من عملية إضلال الناس وإفسادهم. وقد وضع رسالته المذكورة يؤيد بها أن الدنيا سوف تتجاوز هذه المدة، وقد تبلغ ألفاً وأربعمائة عام. وأورد هنا روايات حددت عمرها كله منذ كانت بسبعة آلاف سنة، وأن الرسول قد بعث في الألف السابع. وهذا معناه أن ما بقي أقل من الألف.

وقد جاء في أخبار رووها عن النبي (صلى الله عليه وسلم) أن من بقي لن يزيد عن المائة عام. وفي أحاديث كثيرة مروية في أعظم كتب الحديث أن الرسول وأصحابه كانوا يخشون قيام الساعة في أية خطوة، في أية خفقة، في أية لحظة. وغير هؤلاء قدروا عمر العالم بأقل أو أكثر قليلاً من ذلك.

وجميع الذين اختلفوا في تحديد الأعوام الباقية في حياة العالم، متفقون على أنه قد يموت، قد يسقط، قد ينقضي بغتة. وهم من أجل هذا الإيمان يخشون خفق الرياح، وتراكم الغمام، واغبرار السماء، وصهيل الرعد والبرق.. إنهم يجدون في كل هذا علامات ونذراً.. إنهم يرون في كل ذلك أنياب الفناء.. إنهم يرون في كل التفاتة، في كل ابتسامة، في كل طلعة شمس، في كل هجمة ليل، في كل نجم يتثاءب بعيداً بعيداً، إنهم يرون في كل ذلك عبوس الفناء، عبوس الله مهدداً بالفناء.

أما الخسوف والكسوف فهما من أكبر المروعات التي قد تكون إيذاناً بساعة الانفجار الكوني.. حتى الأحداث العادية المتكررة، تعد أشراطاً على قرب الفناء الكوني.. حتى أعمال الناس الرديئة وفسادهم، وخروجهم على الفضائل الدينية والأخلاقية، دلائل لا تنكر على أن اليوم الموعود قريب جداً.. حتى الأحزان، والحشرات، والمجاعات، والأوبئة، والآفات الزراعية، إشارات واضحة إلى ذلك.

أما انتظار الموت فإن الفلسفة التي وضعوها له قد جمعوها في قولهم: «إذا أمسيت فلا تنتظر الصباح، وإذا أصبحت فلا تنتظر المساء، وكن في الدنيا كأنك غريب أو عابر سبيل». وقد قالوا لا ينبغي للمؤمن أن يأوي إلى فراشه إلا وقد أعد كفنه، ووضعه تحت وسادته.

وفي الموت وانتظاره وكيف يكون الاستعداد له، كتب شهيرة. تدرس وتحفظ، وينقل ما فيها إلى الأسواق، وتتلى كل يوم فوق المنابر، وفي كل مجالس الصالحين، ولهم وصية دائمة تقول: «اكثروا من ذكر هادم اللذات»، يعنون الموت. وهم حينما يرتبون فضائل المؤمن يضعون تذكر الموت والتهيؤ له فوق رأس هذه الفضائل.

إنك لن تستمع إلى خطيب أو واعظ، إنك لن تقرأ كتاباً دينياً إلا وجدت تذكر الموت وانتظاره مما يأمر به الدين. إنهم يذكرون في تراجم السلف: أن من مناقب فلان أو فلان تذكره الدائم للموت.

إن التفكير العربي يعد تذكر الموت إحدى فضائل المؤمن الكبرى، بل إحدى فضائل الإنسان. إن الله يعبد بتذكر الموت.. إن الأخلاق تتهذب بتذكر الموت.. إن المؤمن أكثر، هو الذي يذكر الموت أكثر.. وإن الذي يذكر الموت أكثر، هو الأفضل أخلاقاً.

وقد ضربت هذه الثقافة هماً كثيفاً موحشاً على نفوس وأفكار هؤلاء الذين يلقنونها. لقد

خلعت عليهم سمات رهيبة من الهلع والانكسار والتصدع. إنهم دائماً يتحسرون، ويذلون، وينعون أنفسهم، ويحقرون اللذات والأعمال الكبيرة، ويموتون هماً وخوفاً، وانكساراً وجبناً. لقد أفسد عليهم تذكر الموت كل شيء.. إنهم يتحدثون عنه في كل حال.. إنهم يلطمون به وجه الربيع، ومنظر الزهور، ويعظون به ليلة العرس.

يا ليلة العرس.. أنت تفكرين في اللذة وتصلين لها.. أنت إذن تنسين أن تفكري في الموت والفناء وأن تصلي لهما. واللذة هي الشيطان، أما الموت والفناء فهما الله، هما الخوف منه وعبادته، هما ذكراه الدائمة.

إن من حظوظك الحسنة النادرة أن تتحدث إلى واحد من هؤلاء عن الحياة والأعمال الكبيرة، والمغامرات المقتحمة، وعن العبقرية والذكاء، دون أن يفسد عليك ذلك الإنسان حديثك وحماستك بذكر الموت، والحديث عن النهاية المحتومة، الباصقة على كل عبقرية وقوة، وجمال وانتصار.. أية قيمة لكل هذا ما دام الموت هو المصير.. ما دام الموت والفناء يترقبان.. ما دام الله قد جعل الموت والفناء عقاباً لكل نبوغ لكل جمال، لكل نشاط، لكل إعجاب، لكل شيء سواء..؟

من هذا الذعر الدائم خرج قوم محطمون.. قوم قد تخلعت قلوبهم ودقت أعصابهم، وضاقت آمالهم وعجزوا عن صنع القوة وعن الإحساس بالجمال.

إن الآمال الضيقة لا يمكن أن تزرع السحاب، إن الخوف من الموت لن يحلي مياه البحار. إننا لن نقيم المصانع العظيمة فوق البراكين، ولا المدن الجميلة فوق راحة الزلزال.

إنه ليس من الذكاء أن نوحي إلى أنفسنا بالهزيمة والخوف والألم. إن الإبداع قائم على نسيان الحقائق المريرة التي لا يجدي تذكرها. والذين يركزون مشاعرهم في المنغصات والهزائم، ويعتقدون ويتذكرون دائماً أنهم معرضون للمرض والسقوط، والزوال وسائر الكوارث، هل يمكن أن يكونوا أسوياء.. هل يمكن أن يكون أمثال هؤلاء من البناة.. هل يمكن أن يكون تذكر الموت وفناء العالم هو الذي شاد ناطحات السحاب أو تلك المدائن الضخمة، أو أبدع الحضارات والفنون..؟

إن البشر ليسوا محتاجين إلى دروس في الخوف والكآبة.. إن لديهم من الخوف والكآبة أكثر جداً مما يحتاجون إليه. ما أكثر الأشياء التي تصنع لهم ذلك، وتوحي إليهم به، دون معلمين.. دون أديان وأنبياء.

ليست كآبةً ولا فناءً

والتفكير العربي يحسب أن التخويف بالموت وقيام الساعة ضروري لتقويم الأخلاق،

ولكسر الطباع العدوانية في الإنسان.. إن تذكر الفناء لازم للمجتمع لتقويم أخلاقه.. إنه لولا الخوف من هذا، لما قام مجتمع، ولافترس الناس بعضهم بعضاً.

ويبدو أن هذا خطأ شهير قد ضلل كل الدعاة والمصلحين. فالتهديد بالمخاوف الغيبية، لم يكن أسلوباً من أساليب التهذيب. كما أن تخويف الأطفال بالأرواح الشريرة والظلام، وبغضب الأرباب والقديسين، لم يصنع منهم أطفالاً مهذبين، أو مؤدين لواجباتهم المدرسية، أو تاركين للمشاجرات البذيئة والسلوك الرديء، أو كافين عن إلقاء الحجارة على عابري الطريق، وعلى الشيوخ، والمرضى، وذوي العاهات العقلية والبدنية، أو على ذي اللون أو الزي المخالف، أو عن إيذاء الحيوانات البريئة الضعيفة.

إننا نرى الشعوب التي تزجر بهذه المزاجر لم تصلح أو تصبح شاعرية الأخلاق، بل إن هذه الشعوب هي من أضعف الشعوب أخلاقاً وأبعدها عن فضائل الدين العملية. إن كثيراً من الشعوب التي لا تؤمن بهذه التعاليم، ولا تخوف بالنار والموت والحرمان من الجنة، هي أفضل سلوكاً من هؤلاء الذين يقتاتون بفضائل الخوف والموت. بل إن الكافرين بالدين أقرب إلى فضائله العملية والنفسية من المؤمنين الذين يراد لهم أن تهبهم النار والموت فضائلهم.

وأولئك الذين عملهم أن يعلموا الناس هذه المخاوف، ويصعدوا فوق المنابر ليرموا وجوه الناس بها، هل صلحوا هم. هل جاؤوا أقوى فضائل نفسية وسلوكية من الذين يتعلمون منهم الخوف، خوف الناس وخوف الموت..؟

إن هؤلاء الذين يعظون بالموت، والنار، وأهوال القبر، يعصون مواعظهم بكل قدرتهم. إن الشيطان لا يستطيع أن يتهمهم بأي تقصير في الاستماع إليه وفي الاستجابة له. أما إذا لم يفعلوا بعض الرذائل المعروفة في السوق، فليس السبب أنهم قوم صالحون يخافون ما يعظون به، ولكنهم لا يفعلون هذه الرذائل لأنهم لا يشعرون بالحاجة إليها، أو لأنهم حقيقة لا يحتاجون إليها لا نفسياً ولا أخلاقياً ولا تاريخياً. أو لأنهم لا يجرؤون على فعلها لأن وضعهم الاجتماعي أو النفسي لا يسمح لهم بذلك، ولهذا فإنهم يفعلون أشنع وأفحش مما يتركون.

وحتى لو ثبت أن هذا التخويف أسلوب صحيح من أساليب التهذيب لم يصح الأخذ به في معالجة نفوس الناس، لأن ضرره حينئذٍ سوف يكون أكبر من نفعه. وليست كل وسيلة يصح استعمالها إذ قد تكون حماقة أو ضارة أو ظالمة. وواضح أن أضرار هذا الترويع المستمر تفوق كثيراً فوائده، كما أن الأضرار التي تصيب الطفل حينما يراد تأديبه بالتخويف بما اعتاد الناس أن يخوفوه به، تفوق جداً استقامته خطرة بهذا الأسلوب. والواعظون الذين يحاولون

إصلاح شعوبهم بتخويفهم من القبر وأهواله، يشبهون الأمهات اللاتي يحاولن إصلاح أطفالهن بتخويفهم من الليل، والظلام، والخرائب، والأشباح.

بل توجد احتمالات قوية أن التربية بالخوف من الموت وفناء العالم، تفسد الأخلاق ولا تقومها، لأن الأخلاق قوة وإبداع، وشجاعة وتلاؤم مع الأشياء ومع الذات. والتخويف الغيبي لا يصنع القوة ولا الشجاعة، ولا الإبداع ولا التلاؤم؛ إنه يهدم ذلك. إن الأخلاق ابتهاج، وغناء، وموسيقى.. إنها ليست خوفاً.. ليست قبراً ولا موتاً.. إنها ليست فناءً.

إن الجمال والحب ليسا خوفاً أو كآبة؛ وهكذا الأخلاق.

السؤال الملح الضائع

إذن ما هي الوسيلة لتقويم أخلاق المجتمع والفرد، ما دام التخويف بالموت وزوال العالم ليس مقوماً أخلاقياً..؟

إن هذا السؤال يبدو وكأنه نوع من المزاح. إنه سؤال يظل أبداً بلا جواب. إنه سؤال يظل أبداً سؤالاً، سؤالاً ملحاً ضائعاً.

إن البشر منذ كانوا حتى اليوم لم يجدوا مثل هذه الوسيلة، لم يجدوا جواباً حتى ولا في الأوقات التي قيل إن السماء فيها قد تزوجت الأرض. إن الانحرافات السلوكية والنفسية قد وجدت تحت كل الظروف، والنظم، والتعاليم، والعصور. لقد ذهبت كل تضحيات السماء لمعاونة الأرض على إصلاح نفسها بلا طائل. ولو لم تأت جميع مواكب الأنبياء المتلاحقة الطويلة، لما كانت أخلاق الإنسان واستجاباته النفسية أردأ مما كانت. ولو جاء هؤلاء الأنبياء أكبر مما جاؤوا لما تطهرت الأرض من ذنوبها، أكثر مما فعلت، ولما عانقت السماء الأرض بحفاوة عظمى.

إن الإنسان يفعل ويريد وكأنه قانون طبيعي لا أخلاقي. إنه يفعل ما يستطيع ويشتهي لا ما يمتدح أو يتعلم. ومهما عجز المفكرون والمصلحون عن أن يجدوا وسيلة لتهذيب سلوك الإنسان، وتهذيب نفسه، فمن المؤكد أن هذا التخويف ليس وسيلة من وسائل التهذيب.

- ولكن لماذا تكون الاستقامة الأخلاقية شيئاً طيباً، شيئاً مفيداً للحياة أو للإنسان..؟

ألا يمكن أن تكون الاستقامة إضعافاً، وتعجيزاً، وهزيمة للحياة..؟

ألا يحتمل أن يكون الخروج الأخلاقي هو سلاح الحياة، وذكاءها، وشيطانها الباسل المقتحم، ونبوتها الجسدية، وموسيقاها العالمية، وصلاتها بلا مذهبية..

وقد يكون عجز الإنسان عن أن يكون أخلاقياً نوعاً من دفاع الحياة عن الحياة. قد يكون ذلك نوعاً من مجاملة الحياة للحياة. وإذا كانت الفضيلة هي قهر الحياة وإضعافها، وتحويلها

إلى أحزان ومآتم وبكاء، فأي خير للإنسان في أن يكون فاضلاً.. أي خير له، أو للحياة، أو للمجتمع في ذلك..؟

ليس ما نسميه رذيلة أو فساداً، إلا حاصل التناقض بين عدة إرادات، أو بين إرادة المجتمع وإرادة الفرد، أو بين الإنسان والطبيعة.

إن الفساد هو صدم الحجر للحجر. إن الرذيلة هي أن يفعل الآخرون ما يريدون، أما الفضيلة فهي أن يفعلوا ما نريد. إنه لا يمكن أن توجد الحالة التي نسميها استقامة إلا بإزالة هذه التناقضات، فالاستقامة قانون وليست تلقيناً ولا تخويفاً بغضب يختفي وراء النجوم. وقد صنع البشر رسائل غير حاسمة لترويض سلوكهم ونياتهم.

لقد كان التعويد هو إحدى هذه الوسائل الترويضية للوحوش التي تعيش داخل الإنسان، أو التي تعيش خارجه وحوله لتفترس الملائكة التي تسكنه.

إن فعل الشيء والاستمرار عليه يجعلانه عادة. والعادة التزام نفسي وفكري وحركي. والخروج على العادة رهبة، وخطر، ونضال قد يكون شاقاً، لأنه إعادة لترتيب النفس وترتيب مشاعرها وأفكارها. وقد تكون المعصية السهلة اللذيذة معاناة نفسية شاقة، إذا كانت خروجاً على إلف النفس وعاداتها. إن الفرق بين الطاعة والعصيان هو فرق في العادة. وقد يكون من الملاحظ أن الذين يعيشون في بيئات معينة تعودهم على أصناف خاصة من الفضائل، أو مما يظن فضائل، أزماناً طويلة وبأسلوب إيحائي قوي يصبحون فضلاء ويروحون يفعلون الفضيلة بدون معاناة كبيرة، بل بلذة كأنما يمضغون العسل، أو كأنما يمضغون الإثم. والذين يوضعون وضعاً آخر يفعلون العكس. فالناس يأخذون الخير والشر بالتعويد، كما يأخذون اللغة، والتربية، والتقاليد. والمسألة لا تعدو أن تكون ترويضاً. إن الصغير يرى المروضين الكبار فيفعل ما يفعلون، ويتحرك كما يتحركون، فيكون خيّراً أو شريراً بالأسلوب الذي يتعلم به منهم الكلام، والتحية، والسباب، وأسلوب المغازلة. والفروق التي تشاهد بين أفراد أمة وأمة أخرى في السلوك العام، إنما ترجع إلى الفروق في التعويد، أو هذا هو الأغلب.

ولكن هذه وسيلة تقويمية ضعيفة، إذ يوجد معلم آخر أقوى من التقليد والتعويد ومن كل شيء، ذلك هو الحياة. فالحياة والظروف المتناقضة تعلماننا خرق التعاليم. إذن نحن نتعلم الخروج على التعاليم أكثر مما نتعلم المحافظة عليها. إن الحياة تقول لنا شيئاً، وإن المجتمع يقول لنا شيئاً آخر مناقضاً، فنطيع هذا وهذا، فنتعلم التمرد والمحافظة، نتعلم الشيء ونقيضه، فتموت أو تضعف قيمة التعاليم والتقاليد، والنصائح والفلسفات الأخلاقية. ومهما بالغ الناس في قيمة تعاليمهم الأخلاقية، فقد هزمت في جميع العصور أمام ضغط الحياة. إن للشيطان أن يفخر دائماً بأنه قد هزم في جميع العصور، جميع الأنبياء والمعلمين، إن للشيطان أن

يفخر دائماً بأنه قد انتصر على جميع المنابر، والمحاريب، والكتب المقدسة. إن له أن يفخر دائماً بأنه قد انتصر على جميع ما في المحاريب من بكاء وصلوات، وعلى جميع ما في الكتب المقدسة من أهوال، وجحيم، وإرهاب، وعلى أنه حول جميع بلاغة المنابر إلى هزائم وهباء.

ومن الوسائل الأخرى لإصلاح سلوك الإنسان أو التي يظن بأنها كذلك، تربية الضمير، إن الضمير هو ذلك الشعور الذاتي الذي يؤنبنا أو يملؤنا بهجة ورضا عند فعل شيء أو ترك شيء آخر. إن الضمير هو الملاك الذي لا نراه ولا نسمعه، هو الملاك الذي يأمرنا وينهانا فنطيع دون أن نراه أو نسمعه. وهذا الشعور هو إحدى القوى الكبرى التي توجه الإنسان وتتحكم في كثير من سلوكه وصوغ شخصيته.

ويبدو أن الضمير هو إحدى خصائص الإنسان التي ينفرد بها دون كل الكائنات الأخرى. إن كثيراً من الباحثين لم يعرفوا حتى اليوم كيف يتكون الضمير، وما مصادره الأولى. وقد يظن أنه شيء غريزي لا تلقيني ولا تعليمي. قد يظن أنه ينشأ مع الإنسان بالأسلوب الذي تنشأ به غرائزه، كما قد يظن أنه قوة غيبية. وهذا رأي قد يقال ولكنه يظل قولاً. إن الضمير فيما يظهر أمر يوجده التلقين والممارسة، وهو على هذا نوع من العادة. إنه ينشأ بالطريقة التي بها تنشأ العادة، مع اختلاف يسير. غير أن منابعه تتعدد، وكذا العادة. ولكن الضمير أو هذا الملاك الذي هو الضمير لا يعمل وحده في ذات الإنسان. إن الظروف التي تخلقه تخلق أبالسة كثيرين يعملون معه داخل ذات الإنسان. وهم يملكون من أسباب القوة والانتصار ووسائل الإغراء أكثر جداً مما يملك هو. إنه لا يستطيع أن يبارز أو يتحدى. إنه ليس إلا قوة رمزية. إنه ليس قوة.. إنه حديث أو مناجاة، أو موعظة لا تجرؤ على أن تتحول إلى كلام مسموع أو منطوق. إن الحياة أو ظروف الحياة إذا كانت هي التي تصنع الضمير، فإنها هي التي تهدمه، وتهزمه، وتذله. كم أنت يتيم أيها الضمير.

خير الزعماء لأقوى الشعوب

إن رهبة المجتمع هي إحدى هذه الوسائل التهذيبية، فإن المجتمع المثيب المعاقب، يكره الأفراد على اجتناب ما يعد خروجاً عليه، وعلى التزام ما يرفع في تقديره.

ورقابة الناس ـ وليست رقابة القوانين ـ هي التي تجعلهم صالحين يضحون بشهواتهم وأنفسهم أحياناً، في سبيل الآخرين، أو باسم المذاهب والنظم. إن موت الإنسان في سبيل شيء ما، أو باسمه، لا سبب له في الغالب سوى حافز التقدير أو التحقير الذي يصوغه المجتمع. وهذا لأن الناس جزائيون بالغريزة ـ أي يعملون رغبة في الجزاء، ورهبة من العقاب، مع ملاحظة أن الجزاء والعقاب قد يكونان شعورين: شعوراً بالرضا وشعوراً بالألم.. أي قد

يكونان نفسيين. فالثواب ليس خبزاً دائماً، فقد يكون فكرة أحياناً. إن تفكيرنا في شعور الآخرين نحونا يصوغ سلوكنا وأفكارنا وعواطفنا.

إن الإنسان يعمل وعيناه ومشاعره على الآخرين، مهما كان أنانياً.. أو هو كذلك لأنه أناني. إننا نشعر دائماً أن الآخرين يروننا، بل ونريد أن يرونا. إن رؤيتهم لنا تحكمنا دائماً.. إنها تقهرنا وتسعدنا أيضاً. إننا نريدهم أن يرونا على نحو ما، وبصورة ما. إن عيون الآخرين أو رؤية الآخرين لنا هي أقوى سلاح يقاتلنا ونقاتل به. إن احتياجات الإنسان المادية كلها إنما يراد بها أن تحقق له حالة شعورية أو فكرية، أو تحقق له أن يراه الآخرون على نحو ما. فالمال، والقوة، والجاه، والمرأة، تتحول في حياة البشر إلى شعور. وهذا الشعور هو الذي يعطي الأشياء قيمها، فالإنسان مادة تتحول إلى شعور، أو شعور يبحث عن المادة ويحيا بها. إن جميع النظم والمذاهب والحضارات ليس لها من غاية إلا أن تمنح الناس حالة نفسية، أي شعورية. فالإنسان مهما كان مادياً، فهو روحاني، لا يستطيع إلا أن يظل روحانياً.

والذين لا يبالون بمشاعر المجتمع ولا بآرائه، ليس يعني فعلهم هذا أنهم لا يرغبون في الجزاء أو لا يرهبون العقاب. بل يعني أن تقديرهم لقوة المجتمع ووعيه، وقدرته على معاقبتهم أو إثابتهم، تقدير خاطىء أو مختلف. وقد يرجع هذا إلى أن هؤلاء الذين لا يبالون بالمجتمع خاضعون لشعور آخر مضاد، فهم لم يزهدوا في الجزاء، وإنما استطابوا جزاء آخر بدا لهم أقوى وأفضل. إن المجتمعات تعطي دائماً جزاءات متعارضة، وكذلك توقع عقوبات أيضاً متعارضة. إن ما نعاقب عليه قد نجزى عليه. وإن ما نجزي عليه قد نعاقب عليه. وهذا يجعل الناس يتخذون مواقف متعارضة في المجتمع الواحد، ولكل حساباته الخاصة في اتخاذه موقفه.

الناس جميعاً لا بد أن يكون لهم سلوك. وإن سلوكهم لا بد أن يكون مرتباً ترتيباً شعورياً وفكرياً. وهذا يحتم عليهم أن يكونوا أخلاقيين، حتى في حالة خروجهم على الأخلاق.

وعلى هذا فالمقوم الصحيح لأخلاق الزعيم والحاكم هو شخصية المجتمع. إنه لا ينتظر أن يتغير الزعيم أو الحاكم ما لم تتغير هذه الشخصية. إنه لا ينتظر أيضاً أن تكون الأمة في حقيقتها زائفة ثم تكون لها زعامات صحيحة، ولا أن تكون هي صحيحة ثم تكون لها زعامات زائفة. إنك لن تجد شراً من الزعماء والحكام الذين ينتصرون على سلطان هذه الرقابة، كما أنك لن تجد أفضل من هؤلاء الذين تقسو عليهم هذه الرقابة. إن خير الزعماء والحكام لا يوجدون إلا حيث يوجد أقسى الشعوب وأقواها. إذن فحيث يوجد الشعب الذكي القوي الشجاع، يوجد الحكام والزعماء الصالحون، وإذا وجد العكس فالعكس أيضاً.

وإني أجد دائماً لذة في أن أسفه آراء أولئك الذين يرجون وينتظرون أن تخلق الآلهة عبيداً كاملين أحراراً. إن الآلهة لا تجهل أنها لو خلقت مثل هؤلاء العبيد لفقدت ربوبيتها، لأن الربوبية إنما يخلقها ضعف العبيد وعبوديتهم، لا قوتهم ولا حريتهم. ولكن هل يمكن أن تكون المجتمعات قوة معاقبة، أو قوة واعية..؟

إن الجماعات دائماً مقهورة، ودائماً مخدوعة، أو غير عارفة ماذا تريد، أو ماذا يراد بها، أو لها، أو ماذا ينبغي. إنها لا تطيق أن ترى كما لا تستطيع أن ترى. إن العميان والدجالين يقودونها فتنقاد عاجزة أن ترى، رافضة أن ترى، أو عاجزة أن تعصي، ورافضة أن تعصي. إنه ليس وعي الجماهير ولا إرهابها هو الذي يصنع الحكام والقادة والزعماء، بل الظروف ومستويات الحضارة هي التي تصنعهم، وكذلك منافسة الآخرين أو تقليدهم أو الخوف منهم.

وكذلك تصنع الحكام والزعماء خصائصهم، أو رغبتهم في أن يبدوا قاهرين أو باهرين.

إن رهبة المجتمع لا رهبة الموت والقبر، هي التي تقوّم الأخلاق. لهذا نجد الحكام والزعماء المؤمنين في الشعوب المؤمنة التي تتحدث كل أوقاتها عن الموت، وعذاب القبر، وعما في الجحيم من أهوال، هم أفسد الحكام والزعماء وأجرؤهم على فعل المنكرات الموجبة لعذاب القبر وعذاب النار. والحكام والزعماء الكافرون في الشعوب الكافرة التي لا تخشى القبر ولا النار، ولا تتحدث عن أهوالهما، لا يفعلون ما يفعله حكامنا وزعماؤنا المؤمنون الذين تعيش في نفوسهم النار وأهوال القبر، ويرتجفون فرقاً كلما ذكر الموت والقبر والحساب.

المقر المريح للأبالسة

إن ها هنا لشيئاً يسخر أقسى السخرية من الحديث عن الموت وفناء الكون، وعن أهوال الجحيم كقوة أخلاقية. إن ها هنا لشيئاً يجعل الحديث عن أهوال الجحيم والقبر والموت، حديثاً تسخر منه المحاريب التي يلقى فوقها. إن ها هنا هذه القصة، أو هذه الحقيقة التي تتفجر في أبصارنا هاجية لمنابرنا ولمعلمينا الأذكياء.

إن الوعاظ والفقهاء الذين يعلموننا الخوف من الموت ومن القبر، لم يستطيعوا أن يحولوا وعظهم وتخويفهم إلى فضيلة في أخلاقهم أو في تركيبهم النفسي. إنهم يصدرون كل بضاعتهم دون أن يستهلكوا منها شيئاً. لقد أصبحوا كالطاهي الذي يرفض أن يذوق طعامه. إن الشيطان في أنفسهم وبيوتهم لا يشكو أي مرض أو ضعف أو مضايقة. إنه لا يخاف شيئاً، لا يخاف حرماناً أو جوعاً أو شعوراً بالغربة.

كيف..؟

لقد مات الموت وانطفأت نيران الجحيم.. لقد مات الموت والجحيم في نفوس وأخلاق

من يعظون بهما.. لقد ماتت الآلهة وأصابها الهزال في بيوتهم وأنفسهم. لقد انتصروا على الآلهة وعلى ما أعدت من موت وجحيم وعذاب، وعلى من أرسلت من أنبياء وما أنزلت من كتب.

إن اللّه لا يجد نفسه أعظم صحة أو رخاءً أو أسعد حظاً في نفوس وبيوت هؤلاء المعلمين والواعظين. إن اللّه لا يلقى عند هؤلاء أو على موائد هؤلاء أفضل مما يلقى في أي مكان آخر، أو تحت أية ظروف أخرى. فإذا كان حامل الإله لا يخافه، ولا يشفى به من جراحه أو ذنوبه، فكيف يخافه أو يشفى به من يحدث عنه، من يقال له عنه، من يسمع به دون أن يجده في أي كائن، في أي حدث، في أية تجربة.. دون أن يجده حتى ولا في أخلاق من يتحدثون عنه.

وهذه الاستقامة غير الكاملة الموجودة في كل المجتمعات على مستويات متفاوتة ما أسبابها..؟

هل هي الخوف من القبر والموت وقيام الساعة..؟

ماذا لو رفعت القوانين وعقوباتها، والحوافز الاجتماعية، وأخمد الضمير الإنساني، وتركت العظات وترهيباتها تهدد وتنذر وحدها.. نعم ماذا يمكن أن يكون الوضع..؟

لنتوقف قليلاً عن الكلام والقراءة والكتابة، لكي نفكر حينئذٍ في بشاعة المنظر الذي سوف نراه.

هل يحتمل أن نكون موجودين حينئذٍ لكي نرى شيئاً.. لكي نرى بشاعة ما سوف نرى..؟

وما هو الحرام

ومن عوامل التهذيب الإيمان بالترابط الدائم بين الإنسان والطبيعة. فالبشر جميعاً أصدقاء لأنفسهم، وهم لا يتحركون إلا استجابة لهذه الصداقة. وكل أعمال الإنسان التي تبدو خيرة، والتي تبدو شريرة، لا يمكن أن يريد بها غير نفسه والاستجابة لرغباتها. إنه لا يستطيع أن يقصد الإضرار بها أو تفويت الطيبات عليها. إن جميع ما يحدث مما يبدو مخالفاً لهذه الحقيقة إنما الأمر فيه يرجع إلى الخطأ في التوزيع والتقدير، أو إلى العجز. فإذا آمن بالتلاؤم المحتوم بين العمل وطبيعته، فإن هذا الإيمان سيصنع منه مستقيماً في تصرفاته، سيصنع منه متجنباً الأفعال المسقطة والمهلكة.

إن الأعمال التي تعطي ضرراً طبيعياً هي المحرمة. إذن فالطبيعة هي المقومة للأخلاق. إن الحرام ليس شيئاً غير الضرر، والإيلام، والتعب.

لماذا يكون الشيء حراماً، أو مرفوضاً، أو منكراً، أو مذموماً.. ولماذا يكون الشيء حلالاً، أو مقبولاً، أو محموداً..؟

إن الحكم بهذا أو بهذا، قائم على محاولة اجتناب الضرر وفعل ما فيه النفع والمسرة. إذن محاولة التوافق مع الطبيعة، هو الذي يصنع الاستقامة الأخلاقية. وهذه الاستقامة هي الاستقامة المطلوبة والنافعة. إن الطبيعة هي التي تصوغ أخلاقنا، لا تعاليم الأنبياء والواعظين.

الضوابط الذاتية

وإنه لتوجد رقابة أخرى غير رقابة المجتمع توجه سلوك الإنسان، تلك هي الرقابة الذاتية.

لقد عرف البشر والمعلمون منذ زمن بعيد أسلوب الترغيب والترهيب. إن الخوف من النار والآلهة والقانون، والطمع في الجنة والمكافأة ورضا الأرباب والمجتمع، إن كل ذلك يخيف الإنسان ويطمعه فيصنع أخلاقه، أو يظن أنه يصنعها.

لقد قيل كثيراً إن ذلك يخيف الإنسان، ويصوغ سلوكه صياغة جيدة. ولقد صدق هذا القول كثيراً، أو بدا أنه قد صدق. ولقد دخلت من هذا الطريق أو بسبب هذا الوهم جميع الهموم الفكرية، وجميع الأشباح التأريخية إلى عقائد الناس وتصوراتهم، وآمنوا بالتهاويل الغيبية الفظيعة، وبكل المنغصات الاعتقادية التي أرهقت فكر الإنسان وشعوره عصوراً طويلة، وفرضت عليه حالة من الإرهاب والإرهاق والبشاعة لا مثيل لها في كل ما وجد في الدنيا من عذاب، وخوف، ودمامة، وجنون فكري. لقد تحولت روح الإنسان إلى مخزن هائل من مخازن الهول. لقد تجمعت في روحه جميع الآلهة التي تجمعت فيها كل الوحوش، التي تجمعت فيها كل الأنياب، التي تجمعت فيها كل قوى الافتراس وشهواته، التي تجمعت فيها كل المخاوف والأحزان والجوع.

عجباً.. كيف استطاعت روح الإنسان أن تجمع فيها كل هذه الوحوش، دون أن يجن..؟

إني أحسب أن أقوى الأشياء لتقويم سلوك الإنسان، وخلق فضائله النفسية، هو تنمية شعوره بذاته. إن إحساسه بنفسه وكرامته، وشخصيته المتحددة المستقلة.. إن إحساسه بأن للكرامة والشخصية حدوداً إنسانية إذا اجتازها أو قصر عنها كان إنساناً قاصر الحدود، أو إنساناً بلا حدود.. إن إحساسه بأن له حقيقة ذاتية تحددها خصائصها، كما تحدد الطبيعة قوانينها بلا أنبياء، ولا وعاظ، ولا نار، أو موت.. إن إحساسه هذا، هو الذي يصنع الوجود الأخلاقي للإنسان. وحينئذٍ تصبح مقاييس الشخصية التي تحدد انفعالاتها، وتوجه أفعالها، وتضبط موازينها، جزءاً منها وليست إملاء خارجياً يختلف ويتعارض فيفقد ذاته، أو يؤدي

إلى نتيجة أخرى مضادة لأغراض التربية والاستقامة الأخلاقية.

إن النفس الإنسانية يجب أن تكون متكاملة تكاملاً ذاتياً. إن ضوابط أي جهاز علمي يجب أن تكون فيه لا خارجة عنه، وكذلك ضوابط النفس.

إنه حينما يكون إفراز أي عضو من أعضائنا ناقصاً ومحتاجاً إلى التكميل من الخارج، فلن يكون ذلك العضو، بل ولا البدن صاحب ذلك العضو إلا مريضاً ناقصاً. إن الذات هكذا حينما تكون محتاجة إلى التكميل الخارجي. إن التكميل الداخلي الذاتي يجب أن يصبح هو الغاية في محاولة تكوين الإنسان الأخلاقي.. عليه أن يعلم أنه يفعل هذا، ويترك ذاك، لأنه إنسان له شعور وفكر وكرامة. إن عليه أن يعلم أنه بشعوره وبفكره وكرامته، يفعل أشياء، ويترك أشياء، ويثق به الآخرون، ويعدونه إنساناً راقياً جديراً بالمعاملة، والصداقة، والاحترام.. أي أن الحدود المعترف بها جزء من ذاته، فإذا تعداها أو ضيعها فقد تعدى ذاته وأضاعها، ولكن ذاته لا تستطيع أن تضيع ذاته، وإذن لن يستطيع أن يضيع الحدود الاجتماعية.. إن فيه مانعاً ذاتياً.

إن تعلية الشعور بالقيمة الإنسانية ترفع شعور البشر بأنفسهم. إن التربية التي حكمت الإنسان في كل عصوره كانت تربية تهبط بهذا الشعور.. كانت لا تفترضه.. كانت تفترضه غير شيء، غير موجود.

لقد كانت تفهمه أنه لا يستقيم، ولا يستطيع أن يستقيم إلا بالوخز والعقاب، والوعد بالرشوة وبالتهاويل الكثيرة.. كانت تعلمه أن كل الناس كذلك.. كانت تبالغ في الربط بين الخنوع والثواب، بين التمرد والعقاب، حتى لتعلمه أن شيئاً من الأشياء لا يمكن أن يحدث إلا تحت موكب طويل من حوافز الخوف أو حوافز الطمع.

لقد اجتنبت هذه التربية أن تمس الشعور الإنساني أو تخاطبه، وبهذا هبطت به أدنى المستويات. لقد علمته أنه حيوان بليد لا تحركه إلا العصا والحاجات البدنية الحيوانية، فهوى في الأوحال، وصار سلوكه حيوانياً لا يفعل هذا أو هذا إلا في أقصى حالات الخوف أو الاحتياج. لقد وجد قوم حيوانيون، لا يحسون بحوافز النبل، أو حوافز الاشمئزاز والفكر والاحترام للذات، لا يحسون بحوافز الإنسان.. حتى ولا أولئك الذين يتساقطون عند ذكر الجنة أو النار خوفاً أو طمعاً أو حباً للخالق الكريم الرهيب الذي خلق كل الخوف وخلق كل الإغراء، الذي خلق الجنة وخلق النار.

وقد جربت بعض الأمم معاملة الشعور بالذاتية في الإنسان. لقد ألقت على شعوره كل التبعات، وقيل إن النتائج قد جاءت جيدة، وأن هذا الشعور قد ارتفع في كثير من الشعوب والأفراد.

لقد قيل أيضاً إن العلماء والفلاسفة وكبار الرجال هم أعظم أخلاقاً من الناس الصغار. لقد قيل إن السبب هو مستوى شعورهم بأنفسهم وبالقيمة الإنسانية المحكوم بها ذاتياً على الإنسان لكونه إنساناً. قد يكون من الصواب أنه يوم يستطيع الناس أن ينموا هذا الشعور تنمية كاملة فسوف يبلغون حينئذٍ المستوى الذي لا بد أن يبلغوه في محاسبة النفس للنفس، بل في توازن النفس مع ظروفها توازناً ذاتياً داخلياً. وإذا حدث ذلك سار البشر في طريقهم، وحققوا أنفسهم، وتعاملوا مع ما حولهم ومن حولهم بلا خروج ولا عدوان ولا تصادم، كما تسير الشموس والكواكب والقوانين الطبيعية، ويتعامل بعضها مع بعض ومع نفسها.

إنها ضوابط ذاتية تضبط القوى والمشاعر الإنسانية ضبطاً مستقلاً عن الأوامر الخارجية. إنه لا يمكن الزعم أن إدراك هذه المرحلة سهل المنال أو أن ما ذكر قد يخلق لنا في الوقت القريب إنساناً يصبح خروجه على الفضيلة عذاباً، جوعاً، قتلاً.. تصبح ممارسته للفضيلة شهوة، غناء، طبيعة.. يصبح خروجه على الفضيلة فقداً للرؤية، فقداً للسمع، سقوطاً للأسنان، عجزاً عن ممارسة الشهوة. ولكن الذي يمكن زعمه هو أن هذه الوسائل النفسية هي أجدى في التهذيب من الوعيد بالنار والوعد بالجنة والتخويف بالموت وغير ذلك من وسائل الإرهاب والرشوة.

إن التربية بالخوف تسلبنا الفضيلة النفسية لأن الفضيلة النفسية ليست خوفاً. إن الخوف لا يصنع فضيلة، وإنما يصنع استسلاماً، أو نفاقاً، أو تربصاً. ولأن التربية بالخوف تسلبنا شجاعة الفكر، إنها تسلبنا الفضيلة الفكرية. والخوف الفكري يصوغنا صياغة متوحشة كئيبة، ولا يمكن لنفس عاشت بالخوف العقلي أن ينبثق عنها نبل، أو حب، أو مثل إنساني رفيع.

إن النفس الوجلى التي لا تذكر إلا السوط والعذاب لن تنبت على جوانبها الفضيلة. إن التأديب بالخوف يصنع طغاة معتدين إذا قدروا وارتفع السوط عن ظهورهم، وعبيداً منافقين صغاراً إذا رأوا السوط مرفوعاً. وأية نماذج للبشرية أسوأ من هؤلاء..؟

إن هؤلاء الذين ينصب في نفوسهم هذا الخوف الدائم الرهيب لن يكونوا مستويات عالية للقدرة أو للشجاعة. إنهم لن يقاوموا ظلماً، أو أن ينصروا مثلاً عظيماً محفوفاً بالمخاطر والآلام. إنه لمحتوم أن تفترس هذه المخاوف أعصابهم، وتهون عليهم، ويهون عليهم التفكير فيها، وفي اتقانها، كل ما يلاقون في هذه الحياة من ألم، وهوان، وحرمان، وهزائم. فالخوف الكبير الدائم ينسي الألم والهوان، أو يذل الشعور بهما. ولن تصرف قوماً عن أعدائهم ومتاعبهم بوسيلة أقوى من أن تشغلهم بتذكر الموت، والقبر، والنار، والخوف من غضب السماء.

إن كل شيء يهون في نفس تترقب قيام الساعة، وزوال العالم، ومجيء الموت، وتفكر في مباهج الجنة وأهوال النار. إن هذه الذكريات الباهظة الحزينة لهي أفضل الأصدقاء للظلم والفساد. إن هذه الذكريات هي أفضل الأصدقاء للشيطان الباحث عن الآلام للإنسان.

وسارقو الشعوب وقاهروها يمنحون هؤلاء المخوفين رضاهم وهباتهم وتأييدهم. وهم لا يفعلون إلا ما يعزز سلطانهم ولو فيما يظنون. إن خوف النار والطمع في الجنة ليرخص كل هوان، وطغيان، وشقاء، يقع في هذه الدنيا. إنه بقدر ما نخاف من الآلهة والنار والموت والآخرة، نتراخى في مقاومة الأعداء، واللصوص، والمهانات، والإهانات الكبيرة. إن كل شيء لا يعني شيئاً.. إن كل شيء صغير.. إن كل شيء لا يخيف ولا يجرح.. إن كل شيء لا يغري، ولا يرى، ولا يوجد في حساب من يضع في حسابه أهوال الجحيم والحساب والعقاب، وفي حساب من يضع في حسابه مباهج الجنة وخرافاتها السعيدة. إن كل شيء لا يرى.. إن كل شيء لا يوجد في حساب من يتذكرون الجنة والنار.

إن خوف السماء والالتفات إليها، والتفكير فيها، عون هائل للطغاة واللصوص والآلام، ولكل أعداء الإنسان.

أيتها السماء.. أيتها السماء..

هل تشعرين كم أنت محابية للطغاة، كم أنت مفيدة لأعداء الإنسان، كم أنت شاغلة للإنسان عن أعدائه.

إن الإنسان أفكار، ومشاعر، ورغبات، وقدرة. من هذه كلها يتألف ما ندعوه سلوكاً محترماً، أو فضائل، أو أخلاقاً. وهذه الفضائل أو الأخلاق التي ما هي في كل صورها إلا حيلة من حيل الحياة لاجتذاب اللذة واجتناب الألم، إنما كانت بحثاً لا مثالية فيه عن التناسق بين الأفكار، والمشاعر، والرغبات، تناسقاً ليس فيه انتصار لواحدة منها على الأخرى. إن أفكارنا تعطينا القدرة على أن نفهم سلوكاً معيناً من صور السلوك المختلفة بأنه هو الأمثولة العظيمة التي يتصورها العقل للإنسان المثالي الذي نود كلنا أن نكونه. وليس في البشر إنسان واحد لا يريد أو لا يتمنى أن تكون له صورة أو أسلوب أو نموذج بشري. إن كل إنسان يريد أن يرى نفسه بل وأن يراه الآخرون؛ وهل تكون رؤية بلا نموذج.. وهل يكون نموذج بلا مستوى..؟

إذن هل يوجد إنسان لا يحاول أن يصنع لنفسه نموذجاً..؟

وهذه الصورة العقلية التي نتخيلها تخيلاً عقلياً للإنسان الراقي، صورة نجد في داخلنا ـ

لأننا نشعر ونرغب ونرى ونريد ـ ما يغرينا بأن نحققها لأنفسنا. إن هذا هو الذي يجعلنا دائماً نحنُّ إلى أن نكون أناساً على مستوى ما، يرضون عن أنفسهم وترضى عنهم أنفسهم ومثلهم العقلية، كما يرضى عنهم الآخرون. بتفكيرنا أيضاً نفهم ما يريده الآخرون، كما نفهم أن العدالة صورة عقلية، ثم ندرك بهذا التفكير نفسه على وجه من وجوه الإدراك بأننا ملزمون إلزاماً ذاتياً وذهنياً، بأن نخضع لهذه العدالة العظيمة خضوعاً قانونياً، خضوع العقل لفكرته، أو خضوع الشيء لنفسه، كما تخضع الطبيعة لقوانينها ولنفسها؛ فالطبيعة في خضوعها لقوانينها إنما تخضع لنفسها، لأن قانونها جزء منها.. بل لأنها هي قانونها.

إن قانون الشيء هو الشيء.. إن الشيء هو قانون نفسه.

إن النفس العاقلة، أو الذات العاقلة، لا بد أن تكون فاهمة مفهومة، متصورَة متصوِّرة، حاكمة محكومة، رائية مرئية، إنها لا بد أن تمارس نفسها، وأن تمارسها نفسها بالتفكير والشعور والتمني. إنها لا بد أن تتعامل مع نفسها، ومع الأشياء، ومع الآخرين. إن معنى هذا أنه لا محالة من أن نكون أخلاقيين على نحو ما، وإن لم نؤمن بالإلزام الخارجي. إننا لا يمكن أن نكون من غير التزامات نفرضها نحن على أنفسنا، ما دمنا كائنات مدركة متحسسة. إن السماء لو بعثت إلينا كل أنبيائها لتفرض علينا أن نكون بلا أخلاق ولا التزامات، وتوعدنا بالنار، وبالحرمان من الجنة، إن لم نتحلل من التزاماتنا النفسية نحو المجتمع والكون، لما كان من الممكن أن نطيع؛ ولو أردنا أن نطيع لما قدرنا. نحن لم نكن أخلاقيين لأننا مأمورون، بل لأننا لا نستطيع إلا ذلك. فالأخلاقية ـ أعني الأخلاقية بلا قوالب ثابتة ـ انبثاق عقلي. إن الأخلاقية اضطرار إنساني. إنه لا عقل بلا أخلاق؛ لهذا كان القانون الأدبي عند الشعوب المتحضرة حضارة عقلية، أكثر نصوصاً وأصرم إلزاماً منه عند الشعوب المتأخرة. وكما أننا لا نستطيع أن نتصور العقل بلا أخلاق، فإننا كذلك لا نستطيع أن نتصور الأخلاق بلا عقل، أي الأخلاق بالمعنى العلمي. إنهما يوجدان معاً، ويفقدان معاً.

إن الأخلاق ليست اختيار أفضل الاختيارين، بل التزام ألزم الإلزامين.

إن الأخلاق ليست نبوة نتعلمها، بل أرض نخوضها.

ومهما حاول الإنسان أن يرتفع بمصادر شرائعه الأدبية، فلن تكون لها مصادر غير تفكيرنا المتولد عن ضروراتنا الأرضية. فشرائعنا كلها ليست إلا محاولات عقلية للتوافق مع آلامنا، وبذاءاتنا، وشهواتنا، ونقائصنا.. للتوافق مع الطبيعة الخاطئة المتوقحة. فالعقل إذن، ولكن بمعناه العام، هو مصدر كل التزام أدبي. وكما أن العقل هو الذي يصنع الجهاز العلمي، والآلة الدقيقة، ويحل المسألة الرياضية، فإنه كذلك هو الذي ينظم ضروراتنا الأخلاقية، ويشرف عليها. إنه هو الذي يعلمنا أسلوب التوافق مع الطبيعة.

تجاوب بلا تلقين

إن الإنسانية حقيقة متميزة في أعلاها، وإن كانت ليست كذلك في درجاتها الدنيا. ولا يوجد إنسان عاقل يريد أن ينزل بنفسه تحت مراتب الإنسانية المتحققة بتحقق خصائصها المرتفعة بها عما دونها. كل إنسان يريد أن يبقى إنساناً.. وهل يبقى الإنسان إنساناً دون أن يملك أو يمارس شيئاً من صفات الإنسان أو مستوياته..؟

وهذا المفهوم الكبير للإنسانية الذي تتعشقه جميع الكائنات المفكرة، هو الوثن الشامخ الذي ترنو إلى قمته كل الهمم، حتى همم أولئك الذين يعيشون في القاع.

إن هذه الأشواق والتمنيات الطبيعية في الإنسان هي أحد الحوافز الأدبية التي صاغت والتي سوف تصوغ سلوكنا صياغة فضلى. إن خصائص الإنسانية تنمو بالاعتماد عليها، والثقة بها، والاحتكام إليها. وتموت إذا أنكرت، أو أهينت، أو أقيم عليها حارس أجنبي. إن الرؤية الحادة الناقدة المحرضة للذات، قوة مؤثرة في أخلاقها. إن الذين ينظرون إلى أنفسهم بعمق وديمومة لا بد أن يحاولوا تصحيح ذواتهم. إن الذين لا يصححون ذواتهم هم الذين لا يرونها. إن النظر إلى الذات تأديب للذات. ما أقل الذين ينظرون إلى ذواتهم.. ما أقل الذين يستطيعون رؤية ذواتهم.

إن مشاعرنا ورغباتنا هي التي تجعلنا نستجيب لحكم العقل. نحن نرغب ونشعر، إذن لا بد أن نكون مدركين لرغبات الآخرين ومشاعرهم، منفعلين بانفعالاتهم؛ فاستجابة الانفعالات الإنسانية بعضها لبعض، تعبر عن حقيقة إنسانية. إن أحاسيس البشر متجاوبة بلا تلقين؛ لهذا كانت نفس الإنسان تتفجر على مر التاريخ بكل ما يحمل تأريخه وعواطفه من أخلاق إنسانية عامة امتزج فيها الوحي بالتلقي، والتأثير بالتأثر، وتلاقى فيها الحزن والسرور، والمحبة والبغضاء. إن النفس الشاعرة تتأثر بالنفس الأخرى الشاعرة، والحزينة بالحزينة بأسلوب اضطراري كما يتأثر النجم بالنجم، والجسم بالجسم، والأشياء بالجاذبية.

هذي هي المنابع التي تقاطرت منها آداب الإنسان العامة قطرة قطرة. إن آدابنا تنبع من أعصابنا وآلامنا، ولذاتنا ومداركنا. إنها لا تتنزل علينا في كتب تلقي بها علينا الغيوم. إنه ما من شيء في هذا الوجود، إلا وتوجد قوانينه داخله لا خارجه؛ إلا الإنسان. والزلل الذي شذ بالإنسان عن هذا القانون، سببه أن الإنسان كائن مفكر؛ والأفكار أشياء متعدية تنتشر على ذاتها، وعلى غيرها انتشاراً غير متحدد، وليست ذاتية فقط كسائر القوى. والذي حدث أن الأفكار في رحلاتها الخارجية الطويلة الجريئة خارج الذات المفكرة، كانت تضل كما يحدث لكل مرتحل، فتكرر ضلالها ثم تجمعت منه هذه الثقافة المارقة عن النواميس

الطبيعية. وإذاً، إن الأفكار مرتحلة دائماً.. إذن لا بد أن تضل، وأن يتكرر ضلالها... لا بد أن يكون ضلالها أكثر وأفدح من المقيم الذي لا يرتحل.

وإذا كانت شخصية الحيوان هي التي صنعت منه السلوك الحيواني، فإن شخصية الإنسان هي التي تصنع منه السلوك الإنساني بدون برق ولا رعد.

إذا كان الحيوان وكان الطير قد اهتدى إلى سلوكه وأخلاقه بلا جنة، وبلا تهديد بالنار والفناء والموت.. بلا أنبياء ولا معلمين للخوف والأحزان.. بلا واعظين بأنياب الآلهة وعنف طباعها؛ فكيف لا يهتدي الإنسان إلى ما اهتدى إليه الطير والحيوان..؟

وإذا كانت الضرورة هي التي علمت الكلب والقرد، الطاعة والحب والوفاء، فهذه الضرورة هي أيضاً التي تعلم الإنسان الأخلاق. هل الكلب والقرد، أعرف بمواقع الضرورة وأقدر على الاستجابة لها من الإنسان..؟

إن البشر متشابهون في حاجاتهم وميولهم الطبيعية على نحو متقارب أو متشابه جداً. إذن، لا بد أن يسلكوا سلوكاً موحداً في الإرادة والنفور العام، أو سلوكاً متقارباً أو متشابهاً جداً. إن ما تحبه أنت حباً طبيعياً، أكون أنا خليقاً بأن أحبه هذا الحب؛ وما أكرهه أنا كراهة طبيعية، أنت خليق بأن تكرهه هذه الكراهة. إن ما نريده أفراداً ونكرهه أفراداً، لا بد أن نريده جماعات وأن نكرهه جماعات. لا بد أن تكون هناك كراهة عامة لأشياء، وإرادة عامة لأشياء. والذي نكرهه في أنفسنا أو لأنفسنا لا بد أن نكرهه في غيرنا، أو لغيرنا. والذي نحبه في أنفسنا أو لأنفسنا، لا بد أن نحبه في غيرنا أو لغيرنا. إذن هنالك طبيعة عامة تقضي بأن نستجيب للآخرين كما تقضي بأن يستجيبوا لنا. وهذي هي الاستقامة الأخلاقية، فالأخلاق هي الاستجابة الاجتماعية أو الإنسانية. هي أن نفعل ما يريح ويرضي الآخرين، أن نفعل ما يريدون، ويفهمون، ويتخيلون، وأن يصنع الآخرون نفس الشيء. إن تعارض مصالحنا الخاصة الذي يجعلنا في أكثر الأوقات غير عادلين ولا إنسانيين، لا يمكن أن يمس هذه الحقيقة بالبطلان.

إن المعنى الحقيقي في الشرائع والقوانين، هو محاولة تحقيق وحدانية السلوك. إن الناس يرون الأخلاقي من الأشياء ومن السلوك، هو ما يتوحد مع الميول الأخرى، ويلتئم بها، ويستجيب لها. إن الخروج على القوانين والشرائع يعني في منطق المجتمع، الخروج على أهواء الآخرين، ومصالحهم، وتقاليدهم، وجهالاتهم. إنه لا توجد صورة أخلاقية سابقة أو منفصلة عن المجتمع. إن المجتمع هو الذي يصنع مقاسات الفضيلة، كما يصنع مقاسات المنطق. والأغراض التي تحمل قوماً على أن يجتمعوا ليشقوا قناة، أو يعبدوا طريقاً، هي نفس الأغراض التي تجعلهم يجتمعون من غير أمر خارجي، وعلى غير اتفاق، ليشقوا قنوات عامة أدبية، أو يعبدوا طرقاً تجري فيها أخلاقهم متشابهة بمقدار ما تتشابه قطرات النهر.

وما هي الأخلاق..

وقد كان التخطيط العقلي يقتضينا قبل أن نبحث عن الوسائل المؤدية إلى تحصيل الأخلاق، أن نعرف ما هي الأخلاق.

كانت المذاهب السلفية القديمة ترى دائماً أن الأخلاق ليست إلا تقويماً، وكان يراد بالتقويم الانتظام في معايير معينة عامة، قد تقررت بعيداً عنا.

إن أقبح الغباء، وأوقح الظلم المتقررين، هما قمة الذكاء وقمة العدل في ذلك المنطق. وعلى هذا التفسير فالأخلاق نوع من الالتزام الخارجي؛ والأخلاق بهذا ليست لنا بل نحن لها. إنها ليست حرية، ولا تجربة، بل عقيدة. والإيمان باعتقادية الأخلاق وخارجيتها، يؤدي إلى نتائج محتومة.

إن من هذه النتائج العجز عن التطور الأخلاقي عند المؤمنين المعتقدين.. وهل يمكن أن يتطور المجتمع إذا كانت أخلاقه لا تتطور..؟

لقد لوحظ دائماً أن أصحاب الأخلاق الموحى بها، هم أعجز الناس عن التطور. إن الناس لا يتطورون إلا بقدر ما يخرجون على أخلاقهم، ويخالفونها من الناحية العملية. إن الأخلاق صيغة إنسانية، وهل يمكن أن يتطور الإنسان ما لم تتغير صيغته الإنسانية، أو بدون أن تتغير أو تتطور صيغته الإنسانية..؟

إن الأخلاق قيد ما بأسلوب ما، وهل يمكن أن يتغير الشيء أو الإنسان دون أن تتغير قيوده، أو مع بقاء قيوده بقوتها، ونوعها، وجنسيتها، دون تغير..؟

ولكن الخروج على الأخلاق والمخالفة لها، محتومان في المجتمعات المؤمنة المتزمتة؛ لأنها لو لم تخالف أخلاقها، وتخرج عليها لما كانت، ولما عاشت، ولما تلاءمت مع احتياجاتها وظروفها. لقد كان خروج المؤمنين على أخلاقهم المكتوبة والمنزلة شرطاً في بقائهم أحياء، شرطاً في استجابتهم لاحتياجاتهم، شرطاً في تعاملهم مع الحياة والناس، شرطاً في قدرتهم على رؤية الشمس وعلى الإحساس بالدفء. إن رؤية الله موت لكل الأشياء، فقد لها، فقد لكل رؤية.

وقد كان محتوماً أن يكون من أكبر نتائج هذا الاعتقاد، انتشار الفساد الأخلاقي في صميم المجتمع المؤمن بأن الأخلاق اعتقاد، ووحي، ودوام. إن سبب هذا أن الأخلاق الاعتقادية ـ والمفروض فيها أن تكون مثالية ـ لا يمكن التزامها عملياً لأنها لا تعبر عن احتياجاتنا وطبائعنا المتحركة المتصادمة المتناقضة. إن الأخلاق الاعتقادية لا تخاطبنا، لا تخاطب شيئاً فينا.. إنها تخاطب كائنات غير موجودة، لهذا لا يوجد فينا من يسمعها أو يستجيب لها.

إن الحياة دائماً تصادم. إنها لا تسير في طريق مستقيم، بل ليس في الوجود ما هو مستقيم. إنه لم يوجد كما لن يوجد من استطاع أن يكون أخلاقياً بالمعنى التعليمي، بالمعنى الديني. إنه لم يحدث هذا لا في الآحاد، ولا في المجتمعات. وإذا لم يستطع الناس أن يلتزموا أخلاقهم النظرية المثالية الخالدة، ولم يكن لهم عوض عنها، أصبحوا غير أخلاقيين من الناحية العملية مهما كانوا أخلاقيين من الجانب النظري. وهذا منظر مشهود ومتكرر في المجتمعات التي تؤله سلوكها الأخلاقي، أي في المجتمعات التي تنسب أخلاقها وتعاليمها إلى الآلهة. إذن فالذين يحاولون أن يعيشوا بأخلاق السلف لا يمكن أن يكونوا أخلاقيين.

إن سبباً آخر يضاف إلى هذا السبب، ذاك أن الأخلاق التي تؤخذ بالوحي والتلقين المتتابع بدون أن تتغير، أو تقع في نطاق أحاسيس الذات وضروراتها واكتسابها، تفقد المقدرة على الإغراء، وعلى أن تصنع من المؤمنين بها قوماً مبدعين أو مناضلين. إنها لا تلهم الفداء. فالأخلاق المثالية النظرية بعيدة جداً عن تحقيق الأخلاق العلمية الإنسانية.

وإذا لم تكن الأخلاق تقويماً ولا انتظاماً في مقاييس معينة سابقة، فما هي إذن..؟

حيث تهب الرياح

إن الأخلاق هي تصرف ما، لاكتساب شيء ما، أو لاتقاء ضرر ما. إنها ليست سوى محاولة توافق أو تلاؤم مع الوجود الخارجي الكائن حولنا. إن الأخلاق ضرب من المراوغة أو المناورة بين الكائن العاقل وبين بيئته وأدواتها المفترسة الكثيرة. إنها مناورة قائمة على الكر والفر، والشجاعة والجبن. إنها اقتناص وختل؛ لهذا لا يوجد فاضل دائماً ولا خارج على الفضيلة دائماً.. لهذا لا توجد فضيلة دائماً، ولا رذيلة دائماً؛ لأن الظروف المواجهة المتعامل معها وعليها، المكيفة للسلوك، مختلفة في صورها، في تصورها، وفي الإدراك لها، والشعور نحوها، والقدرة عليها.

والذين جعلوا الأخلاق طردية أي عامة، إنما جعلوها كذلك تفكيراً فقط؛ أما سلوكاً فقد يكفي للتدليل على أنها ليست كذلك، أن الحياة لم تظفر منذ كانت، ولا يمكن أن تظفر، بصادق دائماً، ولا بشريف دائماً، ولا بعظيم دائماً؛ وأنها كذلك لم تظفر بخسيس أو رديء دائماً.

إن الصادق جداً لا يصدق أكثر مما يكذب، وإن الشجاع جداً لا يشجع أكثر مما يجبن، وإن المحسن جداً لا يحسن أكثر مما يسيء، وإن القديس جداً لا يحب أكثر مما يبغض. وإن العفيف جداً لا يعف أكثر مما يطمع ويشتهي. فالأخلاقية صورة مستترة من صور المتاجرة والمساومة ينظر فيها على كل حال إلى الربح والخسارة، أو إلى الملاءمة والمنافرة؛ بل الأخلاق

أسلوب مفضوح من أساليب المتاجرة والمناورة، وليس صورة مستترة. وإذن، فالأخلاقية تنافي الأخلاقية؛ أعني من حيث الحوافز، فالأخلاقيون يكونون أخلاقيين بحوافز ضد الأخلاقية. إن هذا الإنسان مثلاً فاضل لأنه خاضع لحوافز غير فاضلة.

إن الأخلاق ليست سوى صراع بين شهواتنا المتناقضة، لا بين شهواتنا وفضائلنا. إنها صراع بين أشتهي وأشتهي، لا بين أشتهي وأحترم.

إن أخلاقنا قتال بين شهوات كافرة. ولو فقدنا شهواتنا لفقدنا أخلاقنا، أي لو فقدنا رذائلنا لفقدنا فضائلنا. إن سلوك الحيوان نوع من الأخلاقية الدنيا، والفرق بين أخلاقية الحيوان وأخلاقية الإنسان فرق في المقدار لا في النوع.

وإذا كانت الأخلاق محاولة من محاولات التكيف بالظروف، فإن للنبات والجماد أيضاً أخلاقاً لأن لهما طبيعة التكيف، ولكنها أخلاق غير عاقلة وغير اجتماعية، بل طبيعية. بل إن الموت، والأمراض، والزلازل، والخروج على الأخلاق أخلاقاً؛ لأن ذلك كله خاضع لعمليات التكيف والتلاؤم؛ والأخلاق تكيف وتلاؤم.

إن الأخلاق تولدها الضرورات لا التعاليم المجردة. فالأخلاق الإنسانية جبرية اجتماعية ذاتية، لا فضيلة طبيعية أو سماوية. والفرق بين الإنسان الأخلاقي وغير الأخلاقي فرق في الضرورة، أو في إدراك الضرورة، أو في القدرة على التصرف، لا في السمو الروحي. إن الإنسان في سلوكه الأخلاقي يشبه النوتي في البحر ينشر شراعه حيث تهب الرياح.

إنه لا يمكن أن يكون موقفنا الأخلاقي العملي متوحداً وعاماً بالنسبة للنظرية الأخلاقية، إلا إذا أمكن أن نسير جميعاً ودائماً في طريق واحدة مدى الحياة كلها في اتجاه واحد مستقيم، وأن نلبس دائماً ملابس واحدة، وأن نأكل أطعمة دائمة واحدة، وأن نتصرف ونعمل تصرفات وأعمالاً متشابهة دائمة، مهما اختلفت القدرات والظروف، أو أن نتخذ من الأحداث والمشاكل التي تواجهنا موقفاً واحداً لا يتغير؛ ثم أمكن مع هذا أن نكون عقلاء وأخلاقيين، أو أن نكون ناجحين.

إنه لا يمكن أن نكون فضلاء دائماً، كما لا يمكن أن تتشابه أو تتوحد مواقفنا من الأحداث المختلفة. إن أعجب الأشياء في العالم هي التعاليم التي تفرض على كل الناس مستوى موحداً من السلوك والأهواء، والاستجابات النفسية. إن هذا أبعد سخفاً من أن يوضع لكل الأجسام مقاس واحد، ولكل العقول مستوى ذكاء واحد، أو أن ينتظر من كل العقول مستوى من الذكاء لا يتفاوت.

فإذا قيل بعد هذا: وهل البشر حينئذٍ أخلاقيون؟ كان الجواب:

إن كان المراد بالأخلاق مطلق التصرف المعلل، فالبشر جميعاً أخلاقيون، حتى من يعدون منهم في غاية الانحلال، والخروج علي الأخلاقية؛ بل قد يكون هؤلاء أقوى وأفضل أخلاقاً.

وأما إن كان المراد بالأخلاق تلك المثالية التي تعني السمو فوق الذات، أو التي لا تلتفت إلى الذات، فليس بين البشر كلهم أخلاقي واحد.

إنه لا توجد أخلاق إن أريد بالأخلاق فعل الشيء لذاته. إنه لا يوجد من يضحون بشهواتهم، أو بمصالحهم، أو بما يلائمهم، في سبيل الخير المطلق الذي لا يفيدهم، أو لا يتصل بأغراضهم الخاصة. إن الأخلاق هي التعبير عن الذات الخاصة بتعبيرات اجتماعية.

ومهما كان ذلك، فلا بد من القول بأن الأمم بأخلاقها. ونقصد بالأخلاق هنا السلوك الحر الذي لا يتقيد بتعاليم سابقة، ويكون هدفه ومسعاه النهوض بالحياة، أو الاستجابة لرغبات الحياة واحتياجاتها. فالأخلاق ليست تعليماً للحياة كما يظن دائماً، ولكنها الاستجابة لها، لضروراتها، والبحث عن هذه الضرورات. إن الأخلاق هي تحرير الحياة من التعاليم استجابة للضرورات، وتحقيقاً لها. إن قولنا لا بد من الأخلاق، كقولنا لا بد من أعمال تجعل الأرض تعطي ثمارها، وتجعل المصانع تعطي إنتاجها. ولكن هذه الأعمال المصروفة إلى الأرض، وإلى المصانع لا يصح أن تتقيد بأساليب معينة ثابتة، وإنما هي تجارب متجددة مستمرة.

فإذا سئلنا: وما هي إذن الأخلاق العلمية التي ترون أنه لا حياة للجماعة أو للفرد بدونها..؟

قلنا إنها هي التجارب الاجتماعية التي تؤدي إلى القوة، واللذة، والسرور، والتطور، ويكون هدفها ذلك. إن الأخلاق هي السرور، هي البحث عن السرور، إن الأخلاق هي السرور في حوافزها وفي نتائجها. فهل تعجب من ذلك..؟

إن الأخلاق ليست فضائل نفسية.. ليست عطوراً، ولا أزهاراً تفرزها النفوس المعطرة، وإنما هي أعمال كحرث الأرض، وقطع الحجارة، ونشر الخشب.. إنها ليست اغتسالاً في النهر المقدس، ولكنها تحويل لمجراه.

إن القصة الكاملة لمشاعر الإنسان، ومصالحه، وقوته، وضعفه، هي القصة الكاملة لأخلاقه.

إن الأنانية الحادة زائدة الذكاء تساوي الخلق الكريم.

إن أخلاقنا هي انعكاس رغباتنا وآلامنا على المجتمع.

أليس في المسألة رأي آخر..؟

أعتقد أن الأخلاق طاقة كأية طاقة إنسانية.. فالفكر، والعقل، والسمع، والبصر، والعضل، طاقات؛ ومثلها الأخلاق.

إن الإنسان موكب أو مجمع من الطاقات، والأخلاق إحداها. الذين يستطيعون أن يصدقوا، ويحفظوا الأمانة، ويؤدوا العمل بقوة، ويكونوا شجعاناً، وكرماء، ومهذبين، ومخلصين، ومحبين للأشياء وللناس بتفوق، لماذا يكونون كذلك..؟

هل لأنهم علموا أن يكونوا، أو لأنه قيل لهم كونوا..؟

هل الأمر حقاً كذلك.. هل الناس يبدعون الأخلاق الفاضلة المطلوبة، بالأمر والتكليف..؟

إذن، ما أسهل الأشياء.. ما أسهل الأخلاق.. إذن، ما أسهل الحياة وأرخص الفضيلة فيها.

كلنا نواجه ظروف الحياة ومشاكلها، ولكن لسنا كلنا نفهمها، أو نصنعها، أو نواجهها بمستوى واحد. لماذا..؟

لأننا مختلفون، ومختلفون في ماذا..؟

في طاقاتنا..

إن لكثير من الحيوانات، كثيراً من الفضائل التي أثارت إعجاب الإنسان والتفاته، وقد حاول أن يتعلمها، فكيف تعلمت الحيوانات هذه الأخلاق..؟

تعلمتها بالطبيعة، أي بالقدرة والإحساس الذاتي. إن الأخلاق إحساس، وتأدية، ومواجهة، وموقف. وهذه كلها تصنعها القدرة.

إن معاناتك النفسية لآلام الآخرين والحيوانات، ولأحزانهم، وتشوهاتهم، طاقة من الطاقات لا تستطيع أن تقتلها، أو أن تمنحها المزيد من التوقد والقوة؛ وكذلك رؤيتك الحادة للمواقف الرديئة والمواقف الطيبة، وللخطأ والصواب، والدمامة والقبح. وهذه كلها مواقف أخلاقية، أو تتحول إلى مواقف أخلاقية.

إذن الأخلاق طاقات، قدرات، والأوضاع والنظم والأفكار والظروف الاجتماعية توزع هذه القدرات وتلونها، ولكنها لا توجدها. أما التعاليم المثالية فلا تأثير لها على سلوكنا ومشاعرنا، وكل سلوك يقترن بهذه التعاليم فهو مجرد اقتران ليس فيه سبب ولا مسبب. إن المؤمن المتدين الذي يصدق، ويشجع، ويفعل الخير، ويحب الآخرين، ويساعدهم، ويعف عن الباطل والفحشاء، هو لا يفعل ذلك لأنه مؤمن متدين.. إنه سوف يفعله حتى ولو كان غير مؤمن، وغير متدين. إن إيمانه وتدينه نتيجة لا سبب.

إن أفعالنا الرديئة والفاضلة، تعبر عن حالتنا النفسية، لا عن أدياننا ومثلنا، أو مبادئنا، ولهذا فإننا نجد رجال الدين يخافون من الصغائر التي يحاسب عليها الدين، بينما يبتلعون أكبر الموبقات الاجتماعية والإنسانية بأقوى شهية، حتى لكأنهم لا يؤمنون بشيء ولا يحترمون شيئاً. إنهم مثلاً قد يتورعون عن لبس الحرير، وعن الذهاب إلى الملاهي، وعن مراقصة النساء، وعن احتساء الخمور، بينما ينافقون كما يصلون، أو أقوى وأكثر مما يصلون، ويتاجرون بالدين والأوطان، ويرتكبون كل أنواع الخيانات، ويبيعون الله للطغاة والأجانب، ويسجدون لكل الأصنام القوية السارقة.. إنهم يتفوقون في كل هذا على جميع المنافسين.

وكذلك يفعل الحكام المؤمنون المتدينون. إنهم قد يتورعون عن الصغائر، ويأتون كل أصناف الآثام والموبقات الكبيرة. إنهم قد يقتلون من يقول بسفور المرأة وهم يغتصبون شرفها.. إنهم قد يصلون لله ببكاء وهم يصلبون الله كل يوم أمام شهواتهم.. إنهم قد يتقربون إلى الله باجتناب الشراب المختلف فيه، ثم يعبون دون أية معاناة كل ما في الأيتام والشيوخ والشباب من دماء وحياة، في الحروب والسرقات والمظالم. وأسباب هذا التناقض أو هذا الجمع بين الورع والفجور هي أسباب نفسية واجتماعية، لا دخل فيها للأديان ولا للتعاليم.

إن الشيخ مثلاً لا يستطيع أن يرقص احتراماً للدين والفضيلة، ولكنه يستطيع أن يصدر بياناً يؤيد به أن يقتل الطاغية شعبه، ويسرقه، ويستبد به، ويسلبه كل حرية وكرامة.. إنه يستطيع دون أي خوف من الله، أو احترام له، أن يشارك الطغاة في سرقة الناس، وخداعهم، وإذلالهم، وسوقهم إلى الحروب الظالمة، وتحويلهم هم وأولادهم وأموالهم إلى مغانم، آخذاً كل نصيبه من ذلك، باحثاً عن المزيد، ولكنه يخاف الله أن يشاركهم في ملاهيهم، وعربداتهم الصغيرة.

والشيخ الذي يقف هذا الموقف المتناقض لا يفعل ذلك نفاقاً فقط، إنه يفعله نفاقاً، وأيضاً خضوعاً لظروفه النفسية. وليست الأديان ولا التعاليم هي التي تصنع ظروفنا النفسية، بل إن ظروفنا النفسية هي التي تتحكم في تفسيرنا للأديان والتعاليم، وفي تصرفنا إزاءها، واتخاذنا أحد المواقف منها.

*

وهذا الالتفات القوي إلى التفكير في الموت وانقضاء العالم.. هذا التفكير في أهوال الجحيم، وفي انتظار الله للناس لكي يوقع بهم أشد الأهوال، ما هي بواعثه في طبيعة هؤلاء..؟

أهي قوة في دينهم، أم ضعف في حياتهم.. هل هي رهبة الله، أم رهبة الحياة..؟

إن المحتمل جداً أن حنينهم الدائم إلى تذكر الفناء والتحدث عنه وعن أهوال الغيب، سببه عجز الحياة فيهم. إن الحياة ليست بكل احتمالاتها ومستوياتها ربحاً ومسرة. إنها فن من الفنون وتبعة من التبعات؛ فإذا لم يجد هذا الفن وسائله، وتخفف هذه التبعة عن حاملها، أصبحت الحياة حملاً ثقيلاً رهيباً يطيب الفرار منه. ولكن التعبير عن الرغبة في الفرار جاء هنا غامضاً متوارياً. لقد جاء كالتعبير بالاحتلام وبالأحلام.

إن أشد الناس حنيناً إلى الموت والعذاب.. إن أشدهم تحدثاً عن الموت والعذاب هم أشدهم بؤساً وعذاباً، مع أن هؤلاء يكونون أخوف وأجبن، فهم يخافون الشقاء ويتحدثون عنه، ثم يجبنون عن الفرار منه. أما الأقوياء السعداء في حياتهم، فلا يذكرون المنغصات، ولهذا فإنهم لا يبالغون في خشيتها والفرار منها، فلا يصبحون جبناء، فلا يتحدثون كثيراً عن المخاوف.

إن الذين جاؤوا الإنسانية بالآداب، والأفكار، والتعاليم الحزينة المريضة، إنما كانوا من المرضى والمحزونين والمتعبين. لقد اندفعوا يصبون آلامهم في تصوراتهم العنيفة المتعذبة المعذبة. إنهم لو كانوا سعداء وأقوياء لجاءت تعاليمهم مماثلة. إن أعصاب البشر هي الجهاز المكيف لكل ما يعطون من أفكار وتعاليم، ولكل ما يمارسون من ذلك. إن الألم في الحياة يصنع الألم في التفكير، ويصنع الألم للتفكير.

أسحر هي، أم صناعة..؟

والتفكير العربي تفكير لاهوتي.. إنه يفسر كل شيء سواء أكان ساراً أم فاجعاً، تفسيراً لاهوتياً، ثم يحاول أن يعالجه لاهوتياً أيضاً.

إن كل الأحداث، أحداث الكون والإنسان وأحداث المجتمع، إنما تحدث بأسلوب لاهوتي، وتتغير بأسلوب لاهوتي، وتفهم فهماً لاهوتياً. إذا هزمنا أو انتصرنا، إذا قوينا أو ضعفنا، إذا رشدنا أو ضللنا، فلجميع ذلك تفسيرات لاهوتية. إنه لا يمكن فهم الحياة، أو الكون، أو الإنسان، أو الأخلاق، أو النظم الاجتماعية، أو فهم أي شيء، مفصولاً عن الأسرار والقوى الخارجية الغيبية.

حينما كانت النذر الشريرة تنذرنا بأن كارثة فلسطين توشك أن تقع، كنا نتصايح في كل مكان، وفوق كل منبر، وعلى كل لسان، بأنه قد حكم في هذه القضية حكماً لاهوتياً لن يتغير مهما كانت الظواهر الأليمة. وبعد أن وقعت الكارثة، رحنا نفسرها تفسيرات لاهوتية. وهكذا نفعل في جميع تجاربنا المريرة والسعيدة أيضاً.

إن التفسير للأحداث بالتصورات اللاهوتية، يعجز عن فهمها فهماً فكرياً ومادياً. إننا إذا

حللنا أي حدث من الأحداث فلن نجد فيه غير المادة والفكر. ولكن هل نجد في أي شيء، في أي حدث فكراً..؟

هل نجد في الأحداث والأشياء غير المادة..؟

هل نجد في المادة شيئاً غير المادة..؟

أليس الفكر فينا، لا في المادة، ولا في أي شيء..؟

إن الفكر هو تفسيرنا للمادة، وللأحداث، والأشياء، وليست المادة، أو الأشياء، أو الأحداث فكراً.

فالذين يبحثون عن القوى الروحية في الأحداث التي تناسبهم، أو التي تمزقهم، إنما يبحثون عن عالم غريب لا وجود له. إنهم سيستمرون يبحثون دون أن يجدوا ما يبحثون عنه، أو من يقول لهم كفوا عن البحث، لأنهم لن يجدوا شيئاً ولن يتعبوا من التعب.

بين الاتجاهات الروحية والفكرية على طاقة الإنسان تزاحم وتناقض. فالذي يرى الروح في كل شيء، ينتهي به الأمر إلى ألا يرى الفكر في شيء، أو يجب أن ينتهي به كذلك؛ والذين يعتقدون أن القوى الروحية مسيطرة على قوى المادة، ينتهون إلى ألا يثقوا بشيء، أو يجب ألا يثقوا بشيء من المادة وقواها، إنهم على كل حال لا بد أن يضعف إيمانهم بها. والشعوب التي تصعد في روحانيتها، تهبط في منطقها وواقعها. إن هذا هو المفروض، فهل المفروض هو الذي يقع دائماً..؟

إن اللاهوتية هي مرحلة متوسطة في وجود الإنسان، إنها ليست بدايته ولا نهايته. ولهذا فإن الأطفال، والمتأخرين، والنساء أقوى إحساساً لاهوتياً من الآخرين. لقد كان الإنسان غير لاهوتي، ثم أصبح لاهوتياً، وأخيراً سوف يخرج من اللاهوتية.

إن بين اللاهوتية والتفكير تناقضاً واختلافاً أصيلين في طبيعتهما. إن طبيعة التفكير طبيعة منطقية، قانونية، متسلسلة، لها مقدمات ونتائج. إنها تفترض دائماً سائلاً ومسؤولاً.. إنها تفترض دائماً تفسيراً لما يحدث، تفترض دائماً أسباباً تُسأل وتناقش بقسوة؛ بل إنها تفترض دائماً أسباباً تحاسب، بل وتعاقب. أما طبيعة اللاهوتية فاستبدادية غاشمة ضاربة في كل اتجاه، ليس لها منطق ولا قانون ولا أسباب. إنها لا تسأل عما تفعل، ولو سئلت لما أجابت، ولما كان لها أن تجيب، إنها لا يمكن أن تجيب. إذن، كيف تسأل..؟ إنها لا تسأل..

إن الأحداث ليس لها تفسير لأنها بلا قانون، لأنها إرادة، لأنها إطلاق.

إن اللاهوتيين ينظرون إلى الشيء التافه في أيديهم. فينتظرون أن تضع فيه الأرواح من النفع والبركة والقوة ما ليس في أضخم الأشياء. إن التاجر العاجز المفلس ينطوي أحياناً على

ثقة بالأرواح تجعله يظن أنها قد تغير وضعه كله بكلمة أو بنظرة، فيصبح بلا أسباب من ملوك المال والأعمال.. إنها تعطي بلا حساب، وتفعل بلا عقاب أو منطق.. إنها نوع من الجنون.. إنها جنون أصبح مقدساً.

لقد خلقت اللاهوتية الفكرية اتجاهاً معادياً للعلوم البشرية، ساخراً منها، محتقراً لها، كما أوجدت انصرافاً عن فهم الأشياء إلى الغموض والكتب المقدسة والأساطير لتفسر بها الكون والحياة، لتجد فيها جميع المعارف والاحتياجات العقلية.

إن من أروج الكتب في العالم العربي الكتب التي تفسر الدين على أنه اكتشاف كامل لكل الحقائق في كل العصور. إن الكتب التي تجد في الدين كل ما يحدث، وكل ما لن يحدث، وكل موجود وكل ما لن يوجد، وكل إنسان، وكل غير إنسان، وكل معرفة، وكل اكتشاف، وكل زلزال، وكل بركان، وكل وباء، وكل سرور، وكل كآبة، هي أعظم الكتب في العالم العربي.

إنه إذا وجد بيننا كاتب مجنون، أو كذاب مضلل، فزور كتاباً يدعي فيه أنه قد وجد في نصوص الدين كل جنون الكون وقوانينه، وكل علوم البشر واكتشافاتهم، وكل أحزانهم ومسراتهم، فإن مثل هذا الكاتب البذيء الكذاب سيجد نفسه فجأة محسوداً بين كبار الكتاب.

إن أفجع من هذا، أن رجالنا الكبار الذين يتفردون وحدهم بامتلاك شؤوننا العامة يحاولون دائماً أن يجدوا حل كل مشاكل العصر الحديث الكبرى في التاريخ المأثور، القائم على اللاهوتية. إنهم يريدون أن يخضعوا عصر المركبات الكونية لعصر الجمل. هم يفكرون وينادون هكذا، مهما خالفوه في تصرفهم..

المؤمنون باللاهوتية يتأخرون جداً في الإيمان بالحضارة، وبالمزايا، والابتكارات التي تصنعها الحضارة. إنهم لا يؤمنون بالحضارة التي يصنعها الآخرون إلا بعد أن يصبح الكفر بها جنوناً عظيماً لا تستطيع أن تغفره، ولا أن تعالج منه المصحات العقلية.

إن البشرية المتحضرة لتحتاج إلى قوى هائلة لكي تستطيع أن تسحب وراءها هؤلاء اللاهوتيين الذين يرفضون أن يؤمنوا بالحضارة، ويعجزون عن ابتكارها. لقد أدلوا على العالم وعلى الله كثيراً يوم أن أعلنوا إيمانهم بأن السيارة، والطيارة، والتليفون، والراديو صناعات إنسانية، وليست سحراً ولا كفراً، وإن أصروا على الإيمان بأنها من علامات الساعة، وأن الله لم يسمح للبشر أن يبدعوها إلا بعد أن فرغ منهم وتخلى عن الأرض وعمن فيها، وحينئذٍ تركهم يفعلون ذلك وكأنه يعاقبهم بما يفعلون. وقد كان إدلالهم عظيماً حينما سمحوا مشكورين بدخول هذه الصناعات إلى بلادهم، ثم باركوها باستعمالهم لها، وإن

كان استعمالهم لها قد جاء عقاباً للحضارة واحتجاجاً عليها وتحقيراً لها. إن الحضارة لو كانت كائناً رافضاً أبياً يحترم كرامته ويحسن الاشمئزاز من الأشياء الدميمة لمات غيظاً وشعوراً بالهوان لاستهلاك كثير من الناس له.. إن الحضارة كائن بلا كرامة، وبلا غضب.

إن الصغار جداً، الذين لم يبدعوها ولم يفهموها، ليحتقروها كل ألوان التحقير، يحقرونها باستعمالهم إياها، وبتكبرهم عليها، وبتشويههم لها، وبتطاولهم على مبدعيها، وببذاءاتهم باسمها، وبادعائهم أبوتها.. إنهم يحقرونها بكل ذلك، ويحقرونها بأساليب أخرى، دون أن تغضب، أو تدافع عن كرامتها. إن الحضارة بلا غضب وبلا كرامة.. إن الحضارة معتدى على شرفها دون أن تقاوم أو ترفض.

ولقد كانت خطوة تقدمية لا تنسى يوم ألّف أحد أعلام مجتمع يعيش على اللاهوتية كتاباً كان عنوانه «القول الفاصل في الساعة، أسحر هي أم صناعة».

وكان يعني بالساعة ساعة الوقت، وخلاصة هذا الكتاب أنه يوجد في المسألة رأيان للعلماء والمؤمنين.. رأي يقول إن الساعة حرام، وأن استعمالها حرام لأنها سحر، ولأنها من عمل الشيطان. والرأي الآخر التقدمي يقول إنها صناعة، وأن استعمالها جائز وحلال مع الاستغفار والاستمساك بتقوى الله. وقد اختار المؤلف الرأي الأخير؛ وقد جاء هذا الاختيار تحت ضرورات سياسية، ولولا ذلك لما كانت حلالاً.

لقد كانت الدولة تريد أن تكون الساعة حلالاً، لهذا جاءت الفتوى محللة لها. وقد كانت خطوة هذا الشيخ التقدمية حينما أحل الساعة تفوق في تقديره وتقدير المجتمع الذي كان يعيش فيه الصعود إلى القمر، بل تفوق نفس اختراع الساعة، بل لعل تلك الفتوى أنها كانت في خطورتها وجرأتها من مثل ذلك الشيخ، تساوي إعلان موت الإله.

ودائماً يجيء اعتراف اللاهوتيين متأخراً جداً. إنهم يظلون مستمسكين بالجحود والتحريم، حتى يصبح ذلك الشيء الذي يرفضون الاعتراف به قديماً، قديماً جداً. فالفكر اللاهوتي لا يكون مبدعاً ولا صديقاً للمبدعين. إنهم يذهبون يتنادون بالإنكار والاستفظاع كلما سمعوا الحديث عن مستقبل الإنسان والعلم، وعن احتمالاته التي لا حدود لها. والمثقفون أنفسهم يشتركون في حملة الإنكار والاستبعاد. إن اللاهوتية تعوق دائماً الفكر عن الحركة.

كم هي احتمالات الموهبة الذهنية التي أنفقت على مر العصور في دراسة العلوم اللاهوتية.. كم خسرنا بهذه الدراسات من طاقاتنا الفكرية الهائلة.. ماذا لو أن هذه الاحتمالات للعبقرية وجهت توجيهاً صحيحاً، وصرفت في وجوه المعرفة الإنسانية..؟

لو أحصينا أعداد الرجال الذين كان من المحتمل أن يكونوا موهوبين، والذين وضعت جميع احتمالاتهم العقلية في دراسة العلوم الغيبية، ووضع الشروح والتفاسير والتأويلات لها،

ثم افترضنا أنه كان من الممكن أن يتجهوا باحتمالاتهم نحو دراسات وموضوعات إنسانية؛ إننا لو فعلنا ذلك وتصورنا الموقف بكل احتمالاته، لصعقنا شعورنا بالخسران، وبكثافة الغباء.

إنها لمن أعظم الآثام في التاريخ الإنساني، أن يصرف المؤمن من حياته القصيرة التي لم تهبه الطبيعة سواها، عشرين عاماً أو أكثر في تعلم مبادىء اللاهوتية، ثم بعد هذه العشرين العام، يصرف باقي عمره في تعليم الآخرين المبددين سفهاً مثله، لتلك المبادىء اللاهوتية نفسها، إلى أن يتجمع من هؤلاء المتعلمين والمعلمين في أماكن التجمع الضائع، فيضان هائل ليزحف على القرى والمدن، ليغرقها بالموت والسكون، والتعصب ضد الحضارة والذكاء والتسامح، وضد الإنسان.

ما هي هذه الثقافة اللاهوتية التي يجند لها كثير من شباب العرب بأسلوب فيه كل فدائية الجنون..؟

إنها دراسات عقيمة لموضوعات عقيمة.. إنها أسلوب فظيع من أساليب الانتحار.. إنها انتحار للعقل.. إنها انتحار للإنسان، لكل احتمالاته القوية.. إنها نوع من فقء العيون عن الرؤية.. إنها إسكات للاحتجاج، والغضب، والفهم.. إنها إغلاق بين الكائن وظروفه.. إنها تجريد للكائن من سلاحه أمام ظروفه العدوانية.. إنها دراسات لا تلتقي بفكر الإنسان، ولا باحتياجاته، ولا بعواطفه.

إن الذين وضعوها كانوا قوماً متخلفين في ثقافتهم، وحياتهم، وأوضاعهم، وأفكارهم، وظروفهم.. كانوا حينما وضعوها محكومين بظروف نفسية، وفكرية، ومادية، متخلفة جداً.

كانوا في وضعهم لها كأنما يحتجون على أنفسهم.. كأنما يعاقبونها.. كأنما يهربون منها.. كأنما يفسرونها.

ولهذا، فإن الذين يتخصصون في هذه الدراسات، يتكيفون تكيفاً نفسياً وعقلياً رهيباً، موحشاً، منفصلاً عن الحياة، وعن العصر، والمجتمع اللذين يعيشون فيهما. إنهم لا يستطيعون أن يتوافقوا مع عصرهم، إلا بقدر ما يتخلون عن هذه التعاليم. إنهم يصبحون خصوماً للبشر، ولما لديهم من مباهج، وإبداع، وقوة. وكلما تنكروا لما تعلموا، استطاعوا أن يعيشوا مع الآخرين، ومع الطبيعة، وإذا توافقوا مع تعاليمهم، كان كل ما يصنعونه ويحسنونه أن يصعدوا فوق المنابر يلعنون الإنسان، وثقافاته، ونظمه، وقوانينه، وآثامه الطيبة الجليلة التي لا يستطيعون الاستمتاع بها، ولهذا فإن خير هؤلاء هم المنافقون الذين لا يصدقون ما يقولون.

إني لا أحمل حقداً على هؤلاء، بل صداقة ورثاء. لقد كانوا ضحايا بريئة، ثم أصبحوا وكأنهم يعاقبون يصنعون لنا ضحايا أخرى بريئة. إنهم مظلومون قبل أن يصيروا ظالمين..

إنهم كما عُلّموا يعلمون، والذنب شركة بين الذاهبين والحاضرين، بين الأمس واليوم. لقد كانوا مظلومين، وعُلموا أن يكونوا ظالمين.

إن تعليم المرء أن يكون ظالماً نوعٌ خبيث من الظلم له.. إن تعليم الظلم أبشع أساليب الظلم.. إنه أكثر من الظلم. إننا إذا علمنا إنساناً أن يكون ظالماً فقد ظلمناه بقدر ما يتعلم من الظلم، وبقدر ما يمارس من الظلم، وظلمنا كل من يمارس ضدهم ظلمه، بقدر ما يظلم ويكرر ظلمه.

ما أكثر الذين يُعلّمون الظلم. إنهم أكثر دائماً من الذين يُظلمون. إنهم أظلم، أو أكثر سوءاً أو ذنباً من الذين يظلمون. إن تعليم الظلم، فن شرير تمارسه كل المجتمعات، وكل التاريخ، وكل التعاليم والمعلمين.

أخيالٌ، أم أشباح..؟

الخيال هو المرآة السحرية التي تعكس صور المستقبل الذي لم يوجد بعد. إن أقدر الشعوب على تخيل المستقبل هي أقدرها على إيجاده. كما أن أقدرها على الايجاد هي أقدرها على التخيل.

إن المفروض أن الخيال كرسوم وخطوط المهندس، بقدر ما تكون هذه الخطوط والرسوم، يكون العمل.. إنها لا بد أن تسبقه.

الذين يفقدون الخيال هل يمكن أن يبدعوا شيئاً..؟ إن الخيال هو المعنى الكبير في حضارة الإنسان وقوته. إن الخيال هو الفكرة، والحماس، والشوق، والتصميم. إن الخيال هو قوة الإغراء العظمى، التي ألهمت الإنسان كل مستقبله وحضاراته.

والخيال العربي خيال فقير، مقعد، لا يملك أجنحة بل ولا أقداماً.

وهل يوجد خيال عربي أم توجد أشباح، ومخاوف، وتوترات نفسية وشعورية..؟

إن العرب لم يصنعوا صوراً خيالية للمستقبل، وإنما خافوا المستقبل وتوهموه آلاماً، وفساداً، وضعفاً، وموتاً، وخراباً، ثم عذاباً، وآلهة، وشياطين، ونيراناً. لقد كان العرب يخافون المستقبل ويعبدون الماضي. لقد كانت عبادة الماضي تعبيراً عن الخوف واليأس من المستقبل، وكان اليأس والخوف من المستقبل هما قمة العجز في الخيال.

إن الخيال المبدع لن يرى الماضي أفضل من المستقبل، إذن من يملك خيالاً مبدعاً لن يهرب من المستقبل إلى الماضي، لن يعبد الماضي، ويلعن المستقبل. إن العرب لم يصنعوا صوراً خيالية واضحة لحكم، أو لنظام، أو لمذهب، أو لحياة، أو لتفكير أفضل، أو لإنسان أفضل في المستقبل. إنهم لم يعطوا صورة ما لمستقبل سوف يكون.

كانت أعلى صورة في خيالهم للمستقبل هي الفناء للعالم، ثم الحكم على الإنسان بالجنة أو النار ليعيش في كسل، وفراغ، وتفاهة لا حدود لها، أو في أهوال لا مثيل لها في البشاعة. ولن توجد عقوبة للإنسان أعظم من اعتقاله في الجنة، مفرّغاً من جميع الاهتمامات الإنسانية، أما اعتقاله في النار فهذا شيء فوق كل خيال، ومنطق، وتصور أخلاقي. الاعتقال في النار أبد الآباد قصة تحتاج كل مستويات البشر العقلية، والأخلاقية، والعاطفية إلى الانتحار مرات، مرات؛ لكي يستطيعوا تصور ذلك.. فكيف قبوله.. فكيف اتهام الله به..؟

إن الإنسان ليحتاج في أحيان كثيرة إلى الخروج من كل مستوى إنساني لكي يستطيع أن يقول، أو يعتقد، أو يفعل شيئاً.. ليقول، أو يعتقد، أو يفعل شيئاً ينادي به من فوق كل المنابر، ويعلمه بزهو، المعلمون الخالدون. وقصة الجنة والنار، هي من الأشياء التي لا يستطاع تصورها بدون خروج على كل مستوى إنساني.

وموضوع الخيال ثم الصورة الخيالية التي ترسمه، لهما دلالات كبيرة؛ فالشعوب المعافاة السوية التخيل، تكون موضوعات خيالها، موضوعات هدفها ومكانها الحياة، تأخذ مادة صورتها، وتأخذ ظلالها وأضواءها ومشاهدها، من الوجود نفسه بعد التسامي به. فالمتخيل السوي لا ينتزع نفسه من الوجود الذي يعيش فيه، ولا يصنع عجينة تمثاله الذهني إلا من التربة التي يحيا فوقها. أما الخيال المريض فإنه يهرب بنفسه وموضوعاته وتماثيله إلى عالم آخر، ليست له طبيعة كونية أو إنسانية. وحينئذٍ يتيه ويحترق كما يحترق النجم إذا ضل طريقه، أو خرج عن مداره.

إنه لمن الصعب التفريق بين الخيال والتفكير. فالمفروض في الخيال أن تكون له مقدمات أو شواهد، وهذه هي طبيعة التفكير. وإذا لم تكن له مقدمات ولا شواهد، كان اختلاجاً وتشتتاً، ولم يكن خيالاً.

إن الخيال ليس انطلاقاً أو خروجاً فقط، وإنما هو انطلاق نحو شيء أو بحثاً عن شيء.

إن الخيال ليس أن نتحرك فقط، بل أن نتحرك في طريق أو احتمال طريق. فالخيال السوي هو إذن الذي تصنعه المقدمات والشواهد، هو الذي تصنعه الرؤية البعيدة، الرؤية من وراء الحدود ومن فوق الحواجز المختلفة الحاضرة.

إن الخيال بهذا قسم من التفكير، من التفكير الذي تجيء نتائجه أوسع أو أقوى من مقدماته.. أي أن المقدمات تعجز عن الاتساع للنتائج، أو تعجز عن ضبطها وتحديدها. ودائماً النتائج أوسع وأكبر من كل المقدمات.

إن نتائج حياة الإنسان والنتائج التي تهبها الطبيعة، هي دائماً أوسع وأكبر من المقدمات التي يصوغها الإنسان، أو التي يراها الإنسان، أو التي يحياها الإنسان.

إن الإنسان كنتيجة، هو دائماً أكبر من الإنسان كمقدمة.

والتفكير العادي لا يجوز أن تكون نتائجه أكبر من مقدماته. والعادة أن الناس يستدلون بمقدمة ما، على نتيجة ما. أما الوصول إلى نتيجة ما، ثم البحث عن المقدمة التي تثبتها، فهذا هو المثل الأعلى للخيال الخلاق.

إن أحسن مثل لهذا، هو تلك الرؤية الغيبية التي برقت في الذهن اليوناني حينما أعلن عن وجود عالم الذرة. لقد كانت هذه الرؤية خيالاً، لأن المقدمات التي كانت موجودة في ذلك الزمن، أضيق من أن تتسع لها أو تهدي إليها. إن الإنسان كلما يتقدم في ميادين العلم والحضارة ازداد خياله قوة واتساعاً، لأن العلم والحضارة يبعثان الخيال ويعمقانه. إنهما كالمقدمات له على ما وصف، والعكس أيضاً صحيح. فالعلم يصنع الخيال، والخيال يقدم العلم. ولو كانت توجد حيلة أو وسيلة لتوسيع الخيال وتأجيجه وإطلاقه، لكان هذا من أعظم واجبات الإنسان والعلم.

ليت البشر يستطيعون أن يقيموا معاهد ونوادي لتعلم الناس الخيال، وطرق اكتسابه، والتصعيد به..

ليته يوجد معلمون يعلمون الخيال، كما يوجد في كل عصر معلمون يعلمون الغباء والهوان.

للخيال العربي عيبان: عاجز في طاقته، منحرف في موضوعه.

فمن الناحية الأولى نجده عاجزاً عن تخطي واقعه الذاهب في أعماق التاريخ الأليم، وعن اجتياز الأسوار الكئيبة التي تحده وتحاصره. وبهذا العجز ظل مستكيناً تحت نقائصه، ومظالمه، وتفاهاته المختلفة، يتلقاها بصبر مذهل. إنه لم يستطع أن يتخيل صوراً للمستقبل، أو لما يمكن أن يكون أفضل مما لديه. إنه يرضى بكل المساوىء والآلام التي يحياها. إنه يذهب يقاتل من يحاولون أن يفوتوا عليه آلامه ونقائصه. إنه ليرضى بأدنى مستويات الحياة، وبأفسد النظم، وأشدها طغياناً، وبأظلم الحكومات وأغباها، دون أن يتحرك في خياله أن من الممكن الظفر بخير من ذلك. إنه لهذا يستعظم الصغير، ويعجب بما لديه من تفاهات ومبالغات، فزعماؤه الزائفون الأغبياء، وحكوماته الجاهلة المستبدة. وكفاياته المفقودة، وقواه السياسية والعسكرية المبتدئة، وإنتاجه وكل ما بين يديه من ضعف.. كل ذلك يملأ نفسه غروراً وإعجاباً ضاجاً بالمسرات. إنه يرى في كل ما عنده، ما لا يمكن أن يملك الآخرون مثله. إن الجزء الذي يملكه من الإله، أو من الشمس، هو أفضل وأجمل أجزائهما. بل إن الله والشمس لم يكتسبا بهاءهما وقوتهما إلا لأنه يؤمن بهما، ويواجههما، ويتعامل معهما.

إنه حينما يبصر قليلاً من الطائرات المستوردة تزعج سكون سمائه، أو قليلاً من المدافع

المصوبة إليه هو، أو شيئاً من الدبابات المشتراة بقوته، والتي من المظنون ألا تستعمل إلا في الاستعراضات، أو في ترويعه هو، أو مجموعات من الجنود المسحوقين المرضى يحملون البنادق المثقلة لكواهلهم المتعبة، وفوق رؤوسهم الخوذات التي يحسبونها من سلالة المغفر أو الدرع التي كان يلبسها خالد بن الوليد.. إنه حينما يبصر ذلك، يذهب يؤمن أنه الأعز الأوحد في هذه الدنيا الواسعة.

وقد يذهب حينئذٍ، يفخر على الشمس لأنه اشترى سلاحاً لا يتكافأ معه في الذكاء، أو الجودة، أو الشجاعة، أو النسب..

حتى أنهاره، وأمطاره، وأرضه، وجباله.. حتى خرافاته، وأكاذيبه، ولغته، وآلهته، هي أجمل وأعظم ما خلق الله.

إن إعجابه بما عنده ليذهب يريه أنه الشمس التي تدور حولها عبقرية الكون وضمير السماء، والتي تسجد تحتها بتواضع كبير قوانين الطبيعة.

إن أكثر الناس إعجاباً بأنفسهم هم الذين لا يرون سواها. إن الخيال المبدع هو عدو الغرور، هو عدو الاستسلام للألم والهوان. إن الخيال المبدع يرفض الغرور، ويقاوم الاستسلام، لما يمكن رفضه وتجاوزه.

وأما الناحية الأخرى في الخيال العربي وهي انحراف موضوعه، فإن هذا النوع من الخيال يشبه تصورات المريض الخائف. إنه يتصور أشباحاً ومخلوقات غريبة، مركبة تركيباً عجيباً. إنه يتصور ملائكة، وشياطين، وآلهة، يوزعون الأوامر ويزحفون على أهل الأرض وفوق مناكب النجوم. إنه يتصور جحيماً، وزمهريراً، وأصفاداً وأغلالاً، وأوهاماً متوحشة من الأمراض ومن القوى الغيبية المترصدة. إنه يتصور غير ذلك، مما يصنع الشخصية المعذبة القلقة وتصنعه. إنه يتصور إلهاً لا مثيل له في الوحشية والكآبة، لا مثيل له في الظلم والقسوة والخروج على كل منطق، لا مثيل له في الكره والبغض، لا مثيل له في رخص الانفعالات، وسرعتها، وتقلبها، وتفاهة مسبباتها وفظاعة نتائجها. وهذه التصورات ليست امتداداً ولا تسامياً بالطبيعة، كما هو المفروض في الخيال المبدع.

فالخيال العربي لا يأخذ من الدنيا المحيطة به مادته ومشاهده ليخلق منها دنيا أسمى وأكبر، كما يفعل الرسام العظيم؛ ولكن مركباته النفسية والاجتماعية، والاعتقادية والوراثية، ومخاوفه هي التي تصنع خيالاته الأليمة المتوحشة، الفاغرة أفواهها هولاً ونكراً.

إنها لن تكون إذن إلا رهبة من الحياة، وردة عنها، وكرهاً للمستقبل والإنسان. إنها ستكون ناراً، وصيحة، وصاعقة، وغضباً، ووباء، وطوفاناً، ونفاداً في قوى الخير، وضراوة في مصادر الشر.

وهكذا تتحاشد هذه التصورات الشريرة، حتى توجد مجتمعات لا يومض في خيالها غير النار والدماء، والانتقام السماوي، وغير الآلهة الغبراء العابسة، الفاتحة أفواهها، ولا تتنفس سوى السخط واللعنات. إنها حينئذٍ لا بد أن تجدّ في مطاردة الحياة، كما تبادلها الحياة التحية بمثلها.

إن الخيال الشرير هو أصرم جزاء يتلقاه إنسان اضطربت في يديه موازين نفسه.

•

هل يتغير الخيال ما لم تتغير الحياة. هل تتغير الحياة قبل تغير الخيال..

الذين لم يروا النهار والأزهار، هل يتخيلون كل ما فيهما من جمال ونور وكبرياء..؟

إن حياة الشعوب العربية، ليس فيها القوة الملهمة للخيال العظيم. كيف يستطيع هؤلاء الناس من صناع، وزراع، وعمال، وجماهير؛ كيف يستطيعون أن يرضوا بحياتهم الجرذانية..؟

كيف لا يختنقون أو ينتحرون في أحيائهم الأليمة المكتظة بالظلام والحشرات، والبؤس والجهل، وبالآلهة الغبية الكالحة..؟

ما هي الرقية العجيبة التي تلهمهم الصبر والاحتمال والعزاء..؟

إنهم قوم لا يتخيلون، إذن لن يسخطوا أو ينكروا، أو يحاولوا التغيير أو الارتحال. إنهم لا يرون شيئاً هو أفضل مما هم فيه.. إنهم لا يرون، لا يرون بعقولهم ولا بأبصارهم. إنهم لم يروا الشمس فكيف يبحثون عن النهار أو يشعرون بأنه قد مات. إن العميان لا يستطيعون أن يكرهوا وجوههم مهما كانت دميمة، أو متوقحة، أو مشوهة.

منذ سنوات نشرت إحدى الصحف الكبرى في بلد عربي كبير، نصيحة موجهة من رجل كبير إلى الحكومات العربية؛ يطلب فيها ألا يسمح للعمال العرب بالسفر إلى البلاد الأجنبية.

قال: «لئلا يروا الحياة هناك فيطالبوا بمثلها».

هل تصدق أن أحداً قال هذا..؟

صدق، أو احترم عقلك وارفض أن تصدق. ومهما كان موقفك، فلقد قيل هذا، ونشر في صحيفة كبرى.

ولكن هل الرؤية وحدها تكفي دائماً لإيجاد الحوافز الفاعلة عند الرائي..؟

قد تكون هناك موانع اعتقادية، أو فكرية، أو نفسية، أو تاريخية، أو موانع أخرى.

وقد اجتمع للشعوب العربية الأمران: دمامة الأوضاع الاجتماعية التي تهبط بالخيال إلى الحضيض، وتحرمه من رؤية النماذج الموحية. والموانع الاعتقادية، والنفسية، والفكرية، والتأريخية التي تعوق هذا الخيال عن التحليق.

فالثقافة التي تغذي خيال هذه الشعوب ثقافة قبور وأشباح، تطفىء كل خيال مضيء، وتضرب في تيه الخيالات السوداء الضالة، وتحصر المؤمنين بهذه الثقافة في مساحة، حدودها الوباء، والقحط، والخوف، والموت، والجحيم، والأبالسة، والأرباب الغضبى المرضى.

إنه من الصعب أن نعرف كيف تكون خيالات قوم امتداداً للحياة وصعوداً بها، وخيالات آخرين ارتداداً إلى الموت والهدم وتجسيماً للألم. ولكن من الممكن أن نعرف أن الخائفين والمتعبين والمرضى، هم في الغالب ذوو خيالات مرتدة هادمة أليمة، وأن الخيال السليم هو عطاء الحياة السليمة.

إن القصة الكاملة للحضارة، هي القصة الكاملة للخيال المتجاوز لواقعه. ومع أن للخيال كل هذه المزايا في أحد أسلوبيه، أو في إحدى طبعتيه، فإن له مزايا مضادة. إن الخيال في أسلوبه الآخر أو في طبيعته الأخرى، وحش هائل يقتات بروح الإنسان ويملؤها بالأعداء والأبالسة، وبالهموم والآلام، وبكل المخاوف والأهوال الرهيبة، وبالأوهام الغبية.

إنه يقتلها بالخوف ويفسدها بالضلال، إنه يحرمها من الشعور بالأمن والاستقرار، ومن الذكاء ومن الرؤية للأشياء كما هي، ومن تفسيرها بمعناها، ومن الحكم عليها كما تبدو.

ما أكثر ما عاقب الإنسان نفسه وحاربها بالخيال المتوحش المفترس البليد. إن الخيال بمعناه المضاد، يعني أن يملأ الإنسان نفسه، يملأ كل غرفها، وطرقها، وميادينها، بالجيوش المعادية المحاربة المتوحشة. إنه يحول كل شيء إلى عدو وخوف.

تغذ بالجيف

والقدرة على النقد، هي الموهبة اللازمة لكي يستطيع الفرد والجماعة أن يتكيفا ويكيفا الأحداث الواقعة والمنتظرة تكييفاً يمنع من الاصطدام بها، ويهب السلامة الممكنة؛ كما يهب الرغبة في التغيير والقدرة عليه.

إن النقد هو رؤية الأشياء رؤية فكرية، رؤية بلا أبعاد، رؤية تمكن من الحكم عليها سليماً وسريعاً من حيث الإمكان والاستحالة، والخطر والأمان، والنفع والضرر، أو من حيث الدوافع والغايات. أما الذين لا يملكون هذه الرؤية، فكم هم حريون بأن يصبحوا أهدافاً سهلة للأخطاء والمضللين ولأنفسهم أيضاً، وبأن يعجزوا عن رؤية الأحداث في دروب الماضي والحاضر والغد، بل بأن يعجزوا عن رؤية أنفسهم في هذه الدروب المتداخلة.

إنه لا يوجد ما هو ألزم لسلامة الفرد والجماعة من موهبة النقد. إنها لازمة للجماهير بقدر ما هي لازمة للقادة.

إن التاجر الذي يمنح حسه المرهف لانفعالات السوق وتوتراتها، محتاج إلى موهبة النقد مثل احتياج الزعيم، أو الحاكم، أو القائد الذي عليه أن تدرك حاسته الناقدة أين يكمن الخطر، وتوجد السلامة؛ الذي عليه أن يكون كمقياس الحرارة يتغير دائماً، ويسجل حالات الطقس، وينخفض ويرتفع باستمرار.

إن الخطو بين الأحداث والتعامل معها، مثل الخطو بين الأجسام والتعامل معها. هل يمكن السير بين الأجسام القاتلة والواقفة في الطريق بدون رؤية.. هل يمكن التعامل مع الأحداث المضادة والمتناقضة، والسير بينها، بدون موهبة ناقدة..؟

إن النقد هو الرؤية الفكرية. إن حاجة الإنسان إلى الرؤية الفكرية ليست دون حاجته إلى الرؤية البصرية.

هل تبقى حياة بلا رؤية عقلية..؟

هل الرؤية البصرية شرط في بقاء الحياة..؟

ما أسرع ما تخدع وتصدق الخديعة هذه الجماهير التي ترزق فيضاً عظيماً من الغرارة الفكرية.

ما أعظم ما تيسر على المستغلين، والمضللين، والطامعين، أعمالهم الخادعة ضدها.

إن أعظم الآلاء التي تهديها الحياة إلى السادة القادرين هي هوان ملكة النقد في المجتمع الذي يحكمون. إن المجتمع الذي يفقد موهبة النقد لهو أفضل قطيع. إن فيه من المزايا لمن يحكمه أفضل مما في أي قطيع.

إن تشييد مدرسة واحدة تعلم صحة الحكم على الأشياء، وتنمي موهبة النقد، لأفضل جداً من كل المدارس التي تعلم القراءة والكتابة والكتب، وتعلم أيضاً التصديق بلا مقاومة. إن التعليم بجميع مراحله لا قيمة له، إذا كانت كل غايته أن يعلم فهم النصوص دون أن يمنح عقلاً ناقداً محارباً. إن أخطر ما في التعليم أنه أحياناً يعلم عبادة الحرف، وعادة التسليم دون حرب. إن أخطر ما في التعليم أنه يضعف ملكة النقد، لأنه يلقن الأشياء ويلقن التصديق. إن التعليم أحياناً عملية إسكات للعقل، إنه عملية وضع جثث داخل النفس.

المفروض أن يكون الغرض من التعليم أن يعطي فكراً مناضلاً ضد التصديق، فكراً يفهم، وينقد، ويوازن، ويخلق.

المفروض أن نقرأ لنفكر وننقد، لا لنؤمن ونختزن. ليست القراءة تسليماً، ولكنها مفاوضة، وحوار، وصراع، ضد العقول الأخرى، أو مع العقول الأخرى.

لقد ظلت رسالة التعليم أن تقدم قارئين، لا مفكرين ولا ناقدين أو مثقفين.

ما الفرق بين من يحمل أرقى شهادة، وبين من لا يعرف مكان اسمه على الوثيقة التي يصمها إذا كان الرجلان لا يختلفان في العجز عن الحكم على الأشياء.. إذا كانت حقائق كلا الرجلين إنما تؤخذ من المحاريب.. إذا كان وعي كل منهما وعياً تاريخياً لا يتغير بالقراءة ولا بالتعليم.. إذا كانت آلهة هذا هي آلهة ذاك.. إذا كانت عيون كل منهما ترى على بعد واحد وبلون واحد..؟

إن المتعلم الذي يسجد للأصنام التي يسجد لها الجاهل لهو جاهل فقد احتمالاته الطيبة. إن المتعلم الذي يقرأ ويصدق، لهو أسوأ من الجاهل الذي يصدق ولا يقرأ.

الشعوب العربية لا تعترف بقيمة النقد بل لا تعرفه.

إن النقد في تقديرها كائن غريب كريه، إنه غزو خارجي.. إنه فجور أخلاقي.. إنه بذاءة.. إنه وحش فظيع يريد أن يغتال آلهتها، ويفسد عليها رضاها عن نفسها، وعن أشيائها الكثيرة الجميلة.

إن النقد مؤامرة خارجية.. إنه خيانة.. إنه ضد الأصالة.

إنها لذلك، تظل تتغذى بكل الجيف العقلية التي تقدم إليها، لا تسأم التصديق ولا تمل الانتظار. إنها لا تدرك فساد ما تسمع أو تقرأ كما لا تدرك تناقضه وزيفه.. إنها لا تحاول أن تدرك، بل لا تريد أن تدرك، وتفر ممن يحاولون أن يجعلوها تدرك. إن أسوأ الأعداء في تقديرها، هم الذين يحاولون أن يصححوا أفكارها، وعقائدها، أو يحموها من لصوص العقول، ومزيفي العقائد، وبائعي الأرباب. إن أسوأ الأعداء هم الذين يحاولون أن يجعلوها ترى الأشياء هم الذين يريدون أن يشفوها من مرض الرؤية.

إن تكرار الأكاذيب، والأخطاء، والتضحيات، لا يوقظ فيها شهامة الإباء أو الشك أو الاحتجاج. لقد جاءت مثلاً أليماً في الوفاء، والصبر، والانتظار لكل مهدي لا ينتظر خروجه.

كم من مهدي ظلت تخطب له كل المنابر مبشرة بخروجه، بمجيئه في موكب طويل من الشموس والنجوم والتهويل.. ظلت تخطب له كل المنابر مئات الأعوام دون أن يخرج أو يجيء، دون أن تمل التصديق والانتظار وحمل الدفوف والأعلام لاستقباله.

إن الأكذوبة الواحدة الضخمة لتظل تسمعها كل حياتها من فوق المنبر الواحد، وبالتأكيد

الحار الذي لا يفتر، ثم تظل هذه الأكذوبة نفسها تلقى التسليم الإجماعي بنفس الحرارة والقوة والإيمان.

هؤلاء قوم يعيشون؛ تعيش أرواحهم، وأخلاقهم، وعقائدهم، وآمالهم، أطول العصور على التفاهات والأكاذيب الغبية المكررة، دون أن يتمردوا، أو يغضبوا أو يملوا..

ما الذي دهي هؤلاء القوم فجعلهم يفقدون كل موهبة النقد، ويلقون بأنفسهم تحت أقدام الآلهة، والأوهام الشريرة المتعصبة بلا ذكاء، أو كرامة، أو كبرياء..؟

إنها عوامل كثيرة تعاونت في عصور طويلة على خنق هذه الموهبة. إن قلت إنها دينية، أو إنها نفسية، أو إنها اجتماعية، أو إنها سياسية، أو إنها كل ذلك وغير ذلك، فأنت صادق، ويجمع هذا كله شيء واحد، هو احتقار النفس.

إن من أبشع وأسخف خرافات الإنسان تدينه باستصغاره لنفسه، بتحقيره لها. إن أغلب الأديان والعبادات قائمة على الإذلال والاستصغار للذات.

إنها لكثيرة ومتنوعة الأساليب التي يحقر بها الناس أنفسهم. إنهم ليحقرون أنفسهم أكثر وأعمق مما يحقرهم الآخرون. إن الذي يسجد ذكاؤه، أو إيمانه، أو وجهه لخرافة اعتقادية، أو لإله غليظ الصفات، شائه الصورة، لهو أكثر تحقيراً لنفسه ممن يخضعون للطغاة، وينافقون خوفاً أو طمعاً.

أصواتٌ بلا كلام

إن سوق الفكر العربي أعجب سوق. إنه يوجد فيها كل الناس يروحون ويجيئون، ويصرخون ويتساومون، ويتعاملون ويبدون كأي قوم في أية سوق.

ولكن؛ عجباً.. إن جميع البضائع التي يتعاملون عليها زائفة. إنها قبور، وأموات، ومبالغات، وغرور، وتعصب، وسباب، وحرارة بلا حب، ثم لا شيء يعرف أو يقبض.

إن كل أحاديث الزعماء والحكام، وتعليقات المعلقين من كتاب ومفكرين في الإذاعة والصحافة والكتب، إن كل ما يقال ويسمع، صراخ وأصوات بلا كلام. إنه لا تفسير لموقف، ولا وعي لقضية، ولا احترام لحقيقة.

إنه لا تواضع، ولا تسامح.. نحن.. نحن.. نحن.. أما الأعداء، أما الآخرون؛ نحن أفضل، وأقوى، وأشرف، وأعلم.

نحن كل الحقيقة.. كل التاريخ.. كل المجد.. كل الفضيلة..

هكذا نحن دائماً.. هكذا كنا.. هكذا سنظل.. هكذا كان جدنا وحدنا.. جدنا العظيم آدم عليه السلام.

أما الأعداء، أما الآخرون فهم تراب في تراب.

إنه لم يتغير الطريق، ولا السائرون فيه. نقرأ ما كتب يوم كان آباؤنا الأمجاد يضربون هامات النجوم بسيوفهم البتارة، ونقرأ ما يكتب اليوم.. ما يكتب في عصر الإنسان الكوني، عصر إنسان القمر، عصر الإنسان الذي سيحول الأرض إلى محطة، إلى موقف للراكبين منها في رحلاتهم الكونية، فلا نجد إلا توائمَ متشابهة.

إن الخلاف الوحيد هو كثرة التعريب وقلته. في هذا العصر كثر التعريب وكان في الماضي قليلاً، ولهذا نجد فيما يقال اليوم لغة العصر وشعاراته، ولا نجد فكره، أو روحه، أو عمقه.

كيف يوجد القارئون والناشرون.. كيف يوجد فينا حتى اليوم من يقرؤون ما ينشر، ومن ينشرون ما يكتب.. كيف لا يرفض القارئون أن يقرؤوا.. كيف لا يرفض الناشرون أن ينشروا..؟

ألم يدرك من يقرؤون ماذا يقرؤون.. ألم يدرك من ينشرون ماذا ينشرون..؟

هل هو عجز عن الفهم، أم عجز عن الرفض..؟

هل هو عجز عن احترام الذات أم عن احترام الكلمة..؟ إنهم يقرؤون ولكنهم لا يقرؤون. لقد فقدوا خصائص القارىء كما فقد الكتاب خصائص الكاتب، إذن نحن نقرأ ونكتب، ولكن ليس فينا كاتبون ولا قارئون.

إن القراءة والكتابة عندنا ليستا عملاً فكرياً ولا معاناة. إنهما حركات وانفعالات عصبية ونفسية، كحركات العبادة والصلاة وانفعالاتها، وكقراءة الأذكار.

إن الذي يقرأ لا يقرأ ليفهم شيئاً، أو يستقبل شيئاً. وهل الذي يصلي أو يذكر، يريد أن يفهم شيئاً، أو يستقبل شيئاً.

إن القراءة عندنا أصبحت، أو هي لم تزل، أسلوباً من أساليب الصلاة والذكر.

إنها تشغيل للذات بلا بحث عن شيء، غير هذا التشغيل للذات.. إن قراءة الكتب كقراءة القرآن، إنها قراءة فقط.

لقد فقدت الكتابة والقراءة معناهما في المجتمع العربي، فكاتب الكلمة، وقارئها، أو سامعها، لا يلتزمان أو يشترطان أي شيء.

إن المفروض أن للأذن والفكر حقاً، أو كرامة، مثل حق وكرامة الضمير والأخلاق. إن الكذب والخرافة في كل المجتمعات المتحضرة، يفترض فيهما أن يكونا فناً، لكي يصدقا ويخدعا، ولكنهما في المجتمع العربي لا يحتاجان إلى أن يكونا كذلك؛ بل هما كذب

وخرافة فقط، بلا فن. وهذا لأن سوق العرب الفكرية لم تلزمهما بأن يكونا كذلك. إن الكذب والخرافة هما أحوج الأشياء إلى الذكاء وفنون التستر والترويج. ولكن السوق العربية لا تحوجهما إلى ذلك، إنها تقبلهما بلا أية شروط أو فنون. إنها لا تعرف الرفض أو الاشتراط.

إن موهبة النقد هي الآلة الحاسبة التي يفرض عليها أن تعطي نتائج صحيحة عن الأحداث والناس والحياة، وتعصم من الضلال والانتحار العقلي. إن كل مجتمع وإنسان محتاج إلى هذه الموهبة، ليكشف بها على المواقف والظروف المختلفة، كاحتياج الطبيب إلى أدواته ليكشف بها على أجسام المرضى.

إن فقد القدرة على النقد، هو الذي صنع هذا الضعف الفكري في العالم العربي.

كيف نعيش إذن، ونحن فاقدون لجهاز الأمان ضد التصادم والغباء..؟

هذه هي المعجزة التي لا فضل لنا فيها. إننا لا نعيش أو نحمي من التصادم والتدمير بموهبتنا، بل بموهبة الظروف، أو بتناقض الظروف، أو بمحاباة الظروف، كما تعيش النملة تحت أقدام الفيل، والقراد على سنام البعير.

مقاييس الذين لا يتغيرون

إن أفكارنا أفكار تاريخية ثابتة، ليست متحركة بالسرعة التي تتناسب مع الحياة والظروف والوجود الذي نعيش فيه. إن الأحكام الفكرية التي انتهينا إليها منذ أبد الأزمان في فهم الناس والآلهة والأشياء والمواقف، هي نفس الأحكام التي نحيا عليها اليوم، ونحيا عليها أيضاً غداً. لقد شددنا جميع وحدات هذا الكون والحقائق والآلهة، إلى أفهام وتفسيرات نهائية لا تتحول عنها. لقد صرنا نتتابع على هذه الأفهام والتفسيرات، كما نتتابع على العقائد والطقوس الدينية. نحن لا نتصور التاريخ والأمم والحقائق حركة دائمة وتغيراً، بل تفسيراً دائماً. لهذا نظل أبداً متخلفين عن فهم الظروف والمواقف التي تفرض نفسها علينا بلا مجاملة، ونظل أبداً غير مفهومين، كما أننا غير فاهمين. لقد عجزنا دائماً عن التوافق مع قوى الحياة وأساليبها الجديدة، وعن التصرف بذكاء مع الشعوب التي نتعامل معها، أو أن نفهم احتياجاتها ونياتها، ونفسر مواقفها تفسيراً ذكياً، ونثق بها، ونجعلها تثق بنا.

إن الناس لا ينقسمون إلى أخيار وأشرار. إنهم لا يختلفون في نياتهم، ولا في طبائعهم العامة. إنهم يختلفون فقط في مواقفهم. إنه لا يوجد أصدقاء ولا أعداء؛ ولكن يوجد بشر يتعاملون ويبحثون عن أفضل الفرص. إن الحكم على اتجاه شعب من الشعوب، أو على أخلاق قوم معينين حكماً أبدياً عاماً، أو تخصيص قوم بأخلاق ثابتة وخاصة بهم؛ إن ذلك

جمود تاريخي، أو جمود في التاريخ، أو جمود عن التاريخ، أو انفصال عن حركة التاريخ وعن وعيه. فالحياة ليست نصوصاً مقدسة تحفظ على قراءة واحدة، وليست صفات إله لا يتغير ولا يتحرك. ليست أخلاق إله قد اعتقل نفسه في صورة واحدة.

إذا كنا قد اعتقدنا في وقت من الأوقات أن أحد الشعوب عدو لنا، أو أن مصالحه متعارضة مع مصالحنا، أو أنه متصف بصفات رديئة معينة، أو أنه يريد تحقيق أمور يضر بنا تحقيقها، فستظل عقائدنا في هذا الشعب هكذا دائماً مهما تغيرت المواقف، والظروف، والأسباب. وكذلك يكون الأمر لو اعتقدنا عقيدة مضادة في شعب آخر. لقد رأينا في الشعبين رأياً نهائياً كرأينا في العبادات والأديان. إن آراءنا دائماً ثابتة، إن آراءنا في الناس والحياة والأشياء ثابتة كثباتها في الإله وفي العقائد والعبادات.

إننا نخاف من الآراء المتحركة. إننا نحب الجمود ونحترمه. إننا نرفض الحركة ونخافها.

إن الحركة خطر حتى في التفكير، حتى في الرؤية. لهذا فإن أفضل صفات الإله هي الثبات. وقد جاءت علاقاتنا الدولية دائماً علاقات حزينة، ولم نستطع أن نتوافق توافقاً دولياً. لقد وضعنا أمام كل شيء فهماً جاهزاً خالداً، وكان هذا الفهم مخيفاً لنا وخاطئاً أيضاً، ففررنا من كل الأشياء وخفناها ولم نفهمها، وخفنا كذلك من كل الناس وعاديناهم. ولو أننا كنا قادرين على تجديد أفكارنا، وتفسيراتنا السابقة، لاستطعنا أن نتحرك مع هذه الدنيا، وأن نفقه مواقفها وأهدافها، ونتكافأ معها بالسرعة التي تجعلنا نفهم وننتصر، وأن نتلاءم مع الأشياء في مشاعرنا وأفكارنا، وخطواتنا ومواقفنا.

إن هذه الأبدية في الأحكام، راجعة إلى الأبدية في طبائع الأشياء. فالأشياء في تصورنا ـ سواءً كانت مادية أم معنوية ـ أبدية الطبيعة؛ فالأخلاق والضرورات والخصائص والأحكام عليها، لا تتغير. إن الشيء ليس جيداً أو رديئاً تحت ظروفه المناسبة أو غير المناسبة. وإن المناسبة لا تحدث لحدوث ظروفها، وإن الظروف لا قدرة لها أمام طبائع الأشياء، وإن التقاليد والقوانين ليست حاجة أو ضرورة، بل خلود وأوامر.

هكذا نرى.. وهكذا كنا نرى.. وهكذا سوف نظل نرى..

إن أفهام الخالدين وتفسيراتهم يجب أن تكون خالدة.. إن مقاييس ما لا يتغير، لا بد أن تكون ثابتة.

إن أعلى الأساليب في جمود وخلود أفكارنا، أن صورة الإله الذي كان يخلق لنا الحمار، والجمل، والفرس في أذهاننا، هي نفس صورته بعد أن أصبح يصنع لنا الصواريخ، والمركبات الفضائية المتنقلة بين الكواكب. وأن أخلاقه التي كانت، حينما كان يحارب أعداءه بالقوس، والرمح، والسيف، هي نفس أخلاقه بعد أن أصبح يحارب بتفجير

الشموس، وإطلاق الشهب. وأن مشاعره حينما كان ينبت الكلاء، وينتظر المطر، هي نفس مشاعره بعد أن أصبح يزرع البحار، وينقل الأنهار.

اتباع، لا ابتداع..

نحن لا نؤمن بقيمة التفكير. ليس للفكر تاريخ في تاريخنا. إننا لم نعهد تلك الهزات والانفجارات الفكرية التي وجدت في كل المجتمعات المتحضرة، وأثارت ملاحم عنيفة بين المؤيدين والمنكرين، وأصبح لها ضحايا وشهداء. لقد كان كل ما حدث أن شموعاً ضئيلة خافتة، أضيئت في أزمان متباعدة، فأطفأتها الأنفاس قبل أن تقابل الرياح.

إن تاريخ أية أمة هو تاريخ فكرها، فالتي ليس لها فكر ليس لها تاريخ. ولهذا فإننا لو عمدنا إلى شريط التاريخ الإنساني العام، وقصصنا منه مكاننا، لما شعر النظارة بما حدث.

إن التفكير هو الذي يجعل التغير محتوماً، أو هو على الأصح، هو الذي يفتي بجواز التغيير أو بوجوبه، ويرى حتميته ويساعد على ذلك. فإذا كان حراماً أن تتغير كان حراماً أن نفكر. أما أن يكون التغيير ـ تغيير الآلهة، والمذاهب، والعقائد، والنظم، والأخلاق، فساداً أو حراماً، ثم يكون التفكير استقامة، أو حلالاً، أو واجباً، فهذا هو الجمع بين القبول والرفض.

إذن؛ نحن لا نؤمن بالتفكير لأننا لا نؤمن بالتجديد، ولكن لماذا نهاب التجديد..؟

إن كل الخوف من التفكير، ليس إلا خوفاً من التجديد.

إنه لم توجد كتب في لغتنا عن الفكر وحريته، ومعاركه، وانتصاراته، أو عن بناته.

إن كلمة فكر لم توجد في تاريخنا مقصوداً بها معناها المعروف عند الشعوب التي كان لها أفكار ومفكرون؛ وإنما جاءت مادة التفكير مراداً بها غير هذه المعاني، بل مراداً بها ما ينافي هذه المعاني، كالتفكير في ضعف الإنسان ونهايته ونهاية العالم، وبطلان ما فيه، وفي عجزه عن أن يفهم نفسه، وكذلك التفكير في دلالته الدينية.. أي أنه تفكير هدام ينتهي إلى العجز عن التفكير، وإلى النهي عن التفكير، وإلى الرغبة والاستغناء عنه. إن التفكير الديني القائم على أن الدنيا لا بقاء لها، وأن كل ما فيها لغو، وغرور، وفسوق.. وأن الإنسان نفسه وكل ما له من فكر، وتاريخ، ومجد، وقوة، هباء.. وأن جميع ما هنا يهيب بالعاقل أن يمضي عنه، ويلعنه.. وأن الوجود كله إنما وجد ليدل على العبادة.

إن مثل هذا التفكير يهدم الإنسان، ويهدم احتمالاته الحضارية.

إن المفكر الديني يفكر ليهرب، ويحرم، ويخشع، ويؤمن.. إنه يفكر ليكون غير مفكر.

أما المفكر بالمعنى الحضاري، فإنه يفكر ليغير، ويقتحم، ويخلق، ويفهم.. إنه يفكر ليكون مفكراً.

وإذا كانت الثقافة العربية لم تذكر التفكير على المستوى الحضاري فقد ذكرت شيئاً آخر قد يظن مرادفاً للفكر ـ ذلك هو العقل. لقد ذكر العقل، بل لقد امتدح كثيراً في الآثار والتعاليم العربية. فلماذا مدحوا العقل أكثر مما مدحوا التفكير والذكاء.. بل لقد خالفوا، وحاربوا التفكير والذكاء.. حاربوهما بكل قوة وحماس. بل لقد أعدوا لحربهما أقوى الأجهزة، وكل أساليب الإرهاب والبطش. إن ما يعدونه لقمع الذكاء والتفكير، أعظم مما يعدونه لمقاومة الجهل والأمية؛ أو هم على الأقل يخلصون في مقاومتهم للذكاء والتفكير، ويتحمسون لهذه المقاومة، أكثر مما يفعلون حينما يقاومون الجهل والأمية.

إن أظلم الطغاة والحكام، وأغبى المجتمعات، لترحب بالعقلاء، أو على الأقل لا تخشاهم؛ ولكنها تضيق أبشع الضيق بالمفكرين والأذكياء. فكيف حدث هذا وما تفسيره؟

إن العقل بطبيعته، أو بتصور أولئك المتصورين له، شيء غير التفكير والذكاء، بل إنه مناف لهما في سلوكه. إن العقل كائن غير متوحش. إنه ليس محارباً، ليس رافضاً. إنه يبحث عن الصداقات، والسلام، والمهادنة.

إن العقلاء محافظون يحاولون التلاؤم مع ما هو موجود، والاستفادة منه مهما كان فاسداً ورديئاً. العقلاء ليسوا قوى مناضلة، بل قوى مستغلة تبحث عن الربح والتوافق مع ما هو موجود، مهما كان هذا الشيء الموجود. وهذا السلوك سلوك العقلاء يرضي الطغاة، ويتوافق مع تدبيرهم، كما يتوافق مع سلوك المجتمع ويرضيه.

أما الأذكياء والمفكرون، فقد يكون من طبيعتهم التمرد ومحاولة التغيير، قد يكون من طبيعتهم أو شهوتهم الشك أو التشكيك في قيمة ما هو موجود وشرعيته، وهذا شيء يخيف المجتمع والمسيطرين عليه. إن امتداح العقلاء يعني امتداح النفاق، والجمود، والفساد.

إنه لا يوجد أخطر من العقلاء في المجتمعات المتخلفة الفاسدة، إنهم فيها أدوات تخريبية. ولهذا فإن الحكام المستبدين يتخذون أعوانهم ومستشاريهم من العقلاء، لا من المفكرين. بل من المحتمل جداً أن يكون العقلاء قوة مانعة من التطور والإصلاح دائماً.

وشعوبنا لا تقيم أي وزن للفكر. إنهم لا يشترطونه في أي عمل من أعمالهم، ولا في أي رجل من رجالهم. إن أكبر الرجال الذين يتولون أكبر الشؤون، لا يشترط فيهم أن يكون لهم فكر، بل لا يشترط فيهم أن يعرفوا دلالة الكلمة اللغوية. وجميع الذين يقضون الآن في شؤوننا القضاء المطلق.. الذين يقضون فيها محلياً ودولياً، ليست لهم أية علاقة بالتفكير، لا علاقة صداقة ولا علاقة فهم.

إن التفكير لم يوجد عند العرب بمعناه الحضاري إلا كعدو يلعن، ويخطب ويكتب ضده، ويقاوم بكل أسلحة الإرهاب. كانوا فيما كان، يضعون الكتب الكثيرة ويقيمون

الحواجز، ويكتبون الرقى، لمقاومة أي فكر يحتمل أن يجيء من خارج الحدود من بلاد الأعداء، من البلاد التي تمارس نفسها مع الشيطان. أما اليوم فإن كل سلطان الدولة وطغيانها، موضوع لقمع وعقاب كل تفكير قد يتسلل من بلاد الزندقات. الآن توجد مقاومة للتفكير يسمونها مقاومة الغزو الفكري. وقد صدر في هذا كثير من الكتب. ومقاومة الغزو الفكري تساوي مقاومة الغزو الحضاري، أو الغزو الصناعي، أو الغزو الفني، أو الغزو العلمي، فهل يعرفون هذا..؟

إن على الذين يحرمون الأفكار المستوردة بحجة أنها مستوردة، أن يحرموا بنفس التقوى والحماس، الحضارة والعلوم، والخبرة والفنون المستوردة. كيف يكون الأخذ بأفكار الآخرين ضد الدين والوطنية، والأخلاق والأصالة، ثم لا يكون الأخذ بحضارة هؤلاء الآخرين، وبخبراتهم، وفنونهم وعلومهم، بل وقروضهم ومنحهم، ضد ذلك..؟

إنه إذا كان الأخذ عن الآخرين حراماً، فإن أخذ هذه سيكون أشد تحريماً.

لا يدرس، بل يحكم..

والتفكير العربي ليس تصميماً عقلياً أو علمياً. إن أحكامه على الأشياء ليست نتيجة دراسة، أو حتى تأمل؛ بل هي أحكام فقط. أحكام بلا دراسة بلا تأمل. إنها قصاصات متناثرة من الروايات الدينية، والتاريخية، والفلسفية، ومن الأشعار، والحكم، والأمثال الشائعة في السوق. إنها ليست تصميماً.

لم يكن في طبع التفكير العربي أو قدرته الصبر على الدراسة المباشرة الشاملة. إنه حينما يريد أن يدرس الإنسان مثلاً، فإنه لن يدرسه في الإنسان كما يصنع كل من يدرس شيئاً؛ إنه لا يعمد إلى الإنسان نفسه فيدرس خصائصه وغرائزه، وكل ما يتفاعل في ذاته الجسمية والشعورية والفكرية، وما يصدر عنها باستقراء وإحاطة، ويميز ما هو إنساني عام يشترك فيه جميع آحاد هذا المخلوق، وما هو خاص لظروف خاصة ببعض الآحاد أو بعض الشعوب، ثم يحكم الملاحظة والإحصاء ويطيلهما إلى أن يخرج بدراسة صحيحة متميزة. إنه لا يعرف هذا النوع من الدراسة ولا يطيقه. وأسلوبه في دراسة هذا الكائن مثلاً، أن يعمد إلى نفسه وإلى ما تجمع عنده من أوهام ومخاوف، ومحفوظات ورواسب مختلفة الأنساب، وقد يكون ذلك بيتاً من الشعر، كما قد يكون حكمة قديمة، أو نصاً من كتاب مقدس، أو رواية عن أحد الأنبياء، أو أحد الصالحين أو الواعظين أو الفقهاء، أو ملاحظة ناقصة جداً، أو استنتاجاً عقيماً ليس له مقومات الاستنتاج، أو قد يكون انفعالاً عاطفياً خاصاً. وحينئذ يصدر حكماً نهائياً على الإنسان. وقد يضع حكمه في كتاب كبير يخرج به على الناس مع شيء كثير من الغرور. وهكذا هو في جميع أحكامه على حقائق الوجود المحيطة به.. يحكم ولا يدرس.

إنه يهرب من مواجهة الأشياء إذا أراد دراستها. إنه إذا أراد أن يراها، هرب من رؤيتها. إنه يحكم على الأشياء بلا رؤية ولا علم ولا ممارسة، كما يحكم على الله وعلى الغيب. إنه يصف الله ويحكم عليه، ويراه بالرواية والاعتقاد. وهكذا يصف كل شيء ويراه ويحكم عليه، حتى جسم الإنسان، حتى أخلاقه، حتى تأريخه.

ولعل دراسته للتاريخ من أعجب هذه الدراسات. فالتاريخ كله، الطبيعي والاجتماعي والسياسي والديني وغيره، ليس سوى مجموعات هائلة متكررة مترادفة، أو متناقضة متلاعنة من المحفوظات والكلمات الرنانة المطلقة، والتأملات الخائفة، والنصوص المكتوبة على أبواب المقابر. إنه يقدم دراسة مذهلة عن هذه الكائنات الكبيرة التي تحيط به؛ فالشمس والقمر، والنجوم والرياح، والسحاب وقوس قزح، وما كان وما سوف يكون أو ما لن يكون.. كل ذلك يدرسه ويعطيك عنه نتائج نهائية بدون أن يعلم عنه شيئاً. إنه يعطيك عنه حكماً مفروغاً منه، كما يعطيك عن الله وعن أوصاف الآخرة وصفات أهلها.. إنه يدرس كل ذلك في نفسه، وفي المعابد والنصوص، والحكم المأثورة، لا في ذات ذلك الشيء.

ولو أردنا أن نفهم تاريخ أمة أو فرد من هذه الدراسات المكتوبة التي أخرجها تفكيرنا الأصيل، فلن نستطيع أن نفهم من ذلك إلا بقدر ما نفهم عن قوس قزح حينما تزعم لنا هذه الدراسات أنه سيف شرطي السماء الحارس لنظام الكون ولأخلاق الآلهة، مسلولاً يحمي به السحاب من اللصوص، ويسوق به السحاب إلى البلد البعيد المحظوظ.

والفكر الذي يعجز عن رؤية الكائنات الكبيرة المحيطة رؤية مباشرة، كيف يستطيع رؤية الكائنات الدنيا التي لا ترى، كجراثيم الأمراض، وأمراض النفس، والفكر، والشعور، والمجتمعات..؟

ينفي الوحدة القانونية للأشياء

والتفكير العربي ضيق الصدر قصير الخطى لاهث الأنفاس. إنه لا يملك الطاقة التي تجعله يحيط ويُحلق فوق وحدات الموضوع، حتى يهتدي إلى الوحدة العامة في ذلك الموضوع، وإلى الفكرة المشتركة فيه.

إن الشعوب المتأخرة في تفكيرها لا تستطيع التفكير الشامل. إنها تفكر دائماً تفكيراً جزئياً؛ فالإنسان المتخلف لا يمكن أن يدرك في ذهنه معنى عاماً للحقائق الكبرى كالإنسان، والحياة، والفكر، والعلم، والحضارة، والثقافة، والعدل، والحرية، وغير ذلك. لأن إدراك هذا

المعنى العام يحتاج إلى فكر شامل، وثاب متحرك، ليستطيع الإحاطة بالمعنى المشترك بين جميع الوحدات. وإذا لم يكن الفكر بهذا الاتساع وهذه الإحاطة فإنه إذا اتجه إلى رؤية وحدة من وحدات الموضوع غابت عنه الوحدات الأخرى، فلم يقدر على إخضاعها كلها لمعنى مشترك. إنه لا يستطيع أن يرى بشمول، وحينئذٍ يكون جزئياً لا كلياً. وهذا الإنسان الجزئي الذي يعجز عن الفهم أو عن التفكير الشامل، يرى الفرد من البشر أو الحيوان أو من المعاني فيدرك أحياناً بعض خصائص هذا الفرد الظاهرة، ولكنه يعجز عن الإدراك الكلي، فيعجز أن يلاحظ أنه يوجد شيء أو أشياء عامة يشترك فيها كل إنسان وحيوان، وأنه توجد آحاد معنوية، وعلمية، ومنطقية، يشملها كلها قانون واحد، وتتساوى أمام هذا القانون، وأن العلم بواحد منها يساوي العلم بها كلها.

إن الإنسان الجزئي لا يعرف الكليات التي يعرفها المتحضرون كالإنسانية، وكالثقافة، أو المدنية، أو المعرفة، أو القوانين العلمية والرياضية. إنه لهذا لا يستطيع أن يدرس شيئاً ما دراسة علمية أو فلسفية؛ وإنما تكون له مشاهدات فردية كمشاهدات الأطفال. إن الطفل لا يعقل كلية الأشياء، إنه يعقل أن هذا الفرد يسمى إنساناً أو حيواناً إذا رأى أحد أفراد الحيوان أو الإنسان؛ ولكنه لا يعقل المعنى الكلي لذلك. وقد عد عصر المنطق عصر تقدم كبير، لأنه نقل البشر إلى عصر الكليات بعد أن كانوا يعيشون في عصر الجزئيات. ولم يستطع الإنسان أن يخطو بالحضارة خطواتها الكبرى إلا بعد أن تخطى عهد المعرفة الجزئية. إن الطبيعة كلية، كلية القوانين والأخلاق والظواهر. وإن الحضارة والعلم كليان لأنهما هما تفسير الطبيعة، ورؤيتها والتعامل معها بالممارسة والتسخير.

ماذا لو كانت الطبيعة فردية.. ماذا لو لم يدرك الإنسان هذه الكلية، كلية الطبيعة..؟

وقد عجزنا عن تصور الأشياء تصوراً شاملاً، وعن الحكم عليها حكماً شاملاً أو صحيحاً، لأننا لم نستطع أن ندرسها دراسة كلية لنخرج منها بمعرفة كلية. لم ندرس الحضارة، أو الحياة، أو الإنسان، أو التاريخ، أو الشعوب، هذه الدراسة؛ بل درسناها ـ وعلى الأصح لاحظناها ـ ملاحظة جزئية لا يمكن أن تعطي إدراكاً شاملاً، فأصدرنا أحكاماً غير صائبة، ولم نستطع أن نقدم دراسات شاملة أو حقيقية عن أي شيء، بل ولم نتمكن من معرفة كليات الوجود والحياة، ثم لم نتمكن من التصرف في ممارستها أو رؤيتها تصرفاً حكيماً لأن التصرف الحكيم يحتاج إلى تصور صحيح.

حينما نرى ظاهرة من ظواهر الحضارة لا نستطيع أن نتكافأ معها أو أن نفهمها، نسرع إلى الحكم بأن هذه الظاهرة هي الحضارة، وأن الحضارة جريمة. وكذلك نفعل حينما نجد أحد أفراد الإنسان يعمل عملاً يسوؤنا لأننا لا نستطيع أن نعمل مثله، أو لأن غيرنا هو الذي

عمله، وحينئذٍ نزعم أن هذا العمل الذي ساءنا عمل رديء، وأن الإنسانية معناها الرداءة والسوء بمعناها الكلي.

إننا في هذه الحالة لم نرَ الإنسان أو الحضارة بمعناهما العام، بل رأينا جزئية ليست هي المعنى العام للحضارة أو الإنسان. إن التعبير الجزئي ليس هو المعنى العام. نحن لا ندرك الحضارة والإنسانية بمعناهما العام، ولا ندرك معاني الخير والشر، والجريمة والسوء، إدراكاً كلياً. إن معنى هذا أن نعادي كل إبداع إنساني ونتخوف منه لأنه لا يعني في تصورنا غير الفساد والإثم، والكبرياء والخروج على السماء. إننا عاجزون عن التفسيرات الكلية للأشياء وعن رؤيتها رؤية كلية؛ لهذا نحن عاجزون في رؤيتنا وفي تفسيراتنا. إننا لم نستطع أن نفسر الناس ـ الأفراد والمجتمعات ـ تفسيرات كلية، بل نفسرهم دائماً تفسيرات فردية أو جزئية؛ لهذا تضللنا تعبيراتهم الفردية المختلفة أو المتناقضة عن حقيقتهم الكلية المستترة وراء تعبيراتهم الجزئية أو الظاهرية.. تلك الكلية التي لا تختلف مهما اختلفت التعبيرات عنها بكل اللغات والأساليب.

إننا بعيدون جداً عن إدراك الوحدة القانونية للأشياء، وعن الإيمان بها. وهذه الوحدة القانونية هي القاعدة التي نهضت عليها حضارة الإنسان، وجميع معارفه. إن العلم في كل آحاده لا يخرج عن العلم بهذه الوحدة. والمتخلفون في تطورهم الفكري والعلمي، لا يجدون ما يرفعهم إلى هذه القمة. إن تعاليمنا بكل مستوياتها تناوىء هذه الوحدة القانونية، لأن جميع هذه التعاليم تلقننا أن كل جزء من هذا العالم إنما وجد ويبقى بإرادة خاصة لا بقانون عام. ولهذا فإننا لا نحترم الطبيعة والمادة، ولا نحترم قوانينهما ـ أي بمنطقنا واعتقادنا ـ مهما صلينا لهما بشهواتنا وهمومنا.

والقول بالإرادة الخاصة لكل موجود، يعني القول بأنه لا قانونية في الوجود. ووحدة الوجود ـ مقصوداً بها هذا المعنى ـ لا يمكن أن تقوم معرفة بدونها.

إن الوحدة القانونية للأشياء أو للطبيعة، تعني فيما تعني أنه لا توجد إرادة تحكم الأشياء، وتهب كل شيء معنى خاصاً، أو سلوكاً خاصاً تحت الظروف الملائمة التي تراها أو تريدها تلك الإرادة.

إنه مستحيل أن تكون هناك إرادة تحكم الأشياء، ثم لا تعطي الأشياء صيغاً، أو معاني، أو قوانين مختلفة لغرض من الأغراض. إن هذه الاستحالة تساوي الاستحالة في أن تملأ بيتك أثاثاً، ثم لا تفاوت بين هذا الأثاث في وظائفه، وأغراضه، وفي نياتك. إذن الوحدة القانونية للأشياء تعني نفي الإرادة.. تعني نفي كل إرادة يمكن أن تحكم الأشياء، ونفي هذه الإرادة يعني نفي الآلهة التي تحكم الطبيعة، وتحكم كل شيء. إذن محتوم على المؤمن نفي الوحدة القانونية عن الأشياء.

لا يطيق رؤية ذاته

والتفكير العربي تفكير اتكالي.

إنه تفكير هارب من نفسه.

لقد كان التفكير العربي يعبر دائماً عن هربه بشوقه الأصيل وحماسه المتوتر في بحثه عن الأرباب والخرافات، والأكاذيب والعقائد الجاهزة، وعن القياصرة المتألهين ليحكموه ويذلوه ويرهبوه، دون أن يتسامحوا معه أو يحترموا عقله أو كرامته. إنه يريد أن يؤمن لأنه لا يريد أن يفكر. هو يهاب الحقيقة، هو لا يبحث عنها إذا بعدت عنه، ولا يرحب بها إذا واجهته. إن أشنع أعدائه هم الذين يبحثون عن الحقيقة، أو يحترمونها، أو يحاولون أن يدلوه عليها. إنهم هدامون أعداء زنادقة. إن العرب يرحبون دائماً بمن يبرر لهم أنفسهم، بمن يسوغ لهم جميع ما لديهم من عقائد وأفكار وأشياء، بمن يفسر لهم أقبح ما عندهم أفضل التفاسير. إن الخصم البغيض هو الذي ينقدهم، أو ينقد شيئاً مما يفعلون، أو يعتقدون، أو يملكون. إن ذلك هو الزنديق، والعدو، والحاسد، والخائن، والمتآمر.

إن أكبر الشعوب المتحضرة تنقد نفسها وأشياءها، بل تقسو جداً في نقدها لنفسها. بقدر ما تبالغ في البحث عن مزايا أعدائها وخصومها. أما الشعوب العربية فإنها لا ترى فرقاً بين النقد والخيانة. فالعربي الذي ينقد شيئاً عربياً يعد خائناً؛ حتى الأرض، والطقس، والجبال، والأنهار، والأمطار العربية، من المخاطرة نقدها أو الشك في أنها أفضل من مثيلاتها. أما البحث عن مزايا الخصوم والأعداء أو الاعتراف بها، بل أو رؤيتها، فذلك في حكم العربي هو الجحيم، هو الكفر بالله وبالآباء، وبالوطن، وبالتاريخ.. بل هو الخيانة العظمى.

إنه لا يتصور مزايا الآخرين إلا هجاء له، بل لأربابه، ووطنه، وتاريخه، ولآبائه الذين هم فوق كل البشر. حتى الإله لا يغضبون له ضد من ينكرونه أو ينقدونه إلا على تقدير أنهم يملكونه ويتعاملون معه، فهم يبغضون لمن يملكون أو لما يملكون؛ لا لمن يحترمون ولا لما يحترمون. إنهم يغضبون للإله المملوك لهم، لا للإله العالمي الطيب. ولهذا فإنهم يغضبون لسيدنا محمد (صلى الله عليه وسلم) أكثر من غضبهم للأنبياء الآخرين. إنهم يغفرون لمن ينقد الله اليهودي، أو المسيحي، أو البوذي، ولمن ينكره، أي لمن ينقد الله أو ينكره كإله يؤمن به الآخرون. أما نقد الإله أو إنكار الإله العربي أي الذي يؤمن به العرب فذاك هو الذي لا يمكن غفرانه.

وليس تحريم النقد هو الذي حرم العرب من هذه الموهبة، ولكن خضوعهم لهذا التحريم دليل على فقدان الموهبة. إن الذين يطيعون الأوامر لا يطيعونها إلا لأنهم لا يستطيعون

الخروج عليها، فالإنسان لا يؤمن إلا بما يستطيع ويريد، فإذا آمن بما لا يستطيع ولا يريد، فسر إيمانه بما يريد وبما يستطيع.

إن كل عقائدنا ومذاهبنا ليست سوى استجابة لإرادتنا وقدرتنا، ليست إلا بحثاً عن الاستجابة لهما، أو ليست إلا تفسيراً من تفسيراتهما. إن آلهتنا وأدياننا وكل تشكيلاتنا الذهنية، تجيء دائماً على مقاسات إرادتنا وقدرتنا، أو تعبيراً عنهما. إننا لسنا إلا باحثين عن إرادتنا وقدرتنا حينما نخرج عليهما.

يا للطيبة الذكية..

التفكير العربي يرفض أن يكون مسؤولاً عن نفسه. إنه يوزع المسؤوليات توزيعاً خارجياً. إنه دائماً يصاغ ويحكم من خارجه. إنه دائماً موجود في غير ذاته.

كان اللّه والشيطان يخلقان خطأه وصوابه، وحين فقد اللّه والشيطان، أو ضعف إيمانه بهما ذهب يبحث عن خالقين أو أعداء آخرين ليجعلهم مسؤولين عن مسؤوليته.

إنه يوم أن كان في عنفوان إيمانه، لم يكتف بالآلهة والأرواح الشريرة، ليؤمن بها ويجعلها مسؤولة عنه، وعن ضعفه وأوزاره. لقد كان محتاجاً أيضاً إلى أرواح أخرى شريرة ظاهرة ليلقي عليها هذا الضعف والأوزار. فالعرب يهوون دائماً أن يفترضوا أنفسهم مقصودين بالشر الخارجي، محاطين بالأبالسة والخصوم والأشرار، يكيدون لهم ويفسدون ضمائرهم، وعقولهم وأخلاقهم. لقد كان هذا نوعاً من الاحتياج إلى البكاء. إن الاحتياج إلى البكاء حالة نفسية. وأكثر من يحتاج إلى التعبير عن هذه الحالة بالبكاء هم الأطفال. إن الأطفال هم دائماً أغزر دموعاً من الكبار، وأكثر اتهاماً للآخرين، وإلقاء عليهم. إن الذين يتهمون الآخرين بذنوبهم ونقائصهم، ليسوا إلا أطفالاً يبكون، ويلقون بأنفسهم على أكتاف الآخرين، أو بحجورهم.

كان الإسلام فيما نقول ونعتقد، أكبر انطلاقة عربية؛ بل وأول انطلاقة عربية. وجميع من درسوا الإسلام لا يجعلون العرب الذين جاؤوا به مسؤولين عما أصابهم. إنهم لا يجعلون الفكر العربي مسؤولاً عن أخطائه فيه، فاليهود والدخلاء الآخرون هم المسؤولون عن أخطاء العرب وهزائمهم، وعما أدخل على دينهم من تحريف وكذب، وضعف وخرافة، وتفسيرات سخيفة. كان هؤلاء الإسرائيليون والأجانب الآخرون يكذبون، ويكيدون، ويلقون بكل سمومهم في المياه العربية، ولم يكن العرب يصنعون شيئاً من ذلك، ولكنهم كانوا يقبلونه في أنفسهم.

لم يكن العرب يصنعون الشر. غير أنهم لم يكونوا يقاومونه. إنهم طيبون، أو أذكياء إلى المدى الذي يجعلهم يمكنون لمكايد أعدائهم من الانتصار عليهم.

إن كل المؤامرات، والحروب، والانقسامات التي واجهها الرسول وأصحابه، والخلفاء وحكام العرب في جميع عصورهم، كان يصنعها الآخرون. كان يدبرها الأبالسة. إنهم أولئك الغرباء المتآمرون..

وفي اليوم الذي كنت أكتب فيه هذه الكلمات نشرت واحدة من كبرى الصحف العربية حديثاً لزعيم عربي وقائد كبير مشهور جداً، كان يوماً ما في الميدان يقاتل الغزاة المحتلين لبلده. قاتل هؤلاء الغزاة طويلاً، ثم غادر الميدان حميداً مشكوراً. وقد جاء في حديثه «إن اليهود هم سبب جميع الشرور الموجودة في العالم، وإنه لولاهم لما فسد العرب ولا غيرهم».

إن اليهود فيما يرى هذا المجاهد، هم القوة الشريرة الخالقة في العالم كله.

أي ترويع للعقل العربي أكبر من هذا.. أي إسقاط للأوهام المدمرة في الخيال العربي يتفوق على هذا الإسقاط الفاقد للذكاء.. بل أي تحقير للعرب وللعالم كله أكثر من هذا.. وأي تمجيد لليهود يفوق هذا التمجيد..؟

اليهود هم الذين أفسدوا العرب، وأفسدوا كل العالم. إذن اليهود وحدهم أذكى وأقوى من كل العالم. والعالم كله ومعه كل العرب أقل ذكاء وقوة من اليهود..

أي تصور مختل هذا التصور..؟

ويوجد حديث مشهور يعزوه الرواة إلى الرسول وهو مذكور في أفضل وأشهر كتب الحديث. يقول هذا الحديث: «لولا بنو إسرائيل لم يخنز اللحم». أي لم يصب بالتعفن والفساد.

عجباً؛ حتى القوانين الطبيعية كانت يهودية، حتى البكتيريا لم تكن تعمل إلا بإرادة اليهود، ولمصلحة اليهود، حتى البكتريا كانت يهودية، أو عميلة لليهود، أو اختراعاً يهودياً.. أي شيء إذن ليس يهودياً..؟

وجاء في كتاب صدر حديثاً لمؤلف عدّه بعض المحافظين ملحداً لشدة تحرره: «إن جميع الفتن السياسية وأكاذيب الرواة في صدر الإسلام، ترجع إلى جمعيات اليهود والفرس السرية».

إنها لقصة عجيبة.. العرب المسلمون يرون اليهود هم كل ما يحدث في العالم، والمسيحيون يؤلهون رجلاً من اليهود.

أية دعاية.. أية محاباة لأي قوم، أكبر من هذه الدعاية وهذه المحاباة..؟

وقد كان من المفروض المقرر دائماً، أن الخلفاء، والحكام، والولاة العرب، لم يكونوا

ليجدوا الشيطان في أنفسهم، أو يعرفوا أن للرذيلة إغراء كحد السيف، لولا أعوانهم ومستشاروهم من الفرس والأتراك وسائر الأعاجم. حتى الجواري الخليعات، والشعراء، والكتاب المجان، والزنادقة؛ حتى هؤلاء كانوا فرساً وروماً ويهوداً، ولا يمكن أن يكونوا عرباً. فالعرب لا يضلون، أو يفسدون ابتداعاً، بل اتباعاً إذا فعلوا. وهم لا يكونون أبالسة، ولكن الأبالسة يسكنونهم، وينتصرون عليهم، ويخدعونهم. والتراجع الحضاري والإنساني الذي حلّ بهم، إنما جاءهم مع الغزاة الأجانب، فالدولة العثمانية وغيرها من دول الأعاجم وغزواتهم، هي التي أخمدت أو سحقت كل فضيلة وقوة في عقل العربي وموهبته، وهي التي وقفت عوامل النمو والتطور فيه.

ثم أخيراً..

لقد جاء المسؤول الأعظم عن أفظع مرحلة متخلفة حلت بالوجود العربي وبالحضارة العربية المتفوقة.

وأخيراً..

لقد جاء المجرم الأعظم.. لقد جاء المفسد، المفقر، المؤخر الأعظم.. جاء صانع كل الذنوب والجهالات، كل الغباء والتأخر..

أخيراً..

لقد جاءت أوروبا.. فأوروبا هي التي علمت العرب ما لم يكونوا يعرفون هم أو آباؤهم، علمتهم الجهل والفقر، والظلم، والاستبداد، والتأخر، والانشقاق، وأهدت إليهم الإيمان بالشهوة والشيطان، وأعطتهم القدرة على أن يكشفوا ما في أنفسهم من ضعف وانحدار.

وإذا قيل لهم إن الشيطان كان موجوداً وحيد الحظ في العالم العربي، قبل أن يجيء الاستعمار الغربي وقبل أن يخلق.

وأنه، أي الشيطان الموجود في العالم العربي، هو الذي فتح الطريق للاستعمار ورحب بمقدمه، وأنه يقتات بنفوس العرب وبأعضائهم كما يقتات بالأطعمة الأخرى.. أو قيل لهم أيضاً إن البلاد العربية التي بقيت تقتات بفضائلها التاريخية وحدها، بدون تدخل خارجي، جاءت أبشع صورة للتأخر، والفساد، والجهل، والظلم، وجاءت أكثر تحالفاً مع الشيطان وصداقة للغواية.

إذا قيل لهم ذلك، أصروا على أن العرب لم يضلوا أنفسهم أو يؤخروها، وإنما جاءهم الضلال والتأخر من خارج طباعهم.

إنهم يريدون أن يمجدوا العرب بجعلهم مفعولين لا فاعلين، بأن يجعلوهم مفسدين لا

فاسدين، كأن الذين يفعل بهم الفساد أفضل من الذين يفعلونه.. كأن الذين يستوردون الرذيلة هم الصالحون الأقوياء، دون الذين يصدرونها.. دون الذين ينتجونها.

وقد ظل حكامنا وزعماؤنا يجدون في الغرب المحتل، أو الذي كان محتلاً، وفي التحدث عنه مبرراً وطنياً وأخلاقياً لعجزهم وجهلهم وسرقاتهم يخدعون به جماهيرهم، وكانت الجماهير ترحب بهذا المبرر لأنه يريحها من أن تفهم وتقلق، وتغضب وتحاول.

إن مثل هؤلاء الحكام والزعماء المغطين لأنفسهم عن عيون رعاياهم باتهامهم للمستعمرين، كمثل المرأة الخاطئة أو الدميمة التي استطاعت بوسيلة أن تخفي حقيقتها.

مبرر للإيمان بالغباء

إن انكشاف الحقيقة هنا وهنا، خطر على الجانبين وعذاب لهما. وسوف يظل الحكام والزعماء، بل والأدباء والعلماء والمفكرون لدينا، يصرون على التحدث عن هذا المبرر حتى وبعد زواله، ليثبتوا أنه هو سبب كل تقصير، أو عجز، أو جهل، أو اعوجاج فيهم. إنه لمن المؤلم والمحرج لهم جداً، أن يفقدوا هذا المبرر أو تفقد الجماعات اقتناعها به. إنه حيلة سهلة يغطون بها كل تشوهاتهم وضعفهم. إنها هدية لئيمة يقدمها لهم التاريخ.

ولهذا فمن الملاحظ أن هؤلاء يلجون ويصرون على التحدث عن الاستعمار الغربي، وعن نشاطه وألاعيبه القوية، وعن سحره، وطول بقائه، واتساع نفوذه، كلما زال أو أوشك على الزوال؛ لأنهم يشعرون حينئذٍ بأنهم مهددون بفقدان هذه اللعبة، وبأن تتخلى شعوبهم عن إيمانهم بالشيطان، وبالقدر الذي يحملونه أخطاءهم، ويمسحون به كل أدرانهم المتراكمة. إن معنى هذا أن ينكشفوا وأن يُروا في العراء الواسع بعد سقوط القناع الساتر.

ما أبشعهم حينئذٍ، ما أبشع رؤيتهم، ما أبشع مرآهم. إن هذا العدو الخارجي والحديث عنه واتهامه، إن هذا العدو الخارجي لهو أعظم قناع في التاريخ يخفي أقبح الدمامات والتشوهات، والصغائر النفسية والأخلاقية.. يخفي هؤلاء الطغاة والزعماء العاجزين.. يخفي ذنوبهم وضعفهم وأكاذيبهم الكريهة. إن التاريخ ليمارس ضد نفسه جريمة فظيعة، متآمراً مع هؤلاء الحكام والزعماء المزورين، الساترين لقبائحهم الكبرى بالآيات والأحاديث، وبالخطب وبصوغ الاتهامات وتحويلها إلى أصوات تتلى في كل المعابد.

لقد كانت دائماً الأكاذيب والأوهام الساترة، هي الملابس الرسمية التي يبدو بها الحكام والزعماء أمام شعوبهم في أبهى صورهم. هل يوجد في التاريخ ـ في أي تاريخ ـ حاكم أو زعيم لم يصنع لنفسه حللاً كثيرة متعددة الألوان والأنواع من الأكاذيب والأوهام، ليلبسها،

ليبدو بها أجمل جداً من حقيقته، أو ليغطي بها ذنوبه الكبيرة، أو تشوهاته القبيحة، أو أخطاءه الغبية القاتلة..؟

إذن لا بد من الحديث عن الأعداء والأخطار الخارجية، ومن اختلاق ذلك لو كان غير موجود، لأنه جزء من قوة الحكام والزعماء وعبقريتهم. إنه جزء من دفاعهم عن أنفسهم، وخطة من خططهم لتغطية نقائصهم وعاهاتهم. ولعلهم يذهبون يشيدون للأخطار وللأعداء الأجانب النصب والتماثيل في الميادين. إنهم حتماً يشيدون لهم ذلك في النفوس والكتب والخطب، ليظلوا دائماً مذكورين مرهوبين. ولعلهم أيضاً يظلون دائماً يذكّرون بهم عمداً، فيقيمون لهم الاحتفالات الرسمية الدورية التي تجدد ذكراهم وتشير إليهم، وتتحدث عنهم وعن آثارهم، وتهديداتهم الدائمة. إنهم يقيمون الاحتفالات السنوية ضدهم، وبمناسبة خروجهم أو طردهم، ولكن في نفس هؤلاء المحتفلين شيئاً آخر؛ في أنفسهم أن يذكروا بهذا العدو الذي قد مات. إنهم يريدون التذكير به دائماً.. إنهم يريدون أن تبقى ذكراه حية قوية مهما مات، مهما طال موته.

وهذه اللعبة تشبه لعبة الوعاظ وزعماء الروحانية في قصة الشيطان وتهديده للبشر وهزيمته للإله في صراعهما على الإنسان. إن قصة الشيطان وقوته، هي المفسر لقيمة هؤلاء الوعاظ والروحانيين، والمعنى لوجودهم. لو كان الإنسان بلا شيطان، والشيطان فيما يزعمون هو وحده القوة المفسدة؛ أو لو كان الله هو المنتصر في صراعه على الإنسان مع الشيطان، فأية وظيفة أو قيمة حينئذٍ للوعاظ والمعلمين..؟

إن الشيطان هو الذي يوظفهم. إنهم جميعاً موظفون عند الشيطان، فما أعظم مجدهم إذن..؟

وحينما يزول كل أمل في قبول الجماهير للحديث عن الاستعمار الأجنبي كمبرر مقبول لعجز الحكام والزعماء وضلالهم، فسوف يبحثون عن عدو أجنبي آخر يكفي للقيام بعملية التبرير السخيفة. وإن الظروف الكثيرة المتناقضة لا بد أن تهييء لهم هذا العدو الأجنبي، لا بد أن توجد مبرراً صالحاً ومقبولاً في السوق التي تبحث بكل أشواقها عن مبررات الإيمان بالغباء.

ولهذا فكم يكون من الصواب الاعتقاد بأن حكام العرب وزعماءهم فرحون جداً بوجود إسرائيل، مع لعنهم الدائم العصي لها. وإن كان فرحهم هذا يشوبه شيء، تشوبه تقديرات خاصة. إنهم مبتهجون بهذه الفرصة مع شعورهم بالحرج والإذلال لكبريائهم.

إن: عامتهم وبطولتهم ستظلان جريحتين ما دامت هذه الدولة البغيضة موجودة، ولكن وجودها احتياج من احتياجاتهم. احتياج من احتياجات هذه البطولة والزعامة.

إن في وجود إسرائيل أضخم فرصة لهم لكي يشغلوا ويصرفوا مشاعر جماهيرهم، لكي يبرروا أخطاءهم وطغيانهم وكل أساليبهم العاجزة الغبية، لكي يقولوا إذا قصروا وعجزوا وطغوا وسرقوا: عذرنا أننا مشغولون بمقاومة خطر هذه الدولة، وإذا اتخذوا إجراءات غير قانونية ولا ديمقراطية، وحتى لا إنسانية؛ برروا ذلك بالخوف منها والاستعداد لها. ويصبح دائماً أعظم تعويض يدفعونه لشعوبهم ثمناً لما يقترفون من ذنوب وكبرياء، ولما ينزلونه بها من آلام وحرمان، أن يتحولوا إلى صيغة حماس بذيئة كاذبة في لعن اليهود، وفي التحدث عن نياتهم العدوانية، ومؤامراتهم ونفوذهم الدولي العظيم. وتصبح الخطب البليغة في لعناتها للدولة اليهودية، بطولة ووطنية وغذاء مقوياً للشعب الضعيف، وتسويغاً لكل هوان وفقر داخلي.

تصبح الخطب اللاعنة حينئذٍ غذاء شعبياً، تصبح خبزاً تخبزه المنابر.

قد نكون نحن المخطئين.. قد تكون الخطب اللاعنة المنطلقة من أفواه الزعماء خبزاً حقيقياً، خبزاً من القمح.. قد تكون مجداً وكرامة.. قد تكون حرية وانتصارات.. قد تكون علاجاً للمشاكل وللأمراض.. قد تكون مدارس.. قد تكون ملابس.. قد تكون مساكن شعبية.. قد تكون كل ذلك.

قد نكون نحن مخطئين؛ وإلا فلماذا يهتف لها كل من يفقدون كل ذلك.. لماذا يستمعون إليها.. لماذا يتجمعون تحت أقدام هؤلاء الذين يخطبون ويلعنون..؟

قد يكون ذلك خبزاً.. قد يكون كرامة، حرية، علاجاً، مساكن، ملابس، مدارس.. قد يكون، ونحن لا ندري..

ولم يزل البشر يحولون جراحهم ومشاكلهم الخاصة، إلى تعبيرات دينية أو وطنية أو أخلاقية. إن المتألم في نفسه يجد راحة وعزاء في اتهام الآخرين وسبهم. إن السباب راحة وعزاء عالميان. إن السباب لراحة وغذاء للجائعين المتعبين. إننا بقدر ما نكون متألمين نكون أصدقاء للفضيلة وأعداء للناس. لقد كان الأفضل أن نكون العكس، أن نكون أصدقاء للناس أعداء لا دعاة للفضيلة.

لقد كان وجود إسرائيل منحة من الشيطان لحكام هذه المنطقة وزعمائها، لعلهم إذا سرقوا وفجروا يذهبون يزعمون يوماً ما، أن إسرائيل هي التي تغريهم بذلك، أو أنهم يسرقون أموال شعوبهم وأعراضها منافسة لإسرائيل لئلا تسرقها قبلهم. ولعلهم كذلك إذا أنفقوا كل شيء في الدعاية لأنفسهم، وفي شراء الأسلحة التي لا يريدون بها إلا تزيين أنفسهم وحماية طغيانهم، عللوا عملهم هذا بالاستعداد لهذه الدولة.

لعلهم لو زالت هذه الدولة العدوانية يذهبون يسألون الشيطان أن يهيىء إسرائيل أخرى

مثلها أو شراً منها؛ أو أن يهيىء لهم شيطاناً أو أي شيء آخر يخوفون به، ويخطبون ضده، ويصرفون إليه خطبهم وحماسهم وسبابهم، ويملؤون به قلوب أتباعهم خوفاً وتعصباً، ويجعلونه هو المسؤول عن اتساخ ملابسهم الرسمية.

لعلهم لو زالت هذه الدولة ـ إسرائيل ـ لقاموا في جوف الليل يصلون للشيطان، يضرعون إليه، طالبين منه التعويض، طالبين إليه ألا يتركهم بلا إسرائيل أخرى، يغذون بالتخويف بها وبلعنها جوع شعوبهم، ويحولون هذا اللعن والتخويف إلى بديل عن الكرامة والحرية، وعن حل المشاكل المتراكمة.

إن الحقد الموجه إلى الخارج كان دائماً أسلوباً متديناً من أساليب الحكام والزعماء، والدعاة الكاذبين الماكرين. إن وجود العدو الخارجي، أو التخويف به جزء من الخطة الفرعية للسيطرة الداخلية. إن الآلهة نفسها وجدت أنها محتاجة إلى أن تتحدث دائماً عن عدو خارجي خطير موجهة إليه النفوس، مخوفة بفتكه وتربصه الدائمين. ولم يوجد إله دون أن يتصور لنفسه ولرعاياه وعبيده، عدواً قوياً شريراً، أو أعداء كثيرين أشراراً أقوياء، يخوف بهم ويتحدث بصخب عن شرورهم وقوتهم العظيمة، ويشد بهم أعصاب وعيون عبيده ورعاياه.

نحن دائماً إسقاطيون، تسقط أنفسنا وذنوبنا على الآخرين.

الشيطان يوسوس للإنسان؛ ولكن من يوسوس للشيطان..؟

الآخرون يصنعون ضلالنا، ولكن من يصنع ضلال الآخرين..؟

لم نستطع أن نفهم أن الإنسان يضل نفسه كما يضل الشيطان نفسه. لم نستطع أن نفهم أننا نصنع ضلال أنفسنا بالأسلوب الذي يصنع به الآخرون ضلال أنفسهم. لم نستطع أن نفهم أو نتساءل: إذا كان الكائن يستطيع أن يضل نفسه ويفسدها، فلماذا نعجز عن إضلال وإفساد أنفسنا.. وإذا لم يكن الكائن يستطيع ذلك، فمن الذي يصنع إذن الضلال والفساد للذين يضلوننا ويفسدوننا.. من الذي يصنع الفساد والضلال للشيطان.. إذا كان هو الذي يصنع ذلك لنفسه وللآخرين، فلماذا نحن نعجز عن أن نصنع لأنفسنا ما يستطيع أن يصنعه الشيطان لنفسه وللآخرين..؟

إذا كنا نحتاج دائماً إلى من يفسدنا من الخارج، فهل يحتاج مفسدنا إلى من يفسده.. وإذا كان مفسدنا يفسد من داخله، فلماذا لا نفسد نحن من داخلنا..؟

دائماً هم الآخرون الذين يضعون فينا الشهوة، والحقد، والشقاق، والاختلاف في الرأي أو في الهوى والمصلحة.. هم دائماً الذين يقسمون بلادنا إلى دول وإمارات، ويؤخرونها، وينشرون فيها الجهل والضعف، والفسق والظلم، ويعلمون حكامنا وزعماءنا الخيانة والشقاق،

والغدر والشبق المحرم، ومخاصمة الحرية والعجز عن المعرفة.. هم دائماً الذين يشنقون الله في أنفسنا، ويدلوننا على طريق الجحيم، ويجعلون منا خصوماً يتراشقون أبذأ التهم والشتائم، ويتربص كل منهم بصاحبه في مرارة وحقد مميت.. إنهم دائماً هم الآخرون، الذين يخلقوننا ويصوغون أخلاقنا ونفوسنا وعقولنا، هذه الصيغة الشريرة. ولكن لماذا لا يحدث العكس. لماذا لا نفسد نحن الآخرين، ونصوغهم الصياغات الشريرة بدل أن يكونوا هم الذين يفعلون ذلك.. أو إذا كنا نحن خالقين فضلاء لا نخلق الشر ولا الانحطاط؛ فلماذا لا نخلقهم خلقاً طيباً، بدل أن نتركهم يخلقوننا خلقاً شريراً رديئاً..؟

إن المذاهب والفلسفات والآراء الخطيرة والضالة، ليست من حاصلات المجتمعات العربية. ليس في طبيعة العرب أن يصنعوا أية فلسفة أو أي مذهب. إن ذلك لا ينبغي.. إنه ابتداع، وهم ليسوا مبتدعين. إنهم دائماً متبعون لتقاليدهم الفكرية والثقافية المتقررة الموروثة.. إنهم دائماً يفعلون كما كان آباؤهم يفعلون، وهذا أعظم تصورات وصور الفخر والفضيلة في تقديرهم.

إن ابتداع النظريات والآراء غرور وفتنة، وفقر تاريخي.. فقر في مجد الآباء. إن الفقراء في تاريخهم هم الذين يصنعون المذاهب، والفلسفات، والنظم الجديدة، أو يتقبلونها. إن تقبل الأشياء الجديدة أو ابتداعها إهانة للآباء وللسلف الصالح.

إن أولئك الذين يبتدعون الحضارات، ويجددون في أساليب حياتهم وتفكيرهم، هم قوم لا يملكون ماضياً عظيماً، أو هم قوم أوغاد يحتقرون ماضيهم. إن الأغنياء في تاريخهم لا يحتاجون إلى ابتداع شيء، كما لا تجوز البراءة من الآباء العظام؛ وأعنف أساليب البراءة من الآباء هو الخروج عن مناهجهم، أو التصحيح لعقولهم، أو لأخلاقهم، أو لحياتهم.. إن هذا تحقير لهم.

عملية تبرير بليدة

إن الشعوب تموت من داخلها لا من خارجها. إنها لا تقتل، ولكنها تنتحر. إنه لم يحدث أن مات شعب أو تأخر لأن عدواً خارجياً فعل به ذلك أو أراد له؛ ولكن الشعب يموت أو يتأخر بظروفه، وإرادته، وموهبته الذاتية.. حتى الهزيمة في الحرب لا يمكن أن تعوق أو تضعف أي شعب ما لم يرد هو ذلك.. ما لم يفعل هو ذلك بنفسه ولنفسه، عاجزاً عن فعل النقيض.

إن الاحتلال الأجنبي لا يستطيع أن يقتل. إن الأعداء المحتلين هم أسلوب واحد من أساليب التحدي الكثيرة التي تواجه الإنسان منذ يوجد. إن الإنسان يولد في خضم لا نهاية

له من التحديات. والذين يستطيعون الانتصار على تحديات الطبيعة، يستطيعون الانتصار على تحديات الأعداء.. أي يستطيعون الانتصار على تحدي الاحتلال. والذين لا ينتصرون على الطبيعة، لا يمكن أن ينتصروا على أي عدو، ولو أنهم كانوا بلا أعداء لبقوا أيضاً مهزومين وضعفاء.

إن أي انتصار في هذه الحياة لا يعني شيئاً، إلا انتصاراً واحداً هو الانتصار على الطبيعة. إن انهزامنا أمام أعدائنا إنما يعني انهزامنا أمام الطبيعة، وهذه هي القيمة الحقيقية لأية هزيمة في أية حرب أو معركة. واحتلال أي جيش لأي بلد هو تعبير عن عجز ذلك البلد في نضاله ضد الطبيعة.

إن الذين ينتصرون على الأعداء هم الذين ينتصرون على الطبيعة، أما الذين يعجزون عن الانتصار على الطبيعة، فكيف يستطيعون أن ينتصروا على الأعداء..؟

إن الانتصار على الطبيعة. هو الذي يصنع الانتصار على الأعداء. وأي انتصار على الأعداء بدون انتصار على الطبيعة لا يعني أي شيء طيب أو مفيد.

إذن فالاحتلال الأجنبي لا يعني شيئاً، ولكنه يرمز إلى شيء.. يرمز إلى أن الذين تحتل بلادهم متخلفون في إبداعهم للطبيعة وفي نضالهم ضدها، لهذا هزمهم الأعداء. ولكن هزيمة الأعداء لهم، ليست هي التي صنعت أسباب هزيمتهم. والذين يدافعون عن تخلفهم وهوانهم، ومساوئهم الكثيرة بالأعداء الأجانب، وبالأبالسة وبالمؤامرات، والغزوات الخارجية، هم مخطئون. إن ما يزعمونه ليس إلا عملية تبرير بليدة أو كاذبة.

الجلاء الحضاري

توجد اليوم نداءات خطيرة وقوية تنادي بالتخلص من كل ما وفد إلى العالم العربي مع الغزوة الأوروبية الكبرى من فلسفات ومذاهب، وأفكار وحرية، ومعارضة للحاكم أو للعقائد القديمة المأثورة. ويخشى أن تكون القوى الحاكمة والمعبرة في العالم العربي مصممة اليوم، وأنها سوف تزداد تصميماً، على أن تنفض عن العرب كل دخيل على أخلاقهم وتاريخهم من رذاذ الحضارة الغربية الوافدة. كما يخشى أن يكون في هذا الاتجاه ما يرضي الجماهير أو يخدعها. فالتفكير والتعبير المتحرران، ومعارضة الحكام، واختلاف الآراء، والأحزاب، والصحافة، والانتخابات، والمجالس النيابية، والنقابات العمالية، والإضراب، والاحتجاج.. ذلك كله دخيل على الطبيعة العربية، ضار بالعرب مفسد لهم. لقد جاء إلى البلاد العربية في غفلة من العرب، متسللاً مع الغزو الأوروبي ليدمر القيم الأصيلة الفاضلة، ليصلب الإله، ليمنع الصلاة، ليكون نوعاً من الاستعمار الفكري والثقافي، والأخلاقي والحضاري الدائم.

وهذا بطبيعته يساعد حتماً أنواع الاستعمار الأخرى. ولهذا فإن على الوطنية، والدين، والأخلاق، وكل القيم، محاربة جميع هذه الشرور وإجلاءها عن الوطن العربي الكبير، بقدر ما تجب محاربة الجيوش الغازية، بل أكثر مما تجب محاربة الجيوش الغازية.

إنهم يتحدثون ويؤكدون أن الغزو العقلي هو أفظع أنواع الغزو وأقواه.. إنه هو السبيل إلى الغزو العسكري والسياسي. إنهم كما يبدو مصممون بكل فخر وابتهاج، على تطهير الوطن العربي من جميع أساليب الديمقراطية والحرية التي تسللت بخبث إلى البلاد، مع التسلل الأجنبي الغادر الشامل. لقد فرضت الحرية والديمقراطية الضالتان ـ أعني بعض أساليبهما ومظاهرهما ـ على العرب كما فرض عليهم الاحتلال.

وكلنا نشهد اليوم حقيقة صادمة، وذات دلالة أليمة.

إننا كلنا نشاهد اليوم أن العرب يفقدون حرياتهم بقدر ما يتحررون.

إنهم يفقدون أساليب الحضارة والإيمان بها، بقدر ما يكونون سادة في بلادهم.

إنهم إذا انتصروا على الغزاة من الخارج، انتصر عليهم الطغاة من الداخل.

إن ملامح الديمقراطية التي تغشت العالم العربي في المدة الأخيرة، لم تكن إلا غزواً خارجياً.. إنها لم تكن مزاجاً أو إيماناً أو خلقاً أو نضجاً في العرب؛ لقد كانت تلك الأغراض نوعاً من المرض، والانحراف، والفساد الأخلاقي والفكري.

إن الزعماء والحكام العرب يدللون بتصرفاتهم الخرقاء على هذه الحقيقة.. إنهم يدللون على هذه الحقيقة بعنف.. إنهم يدركون أن الحرية خصم لهم، ولهذا يلتمسون المبررات المختلفة للقضاء عليها.. إنهم ليحاربون الديمقراطية، وكل أنواع التسامح بالحوافز التي يحاربون بها الاحتلال والنفوذ الأجنبي.

ولماذا يحاربون النفوذ الأجنبي..؟

هل لأنهم أحرار أو أصدقاء للحرية..؟

هل لأنهم يريدون إنقاذ شعوبهم وإعطاءها أفضل أو أكثر مما كان يعطيها الأجانب..؟

إنهم إذن لأبطال وخيرون جداً؛ ولكن كلا. فهؤلاء يطردون النفوذ والاحتلال الأجنبي لأنهم يريدون أن يكون الاحتلال والنفوذ لهم هم وحدهم.. إنهم منافسون للمحتل الأجنبي لا مناقضون له. إن غرضهم أن يجيئوا مكانه ويخلفوه في جبروته، ليس غرضهم أن يصلحوا ما أفسد أو يفعلوا خيراً منه. ولهذا فإن آلام الشعوب لا تزول بزوال الأجنبي، ولا يجيء الخير ولا الحرية مع مجيء هؤلاء الحكام والزعماء المحررين.

إذن، هم يمكنون لأنفسهم، لا يحررون بلادهم.

لقد أرادت منهم شعوبهم أن يكونوا لها رسلاً، فأصبحوا فيها غزاة.

إن ما يحدث الآن في العالم العربي يعني أن بداوة التاريخ، بداوته الأخلاقية والعقلية والنفسية، تسطو على العرب لتحتل مكان الغزاة الأجانب. إنهم يريدون أن يكون مجيئهم بديلاً عن الغزو الأجنبي، كفارة لكل مظالمهم وحماقاتهم، وجهلهم وتأخرهم.

إنهم يتصرفون وكأنهم يعتقدون أن الأجانب ذنب لأنهم أجانب، وأنهم هم تقوى لأنهم مواطنون.

إنهم يحاربون الحريات لأنهم يخشونها على استبدادهم وهيبتهم وتفردهم. إنهم لا يحاربونها لأنهم فضلاء يخشون الفساد والفوضى على بلادهم.. إنهم يحاربون الحريات بالحوافز التي يحاربون بها الخصم، لا بالحوافز التي يحاربون بها الباطل والفساد.

وقد يذكرون في التدليل على بغضهم للحريات، أن تجربتها في العالم العربي قد جاءت ضد نفسها. وقد يكون هذا التدليل محتمل الصدق لو كانت تجربة الحكم المطلق: حكم الشيخ، والخليفة، والبطل، والقيصر، قد جاءت أفضل من ذلك.

فإذا كانت تجربة الديمقراطية، الديمقراطية الناقصة، الديمقراطية المنقولة أو المفروضة، لم ترض فماذا فعلت التجربة المضادة..؟

إن هؤلاء القياصرة المعادين للحرية والتسامح لو فعلوا أي شيء طيب، فليس إلا تقليداً أو استعارة أو عوناً من بلاد أخرى. إنه إن كان هؤلاء القياصرة البدو قد فعلوا شيئاً حسناً، أو إن كان قد حدث في عهدهم شيء حسن، فليس سبب ذلك أنهم قياصرة قد أعادوا بداوة السلطة.. ليس سبب ذلك سحق الحريات والتسامح.. إن سبب ذلك هي الظروف الجديدة التي تصنع التغيير في كل مكان، تحت كل نظام حتى تحت نظام القياصرة الذين أعادوا إلى الحكم أخلاق البداوة ومنطقها.

ومع هذا فلا يمكن القول بأن العرب قد جربوا الحرية أو الديمقراطية ليكون ممكناً الزعم أن تجربتها قد هزمت. إن العرب لم يعيشوا الحرية بمعناها الحضاري في أي عصر من عصورهم، وإنما عاشوا جميع عهودهم تحت أفواج متعاقبة من الآلهة، والطغاة والسلاطين، والخلفاء، والشيوخ، والأنبياء، والعقائد والمخاوف الكبيرة المستبدة.

لقد كانت العقائد والتعاليم المتوحشة تسحق شجاعة العرب وحريتهم.. لقد كانت الآلهة القوية تذل كبرياءهم.. لقد كان الخوف من الغيب يهبط بشموخهم.. لقد كانوا في كل التاريخ مقهورين.. لقد رأوا صوراً تعرض على الشاشة، ولكنهم لم يروا أقواماً أحراراً يعيشون الحرية ويؤمنون بها، ويفهمون تفسيراتها، ويجرؤون على ممارستها.

ديمقراطية المعابد

إن حكام العرب يحاولون اليوم إحياء عصر الخلافة والإمامة، مهما لعنوها وزعموها أعلى مستويات الرجعية. إنهم يعتقدون أن جميع نظم الحكم والحياة الموجودة اليوم عند المتحضرين، هي خروج على العروبة والحاد بها. إنه ليس في هذه النظم وأنواع الحياة التي تحكم العالم ما يمكن أن يكون صالحاً للعرب.. إن كل ذلك كفر وفساد، وتدمير للقيم العربية الفاضلة.

وإذن، فالواجب الرجوع إلى التاريخ العربي والطبيعة العربية.. إذن، واجب الرجوع إلى عهود أمراء المؤمنين.

ولكن لا بد من التجديد في شيء واحد. إنه لا بد من اقتباس الوسائل الحديثة الحضارية المختلفة التي تجعل الحكم البوليسي الدكتاتوري حكماً شديد البطش والإغراء والإغواء.

وإنه ليخشى أن يرجع العرب إلى عهود العمامة والجبة، والمسبحة والطيلسان، مثلما كان في أزهى عصور الأمجاد العربية. وإذا لم يستطيعوا أو يجرؤوا على وضع هذه التيجان العربية فوق أجسامهم، فهم واضعوها حتماً على أخلاقهم وقلوبهم وعقولهم، وعلى أساليب حكمهم.

وقد يخشى أن يبالغوا في تعصبهم للعروبة وتمردهم على الحضارة المجلوبة، وتذهب بهم المبالغة إلى أن يحرموا المطبعة والكتاب. ومع أني لا أخشى أن يذهبوا إلى هذا المدى في فضيلتهم العربية، فأنا أعتقد أنهم سوف يذهبون إليه في الفكرة والنتيجة. إنهم لن يحرموا الكتاب ولا المطبعة؛ ولكنهم سوف يحرمون رسالتهما.

إن رسالة المطبعة والكتاب، هي حرية التفكير والتأليف، والثقافة والنشر؛ ولكنهم مستعدون لصلب الإله نفسه، لو أنه نزل من سمواته ليجعل هذه المحرمات الخطيرة سلوكاً في المجتمع، وقانوناً منفذاً من قوانينه.

إذن، لا بد أن يحرموا الكتاب والمطبعة. بل هم لم يزالوا محرمين لهما، وإذا استخدموهما فمن أجل تحريمهما. إنهم يجعلون من المطبعة عوناً على تحريم الآراء والحرية التي تجيء مع المطبعة والكتاب. ولو أن حاكماً منع المطابع والكتب من الدخول إلى الوطن الذي يحكم، لكان أفضل أو أقل خطراً وعداوة لهما من الحاكم الذي يستعملهما في مقاومة الحرية والثقافة، والأفكار الجديدة. لقد أصبح الكتاب والمطبعة عدوين للكتاب والمطبعة في العالم العربي. إن الحكام يمارسون أعنف الحروب بالمطبعة والكتاب لسحق الحريات والذكاء وكل الأساليب الحضارية.

لقد حولوا الكتاب والمطبعة إلى أسلحة جهالة، وبداوة، واستعباد.. لقد حولوها إلى حرس للطغيان والغباء.. إلى حرس مطيع ذليل هاتف لا يخشى تمرده.

إن سادة العرب ينظرون اليوم بحنق، وغيظ، وخوف، إلى ما خلفه الغزاة وراءهم من بقايا صحف وكتب ومطابع، وأشياء أخرى مشابهة، ومن بقايا لبشر قد يرون أو يسمعون ما عند الآخرين، أو يتذكرون ما كان عندهم هم. إنهم يمقتون الحرف ويلعنون مخترعه. لقد ذهبوا يصبون كل غضبهم على الصحافة والكتب والأقلام، ويضعون إشرافاً عليها فيه كل معاني التحقير والإذلال والانتقام. ولعل كثيرين منهم يكرهون إعطاء الإذن باستيراد المطابع، وهم يضعون عليها رقابة هي القتل، وهي في معناها أشد من التحريم، مع أن هذا العدو لهم، أعني المطبعة والكلمة ـ كما ذكرت ـ قد تحول تحت التعذيب وعمليات الإذلال إلى صديق منافق لهم.. تحول إلى عميل لا شرف له ولا شجاعة.

إن هؤلاء الحكام يسحقون كل أساليب الديمقراطية ثم يملؤون الدنيا زعماً أنهم يبتكرون ديمقراطية جديدة. إن الديمقراطية الجديدة التي يبتكرون هي نوع من ديمقراطيات المعابد. إنهم يكتلون الجماعات المغلوبة على أمرها بعد أن يقتلوها خوفاً وهواناً، ويسحقوا فيها كل معاني الشجاعة، ثم يأمرونها بأن تعبر عن هزائمها وأحزانها بجميع أساليب العبادة والهتاف والانهيار، دون أن تجرؤ على رفع طرفها إلى السماء سؤالاً أو شكاً في حكمة أربابها.

إنهم قد يتركونها تتمنى وتبكي، وتقرر وتقترح، وتتحدث عن نفسها وعن مطالبها، بل إنهم قد يلزمونها بذلك إلزاماً، فهذا نوع من العبادة.

إن إلزام الجماهير المغلوبة المقهورة بأن تتمنى، وتطالب، وتقترح، وتتحدث عن آلامها واحتياجاتها قد يرضي طغاتها. إن ذلك نوع من الصلاة والتقديس.. إنه أسلوب من أساليب البكاء.. وكم يسعد الطغاة أن يجدوا جماهيرهم المقهورة تبكي.. لهذا كانت آلهة القدماء تجعل البكاء عبادة. إنه ليرضي الآلهة كما يرضي الطغاة، أن تجد جماهيرها الذليلة الخائفة تناديها وترجوها، وتطلب منها ببكاء وإيمان؛ ولكن كل ذلك يجب أن يكون بأسلوب الضراعة والدعاء والاستسلام، كما يفعل المؤمنون حينما يتقدمون باحتياجاتهم وصلواتهم إلى الآلهة.

إن هذه الجماعات ليس مفروضاً عليها أن تطيع فحسب، بل وأن تريد طاعتها.. إنه لا يكفي أن تخضع أعضاؤها، بل يجب أن تخضع إرادتها وكرامتها.

وفي مثل هذه الديمقراطية الجديدة، يصبح الإيمان بالشيطان ألزم ضرورة، ليكون مسؤولاً عن أخطاء القائد وطغيانه؛ لأن القائد لا يمكن أن يكون مسؤولاً ولا مخطئاً. إن كل ما

يشكوه المجتمع حينئذٍ من آلام، هو من عمل القوى الخارجية المتآمرة التي تعادي القائد. وتدس له لتفسد خططه العبقرية المنزهة، وحبه الأصيل لشعبه وللإنسانية كلها.

إن المؤمن يؤمن بالشيطان ليلصق به أخطاء الآلهة. وإن العائش في مثل هذه الديمقراطية، لمفروض عليه أن يؤمن بالأعداء الخارجيين المخربين وبمؤامراتهم، ليلصق بهم جهل حاكمه وفساده. وفي عهود الإيمان بالأديان وعهود ديمقراطية الطغاة، تشتد الحاجة إلى الإيمان بالشيطان وبالعدو الخارجي، وإلى الحديث عنهما بجنون وإرهاق وافتضاح. والفرق بين هذه الديمقراطية والديمقراطية المتحضرة، كالفرق بين الصلاة والعبقرية.

إن الأجهزة الدعائية المحكومة بالطغاة كلما أصابها جنون المبالغة في الحديث عن القوى الخارجية المتآمرة، كان ذلك يعني أقوى الامتداح لهؤلاء الطغاة. كما أن مبالغة الوعاظ في تآمر الشيطان ونضاله ضد الإله وانتصاره عليه، هي أعظم الثناء على الإله. إن الطغاة ليشعرون بأعظم النشوات كلما بالغت الأجهزة وبالغ الكتاب في وصف القوى المتآمرة المخربة. والكتاب والعاملون في الأجهزة الدعائية يعرفون ذلك، لهذا يذهبون في جنون المبالغات بلا أي وقار. إنهم بهذا الجنون لينالون كل الجزاء والرضا عن الطغاة.

*

والعقوبات التي يضعونها على وسائل النشر والتفكير هي التعبير الأعلى عن كراهتهم للمطبعة والكتاب، وتناقضهم مع الديمقراطية والحضارة. إنهم لا يريدون من الحضارة إلا ما يؤكدون به استبدادهم، ويضربون به كل ما يمكن أن يؤدي إلى الحرية، أو إلى إضعاف قبضتهم القوية. فالحضارة عندهم وسيلة لمقاومة الحضارة. إنهم إذا أخذوا بشيء من مزايا العصر الحديث فليس لأنهم يحترمونه أو يؤمنون بقيمته، وليس لأنهم يحبون الآخرين أو يريدون الخير لهم، أو رفع مستوياتهم؛ وإنما يفعلون ذلك لأنه لا خيار لهم في ألا يفعلوا، أو لأنهم يريدون مجاراة الآخرين ومقاواتهم، أو يريدون أن يكونوا عظماء مشهود لهم بالذكاء والمقدرة والتفوق، وحب الإصلاح والتطور. وقد يقصدون بذلك حماية عهدهم؛ فالأخذ بمزايا الحضارة نوع من الحماية للطغيان في تقدير الطغاة الجهال. والحضارة مستعدة دائماً دون احتشام أو شروط، أن تتحول إلى حماية للطغيان، بل إنها لمستعدة أن تتحول إلى دعاية له بل زينة، بل إنها لتفعل ذلك دائماً. ولعلها أكثر إغراء بالطغاة وتسويغاً ودعاية وعرضاً لهم، من البداوة والتخلف. إن الحضارة لتهب نفسها للطغاة الجهال بأسلوب فيه كل الهجاء لأخلاقها وذكائها.

وحتى العظماء جداً، الذين قادوا البشرية إلى أعظم انتصاراتها لم يكونوا فضلاء، بل كانوا عظماء. لم يكن حب الناس أو الإيمان بالخير هو الحافز لهم، ولكنهم كانوا يسعون

لإرضاء أنفسهم.. كانوا يمارسون أنفسهم، كانوا يهبون أنفسهم، كانوا يصنعون عبقريتهم أو عظمتهم، لأنهم لا بد أن يصنعوها، لا يستطيعون ألا يصنعوها. كانوا يصنعونها كما يصنعون ذكاءهم، وأحاسيسهم وإرادتهم، وحبهم وبغضهم.. كما يصنعون رؤيتهم وسماعهم.. كما يصنعون عيونهم وآذانهم وقلوبهم.

وليس الذين صنعوا السلام والرخاء والحرية، بأكثر صداقة أو حباً للإنسان ممن صنعوا الحروب والعبودية والفقر. إن هؤلاء وهؤلاء ليسوا أصدقاء ولا أعداء إنهم قوم يستجيبون لحوافزهم ولظروفهم، وطاقاتهم وهمومهم. وهؤلاء الأعداء للديمقراطية كلما خضعوا لالتزامات الحضارة، بأن أخذوا بالتصنيع والمشروعات الإنشائية الأخرى، اشتدت حماستهم ضد الحرية لأنهم يدركون حينئذٍ أن أي تغيير في المجتمع قد يؤدي إلى الحرية التي يخشون أن تؤدي إلى إسقاط تسلطهم أو إضعافه. إنهم كلما وافقوا على أن يستفيد مجتمعهم من مزايا الظروف الجديدة التي لا يستطيع أي مجتمع أن يغلق أبوابه دونها، عاقبوه ـ أي عاقبوا مجتمعهم ـ عقوبات متكافئة أو متفوقة، عاقبوه بالطغيان والإذلال والتكبر المهين.

*

ويحمل المستقبل للعرب احتمالات غير سارة. إنهم يسيرون في اتجاهين مختلفين، إنهم يأخذون تحت ضغط الظروف بأشياء مما يفرضه العصر الذي يعيشون فيه.. ثم يرفضون بل ويعادون روح هذا العصر وخصائصه الفكرية والثقافية والحضارية.

وهذا يعني أن يظلوا دائماً يخلقون من الخارج، أن يظلوا معتمدين على الخبرة والقروض والمنح الأجنبية، لأن ملكاتهم مخمدة ومعزولة، وحكامهم وزعماؤهم يخشون انطلاق هذه الملكات ويقاومونها، ويحاولون الاستغناء عنها بالاعتماد على الأجانب الذين يملكون الاستعداد والرغبة بلا أخلاقية، في أن يضعوا أنفسهم وكل ما عندهم من براعات في خدمة هؤلاء المتسلطين الأغبياء بلا شروط، أو بأرخص الشروط، مقدمين لهم كل فروض الطاعة والولاء اللازمة، مقدمين لكبريائهم وعشقهم لأنفسهم كل الهبات والمغازلات والقبلات. إن من أبشع ما تفعله اليوم الدول الكبرى الغنية المتحضرة نفاقها الذليل غير الإنساني لهؤلاء الحكام الطغاة الصغار، على حساب شعوبهم.

إن الحضارة عند هؤلاء الحكام والزعماء ليست تطويراً أو تنمية للمواهب الوطنية، ولكنها هي الاتفاقات الخارجية للمساعدة الاقتصادية والفنية، ولبيع الأسلحة. إن الطغاة يريدون من الناس أن يكبروا كرعايا وأن يصغروا كبشر. إنهم يريدون من شعوبهم أن تكون قوية في مجموعها، ضعيفة في أفرادها. إن الشعوب لا تكون خطراً على المستبدين، إلا إذا قويت

فيها الفردية. والخضوع للروح الجماعية هي الفرصة المثالية لتمكن الطاغية. إنهم حينما يرفضون كل الحضارات والفلسفات والمذاهب، بحجة أن العروبة لا تستعير نفسها من الخارج، وبحجة أن ذلك خيانة وكفر بالعروبة وبالذات وبالآباء، وبحجة أن العروبة وجوداً وخصائص لا تشبه غيرها.. إنهم حينما يفعلون ذلك يسقطون أنفسهم، ويحكمون على عهودهم بالموت؛ لأن الطريقة الغبية الاستبدادية التي يحكمون بها، ليست ابتداعاً من عبقريتهم. لقد كانت قبلهم.. لقد كان الطغاة والجاهلون قبل وجودهم، يحكمون كذلك ولا يزالون يفعلون.. لقد كان من قبلهم يتألهون ويعادون الحريات والتطور، ويصنعون الظلم والكذب والفقر، ويتحدثون عن الشيطان كما يصنع هؤلاء الصائنون للعروبة عن الشبيه والمثيل والتقليد.. لقد كانوا مسبوقين ومقلدين حتى في هذه.

فإذا كانت العروبة ابتداعاً لا شبيه له، أو يجب أن تكون ابتداعاً لا شبيه له، وجب أن يموت هؤلاء وتموت عهودهم. بل وجب أن تموت العروبة نفسها لأنها لا تستطيع أن تعيش إلا بأسلوب عاشه الآخرون، ويعيشونه الآن. أما إذا كانت العروبة تقليداً وتشبهاً، أو إذا لم يكن وجود تشابه بينها وبين غيرها زندقة أو خيانة أو تحقيراً للذات، فالواجب أن تقلد وتتشبه بالنظم والمذاهب الحرة المتحضرة، لا الغبية المستبدة؛ أو أن تتشبه أو تشابه هذه دون ذلك.

وهؤلاء الذين يصرون في دعوى عريضة أن استيراد المذاهب والفلسفات عملية خيانة للعرب، قد يجهلون أن جميع ما لديهم مستورد حتى الكلمات والأسماء، حتى الشعارات والهتافات، حتى الخطب. وأنهم لو تخلوا عن عمليات الاستيراد والتشبه بالآخرين في مذاهبهم، ونظمهم، وأخلاقهم، لماتوا جهلاً وجوعاً.. لماتوا في الظلام.. لماتوا في الصحراء ظمأ وقحطاً، ولتخلوا عن كل شيء حتى فلسفة الطغيان، والغرور، والجهل التي يباشرون، وعن جميع ما عندهم من مظاهر الدولة والنظام والقوة. إن كل شيء عندهم مأخوذ، حتى أساليبهم ضد الحرية والتفكير، والتسامح والوقار.. فالدكتاتورية البوليسية بكل أجهزتها وتنظيماتها، وشرطتها وجيشها، ومخابراتها وقدرتها على القمع والتخويف، والإغراء والإغواء والانتشار.. هذه الدكتاتورية الرهيبة التي يفاخر بها أقوى حاكم ثائر من ثوارنا وحكامنا، ليست ابتداعاً عربياً ولا ملكاً للعرب وحدهم. إن العرب الآن يستوردون كل شيء حتى الدكتاتورية المنظمة الباطشة. لقد كانت لدى العرب منذ وجدوا دكتاتوريات، ولكنها كانت ضعيفة وغير منظمة. كانت لا تحسن الضرب والخنق، لا تستطيعهما على المدى الأوسع الأبعد. أما اليوم فما أعظم وأخطر.. أما اليوم، أما اليوم فما أخطر وأعظم.. ما أخطر وأعظم ما يحدث اليوم.. ما أخطر وأعظم دكتاتورية اليوم.

إنها دكتاتورية تحرسها وتعلن عنها، وتبررها وتنفذها جميع قوى الحضارة.. إنها دكتاتورية تصنعها وتنفذها كل ما في الآلهة من مواهب وغضب وخوف.. إنها دكتاتورية تشرف على صياغتها كل قوى الأبالسة.

*

أنا أشعر أن شيئاً ما، شيئاً كبيراً ليس في التفكير العربي، وأن هذا الشيء الكبير المفقود هو سبب جميع الظواهر المذكورة. فالعيوب التي تحدثت عنها في التفكير العربي هي تعبير عن هذا الشيء الكبير المفقود، وظواهر له، ولكنها ليست إياه.

وأشعر أنني لم أستطع أن أحدد المعنى الذي أريده تحديداً يجعله مفهوماً من جميع ما ذكرت هنا من سمات وظواهر.

وهنا أجدني كمن يرى مريضاً، أو يرى نفسه مريضاً، ويقتنع بوجود المرض وقسوته، ويعجز عن معرفته.

فلعلي تحدثت عن أعراض المرض لا عن المرض نفسه.

ولكن أليس كل حديث عن المرض إنما هو حديث عن أعراض المرض، لا عن نفس المرض..؟

أليس كل تشخيص للمرض وعلاج له، إنما يعنيان التشخيص لأعراض المرض وعلاج لهذه الأعراض، وليسا تشخيصاً لنفس الأمراض أو علاجاً لها..؟

وهل يمكن التشخيص لنفس الأمراض أو العلاج لها..؟

إن المرض ليس إلا عرض المرض، ليس نفس المرض. إن نفس المرض لا يمكن الوصول إليه ولا معرفته.. إن ذلك لم يحدث حتى اليوم.

هذا الإنسان مثلاً مريض بالسل، أو بالسرطان، أو بالسكر، أو بالقلب، أو بالضغط العالي، أو بالشرايين. إن أي مرض من هذه الأمراض الغادرة ليس هو المرض، وإنما هو عرض المرض، أو مظهره، أو تعبيره، أو إعلانه، أو الإعلان عنه.

لماذا يصاب هذا الإنسان بالمرض دون الآخرين.. ولماذا يصاب بهذا المرض ذاته، دون الأمراض الأخرى التي يصاب بها الآخرون..؟

إن المرض الذي أصاب ذاك الإنسان واكتشف فيه، هو عرض المرض؛ أما المرض نفسه ـ وهو لماذا يمرض، ولماذا يمرض بنفس هذا المرض ـ فهو المرض الذي لم يمكن تشخيصه ولا علاجه.

إن الاستعداد للمرض ـ لهذا المرض ـ هو المرض؛ فما هو هذا المرض..؟ إن المرض

موجود قبل وجود حالة المرض. إن المرض هو استعداد هذا الجسم لاستقبال المرض، لاستقبال هذا المرض المعين.

إذن كل حديث عن الأمراض إنما هو حديث عن أعراضها، وكل تشخيص لها إنما هو تشخيص لأعراضها، وكل علاج لها إنما هو علاج لأعراضها.

إن العبقرية في الإنسان ليست هي العبقرية، بل هي أعراضها، أو مظهرها، أو الإعلان عنها.. أما نفس العبقرية فهي كون هذا الإنسان مخصوصاً بها دون من لم يكونوا كذلك.

والمجتمع أو الإنسان الذي يفقد الموهبة، لماذا يفقدها.. أو لماذا لا توجد فيه..؟

إن الموهبة لم توجد فيه لأنه ليس مستعداً لأن توجد فيه.

ولماذ لا يقبل أو لا يستطيع أن يكون موهوباً.. لماذا لا يقبل أو يستطيع هذا الإنسان أن يكون بصره أو قلبه قوياً، أو أن يكون ذكياً..؟

إن فقد الموهبة يعني العجز عن امتلاكها. ولماذا نعجز عن امتلاك الموهبة..؟

إن الآفة هي العجز عن هذا الامتلاك، وليست هي فقدها. ولكن فقدها قد يعني العجز عن امتلاكها.



خطر التفاوت الحضاري

إن هزيمة التخلف آفة تفسد التفكير والأخلاق والتوازن، وتجعل التناقض محتوماً وأليماً. وإن انتصار التفوق لآفة تحتاج إلى التكفير والعقاب، والهزيمة والاستغفار.

إن التفوق كالتخلف كلاهما ذنب وتشوه في حساب الآخر، وفي حساب النتائج.

إن التفوق ــ نفس التفوق ــ ذنب لأن التخلف يكتشف نفسه أمامه.. لأنه يسلبه الرضا عن نفسه ويحكم عليه بالتغير ويدفع ثمن التغير، وهو لا يطيق ذلك حتى ولو دفعه من هبات المتفوق وموهبته.

*

بالطاقة لا الخطة

إذا واجه الإنسان موقفاً أقوى منه صدمت مشاعره. وصدم المشاعر يهيىء التفكير والسلوك للإصابة بضلال المواجهة وعجزها وانهزامها. وإذا لم تتكافأ القدرة مع الموقف حدثت الصدمة النفسية. وجميع الانحرافات السلوكية والشعورية والفكرية هي التعبير الأليم عن التناقض بين ما كان وما ينبغي أن يكون.. بين الإنسان وظروفه.

إن البشر يحقدون ويبغضون، ويصنعون الضجيج والألم، والخراب والعداوة، بقدر ما يعجزون عن التكافؤ مع ظروفهم. وقد اخترعت الحياة الحقد والبغض والسباب لكي يستطيع البشر ابتلاع حياتهم.. كان هذا من أعظم اختراعات الحياة.. كان ابتلاع الحياة شيئاً عسيراً لولا الأحقاد والبغضاء والشتائم التي يتعامل بها البشر. إن هذه أجهزة ابتلاع وتحويل لآلام الحياة وأحزانها وسخافاتها، جاملت بها الحياة الإنسان.

إن الانفعالات الرديئة والتعبير عنها بالصراخ آلام محولة. إن الضعيف لا يستطيع أن يعيش من غير صراخ وانفعالات رديئة؛ إلا بقدر ما يستطيع أن يعيش من غير قلب يخفق. إنه ليس من الممكن أن نخطىء لو كنا مساوين لظروفنا. إن الخطأ في تصرف الإنسان هو مقدار الفرق بين ما يريد أن يفعل، وما يستطيع أن يفعل. إن المرض نفسه ليس إلا عجز الحياة عن التكافؤ مع ظروفها وبيئتها.

الإنسان ليس جهاز استقبال بل تطور تاريخي خالق. إنه يحيا من داخله.. إنه يحيا من كونه إنساناً يتعامل مع مجتمع من الشموس والتراب، والرياح والحشرات.. إن كل الأشياء الأخرى حوله، هي موضوع حياته ومجالها. إنه يتعامل مع الوجود الذي يحيط به، يتعامل معه كخالق مغير، لا كمجرد وجود ضعيف مخلوق غير متحدد.

إنه لا يمكن أن نفترض الإنسان ظرفاً من الظروف.. إنه ليس ظرفاً، ولكن قوة تحكم الظروف، حتى مشاعرنا محكومة بذواتنا لا بظروفنا.

نحن لا نكون إلا أنفسنا، وظروفنا لا يمكن أن تجعلنا متفوقين على خصائصنا، ولا متخلفين عنها. ظروفنا لا تصنع عواطفنا؛ بل تصنعها ذواتنا ثم تعكسها على ظروفنا. إننا نحب ونكره، ونتفاءل ونتشاءم، ونحزن ونبتهج، كما نقوى ونضعف، ونتقدم ونتأخر، ونفكر بمقدار أو بقانون تطلقه ذواتنا عاملة في ظروفنا.

إننا أقدر على تكييف ظروفنا من ظروفنا على تكييفنا. وتغيير الظروف لا يمكن أن يغير من طبيعة الشيء. إن الظروف تجعل الشيء يستطيع أن يعمل طبيعته، لا أن يغير تلك الطبيعة أو يعطي غيرها. إننا إذا التقينا بظروفنا الملائمة، استطعنا أن نحقق خصائصنا؛ لا أن نخرج عليها. وإن أي ظرف لا يعني شيئاً بدوننا، فنحن الذين يعطون الظروف قيمها وتفاسيرها. إننا نفعل الظروف بقدر ما نستطيع، لا بقدر ما تحمل الظروف من احتمالات. إن فعلنا للظروف وفيها، متحدد مع أن الظروف نفسها غير متحددة. ولا يوجد من يفعلون بقدر ظروفهم. إن احتمالات الظروف أكبر جداً من كل احتمالاتنا؛ فلو كنا نكون بقدر ما تساوي ظروفنا لجاءت كينوناتنا شيئاً فوق كل تصور. إن صفاتنا هي التي تحدد وجودنا، لا صفات الوجود الذي نتعامل معه ونعمله. إن كل شيء في الكون إنما يساوي نفسه لا نفس ظروفه؛ لهذا تجيء الأشياء مقدرة بذاتها لا بظروفها. ولو كان البشر يساوون ظروفهم لا ذواتهم، لكانوا دائماً شيئاً لا حدود لقوته ونجاحه، أو شيئاً تافهاً لا قيمة له؛ لأن الظروف إما هذا أو هذا. وقد تحددت الخصائص واختلفت، أو تساوت مع اختلاف الظروف ومع تساويها. إن أية نبتة مقيدة بذاتها وبصفاتها التاريخية، مهما اختلفت أو تساوت العوامل الخارجية المحيطة بها. وإن أي شيء لكذلك. ولو كانت العوامل الخارجية أقوى من الصفات

الذاتية بحيث تستطيع تبديلها، لكان من الممكن إيجاد كائنات وبشر متساوين في صفاتهم، بوضعهم تحت ظروف متساوية. وقد يبتكر العلم في يوم من الأيام وسيلة تحقق للبشر التساوي في مواهبهم مثل تساويهم في أصواتهم الانتخابية وفي تكوين الأرقام العددية.

تغير في التوزيع، لا المقدار

توجد في كل إنسان قدرة ذاتية تصوغ مشاعره، وتوزعها طاقات بمقادير تحددها صفاته النفسية والبدنية. أنت وأنا وكل إنسان آخر تطلق ذاته شحنات معينة من السرور والاكتئاب، والتشاؤم والتفاؤل، والذكاء والغباء، والجرأة والجبن، والحب والبغض، مقدرة باستعداداتنا الذاتية؛ لا بالأوضاع التي نحياها. فالذي تحمل ذاته شحنة من السرور والرضا تعادل ستين في المائة وهو في السجن أو في ظروف أخرى أليمة جداً، ستكون النسبة هي نفسها لو أصبح أقوى رجل فوق أقوى شعب يحبه ويطيعه ويهتف له. وإن العكس أيضاً صحيح. إن هذه النسبة تتغير في توزيعها لا في مقدارها. فالذي تحمل ذاته شحنات كبيرة من الانفعالات السارة وهو في وضع طيب، ستبدو النسبة مختلفة حينما ينتقل إلى وضع آخر أليم. ولكن النسبة مع هذا لا تتغير، وإنما يتغير التوزيع، لأن الطاقة الانفعالية مثل الطاقة العضلية، تفعل ما تستطيع لا ما يمكن. إن ما يمكن دائماً لا حد له؛ ولكن القدرات هي التي تحدد نفسها، فالحدود في الاستطاعة لا في الإمكان. إن ذكاءنا مساو لذكائنا لا للظروف التي نمارسها أو تمارسنا أو تمارس نفسها ضدنا. وإن قدرتنا النفسية أو انفعالاتنا، مساوية لقدرتنا النفسية ولانفعالاتنا، لا لنفس الأشياء التي تواجهنا ونواجهها بغضب ومقاومة، أو برضاء وتلاؤم.

إن ذلك الإنسان الذي تتألم نفسه آلاماً هائلة في أول مواجهته لوضع شاق معين، سيشعر بارتياح نفسي مماثل بعد زوال الصدمة الأولى، لتكون النسبة ثابتة ولكي تصبح ذاته متعادلة مع قدرتها على المواجهة، لا على ما يواجهها من الأحداث المضادة. إن الحياة بارعة في تكييف نفسها، وتكييف ظروفها لمصلحتها، وفي تلاؤمها مع أوضاعها الأليمة.. حتى القدرة على النوم والعجز عنه، أسبابهما ذاتية، ونسبهما ثابتة في كل شخص مهما اختلفت المؤثرات الخارجية. هذا مع الاختلاف بين كل فرد وفرد. ولكن وصف الحياة «بالبراعة» قد يكون وصفاً تقليدياً.. قد تكون الحقيقة أن الحياة تعمل دون أية براعة، ولكن نحن نصفها بذلك خطأ أو حاجة أو إشاعة.

ليست مقادير الابتهاج التي تطلقها حياة من كانت ظروفهم جيدة بأكبر من المقادير التي تطلقها حياة من كانت ظروفهم سيئة. وليست مقادير الاكتئاب التي تطلقها حياة من كانت ظروفهم سيئة، بأعظم من مقادير الاكتئاب التي تطلقها حياة من كانت ظروفهم جيدة. وإذا

ابتهج الإنسان لسبب خاص من أسباب الابتهاج الظاهرة، كان المعنى أن ذلك الإنسان محكوم عليه بالابتهاج، حتى ولو لم يوجد ذلك السبب الخاص.. وهكذا الأمر حينما يحدث العكس. فأسباب انفعالاتنا الخاصة هي أسباب ظاهرية، ولا بد أن نصنع انفعالاتنا ونوزعها مهما كانت الأسباب الخارجية.

نحن نبتهج ونكتئب بقوانين من قوانين وجودنا، لا لأن أموراً رديئة أو جيدة قد وقعت لنا. إن الأشياء لا تؤثر فينا إلا بقدر ما نستطيع أن نجعلها كذلك. إننا نحن الذين نصنع ضحكنا ورغبتنا حين نضحك ونرغب، لا ما حولنا من معانٍ وأشياء.. إننا نتأثر بقدرتنا لا بقدرة الأشياء التي تعد مؤثرة.

إن الحب ليس إلا إغراء ذات المحب لا ذات المحبوب. وإن السحر موجود في عيني العاشق لا في عيني المعشوق. إن التأثر بالمؤثر الواحد يختلف لاختلاف المتأثرين ما بين إنسان وإنسان وغير إنسان.

إن الحماس ليس في الأشياء بل في الإنسان.

والبشر حينما يغيرون أوضاعهم، لا يفعلون ليحققوا مرحلة من مراحل الابتهاج، بل يفعلون لأن الحياة لا تكون إلا حركة وتغييراً؛ فهي لا بد أن تتغير وتتحرك بلا حساب للخسائر والمكاسب. إنها تتحرك كأية ظاهرة كونية.

إن عظمة الموقف وتفاهته لا تغيران من حقيقتنا النفسية شيئاً.. إننا نواجه الموقف العظيم بنوع الانفعالات التي نواجه بها الموقف الحقير. وإن الكبار جداً ليواجهون ويعالجون المشاكل الكبرى بمشاعر الصغار جداً، أو بمشاعرهم ومواهبهم النفسية والأخلاقية التي يواجهون ويعالجون بها المشاكل أو الشؤون الصغرى جداً. فقيمة المشكلة لا تصنع قيمة مساوية من الشعور والأخلاق لدى من يواجهون تلك المشكلة. إن أنفسنا لن تكون كبيرة إذا واجهنا مشكلة كبيرة، وصغيرة إذا واجهنا مشكلة صغيرة. إن أنفسنا لا تجيء على مقاس المشكلة بل على مقاس ذاتها، كما أن أجسامنا لا تجيء على مقاس الحمل بل على مقاسها هي.

إننا نجد قادة العالم العظام جداً، يتحاربون بالشتائم والاتهامات، والمشاعر الصغيرة الجارحة، كأنهم أطفال صغار يتواجهون ويتلاعنون بمستوياتهم وبلغاتهم المبتذلة. إنهم يتعاملون فيما بينهم كباعة صغار، يتلاعنون ويتباغضون ويتحاسدون بلا أي ذكاء أو عظمة أو وقار أو تهذيب؛ تعبيراً عن منازعاتهم وأحقادهم، واختلافاتهم الصغيرة التافهة، لا كمراجيح في الهواء تحمل في قاعها كل مصير البشر.

كم هو خطب كبير أن تواجه أكبر المشاكل بأصغر الأخلاق.

ترويض للغابة، لا خروج منها

إن عقدة الموضوع أن أخلاق الإنسان مرتبطة بانفعالاته. وانفعالاته مرتبطة بحياته؛ فحيث هو حي هو منفعل. والانفعالات ليست موضوعاً من موضوعات التطور، لأن الحياة في كل درجاتها محتاجة إلى انفعالات غير مختلفة في نوعها، والاختلاف في عملية استهلاكها. ولكن الحضارة والعقل متطوران، إذن معنى هذا أن الانفعالات التي لا تتطور تحكم الحضارة والعلم المتطورين. وإذن معناه أيضاً أن انفعالات الإنسان الغابي هي التي تحكم الإنسان المتحضر، وتحكم كل ما أبدع في كل تاريخه وبلاده وشعوبه، من قوى وحضارات، وعلوم وفنون وعبقريات.

لقد غيّرت الحضارة في الإنسان كل شيء، إلا غرائزه غير المتحضرة. لقد تركتها كما وجدتها؛ بل لقد عمدت إلى تضريمها بالمهيجات والظروف الحضارية الحديثة. إن المشكلة أنها لا تستطيع كما لا تريد تغييرها، لأنها ـ أي الحضارة ـ لا توجد إلا بها، أي بالغرائز غير المتحضرة، والتي لا يمكن أن تتحضر.

إن إنسان العصر الحديث يتعلم من مجتمعه المتطور كل شيء، إلا مشاعر النفس وغرائزها البدائية، فإنه لا يتعلمها لأنها تولد وتعيش معه كما ولدت بلا تعليم إذ لا يمكن تعليمها. إن معنى هذا أن يصبح الإنسان كائناً يجمع في ذاته كل التاريخ، كل فصوله، ويعيش فيه كل البشر.. أكثرهم تحضراً وأكثرهم تأخراً.. أن يعيش فيه أرقى إنسان، وأحط إنسان.

إن الحضارة العظيمة يبدعها أناس تعيش أرواحهم في الغابات والكهوف والخيام. إن سكان أجمل مدينة تعيش على أرقى الفنون والعلوم والمدنيات، وتتزين ميادينها ومداخلها بأروع التماثيل والحدائق. إن سكان مثل هذه المدينة تحكمهم نظم وتقاليد، تحكمها مشاعر الإنسان المتسلق للأشجار.

لعل أكبر مأساة في عصرنا الحاضر أن الحضارة تتطور بسرعة، هي أكبر مما تريد أو مما تستطيع هضمه والتوازن معه، وإن الإنسان الذي هو مبدعها وسيدها لا يتطور. إن مذاهبه وأفكاره وعلومه، وجميع وسائل حياته تتطور دائماً وحتماً؛ ولكن مشاعره واحتياجاته، وما في نفسه من أحقاد وتفاهات، وكبرياء وأنانية، لا تتطور؛ مع أن هذه هي التي تحكم تلك وتحركها.

إن المأساة أن الذات الإنسانية نفسها لا تتغير، ولا يمكن أن تتغير، مهما تغيرت براعاتها وتعبيراتها أو تغيرت ثيابها.. إن الإنسان يظل همجي النفس مهما أصبح حضاري الحياة..

إن نفسه تظل تعيش في الغابة مهما سكن المدينة.. إنه لو ترك أخلاق الغابة لما كان المعنى أنه قد تجاوز غرائز الغابة؛ وإنما المعنى أنه حينئذٍ قد روض سلوكه، روض أظفاره وأنيابه، خوفاً من نفسه على نفسه. إن ذلك ترويض للغابة لا خروج منها.

وهل السباب مظهر بطولة

في ذات كل إنسان نسبة انفعالية لا تختلف لاختلاف ظروفه. إنها نسبة ثابتة سواء أكان مؤمناً وكافراً، ذكياً أم غبياً، متحضراً أم همجياً، جيد الظروف أم رديئها، مثقلاً بالالتزامات أم كان من غير أي التزام. حتى أن الذي يذوب فرقاً من خوف الله، أو يقتات بالسعادة والرضا لأنه مؤمن بالله، سوف يذوب فرقاً من خوف غير الله، أو بلا خوف من أحد، ويكون لديه من السعادة والرضا مثل ذلك لو كان لا يؤمن بالله، لأن الخوف من الله ليس خوفاً من الله؛ وإنما هو قلق أو تعب ذاتي. وهذا يحدث حتماً سواء أخفنا الله أم لم نخفه. إن خوف الله تبرير لما هو حادث، أو لما لا بد أن يحدث. إننا نخاف ونقلق لأننا لا بد أن نفعل ذلك، أو نكون ذلك، فنلقي بذلك على الله. وكذلك حينما نرضى ونطمئن.

لقد كان فينا قلقون ومطمئنون، مبتهجون ومكتئبون، خائفون وآمنون في عصر الجهالة والضعف، والفقر والإيمان، في عصر القداسات والنبوات، والأرباب الذين كانوا يملؤون علينا آفاق أنفسنا وحياتنا، ويعيشون معنا.. يعيشون في طعامنا وشرابنا، وثيابنا ومضاجعنا، وفي نومنا ويقظتنا، وفي حقدنا وتعصبنا، وحتى في علاقاتنا الجنسية.

والآن في عصر الحضارة والقوة، والرخاء والكفر بجميع الآلهة القديمة، في عصر الصواريخ الكونية والحروب الشمسية.. الآن يوجد فينا هؤلاء وهؤلاء. والنسبة لم تختلف إلا بمقدار اختلاف ذواتنا واستعداداتها.

إن البشر ينفعلون، يخافون ويقلقون ويحزنون، لأنهم محتاجون إلى الانفعال وعاجزون عن ترك الانفعال، لا لأن شيئاً خارجياً يجعلهم ينفعلون، أو يطالبهم بالانفعالات، أو يوجبها عليهم.

إن البشر لا يكتفون بما في الطبيعة من أسباب القلق والخوف والألم.. إنهم يذهبون يتخيلون ويعتقدون ويفعلون ما يتحول إلى أسباب قلق وخوف وألم جديد؛ لأن أنفسهم تبحث عن ذلك وتريده، وتقتات به وترتاح عليه، ولا تستطيع سواه.

ما أكثر ما اخترع البشر من أسباب القلق والخوف.. ما أكثر ما قلقوا وخافوا بلا أي سبب لذلك.. ما أكثر ما حولوا أسباب الاطمئنان والرضا إلى أسباب للخوف والعذاب.. ما أكثر ما خوف البشر أنفسهم بالتهاويل والأوهام والأرباب الرهيبة.

إن الخوف في كل ظروفه لا يعني أننا نخاف.. إنه لا يعني أنه يوجد ما يجب، أو ما لا بد أن نخاف منه. إن الموت نفسه، هو قمة المخاوف، ليس فيه ما يخيف سوى ما في أنفسنا من استعداد للخوف، فهو ليس مخيفاً في ذاته، بل في تقديرنا النفسي له. كيف نخاف الموت وهو ليس إلا قتلاً لكل أسباب الخوف. إن الذي يموت يرتفع فوق كل أسباب الخوف.. إذن لماذا نخاف الموت..؟

إن الناس لا يتوترون أو يتألمون فكرياً ونفسياً لأنهم يواجهون مواقف أو مشاكل تستحق ذلك، بل لأنهم من داخلهم متوترون متألمون. إنهم حينما يسبون الآخرين أو يكرهونهم أو يضربون حولهم الإشاعات، ليس لأن أولئك الآخرين يستحقون ذلك، ولكن لأنهم هم مسوقون بلا سبب خارجي معروف إلى أن يصوغوا أنفسهم في أساليب متوترة من السباب والكراهية والتشنيع. إن السباب والبغض حالة، وليس منطقاً أو جزءاً عادلاً، أو أسلوباً أخلاقياً، ولهذا فإن الناس كما يسبون الآخرين يسبون أيضاً القدر والزمان والحظوظ، مع أنه لا تفسير لهذا السباب غير حاجتهم هم إليه، وقد يسبون أحياناً أنفسهم.

إن البغض والسباب ليسا علاجاً لأي شيء، وليسا مظهراً بطولياً يفاخر به من يبحثون عن المفاخرات. وكل الناس يعرفون ذلك، ثم مع معرفتهم هذه يستمرون يسبون ويبغضون، ويمارسون جميع الانفعالات الأخرى الرديئة المشابهة. وقد اخترعوا الشيطان ليكون هدفاً جيداً لعدائهم ولعناتهم.

الشيطان أعجب مظلوم تاريخي

إن الشيطان مظلوم معتدى عليه دائماً.. إنه أعجب وأكبر وأشهر مظلوم في التاريخ. إنه لم يقاتل الإنسان في أي وقت، ولم ينذره أو يتهدده بمثل هذا القتال. بل لقد كان مثالياً في أخلاقه.. يذنب البشر ويسقطون ويتلوثون، فيلقون بكل ذلك عليه، ويحولون شحناتهم النفسية، وكل مشاكلهم غير المحلولة إلى شتائم واتهامات، تنصب فوق رأس هذا المسكين الذي هو الشيطان، وعلى عرضه المجروح بلا خطيئة، وهو صابر صامت متجمل.

ليت الناس يتعلمون منه الفداء، ونبل الأخلاق.. ليتهم يقيمون له تماثيل اعتذار ينصبونها في جميع مدنهم الكبيرة.. ليتهم يقيمون له مهرجانات تكفير وتوبة.

إني لأعجب من الإنسان كيف لا يقتله الشعور بالذنب وبالخجل إزاء هذا الكائن النبيل المفترى عليه، الذي هو الشيطان..

ما أروعك أيها الشيطان.. كم أنت صديق للبشر.. كم أنت نافع لهم.. كم أنت كفارة عنهم.

ما أروعك مغتسلاً يغتسلون به من أحزانهم وأدرانهم.. كم أنت فداء.. كم أنت عزاء.

ما أعظمك أيها الشيطان.. كم أنت نافع للبشر.. كم أنت صديق لهم.. ماذا يكونون لولاك.. أين يلقون حينئذٍ بأوحالهم.. من يتهمون.. من يسبون.. من يلقون عليه ذنوبهم.. كيف يكونون حينئذٍ لولاك أيها الفادي العظيم..؟

ما أروعها من قصة.. ما أروعه من وهم..

إنه لو كان الشيطان موجوداً لكان أنبل كائن، وإن لم يكن موجوداً فإنه لأنبل وهم.

أيها الفارس الكوني، هل رآك أحد..؟

إذن ما أجمل وأسعد عينيه.

هل تصورك فكر أحد..؟

إذن ما أذكى وأنبل فكره.

أيها القائد الملثم المظفر، اغفر لمن يلعنونك ويتعبونك.. اغفر لمن ارتفعوا بتعظيمك واحترامك حتى جعلوا من كل الآلهة وكل المعلمين جيشاً واحداً متحالفاً لحربك وحدك، ولكنك تنتصر عليه.. اغفر لمن لم يجدوا للآلهة والمعلمين من عمل، من عبقرية، أكثر من أن يحاربوك فيهزمون.

إن أسباب الرضا والسخط والحزن والسرور ذاتية، لا خارجية.

إننا كما نحب لأننا محتاجون إلى الحب لا لأن شيئاً يستحق أن نحبه؛ كذلك نكره ونلعن لأننا محتاجون إلى أن نفعل ذلك، لا لأن هناك ما ينبغي أن نكرهه وأن نلعنه. ولو كنا لا نفعل إلا حيث يكون الانفعال واجباً وحقاً، لما جاز أن ننفعل في أي موقف من المواقف.

ولكن ما هو الواجب وما الحق.. وهل هما شيء سوانا، وسوى ما نفعله ونحتاج إليه..؟

إذن نحن لا نفعل إلا بالاحتياج. والاحتياج حق وواجب..

إذن فالانفعال لذاته حق وواجب، حتى ولو لم تكن له أسباب فكرية أو خارجية.

إذن فما أتفه ما يعني الحق والواجب، إذا قدرا بالمقاييس الأخلاقية والتقليدية.

غير حر في حريته

توجد اليوم حضارة كبيرة، أخلاقها القوة والإبداع، والسرعة والخطر، والمذاهب والتعصب، والخوف والإرهاق والجنون. والإنسان لا يختار وجوده.. إنه يصنع حضارته كما يصنع آلامه وأسباب موته وكل نقائصه.. إنه يكوّن حضارته.

وأنا أختار هذا التعبير «يكوّن حضارته» على تعبير «يصنع حضارته». إن الإنسان يكون بالضرورة كالطبيعة.. يكون بالطاقة لا بالخطة. إن الإنسان قد يختار كينونته، ولكنه لا يستطيع أن يختار اختياره.. إن اختياره لا اختيار فيه، إذن فهل هو مختار..؟

أنا أختار بتفكيري ولكني لا أختار تفكيري.. أنا أفكر كما أتألم، إذن فهل أنا أفكر أم أتألم بتفكير، أم أفكر لأني أتألم أو خاضعاً لقانون الألم..؟

إننا نخلق وجودنا كما يخلق البركان أو النهر أو الزهر نفسه. إننا لا نستطيع أن نحدد وجودنا أو سلوكنا أو حضارتنا، كما لا تستطيع الطبيعة أن تحدد أفعالها. إنها تصنع نفسها دون أن تريدها، ودون أن تستطيع ألا تفعل؛ وكذلك نحن.

إن كل حركة من حركاتنا الحرة مدفوعة بمجموعة من الحركات غير الحرة. إن كل موجود محكوم بقوانين ذاته بأسلوب مساو لتلك القوانين، وهذا هو معنى الاختلاف بين الإنسان والطبيعة. نحن نصنع حضارتنا وكل خصائصنا بالقانون لا بالإرادة ولا بالتدبير.

إننا نريد وندبر، ولكن كيف تحدث إرادتنا وتدبيرنا ولماذا..؟

فإذا كنا نكون بالإرادة والتدبير، فإن إرادتنا وتدبيرنا يكونان بلا إرادة ولا تدبير. إنه في اللحظة التي يكون فيها الشيء لا بد أن يكون، وفي اللحظة التي لا يكون لا يمكن أن يكون.. ففي أية الحالتين إذن توجد حرية الكينونة..؟

البشر لا يصنعون احتياجاتهم ومصلحتهم، بل طبيعتهم؛ حتى تقديرهم للمصلحة والاحتياج هو بعض طبيعتهم ومحكوم بها. ولهذا فإن الإنسان خطر على نفسه بقدر قد يكون أعظم من خطر الطبيعة عليه.. هو لا يستطيع أن يتحرر من عمله وإرادته، لأنه لا يستطيع أن يتحرر من طبيعته. وهو يصنع مصيره بالأسلوب الذي يصنع به نفسه. وإذا كان محتوماً أن الإنسان لن يكون إلا إنساناً؛ فإنه كذلك محتوم أن الإنسان لن يكون إلا كما كان وكما سوف يكون. ولو أراد ألا يكون كما كان وكما هو كائن، لما استطاع، ولما استطاع أن يريد.

إنه في حريته غير حر، وفي إرادته غير مريد. إن عملنا الحرية ودعوتنا إليها فقدان للحرية، لأننا نفعل ذلك بلا حرية. وإذا لم يكن حراً في حريته، ولا مريداً لإرادته، فما معنى كونه حراً.. أليست الحرية إذن هي التعبير عن نهاية عمليات غير حرة..؟

إننا نريد، ونفكر، ونختار، ونستطيع، ولكن بقوانين طبيعية كقوانين النمو وعمليات وظائف الأعضاء، ولا يوجد من يفكر أو يريد بلا قانون، كما لا يوجد من يحيا أو يموت بلا قانون. إن اختيار الشيء أو التفكير فيه لا يخلق نفسه ولا يجيء جزافاً. إن القوانين التي

تصنع الإنسان مادياً، هي التي تصنعه نفسياً وفكرياً.

نحن أحرار في كينونتنا كحرية السحاب، كحرية المجيء، كحرية الذهاب.

إن الحضارة ـ وكذا العبقرية ـ موهبة لا تعليم، موهبة يكون التعليم أحد ابتكاراتها. ليس في استطاعة العبقري أن يكون إنساناً غير عبقري، وليس في استطاعة الشعب المتحضر أن يكون شعباً غير متحضر. إن ذات الشيء لا تكون إلا ذاته، حتى ولو لم يرد هو ذلك. إن التعليم بلا موهبة يتحول إلى أزمة ورذيلة.

إن وجود العباقرة والملهمين في عصر من العصور، أو في مجتمع من المجتمعات خاضع لهذه القوانين نفسها. فالعبقرية لا توجد في قوم لأنهم أرادوها فكانت لهم، ولو كنت بالإرادة لكانت هذه الإرادة نوعاً من القانونية، ولكان من المحتوم وجود هذه العبقرية في كل من يريدونها.

ليس شعورنا بالحرية هو الذي يحركنا، بل قوانين الحركة. وخصائص وجودنا هي التي تصوغ أفكارنا وتكيف تفسيرنا لها.

إن كانت العبقرية بالسعي والقدرة، فكيف لا يوجد هذا السعي وهذه القدرة لدى كل المجتمعات وفي كل العصور.. وإن كانت الإرادة فلماذا لا يريدها كل مجتمع وكل عصر.. أو إن كان السعي والقدرة والإرادة، فلماذا لا تكون هذه الإرادة لكل الناس بالعدل الديني..؟

إننا نبدو أحراراً بقدر ما نجهل أسباب كينونتنا. إن مصيرنا ممكن كنظرية، محتوم كنتيجة. وحرية الإنسان هي صيرورته كما لا بد أن يصير، واستجابته لحتميته تبدو لنا كحرية. إن الحرية هي قدرة الشيء على أن يكون هو ذاته.

خصائص لا تعاليم

إن جميع تصرفاتنا ظواهر توجد وراءها الموهبة الخالقة، أو الموهبة المفقودة. إن أعمالنا ليست هي موهبتنا الخالقة بل هي التعبير عنها، ولهذا تختلف تعبيراتنا لاختلاف مواهبنا.

إن فضائل الكلب الخالدة مثال على الخصائص المتفوقة الموهوبة، إن المجتمع العاجز أو الكسول ليس محتاجاً إلى مزيد من النصائح والتوجيهات، بل إلى مزيد من الخصائص القوية. إن النصائح والتوجيهات لا تعطي المجتمع قوة أو فضيلة أو موهبة ليست فيه، والموهبة هي التي تصنع نصائحها وتوجيهاتها، كما تصنع نفسها. والمجتمعات المتفوقة هي متفوقة بخصائصها لا بتعاليمها ولا بمواعظها، ولا بكثرة المصلحين فيها. إن المتخلفين هم أكثر الناس رسلاً وهداة وتعاليم، وأقواهم علاقات بالسماء.

إن البشر يفسرون ويصوغون كل شيء بموهبتهم حتى العلم والحضارة، فالعاجزون يحولون حضارة الإنسان وعلمه إلى غرور وعجز، وتعصب ومظاهرات، وخطب وضجيج، وإلى أزمات وعداوات، ومشاكل وشعارات. إن كل مجتمع يكون كما يستطيع، لا كما يطلب منه أو ينبغي له. والذين ليس في موهبتهم وعي الحرية والتسامح، وتحويلهما إلى سلوك، كيف يستطيع شيء أن يجعلهم أحراراً متسامحين.. والذين ليس في قدرتهم الابداع والخلق هل يستطيعون أن يتحولوا إلى مبدعين وخالقين بمجرد وضعهم تحت ظروف فيها إبداع وخلق..؟

إن هؤلاء سوف يجعلون مما يجدون ويتعلمون مبرراً ومفسراً لخصائصهم.. إن ما نتعلمه ونجده تحكمه خصائصنا؛ ولكن ذلك لا يحكم خصائصنا.. إن الحضارة التي نتعلمها سوف تحولها خصائصنا إلى مستواها، دون أن تستطيع أي حضارة أن ترتفع بخصائصنا إلى مستواها، وإلى مستوى من أبدعوها.

إن الحضارة والمعرفة والأخلاق نتائج لا أسباب.. إنها نتائج لخصائصنا لا أسباب لها. لقد وجدنا أولاً، ثم كان وجودنا الحضاري والعلمي. فخصائص الإنسان هي التي تجعله يكون أو لا يكون، يكون هذا أو هذا. وهو دائماً يبتدىء من ذاته، ويفعل ما حوله وظروفه، أو يستجيب لها بموهبة تنطلق منه.

إن عبقرية البشر هي مقدار تأثيرهم في الوجود الذي يعيشون فيه وصياغتهم له؛ ولكن كيف يؤثرون فيه ويصوغونه..؟ هذا هو عمل خصائصهم وموضوع اختلافها.

إن جميع الناس مثلاً يعيشون هنا فوق الأرض، ويعايشون شموسها وأقمارها، ويواجهون مشاكل ومتاعب وآلاماً متشابهة، كما يواجهون تحديات الكون الدائمة لهم.. ولكن كم هم الذين غيروا الحياة بقوتهم وعبقريتهم..؟

ما أكثر الذين عاشوا الظروف التي عاشها مخترع المطبعة والقاطرة، ومكتشف البخار والكهرباء، والجاذبية والنسبية. إن كل الناس يعيشون الكون.. إن كل الناس يعيشون الشمس والقمر، والنجوم والزلازل، والبراكين والفيضانات، والقحط والأمراض والأحزان؛ فلماذا اختلفوا في مواجهتهم لذلك، ومقاومتهم له..؟

لقد كان جميع الناس مقهورين ومتألمين، يشعرون أنهم يخوضون معركة متساوية، فهل جاؤوا متساوين في رفضهم أو في انتصاراتهم على آلامهم..؟

أليست كل المجتمعات محتاجة إلى الحرية والعدل، والديمقراطية والرخاء، وإلى الحكم الصالح، والتطور والشجاعة، والقوة والعبقرية، وإلى الأعمال الكبيرة.. فلماذا لم يفعلوا كلهم

ذلك على مستوى واحد.. هل الظروف هي السبب.. ومن الذين يبدعون الظروف ويغيرونها.. أليسوا هم الناس أيضاً..؟

ومع أن خصائصنا أسباب لا نتائج، فإن هناك حقيقة أخرى، تلك هي أن عملنا يصنع عملنا.. إن وجودنا الحضاري يصنع وجوداً حضارياً آخر.. إن الابتكار والبراعة والكشوف تعطي براعات وابتكارات وكشوفاً أخرى. إنه كلما انتصر عقل الإنسان ويداه استطاع أن ينتصر أكثر. ولكن التفسير لهذا أن ظروفنا الحضارية تستثمر خصائصنا وتحرضها دون أن توجدها أو تغيرها. وإذا كانت توجدها أو تغيرها فمعنى هذا أن خصائصنا توجد وتغير خصائصنا، لأن الحضارة التي أوجدت وغيرت خصائصنا، هي من صنع خصائصنا.. إذن فخصائصنا هي التي تصنع خصائصنا. فالخصائص هي السبب وسبب السبب.. ولكن كيف توجد هذه الخصائص..؟

إنها توجد كما توجد الخصائص البدنية، وخصائص النباتات والحيوانات، وسائر ما في الكون. إنه لا ينتظر لهذا أن يؤدي انتشار العلم والحضارة وتطورها إلى إيجاد مجتمعات متساوية في مزاياها الحضارية والإنسانية، إلا إذا أمكن إقامة معامل تخرج منها خصائص الإنسان متشابهة كأنها إطارات السيارات وقطع الغيار، أو أمكن تحويل هذه الخصائص إلى سوائل وأقراص تحفظ في الزجاجات والأنابيب، وتؤخذ في الفم أو في العضل أو بأية وسيلة علمية أخرى، ليخرج البشر متساوين كتساوي إنتاج المصانع التي يراد تساوي إنتاجها.

•

إن الحضارة هي نتاج الخصائص الإنسانية المتفوقة، هي حصيلة كل العصور، هي أعلى مدارك الإنسان وأقوى أشواطه متجمعة في قدرتها العظمى ومداها الأخير في كل تاريخه وسلالاته. ولكن هذا يقيم مشكلة ضخمة، فإن المفروض حينئذٍ أن تتعامل كل المجتمعات والناس مع هذا المخلوق الحضاري القوي المتكامل، دون رحمة بالفروق الكبيرة بين المتعاملين على هذا المخلوق القوي المتكامل، وأن يتوازنوا معه. أن يتوازنوا نفسياً وفكرياً ومادياً.

إن عليهم أن يفهموه ويفسروه ويعيشوه، ويتحملوا كل متاعبه ومشاكله، وطاقاته وسرعته، بمستوى يساوي مستواه.. كيف يستطيعون ذلك..؟

إن معنى هذا أن تتبارى أضعف الخصائص مع أقوى الخصائص.. إن معنى هذا أن يدخل الأقوى مع الأضعف في سباق لا مثيل له في قسوته ووحشيته.

فرار من الذات

إن الإنسان دائماً يخلق أشياء أقوى منه لتثير حماسه وخوفه، ولتجعل لوجوده في تقديره

فكرة وأملاً، ثم لتلقي به تحت قدمي كائن جبار أو وهم جبار يزيده إيماناً وصلاة، كلما زاده قسوة وتعذيباً.

لقد خلق الآلهة والمخاوف وكل الأساطير العظيمة، لقد خلق المذاهب والعقائد والأفكار القاسية الغاضبة، لقد خلق الحضارات بكل جبروتها وتكاليفها، لقد خلق جميع الأخطار، وخلق الأبطال والطغاة ليذلوه ويقتلوه هاتفاً مصلياً لهم..

إنه يحتاج إلى الشعور بالخطر والخوف والإلزام.. إنه يحتاج إلى السعي الدائم الأليم وراء شيء يخافه ويكبره ويجهله، وراء شيء ينطلق دائماً بسرعة وقوة تفوق سرعته وقوته لتمتص كل قواه ومعانيه.

هو لا يدري ماذا يريد، ولا يريد أن يدري، ومن الخير له ألا يدري.. هو فقط يتحرك ليكون رماداً ووقوداً لشيء رهيب عنيف. إن احتراقه في ذلك الشيء هو الذي يجعله يضيء ويكبر، ويشعر أنه شيء له قيمة وتفسير عقلي وأخلاقي في هذا الكون.

إنه لا يستطيع أن يعيش داخل ذاته أو لذاته.. إنه لا بد أن يهب نفسه لشيء، لفكرة أو لمذهب أو لأكذوبة كبرى، إذا كان غير مستطيع أن يهبها لإله فظيع من آلهة القدماء العتاة. الإنسان يريد أن يكون جندياً مقهوراً في جيش متحرك يتلقى الأوامر، ويضحي بنفسه في معركة ما، وهذا سبب من أسباب عذابه، وهو أيضاً من أسباب قوته وعزائه. لقد جاء بغير تفسير، ومحتوم عليه أن يذهب أيضاً بلا تفسير. محتوم أن يموت من أجل الموت.

إن هذه الحضارة تفرض نفسها بأسلوب لا رحمة فيه على جميع الذين يتعاملون معها.. تفرض نفسها على أشدهم تفوقاً وأشدهم تخلفاً.. تفرض عليهم أن يتساووا معها في كل مزاياها ماداموا يحيونها. ولكن الذين لا يستطيعون أن يتساووا معها ماذا يصنعون.. إنه موقف إذلال وقهر؛ كيف يكون رد العاجز على التحدي الذي هو أقوى منه..؟

إن القادر يرد على التحدي رداً ملائماً وعظيماً، أما العاجز فوارحمتاه..

إن رد العاجز على التحدي سيكون صراخاً وتوتراً ودعاء وغباء.. سيكون رداً فيه كل شيء ما عدا الذكاء والوقار، والقدرة والتهذيب.

إن خصائص الذين أبدعوا الحضارة توجه تحدياً أليماً مستمراً إلى خصائص أولئك الذين واجهوها كمستهلكين لها فقط، أولئك الذين واجهوها كغزو محتوم انتصر على تاريخهم وبلادهم، ومثلهم وثقافتهم، وعلى كل تراثهم النفسي والفكري والأخلاقي؛ دون أن يستطيعوا المشاركة في إبداعها أو وقف زحفها المتفوق، أو العيش خارج حدودها وتعاليمها.. وهل يوجد من يستطيعون أن يحيوا خارج تعاليم وحدود هذه الحضارة..؟

إن هذه الحضارة قد أصبحت إلهاً عالمياً لا يمكن أن يوجد من يخرج عليه، أو من يهزمه، مهما وجد من يكفر به، أو من يفسده بتفاسيره أو بممارسته إياه..

المزايا، لا المصالح

لقد وجد وضع مرير من التصادم النفسي بين المتخلفين والمتفوقين، فالمتخلفون يخشون المتفوقين ويحقدون عليهم ويحسدونهم، ويشعرون نحوهم بانفصال نفسي رافض، بل ويحسون كأن بينهم وبينهم تناقضاً طبيعياً كالذي بين الكائنات المفترسة والكائنات المسالمة.

أما المتفوقون فلقد ذهبوا يعانون من المرارة الأليمة المتربصة. لقد شعروا أنهم مكفورون منكرون مع اقتناعهم بالتفوق.. لقد أنكرهم وذهب يعاديهم قوم تعلموا، ووُهبوا منهم كل شيء حتى لغة الإنكار وبلاغته، حتى الجرأة على العداء وأسلحته.

وإذا وجدت بين الفريقين مخالفات أو صداقات مكتوبة أو مخطوب بها. فإنها مخالفات وصداقات تخفي تحتها عداءً وتناقضاً عاطفياً وتاريخياً عميقاً. وقد عجزت كل المحاولات عن خلق صداقة بين هؤلاء وهؤلاء، لأن التناقض النفسي بينهم أقوى من جميع المحاولات. وهذا التناقض النفسي يصنع التناقض في المصالح أكثر مما يحدث العكس؛ فالافتراق النفسي هو الذي يريهم أنه يوجد افتراق مصلحي دائم، ثم يضخم إحساسهم بهذا الافتراق. فالتناقضات في المستوى التاريخي تصنع تناقضات أخرى كثيرة. ولو لم يوجد في التاريخ غالب ومغلوب، ثم وجد متفوق ومتخلف، لوجد بينهما العداء والتناقض، والصدام والوحشية. إن كثيراً من هذه التوترات الدولية الدائمة يجب أن يبحث عن أسبابها في اختلاف المزايا الحضارية، لا في اختلاف المصالح.

إن المذاهب الاجتماعية والفكرية التي قسمت العالم فيما يبدو إلى كتل متحاربة متناقضة لا تعطي الحقيقة، بل الصورة. فالاختلاف في المذهب والعقيدة يعبر عن الاختلاف في المستويات والخصائص، والعداء على المذاهب والعقائد المختلفة؛ إنما يعني عداء نفسياً، لا عداء مذهبياً ولا عقائدياً. ولو اختلفت عقائد ومذاهب قوم متساوين في خصائصهم ومستوياتهم الإنسانية لما صنع هذا الاختلاف مثل هذه الخصومات النفسية الباهظة، فالعداء بين ذوي مذهبين يعبر عن عداء بين مستويين نفسيين وعقليين، لا عن عداء بين نظامين. والاختلاف بين نظامين إنما يصور نوعين من المستويات. إن الناس يختارون مذهباً ونظاماً أو ينفرون منهما، ليعبروا عن تأييدهم لقوم وتوافقهم معهم، أو عن نفورهم من قوم واختلافهم عنهم في المحتوى الأخلاقي والنفسي والعقلي.

إن بين الأمريكي والروسي خصومة تهدد العالم كله بالكارثة. إن سبب هذه الخصومة

هو الخلاف المذهبي أو التنافس على السيطرة والزعامة العالمية، أو على الدفاع عن الحياة والسلام، والحرية وحقوق الشعوب، أو عن الأخلاق.

هذه هي القراءة الأولى للقضية، أما القراءة الثانية فتقول: إن سبب هذ الخصومة هي الخوف. وإن سبب الخوف هو التناقضات النفسية والفكرية. وإن سبب هذه التناقضات هو الاختلاف في المستوى وفي الطبيعة الحضارية. وإن هذا هو الذي أقام الحواجز المذهبية، وحوّل هذه الحواجز إلى قلاع حربية تختزن وراءها العداوات والأحقاد والأسلحة المصوبة إلى المخاوف هنا وهناك، لا إلى الخلافات المذهبية.

إن مذاهبنا كأخلاقنا، كأفكارنا، تعبر جميعاً عن حالة نفسية. إن تفسيرنا لهذه الأفكار والأخلاق والمذاهب محكوم بهذه الحالة النفسية. إن النظرية لا توجد نفسها، ولا تفسر أو تحرك نفسها، ولكن حالتنا النفسية هي التي تعطي النظرية وجودها وحماسها وقوتها، بل وتصوغها وتحدد اتجاهاتها. إن الفروق بين المجتمعات والأفراد هي فروق نفسية قبل أن تصبح فروقاً علمية أو حضارية أو اجتماعية. والمتساوون في نفسياتهم لا يمكن أن يتفاوتوا في نظرياتهم. وإذا تدخلت النظريات أو المذاهب في المواقف النفسية فهي لا تتدخل كقوة فاعلة بل مفسرة. إن كل عمل المذهب والنظرية أن تعرضا على الإنسان نفسه.

وأعمال العقل كلها كالرؤية البصرية إنما ترى الرغبة نفسها دون أن تصنعها أو تغير طبيعتها. ومع هذه فالأعمال العقلية أمام النفس أقل من الرؤية بالبصر أمام الرغبة، لأن عمل العقل لا يكون إلا من عمل النفس؛ أما الرؤية فليست دائماً من عمل الرغبة. ولو وجد قوم لا تتغير مواقفهم الشعورية لما أمكن أن تتغير حياتهم ولا أفكارهم.

عسكري مرور للشهوات

إن من الأوهام الشائعة التي يقع فيها الكبار دون الصغار قولهم مثلاً: «لقد انتصر فلان على نفسه، أو انتصر العقل على الهوى أو على الشهوة».

إن الإنسان لا ينتصر على نفسه، ولكن نفسه هي التي تنتصر على نفسه. إن الإنسان لا يحتمل أن ينتصر على نفسه ولكنه يكون نفسه، ولو انتصر على نفسه لكان ذلك هزيمة له، وهزيمته لا تعني إلا هزيمة نفسه. فكيف ينتصر هو لتهزم نفسه، أو تنهزم نفسه ليكون هو منتصراً..؟

إن الاستقامة هي انتصار الرغبة على الرغبة، وليست انتصار التفكير أو الفضيلة على الرغبة. إنه لا يمكن أن يحدث صراع أو نزاع أو حتى مجرد خلاف بين العقل وبين أي شيء آخر هو من أعمال النفس. فالعقل لا يقاوم لأنه ليس خصماً لشيء، وهو ليس قوة

محاربة أو فاعلة. إنه ليس شيئاً، وإنما هو مجرد تقدير وتفسير للأشياء فقط، قد يحكم ولكنه لا ينفذ، ولا يمكن أن يحكم أو يعمل لمصلحة نفسه؛ بل لمصلحة الآخرين. إنه محايد.. إنه لا يعيش أبداً من داخله، وليس في طبعه أن يناضل لا دفاعاً عن نفسه، ولا دفاعاً عن سواه. وإذا بدا أن العقل يعمل أو يعارض فليس هو الذي يفعل ذلك. إنه إذا تصادم تفكيرنا وإحدى رغباتنا كان معنى هذا أن رغبة صادمت رغبة، ولكن إحدى الرغبتين قد اختبأت وراء العقل بحيث لا ترى إلا بالتحديق والمحاولة. إن الذي ينطلق بكل سرعته في سبيل الغواية بحيث يقال عنه إن عقله قد انهزم أمام شهواته، ليس الأمر فيه كذلك. إن عقله لم ينهزم لأنه لم يدخل معركة، ولا يمكن أن يدخلها. وإنما تفسير مثل هذه الحالة أن هذا الإنسان قد ضلّ في توزيع نفسه بين أهوائها. فالفاسد هو إنسان قد عجز عن تنظيم شهواته، وعن توزيع حركاته بين هذه الشهوات. أما الفاضل فهو الذي يستطيع تنظيم هذه الشهوات، وليس هو الذي يعصيها أو ينتصر عليها. إن الفضيلة هي مجموعة رغبات، وإن الرذيلة هي أيضاً مجموعة رغبات، والفرق بينهما في التوزيع. فتوافق الشهوة مع القانون الطبيعي أو مع السلوك الاجتماعي فضيلة أو هذا هو مصدرها. وتنافرها مع أحدهما رذيلة أو هذا هو المفروض. إن العقل ليس إلا عسكري مرور يراقب الشهوات والتحركات، ويعطي الإشارات بالتوزيع والمناوبة حذر التصادم المدمر.

*

والتفوق ذنب كبير

إن هزيمة التخلف آفة تفسد التفكير والأخلاق، والتوازن والذكاء، وتجعل التناقض محتوماً ومريراً وأليماً. وإن انتصار التفوق لقاس أيضاً، يحتاج إلى التكفير والعقاب، والهزيمة والاستغفار.

إن التفوق كالتخلف كلاهما ذنب وتشوه في حساب الآخر وحساب النتائج.

إن المتخلف ليحاسب المتفوق على تخلفه، كأنه هو صانعه به. إن المتخلف ليعاقب المتفوق لأنه هو الذي جعله يرى تخلفه ويدركه، ويحاول تخطيه، ويعلمه كيف يتخطاه؛ بل لأنه يساعده على تخطيه، ويهبه وسائل التخطي.

إن التفوق ـ نفس التفوق ـ ذنب لأن التخلف يرى نفسه أمامه.. لأنه يرى نفسه أمامه رؤية غير سارة.. لأنه يفقده الرضا عن نفسه، ويحكم عليه بالتغير، ويدفع ثمن التغير، وهو لا يطيق ذلك حتى ولو دفعه من عطايا المتفوق وموهبته.

إن المتفوق الذي يمنح المتخلف لمذنب في تقدير المتخلف ذنباً لا يمكن غفرانه إلا بأن يكون متخلفاً أكثر منه. إنه لقدر صنعه المتفوق أن يعاقبه المتخلف ويذله ويشتمه، وأن يقبل المتفوق ذلك ويهون له كأنه التكفير عن تفوقه، أو التعبير عنه، أو التدليل عليه.

إن الاختلاف في المزايا يصنع الاختلاف في التفكير والسلوك. والاختلاف فيهما يوجد موقفاً متناقضاً حزيناً. فالأقوياء في خصائصهم يوجهون هزيمة مذلة غير مقصودة إلى الضعفاء في خصائصهم. وهذه الهزيمة تفتح جراحاً في نفوس أولئك الذين واجهوها، وهذه الجراح تتحول إلى مشاكل وبغضاء وأزمات وتاريخ.

إن هؤلاء الذين أعطوا تفوقاً في معطياتهم الحضارية، لا بد أن تكون خصائصهم مخالفة لخصائص الآخرين العاجزين الذين حتم عليهم أن يستهلكوا فقط ما أعطى أولئك. وإن الفروق في الخصائص لا بد أن تعطي فروقاً في المستويات.

إن بين الشعوب فروقاً في المستوى. وهذه الفروق في المستوى تسبب كثيراً جداً من هذه الأزمات العالمية المستمرة، بقدر أخطر مما تسبب أزمات المستوى بين الآحاد. حتى محاربة اللون والجنس، حتى مشكلة اللون والجنس ترجع في أسبابها الأولى إلى التفاوت في المستوى. إنه لو كان المختلفون في ألوانهم أو في أجناسهم متساوين في خصائصهم الحضارية المتعددة، وفي قدرتهم المادية والعقلية، لما وجد ما سمي بالعنصرية؛ لا في هذا العصر ولا في عصر مضى.

إن الطائفية في أي مجتمع وأي عصر ليست إلا تعبيراً عن الاختلاف في المستوى، إن المتشابهين في مزاياهم الحضارية قد يتنازعون وقد يتحاربون، وهذا يقع كثيراً؛ ولكن العداوة بينهم تظل عداوة مصلحية محددة بوقت، لا نفسية دائمة. وقد يتحاربون بلا كراهة ولا حقد في الداخل؛ وإنما الحرب بينهما تدبير خارجي دفاعاً عن مصلحة، أو طمعاً في اغتصاب شيء، أو تنافساً على شيء. أما المتباينون في مزاياهم فإن الكراهة والعداوة بينهم داخليتان حتى ولو لم يختلفوا على مصلحة أو يتنازعوا على أخذ شيء. وسوف تبقى العداوة والخوف بين البشر ما بقي التفاوت في المستوى.

إن الأجناس الملونة محقرة في بعض المجتمعات. ماذا كان يمكن أن يحدث لو أن الأجناس الملونة كانت هي المتفوقة حضارياً..؟

إنه لمن المحتمل جداً أن تكون حينئذٍ هي المعتدية بالتحقير على الإنسان الأبيض المتخلف حضارياً.

*

أحياء لأن مبادئهم ميتة

المتخلفون الذين يجدون أنفسهم في ظروف إبداعية أقوى منهم في مستوياتهم المادية والثقافية، في ظروف إبداعية قد شيدتها عبقرية متفوقة.. هؤلاء تختل تصرفاتهم، ويفقدون ذكاءهم السلوكي والفكري والعاطفي، ويعجزون عن حب أنفسهم وحب الآخرين وحب الحياة، ويعجزون عن أن يكونوا مهذبين - كأي إنسان يواجه موقفاً لا يستطيعه - يواجهه بفكره ومقدرته. إن فقدان التوازن الذاتي يهدي إلى كل أنواع الضلال والعجز، ومع هذا فإن الحياة شيء لا يمكن تفسيره.. إن كونها موجودة هو معنى كونها معقولة.

جميع المواقف تصنع لنا شعوراً، وكل شعور يحتاج إلى استجابة مناسبة. ونحن جميعاً محتاجون إلى أن نرد على مشاعرنا رداً سلوكياً، ويجب أن يوجد تكافؤ بين الشعور والقدرة على الاستجابة. وقد كان الموقف هنا فوق القدرة، لهذا كان الرد عليه هذه الزمجرات الغبية، وهذه الصيحات البدوية، وهذه السيوف الخشبية، وهذه الخطوات العسكرية البطولية لمحاربة النجوم الرجعية.

إن المتأخرين يعيشون بالشعارات، وبالحديث عن المبادىء والمثل، أكثر مما يُعنون بتحقيق هذه التي ينادون بها؛ بل أكثر مما يريدونها أو يحترمونها أو يفهمونها.

إنه قد يزعجهم أن يتحقق ما ينادون به.. إنه لو تحقق لقتلهم، فهم موجودون لأن مثلهم غير موجودة.

إن أول من يقتله المبدأ المطبّق هو صاحبه، لو كان ممكناً أن يطبق أي مبدأ. إن الناس أحياء لأن مبادئهم ميتة.. إنه لو عاشت المبادىء لمات أصحابها.

إن الناس يدعون إلى أشياء على افتراض أن تلك الأشياء سوف تظل أمنية وحديثاً فقط، ولو أرادت أن تصبح ممارسة لحاربوها. إن أخطر من يلعبون هذه اللعبة هم الحكام والزعماء والمصلحون والكتاب. إن نضال هؤلاء المتأخرين يتحول إلى السلبية العنيفة، فالحقد والبغض، والسباب والاتهام، والتشنيع والوعود، هي التعويض السهل عن الأعمال الكبيرة.

إن الدكتاتور يهتف بالحرية وللحرية وباحترام الشعوب، أكثر مما يفعل الحاكم الديمقراطي، لأن المسألة عند الدكتاتور ليست أكثر من أن تكون خطبأ. وإذا أصبح الحاكم يتحدث عن الحرية ويمتدحها، فمعنى هذا أنه قد أصبح لا يخافها لأنه قد قتلها.. إنه يمتدح قتيلاً.

إنه كلما وجدت الحرية على لسان الحاكم، كان هذا يعني أنه لا توجد حرية. فالحكام الذين يحكمون تحت أوضاع ديمقراطية قد يلعنون الحرية، لأنها تقيد تصرفاتهم، وتحاسبهم على حسناتهم.. إنها تحاسبهم لأنهم لا يستطيعون منعها من محاسبتهم. أما قتلة الحرية

فإنهم يتحدثون كأنهم شعراء ومغنون، عن فضائل الحرية.. لأنهم يتحدثون عن فضائل عدو لا يخشونه.. لأنهم يتحدثون عن فضائل عدو غير موجود، لأنهم قد صلبوه.

إن الإنسان قد يجد سعادة في التحدث عن مزايا عدو مغلوب. والطغاة يجدون نشوة عظمى في الترحم على الموتى. إن ترحم الطغاة على الموتى وصلاتهم عليهم ومن أجلهم، أسلوب من أساليب الإعلان عن موت المنافسين والخصوم.

إن تحدث الطاغية عن الحرية وامتداحه لها، نوع منكر من لعن الحرية.. إنه يحول كل شيء إلى أوامر وتراخيص، حتى ممارسة الحرية والاعتراض عليه.

إن نقده بأمره هو، يهبه لذة شيطانية.. إن أوقح الأوامر في هذه الحياة، أن يأمر طاغية مجتمعه بأن ينقده ويعارضه.. إن هذا يشبه أن يطلب إليه أن يقتله، وهذا أبشع أساليب الاستهزاء والسخرية، والتحدي والتحقير، والتعجيز والإرهاب.

إن المجتمع حينما يستطيع أن ينقد حاكمه أو يرفضه، فلن يحتاج إلى من يأمره بذلك. وحينما يأمره حاكمه بذلك فلن يستطيع أن يفعله.

الزهرة أعظم من الطين

إن الحضارة التي هي إبداع الأقوياء، تضع على الضعفاء شروطاً هي فوق طاقتهم. إنها تلزمهم بأن يعملوا معها، لأنهم يحيون فيها، ولأنهم إذا لم يعملوا فلن تتركهم ينعمون بأوضاعهم المتأخرة. والعمل معها يحتاج إلى مزايا نفسية وفكرية، وخلقية وإبداعية، هي أكثر مما يستطيعون؛ ولكنهم سوف يحاولون ولا يجدون غير أن يحاولوا. وهذا يلقي بهم في وضع متنافر.

إنهم مكرهون على أن يحاولوا عمل شيء لا يملكون القدرة عليه. إذن، لا بد أن يتحطموا من الناحية النفسية، وأن يصبحوا أضخم وعاء للرذائل الأخلاقية والفكرية.

ما أتعس قوماً تفرض عليهم حياة لا يتناسبون مع فضائلها وقوة الإبداع فيها.. إن القدرة على العمل تصحح للنفس وللفكر فضائلهما. وإن العاجز عن عمله لا يمكن أن يكون أبداً فاضلاً ولا سوياً.

لقد أعطت الظروف الحضارية الجديدة أولئك الذين لم يصنعوها قدرة غير عادية لكي يعرضوا أنفسهم بكل وسائلها عرضاً عدوانياً مريضاً عنيفاً.. لقد أعطتهم وسائلها المادية ولغاتها، وحماسها وشعاراتها، وظواهر كثيرة من أفكارها ومنافعها، وأمانيها وكل قواها.. لقد أعطتهم تعبيراتها، ولم تعطهم فضائلها.

إن أخطر الأشياء وأسوأها، ألا يتساوى الناس مع الأفكار والشعارات والمثل التي تصل

إليهم في طرود وصناديق وإذاعات. أن أخطر من هذا، ألا يتساووا مع القوة التي هي فوق مستواهم الحضاري والأخلاقي، حينما يمتلكون هذه القوة المستوردة. إن المفروض أن تتناسب فكرة الإنسان مع قدرته، فإذا ملك قدرة ولم يملك فكرة، أو اختل الربط بينهما، كان الوضع فاجعاً. والذين يصنعون قوتهم لا بد أن يتناسبوا معها على نحو ما، لأن القدرة على صنع الشيء هي تطور في وعي الذات، ولأن الخالق ليس غير المخلوق في المستوى والفكرة.

إن الخالق هو المخلوق في حالة تعبيره عن نفسه، في حالة غنائه لنفسه وفراره منها.

إن المفروض دائماً مع هذا أن المخلوقات أعظم من خالقيها. فالبشر أعظم من خالقتهم الطبيعة. والثمرة والزهرة، أعظم من الطين. والجهاز الذي يصنعه الإنسان أدق من الإنسان. وهكذا إن الإنسان دائماً أرقى أخلاقاً وفنوناً وأفكاراً من خالقه. إن الإنسان دائماً أرقى وأتقى من آلهته.

إن كل أعمال الإنسان وذكاءه أن يفعل أعظم وأفضل مما فعلت آلهته.

إن العمل يطور القدرة والتفكير، والإرادة والأخلاق، تطويراً غير تام التناسب. وهذا يوجد نوعاً من القانونية بين الإنسان وعمله. وهذه القانونية هي التي تعصم المجتمع على نحو ما من الانهيار إزاء نفسه.

إنه لو فقد التلاؤم على كل المستويات بين الإنسان وعمله، لكان الدمار محتوماً. أما الذين يملكون قوة لا يتناسبون معها أي تناسب، لأنهم لم يصنعوها فلم يرتقوا إلى مستواها ومستوى الظروف والمزايا التي أبدعتها، فهؤلاء هم القوة التي لا تملك أفكارها ولا خصائصها. وما أقسى تناقض وتعبير شخصيات هؤلاء الذين يملكون حضارة لا يملكون مستوياتها النفسية، والعقلية، والأخلاقية.. هؤلاء الذين يملكون حضارة مصنوعة خارج أنفسهم، وفوق قدرتهم.

أوطنيةٌ أن نقاوم الحضارة..؟

كم هو مثير أن ينهض درويش سياسي يحمل كل رذائل الدراويش المتخلفين وتاريخهم، متحدثاً باسم الحضارة وشعاراتها، ليهدد تلك الحضارة نفسها بالصلب والشنق، ممطراً لها باللعنات. إنه يسلح خصائصه المتخلفة بسلاح الحضارة، ليحطم المعاني الحضارية.. إنه يدافع عن الهمجية بقوة المدنية.. إنه يهدد المتحضرين بالأسلحة التي وضعوها هم في يديه.. إنه يقاوم الحرية بالوسائل التي أبدعتها نفس الحرية.

إن المجتمعات التي يفرض عليها أن تحيا في ظروف حضارية ليست من عملها.. إن هذه المجتمعات لا بد أن تعاني انهياراً إنسانياً شاملاً.. إنها لا بد أن تعاني ضراوة أخلاقية

ونفسية، وشعوراً بالضياع والتفاهة، وعجزاً عن الشعور بالحماس والمبالاة، والاحترام لأي شيء. إن هؤلاء لن يحترموا الأشياء العظيمة أو يعجبوا بها أو يفهموها.. إنهم سيصرخون ويحقدون، ويكرهون كل الناس وكل الأشياء.. إنهم سوف يهتفون بحرارة ولكن بلا عمق ولا إيمان.. إنهم لن يحبوا الأشياء العظيمة لأنهم لا يصنعونها ولا يتكافؤون معها.

إن الإنسان لا يحب الأشياء المتفوقة التي تظهره ضعيفاً أو ذليلاً محتقراً، وكذلك لا يحب الأشياء التي لا تتكافأ معها موهبته.

إنهم أيضاً لن يحبوا الآخرين الذين يتفوقون عليهم، لأن التفوق إهانة وخطر وخوف. إن جميع الناس في حسابهم أعداء ولصوص، وفاسدون وخونة.. إنهم لهذا يلعنون المعسكرات المتخاصمة، ويصلون عليها جميعاً بالموت والخراب.. إنهم لا يمكن أن يعاملوا أحد هذه المعسكرات إلا على أساس أنهم أعداء وغادرون فاجرون. إنهم لم يستطيعوا أن يفهموا الآخرين، ولا يتكافئوا معهم في مستوياتهم الحضارية، إذن لا بد أن يكرهوهم ويخافوهم، وينكروا جميع نظمهم ومذاهبهم، ويفاخرون بذلك، وأن يروا أن أكبر مناقبهم أنهم يخالفون كل الناس.. يخالفون فكرياً ونفسياً وأخلاقياً، وأنهم لا يؤمنون بشيء من إبداع الغرباء الفكري أو النفسي أو المذهبي. وقد يجدون في مقاومة الحضارة وطنية وتديناً وأخلاقاً. إن أعظم مزاياهم أنهم لا يؤمنون بمزايا الآخرين، وهذا أفضل دفاع عن فقدهم هم للمزايا.. إن هذا أعظم تعويض يقدمونه لأنفسهم الفاقدة للمزايا. إن أقوى عزاء لمن فقد المزايا أن ينكر مزايا الآخرين. إن الإنسان لا يستطيع أن يرى الدنيا إلا من خلال مشاعره، بل لا يستطيع أن يرى شيئاً إلا من خلال المرآة التي يرى بها وجهه. إننا بالصورة التي نرى بها وجوهنا حين نحدق في المرآة، نرى الحياة والأشياء والناس، والمبادىء والقيم. إن رؤيتنا لوجوهنا لتؤثر في تكوين شعورنا وتفكيرنا، وإيماننا وأخلاقنا. إن المرآة لشيء كبير في حياة الإنسان.. إن رؤية الوجه تعني أشياء متناقضة.

إن هؤلاء لا يستطيعون أن يعيشوا بأخلاق الماضي وأفكاره ونظمه، لأن الظروف الجديدة ترفض ذلك وتجعله مستحيلاً. ولا يستطيعون كذلك أن يعيشوا مع العصر الحديث بكل ما فيه من تفكير وابتكار، وسرعة وقوة، لأنه أقوى منهم. ولا يوجد من يستطيعون أن يعيشوا في وضع لا يتناسبون معه، دون أن يتعذبوا ويتناقضوا، ويتشوهوا ويشوهوا جميع الأشياء التي يمارسون. وإذا كانت النباتات لا يمكن أن تنمو وتزدهر في غير ظروفها، فإن الإنسان كذلك لا يمكن أن يحيا في غير ظروفه حياة قوية أو سوية أو متلائمة.

الرغبة لا النص

والمحتمل جداً أن تبقى التناقضات النفسية بين المجتمعات والأفراد حادة، وأن تظل تتحول

إلى تصادم، أو إلى خلاف وعداوة ونفور على الأقل، ما دام المستوى بين هذه المجتمعات والأفراد متفاوتاً، حاداً في تفاوته. والمحتمل كذلك أن توحيد المذاهب والنظريات والنظم، بل وجمع البشر كلهم في دولة واحدة ـ لو حدث هذا ـ لن يزيل هذه التناقضات القائمة على تفاوت الخصائص.

ولو استطاع الإنسان بوسيلة علمية أن يخترع مجتمعات متساوية، أو متقاربة في جميع خصائصها الحضارية والإنسانية، لكان ذلك أعظم ما صنع لردم الطرق التي تؤدي إلى العداوة والتصادم، والخلاف بين البشر. حتى الخلافات الدينية والفكرية والفلسفية، ليست إلا خلافات في الخصائص والمستويات. إن الناس يختلفون في العقيدة أو التفكير، لأنهم مختلفون في مستوياتهم، وإذا لم يختلفوا في هذه المستويات، فإن اختلافاتهم الأخرى تصبح اختلافات صورية، وسوف يحولون حينئذٍ هذه الاختلافات إلى شيء واحد في التفسير والتعبير. فالاختلافات في الدين أو المذاهب، لا يوجد اختلافاً في السلوك والخلق ولا في الخصائص الذهنية، فإذا اختلف أهل الأديان والمذاهب المتعددة أو تعادوا، لم ينبغ تفسير ذلك باختلافهم الديني أو المذهبي، بل باختلافهم النفسي. إن المتساوين في مستوياتهم النفسية وفي خصائصهم، لن يختلفوا في رؤيتهم للإله الذي يؤمنون به، وفي تفسيرهم لصفاته.. لن يكون في رأي فريق غضوباً منتقماً متعصباً، وفي رأي الفريق الآخر المماثل له، حليماً عفواً متسامحاً.

*

إن كل الناس يعبرون عن عقائدهم ومذاهبهم، ويفسرونها باستعداداتهم ورغباتهم، لا بنصوص ولا بروح تلك العقائد والمذاهب. إنه لا يوجد من يعبر عن دينه أو مذهبه حين يعمل أو يفكر؛ وإنما يعبر عن وجوده..

وإن صفات المجتمع هي التي تفسر دينه وتعبر عنه، لا روح ذلك الدين ولا نصوصه.. كما أنها هي التي تصوغه.

إن الأديان والمذاهب ليست مذمومة ولا ممدوحة إذا هان أهلها أو عظموا.. إنها ليست مذمومة ولا ممدوحة إذا انحرفوا أو استقاموا.

إذا قفز شعب وأوجد حضارة وقوة ورخاء، وهو يدين بدين أو مذهب، أو عقب ثورة ما، أو عقب أخذه بنظام معين، أو فلسفة جديدة؛ فهذا الشعب كان لا بد أن يكون حتى ولو لم يدن بشيء من ذلك، أو دان بما يخالفه. إن الذي غير ذلك الشعب هو أسلوبه، لا مذهبه ولا ثورته. لقد صنع القوة والحضارة أهل الأديان والمذاهب المختلفة؛ بل المتناقضة. وكذلك صنع الحضارة والقوة أهل النظم المختلفة في الحكم. والعاجزون والمتخلفون هم أيضاً

من كل النظم والمذاهب والأديان. إن المذهب والثورة والعقيدة، لا توجد القوة ولكنها تحيا وتقوى بها كما توزعها وتسميها. إنه لا توجد أية علاقة بين مذاهبنا وعقائدنا، وبين إبداعنا للقوة والحضارة. لقد اخترع الإنسان مذاهبه وعقائده ليفسر بها كينونته.. إنه يعتقد لأنه يكون؛ ولا يكون لأنه يعتقد.

*

ليست الدكتاتورية الباهظة الثمن.. ليست الانقلابات العسكرية الحمقاء.. ليست القسوة التي لا تعرف قانوناً.. ليست أساليب التضليل والكذب، والسباب والادعاء.. ليست الوطنية المصابة بالأمراض العصبية وبفساد الخلق واللغة.. ليست البطولات الخطابية.. ليست الرقصات المنبرية.. ليست المبالغات في الحب والكره، والتأييد والمقاومة.. ليست الكبرياء القومية والسلبية العدوانية.. ليست التحديات.. ليست المشاكل والأزمات.. ليس الجنون الذي يعيش فيه اليوم زعماء العالم العربي وزعماء آخرون كثيرون مشابهون.

ليست هذه كلها إلا بعض الردود التي يرد بها العاجزون على التحدي غير المتكامل الذي واجهوه في عصبية وحيرة وانكسار.

إنه دائماً تجيء الأفكار والأفعال الخاطئة رداً على مواقف الهزيمة والحيرة والإذلال. إن الهزيمة تصنع أفكاراً ومشاعر منهزمة. وإن الأفكار والمشاعر المنهزمة تصنع شخصية منهزمة.



القانون الخالق

قانون التراكم هو الذي يجعل العقائد والمذاهب، والنظم وكل الأشياء في تغير دائم.

إن التراكم يرفض أن يكون الشيء دائماً صيغة واحدة، أو مستوى واحداً.. إنه يرفض أن يظل النهر في وقفة واحدة، أو أن يظل يسير بسرعة واحدة.

إن الحركة الدائمة تخلق حالات متعاقبة دائمة. إن أي مذهب أو نظام، أو تفكير أو اعتقاد، أو وضع جديد، ليس إلا تعاقب حركات، وكذلك كراهته والتخلي عنه، هما حركات متعاقبة.. وكذلك كل خلق جديد.

*

نعم، الشيء يخلق نفسه..

الأشياء تنشأ وتتغير، وتتشكل خلقاً جديداً بقانون تراكم الحركة والمادة. وكذلك تتلاشى أيضاً، بنفس هذا القانون.

الحياة والنمو، والتطور والحضارة، كلها حالات من التراكم.. حتى أفكارنا وانفعالاتنا، ليست سوى تراكم حركة. والثورات والانقلابات معناها أن ظروفاً ومشاعر، واحتجاجات وآلاماً، قد تراكمت فتحولت شيئاً.

الجبال والأنهار، والأمطار والشموس، والنباتات والمجتمعات، والأفكار والمشاعر، تكون وتتطور وتؤدي أعمالها المختلفة والتي نراها بارعة، بقانون تراكم الحركة الذي ينشأ عنه تراكم المادة أو تبددها. إن قانون التراكم لا يترك أي احتمال للتدخل في الكون من خارجه، وهو يجيب على السؤال القديم: هل الشيء يخلق نفسه.

نعم الشيء يخلق نفسه.. فالإنسان والشجر، والنهر والكون، وكل موجود يخلق نفسه، أي يكون نفسه.

إذا صنع الإنسان مثلاً كرسياً، فإن ذلك الكرسي يصبح مزدوج الوجود، فهو إنسان ومادة أولى، صنع منها الكرسي الذي هو إنسان، أي الذي أصبح إنساناً.. فالكرسي الذي هو إنسان قد صنعه الإنسان، أي أن الإنسان قد خلق نفسه. والكرسي الذي هو المادة الأولى قد صنعته المادة الأولى، أي أن الخشب أو غيره من الأشياء الأولية قد خلق أيضاً ذاته. وهكذا كل الأشياء التي يصنعها البشر، أو يصنعها الكون بعضه في بعض.

إن الخشب يخلق الخشب، ولكنه لا يخلق الكرسي لأن الكرسي لم يبق خشباً فقط. وإن الإنسان يخلق الإنسان أي يخلق ذاته بما فيها الكرسي، لأن الكرسي قد أصبح إنساناً. ولكنه لا يخلق الخشب؛ فكل شيء يخلق نفسه فحسب.

وإذا حول البشر الطبيعة إلى شيء آخر، فتحويلها جزء منهم، فهم بذلك يخلقون أنفسهم.

ولو كان الشيء لا يخلق نفسه، لكان خالقه شيئاً يخلق نفسه؛ وهذا يعني أن الشيء يخلق نفسه. وقد جاء قانون التراكم الخالق، بديلاً علمياً عن الأرباب والأساطير التي كان القدماء يحاولون أن يفسروا بها عملية الخلق المستمر. وتفسير الكون بالعقائد ينافي وجود القوانين فيه، بل ينافي مجرد وجوده. وتفسيره بالقوانين ينافي وجود العقائد. والجمع بين تفسيره بالعقائد، وتفسيره بالقوانين، يعني القول بالشيء ونقيضه، أي يعني القول بالحقيقة وإنكارها في مجال واحد.

كل شيء يتحرك حركة دائمة..

وهذه الحركة تتراكم..

وتراكمها يحولها إلى حالات جديدة متعاقبة، لا نهاية لها..

وكل شيء يتطور إلى حالة جديدة بمقدار ما تتراكم فيه الحركات..

هذا النهر يصنع فيضاناً أو طاقة من النهر الآخر، وهذه القذيفة تصنع دماراً أقوى من تلك، وذلك المجتمع متطور أكثر من المجتمعات الأخرى. وسبب هذا التفاوت هو الفرق في تراكم الحركة.

ليس المجتمع إلا طوراً من أطوار التراكم.. وليست أفكاره ومشاعره إلا نهاية من نهايات الحركة المتجمدة. والفضيلة في جميع صورها، ما هي إلا تراكم شعور وظروف.

إن تفكيرنا وشعورنا يتحركان ويتراكمان في حركتهما. وتراكمهما المتولد عن حركتهما،

هو الذي يصنع حالاتنا الفكرية والشعورية الجديدة. فإذا تغير تفكيرنا وشعورنا، كان معنى هذا أن عمليات التراكم قد بلغت مرحلة التحول..

إننا نشعر ونفكر ونتحرك، ثم نشعر ونفكر ونتحرك، ونستمر نفعل ذلك، حتى تتراكم من شعورنا وتفكيرنا وتحركنا، مشاعر المجتمع وأفكاره وسلوكه، وكل أخلاقه وتقاليده بأسلوب الحركة المتتابعة. والعقائد في كل حالاتها هي مشاعر متكاثفة؛ حتى الآلهة لا تعني في لغة المتحدثين عنها إلا ذلك.. فالذي قال: أنا الله، كان يعبر عن هذه الحقيقة. إن الله هو الإنسان.. هو تراكم تصوراته وأمانيه، وتعبيراته عن نفسه.. هو تراكم لغته. إن الله هو لغة الإنسان في صيغة ما، في صيغة متراكمة. والله هو نهاية سلسلة متراكمة من التاريخ النفسي والاجتماعي. وما مشاعر رجل هذا العصر، وأفكاره، وأخلاقه، إلا حالة متراكمة من تجمع حركات التاريخ؛ فكل من مروا بالتاريخ ينصبون فينا ويحركوننا بطريق التدافع، كما تدفع مياه النهر بعضها بعضاً. وكل تغير إنما يعني مرحلة من التراكم المستمر. وتغير المجتمع، هو تغير حالة ناتج عن هذه العملية. وهذه العملية هي التي تحدث القفزات التاريخية الكبرى، مثلما يحدث الفيضان والانفجار والغليان.

كان الباحثون يسألون دائماً: لماذا تتجه الحياة إلى الصعود أو إلى ما نظنه صعوداً، ولا ترتد إلى الوراء.. لماذا تتطور صاعدة مع احتمال ألا تفعل.. ما هي القوة التي تختار لها هذه السبيل وتدفعها حتماً إليها..؟

وكان بعضهم يجيب بأن القدر الأعلى هو الذي يسلكها في ذلك حسب خطة مرسومة مدبرة أزلاً. وكانوا يجدون في هذا برهاناً علمياً على وجود الإله المفكر الحكيم الرحيم. وآخرون يعزون ذلك إلى الصدفة، أو إلى طبيعة الحياة والوجود. ولكن قانون تراكم الحركة يجيب على هذه المشكلة، أو على هذه الظاهرة التي حوّلها الإنسان إلى مشكلة.

فالإنسان يتراكم في نفسه، تتراكم أفكاره ومشاعره وحركاته.. وكذا الحياة في جميع وحدات المادة في صورها المختلفة. فالنهر العظيم بحقوله، وطاقاته، ومجراه، ما هو إلا تعبير عن هذا القانون الخالق الذي يبدو رحيماً وحكيماً، بلا رحمة ولا حكمة. وتراكم الإنسان في نفسه يعطيه أطواراً متغيرة صاعدة، أو تبدو كذلك لأننا نريدها كذلك، أو لأننا نجدها كذلك.

يبدأ الرجل يعمل ويجمع الثروة مبتدئاً من الصفر، ويظل عمله يتراكم، وقد يضاف إليه عمل أبنائه وأبنائهم. وهذه الأعمال المتراكمة تتحول إلى عمليات أعلى وأقوى، وأكثر إبداعاً ودقة وقدرة على الانتصار والاتساع. وهكذا تراكم عمليات الحياة في الإنسان وفي كل الأحياء يحولها إلى أطوار أرقى، أو إلى أطوار يبدو أنها أرقى. إن التطور لا يعني إلا التراكم. وإن التراكم محتوم أن يكون تطوراً.

وكيف تتطور الأفكار..؟

في الحياة وفي كل الأشياء قانون هو قانون الاندفاع والاصطدام. وهذا القانون يحدث التغيرات في كل موجود، كما يتغير اتجاه السيول الهابطة من أعالي الجبال بالقانون نفسه. ولو أراد البشر أن يمتنعوا عن التغير لما استطاعوا، لأنهم لا يستطيعون أن يمتنعوا على قانون التراكم. وليس الذي يجعلهم يتغيرون هو إرادة التغير، بل هو قانون التغير.

إن التراكم قانون اضطراري، لذلك كان التطور اضطرارياً، حتى الذين يحشدون كل قواهم لمقاومة التطور لا بد أن يتطوروا لأنهم لا بد أن يتراكموا.

لقد كانت جميع المجتمعات تخاف أن تتطور أو تتغير، بل وتجهل ذلك؛ ولكنها مع ذلك تطورت. لقد كان خالقها، وهو هذا القانون، يغيرها بدون أن تدري أو تريد. ولو كان التطور لا يحدث إلا إذا تطورت الأفكار، لكان السؤال: وكيف تتطور الأفكار..؟

إن أفكارنا المتطورة هي دائماً خلق وجودنا المتطور، أو الذي لا بد أن يتطور.

إن القانون الذي يصنع الشموس ويطور الكون، هو الذي يصنع الحضارات، ويطور أفكار الإنسان.. ولكن التعبير مختلف.

وإرادتنا للتغير ووعينا له، فعلان من أفعال تراكم الحركة لا فاعلان لها. إننا نفعل بالإرادة والوعي، وبلا إرادة ولا وعي. وإن إرادتنا ووعينا مفعولان محكومان مفروضان بالقانون الذي فعل وجودنا، وفرض علينا الجوع إلى الطعام وإلى الجنس.

وتفاوت المجتمعات في سرعة تطورها، معناها تفاوتها في قوة حركتها وأسلوب تراكمها. وتشبه في تفاوت حركتها وحدات الكون الأخرى في عمليات الحركة المتفاوتة. وإذا تفوق نهر على نهر، أو كوكب على كوكب، أو إحدى شجرات البستان على الشجرات الأخرى، كان معنى هذا تفوقاً في عملية الحركة المتراكمة. ولكن الحركة قد تكون هدماً. فليست دائماً بناءً، والذي يجعلها هدماً أو بناء هو طبيعة المتحرك وظروفه ومجالاته. وأما جهازه العلمي الفكري فهو من خلق الحركة كما سبق، وهو لا يخلقها أبداً بل هي تخلقه ثم تخلق به.

إنه لولا تراكم الحركة لما تغير شعورنا ولا تفكيرنا، ولا أخلاقنا أو حضارتنا، بل لما تغير الكون. نفكر في الشيء فلا نستوعبه ولا نؤمن به، ولكننا نستمر نفكر حتى يتحول تفكيرنا إلى إيمان وإحاطة.. وكذلك نشعر نحو الشيء أو نهم به، ونستمر نشعر ونهم، إلى أن يتحول شعورنا وهمنا إلى اقتحام.

كيف يحدث ذلك..؟

إننا نبدأ شيئاً، ثم يصيرنا التراكم شيئاً آخر.. ذلك هو قانون تغير الأشياء.

حتى مذاهبنا السياسية والفكرية، والفلسفية والاجتماعية وغيرها، إنما تتكون وتتغير بنفس هذا القانون. قد نواجه مذهباً اجتماعياً معيناً لا ندين به، ونظل نواجه ونفكر فيه، ونشعر نحوه، ويظل تأثرنا به ومواجهتنا الفكرية والنفسية له تتراكم وتتراكم حتى نؤمن به، أو نصبح على الأقل غير خائفين منه. إن انزعاجنا من الأشياء وميلنا إليها، راجعان في الغالب إلى مقدار عمليات التراكم الشعوري والفكري، بل وإلى مقدار تراكم الرؤية.

وهل تزرع الصحارى بالكلمة.؟

اعتاد الناس أن يعتقدوا بأن الكتاب والمعلمين الروحيين هم الذين يطورون المجتمعات، وأنهم هم القوى الخالقة التي تصوغ سلوك المجتمعات، وأخلاقها، وقوانينها، وصفاتها النفسية والفكرية. والباحثون العرب تهزمهم مشاعر الابتهاج والكبرياء حينما يتذكرون أو يقتنعون أن الحياة العربية الجديدة بكل ما فيها من ثقافات واتجاهات حديثة، هي منحة طائفة من الرجال. وأن هؤلاء الرجال هم الذين حرروا بلادهم من معتقلات التاريخ، وجعلوها تؤمن بالحضارة وتحياها. وقد ضرب المثل كثيراً بقاسم أمين، ووصف بأنه أحد الكبار الذين غيروا مجتمعاتهم، وصاغوا التاريخ بأقلامهم وأفكارهم. قيل إن كتابه عن المرأة هو الذي فك عنها الطلسم، وجعلها تلقي بكل هوان التاريخ عن فكرها وجسدها. وقيل أيضاً عن رجال كثيرين غيره أن كلاً منهم قد غيّر جانباً من جوانب الحياة، وصاغه الصياغة الجديدة. لقد كانوا قوماً من السحرة خلقوا كوناً جديداً بالكلمات.

هل صحيح هذا.. هل صحيح أن التغيرات الاجتماعية الكبيرة تحدث بسبب واحد مباشر.. هل صحيح أن كتاباً واحداً قد يغير المجتمع..؟

لو كان ذلك كذلك، لاستطاع أصحاب الأفكار الطيبة، أن يحولوا البشر إلى نماذج من العظمة تصب على مقاساتها الآلهة.. أن يؤلفوا كتباً ويلقوا بأفكار تصوغ الناس كما يريدون.

بل لو كان الأمر بهذه السهولة، لاستطاع أي شيطان ماكر أن يفسد البشر ويصنعهم كما يشاء بالكتب والآراء.

إننا لا نستطيع أن نصوغ الناس صياغة جيدة بالأفكار الجيدة.. كذلك لا نستطيع أن نصوغهم صياغة رديئة بالأفكار الرديئة. إننا لا نصلح أو نفسد أو نتطور بالكتب.

وإذا كان هذا صحيحاً، أفليس من المستطاع حينئذٍ تغيير خصائص المجتمعات وأخلاق

الناس بعدة كتب يؤلفها عدة كتاب، حتى ولو كانوا كتاباً مستعارين.. وهل الأمر بهذا اليسر..؟

إذن فلن تبقى أية مشكلة في هذا العالم. وحينئذٍ يصبح أصحاب الكلمة أقوى من يحكم العالم، بل من يخلق العالم. إنهم يخلقونه بالكلمة. إلا أن تعقيداً خطيراً سوف يحدث حينئذٍ، وذلك بأن يتناقض الخالقون للعالم بالكلام، فما العلاج إذا تناقضوا.. إذا تناقض الذين يصنعون كل شيء بالكلمة..؟

إننا لا نستطيع أن نصنع أخلاق المجتمع بكتاب، كذلك لا نستطيع تغييرها بكتاب. كما لا نستطيع أن نقيم المصانع ونحوّل الصحارى إلى حقول بنظريات نلقي بها فيها.

وإذا كان من غير الممكن أن نجعل الأحداث الطبيعية تقع أو تتغير بالأفكار والكتب، فكذلك لا يمكن أن نجعل أوضاع المجتمع تتغير بمثل ذلك. وبقدر ما يستحيل أن تحدث ظاهرة كونية بسبب واحد مباشر، يستحيل أيضاً بالنسبة نفسها، حدوث تغييرات اجتماعية بسبب واحد مباشر. وهل يمكن القول بالسبب الواحد المباشر..؟

قدرة على الحركة، لا التفكير..

إن الظاهرة الاجتماعية كالظاهرة الطبيعية كلتاهما تعبير نهائي عن تجمع حشود من الأسباب. وإن جميع التغيرات في الوجود مركبة معقدة متسلسلة. والإيمان بالسبب الواحد المباشر إنكار للأسباب.. ليس في الطبيعة، أو الحياة، أو المجتمعات، أفكار أو أوامر تقول للشيء كن فيكون.

وما حدث للمرأة في مصر لم يكن بد من حدوثه، حتى ولو لم يوجد كتاب قاسم أمين.. بل ولو لم يوجد قاسم أمين نفسه.

لقد حدثت تغيرات كثيرة في المجتمع المصري والعربي وفي الحياة المصرية والعربية، لأن ظروفاً ما جديدة قد حدثت؛ لا لأن كتاباً أو كتباً قد ألفت ونشرت. وبالأسباب التي تغيرت بها الحياة وأساليبها، تغير سلوك المرأة. والمرأة التي تغيرت وتحررت ليست هي المرأة التي قرأت كتاب قاسم أمين، بل هي امرأة أخرى.. امرأة وجدت نفسها في معترك ظروف لا بد أن تصنع منها كائناً جديداً. لقد خرج كتاب «تحرير المرأة» فلم تتحرر المرأة، لأن الظروف لم تكن قد تهيأت بعد، ثم تحررت بعد أن انسحب الكتاب من السوق، وأصبح تاريخاً يتحدث عنه الكاتبون في بعض مقالاتهم، أو فوق مكاتبهم، ولم يبق قوة في المجتمع تصوغ أخلاقه وأفكاره، أو تحرضها.

حينما نشرت أفكار قاسم أمين، لم يكن من الممكن أن تتأثر بها المرأة لأنه لم يكن ممكناً

أن تقرأها أو تفهمها، لأنها لم تكن قارئة ولا فاهمة. ولم يكن كذلك من الممكن أن يحملها على التأثر بها مجتمعها أو أقربوها، لأنهم لم يكونوا مؤمنين بها، أو على الأقل لم يكونوا مبشرين بها في نسائهم وفي مجتمعهم، بل لم يكونوا قارئين لها.

إن المرأة العربية تصر حتى اليوم على رفض الاستجابة لدعوات كثيرة متواصلة تحثها على التخلي عن أخطائها السلوكية والروحية الأخرى الكثيرة، فهي تقيم الحفلات للجان، وتؤمن بالدجالين، وتهبهم إيمانها ومالها وحماسها، وتذهب إلى القبور، وتطلب من الموتى حل المشكلات، وتصنع مثلما كانت جداتها يصنعن في شؤون الزواج وتربية الأولاد، وتخويفهم من الحياة والأشباح، والظلام والذكاء، ومن الشجاعة.. وفي معاملة الأزواج، وصوغ العلاقات مع الآخرين. وتؤمن كذلك بآلهة جداتها، وتشعر بمشاعرهن، وتخضع لانفعالاتهن الرديئة المتأخرة، ولم تتغير إلا بمقدار ما تغيرت الظروف. ولم تستطع تلك الدعوات والصيحات القوية أن تغير أفكارها، أو مشاعرها، أو سلوكها؛ لأن الأوضاع التي تحياها، ولأن عمليات التراكم عندها، لا تكفي لحدوث مثل هذا. لا لأنه لم يوجد قاسم أمين آخر، يدعوها إلى ذلك.

ولقد دعا كتاب «تحرير المرأة» إلى أشياء كثيرة لم تأخذ بها المرأة، أو تتأثر حتى اليوم؛ لأنها في الحقيقة لا تأخذ حياتها المتحررة عن الكتب أو عن الدعوات والوصايا الصالحة.. بل تأخذها عن الحياة نفسها، ولأن عمليات التراكم هي التي تصوغها.

من المحتوم أن قاسم أمين لو كان ضد المرأة فوضع بدل كتابه في حريتها كتاباً آخر ضد حريتها، لكان الناتج الاجتماعي هو نفسه بلا تغيير. فالمرأة متحررة أو سافرة، أو عاملة مع الرجل في الريف والبادية، وفي بعض البيئات المتخلفة جداً من غير أن تعلم بدعوة قاسم أمين، أو بدعوات غيره من المصلحين، بل بدون أن تعلم بوجودهم.

والناس لا يفعلون الشيء لأنهم دعوا إليه أو برر لهم فعله، ولكنهم يفعلونه حينما يجدون أنهم ملزمون بفعله. وعملية الإلزام ليست أفكاراً ولا كتباً ولا إقناعاً.. إنها شيء أكبر من ذلك وأصعب.

إن الأفكار تخضع دائماً للحياة، تخضع لها في تكونها وفي استجابتها، وفي فهمها لنفسها، وفي فهمها للأشياء. والحياة لا تخضع ولا مرة واحدة للأفكار، لأن الحياة ضرورة وقدرة ومعاناة. أما الأفكار فقراءة من كتاب يتحدث عن شيء لم يصبح معاناة ولا ضرورة ولا قدرة.

إن أقواماً كثيرين يرون حرية المرأة جريمة كبرى وفساداً عظيماً، ومع ذلك يباركون لنسائهم أن يأتين هذه الجريمة وهذا الفساد، ويشعرون بالخسران والصغار والتأخر إذا لم

يفعلن ذلك. والذين يغيرون أفكارهم في هذه القضية، يغيرونها لأنهم وجدوا أنهم لا بد أن يتغيروا في سلوكهم؛ فالاحتياج إلى السلوك الجديد هو الذي يصنع الاحتياج إلى التفكير الجديد. وكذلك يؤمن أقوام آخرون بحرية المرأة، وقد يتحولون إلى مبشرين بهذه الحرية؛ ولكنهم لا يستطيعون أن يحولوا إيمانهم إلى سلوك، لأن الأوضاع التي يعيشون فيها لا تتحمل مثل هذه الشجاعة. والمجتمع قدرة على التحرك لا على التفكير.. إن المجتمع حركات تتوافق.. إن المجتمع حجارة وقطعان تتحرك وتتلاءم، وليس أفكاراً تتفاهم أو تتصادق بمحبة وفداء.

ماذا لو أن كاتباً من اليمن ألف كتاباً يدعو فيه إلى مثلما دعا إليه قاسم أمين، ثم نشره في بلده في الوقت الذي نشر فيه قاسم أمين كتابه.. هل يمكن الزعم أنه لو حدث هذا، لكانت المرأة اليمنية قد بلغت الطور الذي بلغته المرأة المصرية مع بقاء ظروف اليمن كلها في مكانها..؟

لقد صدر كتاب قاسم أمين في مصر، وقرأه أناس في مصر، وأناس في سوريا، وأناس في العراق، وأناس في البلدان العربية الأخرى، فهل جاء التأثير واحداً.. هل اتخذت المرأة موقفاً متساوياً في جميع الشعوب.؟

لو كان الكتاب هو الفاعل لتساوى التأثير.

إن الظروف والضرورات هي التي تصنع سلوكنا، بل وتصنع اتجاهاتنا الفكرية والروحية، ورغبتنا في الإصلاح. والضرورة هي التي خلقت دعوة قاسم أمين، وليست دعوته هي التي خلقت تلك الضرورة. بل إن الدعوة إلى حرية المرأة ونفس حريتها، كلتاهما مظهر لاحتياج، وليس الاحتياج أو الاستجابة مظهراً لهما. والظروف التي صنعت حرية المرأة هي التي صنعت الدعوة إلى حريتها، هذه وهذه نتيجة. فالأسباب التي أوعزت إلى قاسم أمين بأفكاره، هي التي أوعزت إلى المرأة الجديدة بسلوكها الجديد. لقد استجابت المرأة بسلوكها للظروف، واستجاب قاسم أمين بتفكيره لتلك الظروف، فكلاهما مستجيب للظروف الموجبة للتغيير.

متى يقتنع المجتمع بالفكرة، ومتى يحوّلها سلوكاً..؟

إن الناس لا يقتنعون بالفكرة لأنها صحيحة، بل لأنها قد وجدت ظروف الاقتناع. وهم لا يحولون الفكرة التي يقتنعون بها إلى سلوك، لأنهم اقتنعوا بها بل لأنهم أرادوا ذلك واستطاعوه.

فالفكرة قد تكون صحيحة جداً، ولكننا لا نقتنع بها لأننا لا نستطيع الاقتناع. وقد نقتنع بها جداً ثم نحوّلها إلى سلوك، لأننا لا نستطيع تحويلها. إن الحركات السلوكية أشياء زائدة

على الأفكار وعلى الإيمان. وتغيرات المجتمع هي مجهود كبير.. هي فوق الاقتناع والأدلة العقلية. فإذا كانت أفكار تحرير المرأة قد استطاعت أن تقنع الناس كلهم أو بعضهم بصحتها، فما الذي جعلهم يستطيعون تحويلها إلى ظاهرة اجتماعية، أو يرغبون في ذلك مع أن الفكرة ليست حركة، ليست سلوكاً..؟

والذي يحدث أن الناس يفعلون الشيء، أو يحتاجون إلى فعله، أو يرغبون فيه، أو يفرض عليهم، فيذهبون حينئذٍ يبررونه تبريراً فكرياً. وهم لا يفعلونه لأنهم وجدوا له مبررات فكرية. وهذا هو ما حدث في موضوع المرأة وموضوع حريتها. لقد تجمعت الضرورات والظروف التي تفرض على المجتمع وعلى المرأة سلوكهما الجديد، فاستجاب المجتمع واستجابت المرأة، ثم راحوا يبحثون عن تلك المبررات الأدبية. بل ليست المسألة كذلك، فالمرأة والمجتمع قد وجدوا أنفسهم يفعلون ما حدث بدون أن يقصدوا الاستجابة له، أو يستطيعوا دفعه، أو التفكير فيه. إن أقوى كتاب قد يغير أفكارنا أو أفكار طائفة ممتازة منا، ثم يستمر هذا التغير الفكري يتزايد بين جميع وحدات المجتمع، أو بين وحدات الطائفة الممتازة وحدها. ولكن متى تصبح هذه الأفكار المقروءة عملاً من أعمال المجتمع..؟ تلك مسألة أخرى.

إن الكتب المقدسة التي يؤمن بها الناس أقوى إيمان.. التي يؤمنون بها أقوى من إيمانهم بكل ما يمارسون ويشتهون.. أقوى من إيمانهم بقيمة ونظافة العلاقات الجنسية، لم يمكن أن تتحول تعاليمها إلى سلوك للذين يؤمنون بها؛ بل لا يوجد بين أتقى المؤمنين وأصدقهم من يطمعون في هذه المنزلة؛ فلماذا..؟

ليس المجتمع مجموعة من النيازك تنتقل بقانون الحركة وحده. إن المجتمع حركة، ولكنه معقد أكثر من الحركة. إن المجتمع مجموعة من الاحتياج والخوف، والشجاعة والجبن، والعقيدة والعادة، والقدرة والعجز، والمصلحة والتقاليد الكثيرة المعقدة. وتغير المجتمع بل وتغير أية ظاهرة اجتماعية، معناه تحريك هذه المجموعة كلها تحريكاً متوافقاً. وكيف يمكن أن يتحرك هذا الجهاز كله، ويتوافق في حركته ليخلق وضعاً حركياً معيناً..؟

إننا لا نفعل ما نريد، ولا نريد ما نفعل؛ ولكننا نفعل ونريد ما لا بد أن نريده وأن نفعله. والبشر لم يجتمعوا في أي وقت ليقرروا إرادة ما حدث، ويقرروا الوصول إليه، ولو اجتمعوا لما قرروا ولما أرادوا.

محاولة عقيمة يائسة

إنه حينما نغير وضعاً اجتماعياً، لا نغير وضعاً فكرياً؛ وإنما نغير قوى مادية هائلة.. نغير تاريخاً وأوضاعاً، وأساليب كثيرة من أساليب الحياة المتراكمة، ونرفع جثثاً وتراباً، وقبوراً

ورجالاً من الطريق، ونهزم جيوشاً وأجهزة وأسلحة.. ثم نوجد من الناحية المادية نقيض ذلك. والذي يحاول أن يفعل كل هذا للمجتمعات بالمنطق، يحاول محاولة يائسة وغير ذكية.

إن المنطق في مواجهة هذه القوى ليس ضعيفاً فقط، بل مسحوق وتابع.. إنه لن يقاوم أو يحايد، أو حتى يجد نفسه. إنه سيصبح عميلاً مأموراً مطيعاً، وجندياً مستبسلاً، يقاتل ضد نفسه لحساب قاهريه. وما مثل محاولة المنطق للسيطرة على هذه القوى أو توجيهها ـ لو أمكن أن يحاول ـ إلا كمحاولة راهب في صومعته المعزولة عن العالم، أن يتدخل بصلواته في معركة كونية بين النجوم، أو في قوانين هذا الكون وأخلاقه، لتكون بصلواته وأمانيه طبق تعاليمه.

إن المجتمع حاجة واستعداد، وقدرة وتركيب، وتكيف وتاريخ. هل نستطيع أن نصنع من كل إنسان متسلقاً للجبال.. أو هل يمكن أن نخلق مغامراً أو عبقرياً في كل وقت، وفي كل ظرف، وكل مجتمع.. وهل نستطيع ذلك بالدعوة والتفكير..؟

كم من المفكرين والدعاة الذين أعطوا أفكاراً وفلسفات، ومذاهب وهموماً إنسانية، ثم مروا في الطريق الضيق دون أن تسير أو تهتف وراءهم الجموع، أو يحدثوا أية صدوع في بناء مجتمعهم.. وكم من سقراط ومسيح صلبتهم المجتمعات قبل أن يستطيعوا تغييرها أو إقناعها، بل أو حتى الظفر ببكائها أو رثائها..؟

إن أشد الناس إيماناً بالأنبياء والمصلحين، لا يستطيعون أن يخضعوا سلوكهم، أو أنظمتهم، أو قدرتهم، أو إرادتهم، لما جاء به هؤلاء الأنبياء والمصلحون؛ بل لا يستطيعون أن يوجدوا شيئاً من التفاهم أو التواد بين حياتهم وتعاليم هؤلاء الأنبياء والمصلحين.. وحتى لو أرادوا أن يفعلوا لما استطاعوا.

إنهم لا يملكون أن يريدوا، ولو أرادوا لما ملكوا أن يستجيبوا لإرادتهم. بل إن الأنبياء والمصلحين أنفسهم لو أرادوا أن يخضعوا هم أنفسهم لما جاؤوا به هم، لما قدروا.. إنهم لا يستطيعون أن يطيعوا أنفسهم، ولا يستطيعون أن يريدوا طاعتها. وليس خصوم الدعاة والمصلحين أكثر عصياناً لتعاليم الدعاة والمصلحين، وعجزاً عن التوافق معها، من نفس الدعاة والمصلحين.. إن الفريقين يعصون هذه التعاليم على درجة واحدة..

إن نظريات الإنسان معزولة عن إرادته.. وإرادته معزولة عن قدرته. وقدرته معزولة عن واقعه. قد تكون للإنسان نظرية تصوب الانتحار، وترى فيه شجاعة وشرفاً، وذكاء ورفضاً للعبث السخيف، وارتفاعاً بالنفس والكرامة عن الهوان والقبح، وهو مع ذلك يستطيع أن ينتحر، ولكنه لا يفعل لأنه لا يريد، ولا يستطيع أن يريد، ولو أراد لما استطاع أن يفعل.

فالإنسان واقع، وليس إرادة ولا أخلاقاً ولا أفكاراً.. إنه محكوم بنفسه وليس حاكماً على نفسه. ولو بعث جميع أصحاب الرسالات الكبرى من جديد ليفرضوا على المؤمنين بهم إخضاع واقعهم أو أهوائهم لما يؤمنون به بالقانون والقوة، لما اكتفوا بأن يكفروا بأصحاب هذه الرسالات وينفوهم؛ بل لكان محتوماً أن يصلبوهم باسم التعاليم التي جاؤوا بها. إن المؤمنين بالرسول محمد عليه السلام إيماناً يجعلهم يقتلون من يجرؤ على توجيه أي سؤال إلى سلوكه، ليقتلون نفس محمد لو جاءهم ليلزمهم بتطبيق دعوته. وليس أصدق الناس إيماناً بالنبي أو بالمصالح أقدر على التزام تعاليمه من أكفر الناس بكل الأنبياء وكل المصلحين.

إن الإيمان بالتعاليم لن يجعلنا أقدر على التوافق مع هذه التعاليم. إن الإيمان لا يغير أو يضعف حماس أعضائنا.

إن تغير المجتمعات قانون مثل تغير الطبيعة وتغير الجسم الإنساني. أليس تلقي الكتاب الواحد في مجتمعين مختلفين لا يكون على درجة واحدة..؟

وأنا لا أعني هنا أن الإنسان خاضع إزاء الطبيعة والمجتمع، بل إن الإنسان وكذا المجتمع خاضع إزاء نفسه.

الحجة لا تقنع، بل تثير..

الأدلة العقلية لا تستطيع أن تقنع الناس، فكيف تستطيع أن تغيرهم..؟

حاول بجميع منطقك أن تقنع من يخالفك في المذهب أو العقيدة، واجمع نفسك وكل موهبتك وكل من يرون رأيك، وتحولوا إلى طاقة عقلية، وصوغوا هذه الطاقة في أبهر الأساليب المنطقية والإقناعية، واحشد معك جميع الأولين والآخرين يحملون على أفواههم وعقولهم كل ما قالوه وعرفوه.. بل وجند إلى جانبك جميع آلهتك، وأنبيائك، وكتبك المقدسة، ليشهدوا لك أقوى شهادة تريدها، ثم اجعل من كل ذلك أسلحة تدمر بها حصون مخالفك، أو شموساً تكشف بها وجوه الخطأ والصواب في آرائه وعقائده، ثم توقع كيف تكون النتيجة..

إن جميع أسلحتك مهما كانت مسددة وفتاكة ستضرب بعيداً عن حصون المخالفين لك، وستهوي قذائفك الهائلة باردة باردة، بل خرساء صامتة، لن تقتل أو تهز أو تسمع.

ولو كان المنطق بغير أفكار الناس، وعقائدهم، أو سلوكهم، لكان من السهل جداً إخراج أهل الأديان والمذاهب والأنظمة المختلفة من أديانهم، ومذاهبهم، وأنظمتهم، وإدخالهم فيما يخالفها بالمنطق والحوار القوي. بل إنه كلما كان منطقنا أقوى وأوضح كان أضعف في

الإقناع؛ لأننا كلما تفوقنا على خصومنا بالحجة كانت حجتنا أعجز عن إقناعهم، لأننا حينئذٍ نثير حقدهم وخوفهم، بدل أن نستطيع إقناعهم.

إننا لنقنع الآخرين بإظهار تفوقهم المنطقي علينا أكثر مما نقنعهم بإظهار تفوقنا عليهم، لأن البحث عن الحجة الصحيحة أو القوية ليس هدفاً من أهداف الناس. إنهم يستعملون الحجج القوية لتأييد أهوائهم، ولكنهم لا يحترمونها لذاتها. ولو احترموها وهي ضدهم، لأنها قوية أو صحيحة، لعادوها وكرهوها أكثر. فنحن نعادي الحق إذا كان ضدنا، أكثر من معاداتنا للباطل لأن الحق المضاد أخطر، لهذا لا بد أن نخافه ونقاومه أكثر. وكسر الحجة بالحجة، يشبه كسر السيف بالسيف، كلاهما يغذي المقاومة والعداوة ولا يصنع صلحاً أو سلاماً نفسياً. والذين أقنعوا الآخرين، لم يقنعوهم بالمنطق؛ بل بالتأثير النفسي.

إننا لا نستطيع أن نقنع أحداً بأي أسلوب، ولكن الناس هم الذين يقتنعون تحت ظروف الاقتناع الخاصة بهم، وحينئذٍ نحاول أن نرضى عن أنفسنا بأن ننسب إليها فضيلة الإقناع.

ليقتل جميع البشر، جميع الخصوم والمختلفين.. ليقتل جميع هؤلاء منطقهم المتقاتل، فإن أحداً منهم لن يخسر شيئاً.. لن يخسر معركة كان سيربحها بالقتال المنطقي.

المنطق دائماً ضد الإقناع

وأصحاب الرسالات الكبيرة الذين بدا لنا أنهم أثروا في الجماعات، إنما أثروا فيها لأنهم كانوا يتجنبون محاولة الإقناع بالبرهان.. كانوا يحاولون تجنب اصطدام المنطق بالمنطق، والإيمان بالإيمان، لأن أسوأ الدعاة هم أقواهم منطقاً، هم من يصدمون منطق الآخرين بمنطق أقوى. وقد انتصر الأنبياء، لأنهم جاؤوا يدعوننا إلى أنفسنا، ويحتجون علينا بها، ولأنهم لم يجيئونا بمنطق قوي ليقهر منطقنا.. لقد انتصروا لأنهم جاؤوا يدعوننا إلى ما في أنفسنا، لا إلى منطق غريب جديد قاهر.

إن منطق الأشياء لم ينتصر.. لقد انتصروا هم، ولم ينتصر منطقهم. فالمؤمنون لا يحترمون ما جاء به أنبياؤهم من تعاليم، أو منطق، أو سلوك؛ وإنما يحترمون أسماء هؤلاء الأنبياء وأشخاصهم فقط.

إن المؤمنون لا يؤمنون بالأنبياء لأنهم يؤمنون بتعاليمهم أو يحترمونها.. إنهم يؤمنون بهم أو يحترمونهم كأشخاص مرفوضة تعاليمهم، أو بلا تعاليم. إن انتصار المنطق وقوته ليسا أقل من انتصار السلاح وقوته إذلالاً للخصوم وقسوة على مشاعرهم. إن الهزيمة بالمنطق قد تكون أكثر إذلالاً من الهزيمة بالسلاح. إن هزيمة السلاح هي هزيمة للوحوش فينا، أما هزيمة العقل فإنها هزيمة للإنسان فينا. إذن فالمفروض أن تكون هزيمة العقل أكثر تحقيراً للإنسان.

إننا إذا حاولنا هدم منطق قوم شعر أولئك القوم أننا نحاول هدمهم هم. إنهم يصرون حينئذٍ في تعصب وعناد على الدفاع عن منطقهم، إذ يحسون أنهم إنما يدافعون عن أنفسهم. إن البشر لا يدركون الفرق بين أنفسهم وبين مواقفهم. إننا حينما نعادي رأياً، إنما نعادي في الحقيقة اتباعه. إن الرأي بلا اتباع ولا افتراض اتباع، لا يمكن أن يعادى أو يكره. فالناس إنما يعادون الناس حينما يعلنون أنهم يعادون المذاهب والعقائد الفاسدة. إنهم إذا لعنوا المخالفين إنما يعنون الناس أنفسهم لا مذهبهم المخالف، لأنهم - أي أولئك الناس - قد أصبحوا في تقديرهم خصوماً لهم. والذين يدافعون عن رأي ما، يدافعون عنه لأنه رأيهم لا لأنه رأي ما. فالدفاع عن الرأي والمذهب هو دفاع عن النفس. إن الوسيلة المجدية لجعل الناس يتحولون عن مواقفهم، هي أن يتركوا هم يتحولون عنها.. أن يشعروا أنهم هم الذين يختارون لأنفسهم، وأن توضع في طريقهم مبررات هذا الاختيار والتحول وظروفهما. وإذا ألزموا إلزاماً لسبب من الأسباب، وجب إقناعهم أنهم لا يلزمون، بل إنهم مختارون.

إن الذي يتحدث مع مخالفه بالمنطق، لا يحتمل أنه يريد إقناعه إلا أن يكون على مستوى كبير من الغفلة؛ وإنما هو إنسان يعرض ذاته، أو إنسان متوتر يعبر عن توتره بالكلام والمنطق، أو إنسان غير مهذب يحاول بمنطقه مجرد الإذلال لمن يناقش، وقهره بوحشية.. إنه في الأكثر يفعل ذلك بلا قصد ولا وعي بما يفعل. وأسوأ هذه الاحتمالات أن يكون المتحدث بالمنطق مع مخالفيه قاتلاً أو جارحاً أو بذيئاً، لا يريد بمنطقه إلا أن يقتل أو يجرح أو يهين، لأنه - إن لم يكن ساذجاً جداً - لا يمكن أن يكون قصده الإقناع، لأن المنطق لا يحتمل أن يقنع أحداً.. إنه لا يحتمل أن يقنع أي مخالف.. إن المنطق هو دائماً ضد الإقناع..

إنه لا يوجد إنسان يريد أن يقتنع أنه يترك عقيدته أو عقله تحت ضغط عقول الآخرين، أو ضغط عقائدهم ومذاهبهم. إن كل الذين غيروا أديانهم أو مذاهبهم غيّروها بالإكراه، أو بالحاجة، أو بالشهوة النفسية، لا بقرع الحجة بالحجة. إن من أسوأ ما يصنع الناس بأنفسهم أن يتقارعوا بالحجج.. إن التقارع بالحجج هو الجنون، هو الغباء..

إن التحولات التاريخية العظمى التي حولت المجتمعات من دين أو مذهب أو نظام، إلى دين أو مذهب أو نظام آخر تحويلاً عاماً سريعاً، لم يكن سببها الإقناع، لم يكن سببها المنطق.. لقد كان سببها هو الإلزام في إحدى صوره المختلفة.. لقد كان الإكراه والإلزام هو أحد الأساليب التي كان التاريخ يغيّر بها نفسه.. إنه لا يزال يفعل ذلك.

لقد كان التاريخ يمارس نفسه بالإكراه. إن التزامه دائماً بالمذاهب والنظم، وتعاقبه عليها؛

إنما كان أسلوباً من أساليب الاغتصاب.. إنه لم يكن أسلوباً من أساليب الزواج بالتراضي أو التفاهم أو الحب.. لقد كان دائماً إكراهاً.. لقد كان دائماً اغتصاباً.

إن الالتزام الطويل يخلق حالة توافق من الداخل، فالذين يفرض عليهم أو يلتزمون التزيي بدين أو بمذهب اجتماعي سيتحولون بالاستمرار والتتابع إلى معتقدين لذلك الدين أو المذهب، بقانون التكيف المحتوم بين السلوك والرأي، بين الإنسان والموقف.

إن الفرض بالقوة هو الذي أعطى الإنسانية أقوى أديانها ونظمها ومذاهبها، حتى الطائفة القوية التي فرضت ذلك، إنها لم تقتنع أو تقنع به عقلياً، وإنما وجدته في رغبتها وقدرتها واندفاعها، كما يفعل النهر في فيضانه واتجاهه، كما نجد الحب أو الشهوة أو الحسد في أعضائنا وأنفسنا. إنه لو كان للاقتناع أي تأثير على الناس، لأمكن حينئذٍ إزالة جميع الخلافات بينهم، بمحاولة إقناعهم جميعاً برأي واحد.. بإعطائهم نبياً أو معلماً واحداً، يصنع لهم زياً واحداً أو قيداً واحداً أو إلهاً واحداً.

إن الناس يقتنعون ويتغيرون تحت وقع الظروف والضرورات. إن هذه الظروف والضرورات هي التي تغير منطقهم بقدر ما تغير حياتهم. إن الصحيح أن الناس يتغيرون بلا اقتناع.. إنهم يتغيرون بالتراكم؛ إنهم كذلك يقتنعون. والدعاة والمفكرون يقدرون أنفسهم تقديراً هو أكثر من الحقيقة جداً، حينما يزعمون أو يعتقدون أنهم هم الذين يصوغون المجتمعات، يصوغون خصائص البشر النفسية والفكرية. حتى المعتقدات والفلسفات والمذاهب التي توجه الجماهير أو تسيطر عليها فيما يظهر، ليست من صنع الدعاة والمفكرين.

ليسوا أسباباً أولى

المفكرون والدعاة أدوات يعملها المجتمع ويعمل بها. إنهم ليسوا آلات تصنع المجتمع. لقد أعطت المجتمعات هؤلاء أفكارهم وفلسفاتهم أكثر مما أعطوها هم مذاهبها وعقائدها وإيمانها.

المفكرون ظاهرة توجد في المجتمع، ولا توجد المجتمع.. إنهم كالعمال والتجار وسائر أصحاب الحرف.. إنهم ليسوا سوى تعبيرات عن أنفسهم، يعبرون عنها بواسطة الآخرين، وفي ذوات الآخرين.. إنهم ليسوا أسباباً أولى خالقة. إن المفكر نفسه لا تخلقه أو تغيره أفكاره، فكيف تخلق أو تغير المجتمع.. إنه لا يطيع أفكاره، فكيف يطيعها قراؤه..؟

أليست حياة أعظم مفكر تخضع لما تخضع له حياة أغبى إنسان من خوف وهوان، وتعب وحاجة، وشهوة وجوع، وحقد وأنانية، وأشياء أخرى كثيرة صغيرة مذلة..؟

إن عبقرية العبقري لا تستطيع أن تحمي أعضاءه من أن تستسلم للجوع والغواية، والإغراء والخوف والهوان والضعف والموت والتعب.. إن العبقري لن يكون فوق الجوع.

إن أفكار كل مفكر هي حتماً ضد حياته.. إنها ضد ما يفعله ويستطيعه ويريده. إن أفكار كل مفكر هي دائماً فوقه بعيداً بعيداً. إنها لا يمكن أن تعيش معه في مستوى واحد.

إن البعد بين حياة أي مفكر عظيم وبين أفكاره، ليس أعظم من البعد بين أعظم الأفكار وبين حياة أي صغير كلاهما يخضع لما يخضع له برغوث.. يخضع للشهوة والرغبة، والضرورة والخوف والأنانية. إن الإنسان لا يشعر بفرق المستوى بينه وبين ما يعطيه من أفكار ونظريات، مهما عظم هذا الفرق..

إن كل مفكر يلعن النفاق والتفاهة، والجبن والضعف وأخلاق السوق، ويدعو إلى الشجاعة والتحدي، والارتفاع عن كل ما في الأرض من منخفضات؛ بينما يعيش في سلوكه وانفعالاته تحت الأرض مع الهوام والحشرات الصغيرة.

إن كل مفكر عظيم يفكر كإله، ويحيا كبرغوث.. إن كل المفكرين يعيشون فوق الأرض، مهما فكروا فوق النجوم.

إن ذات الإنسان لا تصعد صعود أفكاره.

لا يسرعون بها؛ ولا يبطئون..

لماذا نفكر وتتغير أفكارنا..؟

نحن لا نفكر لأننا نريد أن نفكر، ولا لأننا طيبون، ولا لأن التفكير حاجة من حاجات المجتمع أو حاجات المفكر نفسه. إن الأفكار لا تخلق نفسها ولا تختار نفسها. إن الأفكار في كل حالاتها ليست إلا أسلوباً من أساليب البكاء، أو الاحتجاج على النفس، أو على المجتمع، أو على الطبيعة. إنه إذا لم توجد الحالة التي تجعلنا نبكي ونحتج، فلن توجد الحالة التي تجعلنا نفكر ونغيّر أفكارنا.

أنا أبكي وأحتج.. إذن أنا أفكر.

إذا تغيرت أحاسيسنا نحو الأشياء، نحو أنفسنا، تغيرت أفكارنا أو أصبح تغيرها احتمالاً واحتياجاً قوياً. إن تغير الأفكار هو دائماً علامة على شيء. إن أحاسيسنا تتغير حينما يشتد التناقض بين ما نريد وما نجد.. بين ما نريد ونتمنى.. بين الذات والظروف.. بين الشعور والوضع الموجود.. بين الشعور والطبيعة المناقضة.

ولكن هذا التناقض دائماً موجود، فلماذا لا توجد الأفكار وتتغير دائماً..؟

إن هذا هو الذي يحدث دائماً، ولكنه يحدث بشكل تجمع وقفزات. إن القفزة الفكرية الكبرى هي نتيجة عمليات فكرية طويلة بطيئة.. إنها نتيجة عمليات تراكم طويلة. إن الحالة الفكرية ليست سوى محاولة للبحث عن أسلوب توفيق، عن أسلوب صلح وملاءمة بين

إرادة وواقع.. بين واقع وواقع آخر مناقض. إن الحالة الشعورية ليست سوى أسلوب يعبر عن حالة تصادم بين إنسان وموضوعاته. إن التصادم والتناقض يصنعان تغيرات كثيرة، إنهما يغيران التفكير نفسه. إن هذا التغير يحدث حتماً تحت كل الظروف، حتى الظروف المقاومة للتغيير، حتى الظروف الكارهة للتغيير..

ولكن هل التفكير محاولة.. أليس حالة ذاتية أو نفسية مثل الحزن والسرور والبكاء..؟

إن التبدلات الكبرى التي قفزت بوجود الإنسان وأعطته حضاراته القوية لا يصح أن تؤرخ تاريخاً فكرياً. إنها لا يصح أن تؤرخ بظهور جماعات أو أفراد من المفكرين والكتاب الأفذاذ إلا على تقدير أن هؤلاء الأفذاذ إنما هم علامات كبيرة تشير إلى الحقيقة التي هي أكبر. إن التغيرات التي حدثت والتي تحدث الآن في كثير من البلدان المتخلفة.. التي تحدث اليوم في آسيا وإفريقيا لا يمكن وضعها في حساب مفكرين أو كتاب في هذه البلدان. إنه لو تجمع كل الأنبياء والمعلمين في هذه البلاد يحرمون هذه التغيرات، ويشرحون أخطارها، لما استطاعوا وقفها ولا الإبطاء بها. إن الكتّاب لا يستطيعون أن يمنعوا التغيرات الاجتماعية أو يبطئوا بها، كما لا يستطيعون أن يصنعوها أو يسرعوا بها.

إنهم لا يسرعون بها.. إنهم لا يبطئون بها..

إن الناس يتطورون بلا أفكار وبلا مفكرين.. إنهم يتطورون بالإحساس والقدرة والضرورة والتراكم. إنهم يتطورون ويصنعون التغيرات عاصين للأفكار والمفكرين.

إن في كل مجتمع.. إن في كل نظام مفكرين ينكرون التغير والتطور، ولكن التطور والتغير يقعان..

إن المفكرين في الغالب لا يثورون ولا يدعون إلى الثورة.. إن أفكارهم تنهى عن الثورة، إنها تصرف عنها أكثر مما تفعل العكس، ومع هذا تقع الثورة. وكما يفعل البشر المعصية والخطأ، ويخرقون القوانين والأخلاق بلا تعاليم، بل خروجاً على التعاليم.. كذلك يفعلون الثورات.

إن الثورة.. إن أية ثورة، هي في أسلوبها معصية، ولكنها قد تكون في نتيجتها شيئاً ما، قد تكون في نتيجتها شيئاً آخر، مهما كانت في أسلوبها ونيتها معصية.

إن التغير والتطور ليسا أفكاراً، بل إنهما عمليات ذاتية، كعمليات الحياة والأعضاء في الجسم. إنه لا توجد أفكار تدعو أعضاءنا أو حياتنا إلى أن تعمل، إلى أن تكون.. إنه لا توجد كذلك أفكار تقول للناس اقتلوا، أو اسرقوا، أو خونوا، أو احقدوا على الناس، أو

اكرهوا أصدقاءكم، أو اصنعوا الآلام لأنفسكم وللآخرين؛ ولكن كل ذلك يحدث بلا أفكار، إنه يحدث ضد الأفكار.

إنه لو أجمع كل المفكرين في كل العصور على تحريم التغير والتطور لظل كل الناس يتطورون ويتغيرون بالمستوى نفسه. بل لربما جاء التحريم محرضاً عليهما، كما أن إجماع الدعاة والتعاليم على تحريم الكذب والغدر والذنوب الأخرى لم يمنعها، أو يقلل منها.

لقد كانت الأديان والقوانين، وكثير من الأفكار في جميع العصور، تنهى عن كل تطور وتغيير، وتعاقب عليهما، ولكن ماذا حدث..؟ لقد كانت التطورات والتغيرات الكبرى المحركة تحدث دائماً، كما تحدث الزلازل والبراكين والفيضانات، وبالقانون نفسه.

إن الأشياء المنهي عنها، تحدث بالأسلوب الذي تحدث به الأشياء المأمور بها. والتبرير والنهي الفكريان لا تأثير لهما. إن الناس يتطورون ويتغيرون من داخلهم.. إنهم في تطورهم وتغيرهم، لا يبحثون عن الجائز والمبرر فكرياً، أو اعتقادياً.. إنهم يؤدون أعمالهم كعصاة يستجيبون لتحريض ذواتهم وطموحهم، لا كأتقياء يبحثون عن الأوامر ليطيعوها. إن الوحش لا يفترس لأنه وجد مبرراً دينياً، أو أخلاقياً، أو وطنياً.. وكذلك الثائر، مهما تحدث عن المبررات..

في العصور القديمة لم تكن توجد أفكار ثورية تسوغ الثورة، ومع هذا فقد كان الثوار يوجدون دائماً. إن الثوار هم دائماً مغامرون، أو خوارج، كالقتلة وقطاع الطرق، ولكن الظروف هي التي تحولهم بعد انتصارهم إلى ثوار، أو إلى من يسمون ثواراً. ولو أن لصاً هجم على قصر ليسرق، فتنازل له الحاكم عن الحكم، فقبل أن يحكم، لتحول إلى حاكم.. بل لتحول إلى ثائر، ولصاغ نفسه صياغة جديدة ثورية.

إنه لا فرق بين الثورة والطموح. إن الفرق في تقديرنا أو في الظروف الخارجية. فكل ثائر طموح، وكل طموح فيه ثورة. والذي لا يثور لا طموح به، والذي لا طموح فيه لا يثور. والفروق بين الثوار وغيرهم، ليست فروقاً إنسانية بل قتالية، فالثوار مقاتلون، أما غيرهم فلا يريدون ولا يحسنون القتال، أو لا يجرؤون عليه.

إن الأحاسيس والاحتياجات هي أقوى تحريضاً من أعظم الأقلام التي تكتب أقوى الأفكار. إن الذي يحس بالشيء ويحتاج إليه، أعظم من الذي يكتبه. إن الذي يضع مسماراً في مكان الحاجة إليه، لأعظم خلقاً من جميع الكتاب الذين يحسنون التحدث عن ذلك الاحتياج.. إن الكتاب والمفكرين لا يريدون بما يكتبون أن يغيروا أوضاعاً فاسدة. إنهم إنما يريدون أن يجدوا موضوعات دائمة يدّعون الغيرة عليها ويكتبون عنها.. إنه لا ينتظر منهم

لهذا أن يرحبوا بزوال الآلام والتأخر، والأخطاء والعداوات من العالم.. إن زوالها يفوت عليهم عملهم.. إن احتياج الكاتب إلى الفساد والشر ليكتب عنهما، ليبكي حزناً من وجودهما، كاحتياج الطبيب إلى المرض في الإنسان ليعالجه، كاحتياج رجل الدين إلى الشيطان ليشتمه.

أدوات تبرير لا تغيير

هل يمكن أن تتغير حياة الإنسان من غير كتاب..؟

نعم، فالحياة كلها تتغير بقوانينها. وقد ظلت حياة الإنسان تتطور حتى بلغت عهدها الذي يصنع الكتاب. إن التطور صنع الكتاب، دون أن يصنع الكتاب التطور. إن وجود الكتاب حاصل تطور طويل. لقد كان الناس بلا كتاب، فظلوا يتطورون دون أن يريدوا ذلك أو يفهموه، حتى أوجد التطور الكتاب.

إننا إذا أحصينا محصول البشر من الكتاب وجدنا فريقين: فريقاً يناصر الرجعية ويحارب التغير ويخافه، وفريقاً يبشر بعهد جديد.

إن المفروض في الكاتب، في أي كاتب، حتى الكاتب التقدمي جداً، أن يدافع عن مذهب أو نظرية أو نظام أو دين معين، معتقداً أنه هو وحده الحقيقة أو الأفضل. ومعنى هذا أن يناضل ضد المذاهب والنظريات، والنظم والأديان الأخرى التي قد تكون أكثر تقدمية. إذن فالكتاب حتى أشدهم تقدماً وثورية، لا بد أن يصبحوا على نحو ما قيوداً أدبية للمجتمعات، لأنهم يتحولون إلى مذاهب ونظريات، ومواقف تاريخية يكون الخروج عليها حكماً عليهم بالتخلف، ويكون معاناة عقلية.

إن الكتاب دائماً إما رجعيون أو جاهلون أو منافقون، وإما تقدميون يعدون ثائرين متمردين. النوع الأول في كل مجتمع هو الأقوى تأثيراً، أو الأكثر في السوق، أو هو الرسمي. وأما النوع الثاني فمع أنه معدود تقدمياً وصادقاً، فإنه محتاج إلى أن ينافق ويكذب، ويضعف في أحيان كثيرة. إنه إن لم ينافق الحكام والأقوياء، فإنه ينافق الجماهير والتاريخ. إن النفاق للتاريخ والجماهير ليس أفضل كثيراً من النفاق للأقوياء. ولكن البشر مع هذا يظلون يسيرون في طريق التقدم المسدود، متخطين لأنبيائهم ومعلميهم، ولكل النظريات والمذاهب والكتاب. إن كل الناس، حتى أتقاهم وأعجزهم حركة، يتخطون كل الأنبياء والمعلمين. إن خطوات الإنسانية وأشواطها أوسع وأبعد مدى من خطوات وأشواط جميع الأنبياء والمعلمين.

ولو كان الكتاب هم الذين يؤثرون، لكان المفروض أن يكون تأثير دعاة الوقوف أكثر من

دعاة التقدم. إن الناس لا يستجيبون للكتاب؛ وإنما يستجيبون لمن يتوافقون مع حوافزهم وضروراتهم وقدرتهم.

وإذا كان الكتاب التقدميون يعطون المجتمعات، فإن الكتاب الرجعيين يأخذون منها؛ فهل الكتّاب ـ إذا وضعوا تحت حساب الربح والخسارة ـ يعطون أم يأخذون.. هل هم خير أم شر.. إنهم رجعيون وتقدميون؛ فهل هم رجعية أم تقدمية..؟

إننا نجد الكتّاب يختلفون في اتجاهاتهم الفكرية، لاختلاف المجتمعات التي يمارسون علاقاتهم فيها. إن الكتاب في المجتمعات المتأخرة كتاب متأخرون، وإنهم في المجتمعات المتخلفة متخلفون، إن هذا هو الأكثر الأقوى.

إذن، الكتاب أدوات تبرير لا تغيير. إنهم في الأكثر قوات دفاع عما هو موجود، لا قوات هجوم.. إنهم في الغالب حراس للنظام الذي يعيشون تحته.. إنهم يحرسون كل نظام وكل نقيض له.. إنهم يحرسون هذا النظام، فإذا وجدوا تحت نظام مناقض له حرسوه أيضاً بنفس الحماس والجرأة، والتصميم والافتضاح.. إنهم في الأكثر جداً مبيعون للسوق، أو للنظام الذي يعيشون تحته.. إنهم إذن قيد على خطوات التقدم.

إذن الكتاب تابعون، إذن هم لا يعطون شيئاً. إنهم إذا أعطوا فما يأخذونه أكثر.

وإذن فالمجتمعات تتغير من غير كتاب. إنها هي التي تخلق صفات هؤلاء الكتاب. إذن، من المحتمل جداً أن يكون تطور الإنسان أسرع وأقوى، لولا المعلمون والكتاب الذين كان أكثرهم ضالين وكاذبين، الذين كان أكثرهم يعلمون الناس الكذب والخوف من التطور، الذين كان أكثرهم يستهلكون حوافز الحياة في مقاومة الحياة، وينفقون كل جهودهم في تحويل أشواق وطاقات الإنسان إلى حرائق كبرى تشتعل في غابات التاريخ.

إن في طبيعة الكاتب الرديء أن يقع أكثر من الكاتب الجيد. إن الكاتب الرديء يدعونا إلى البقاء في أماكننا، أما الكاتب الجيد فيدعونا إلى الهجرة. إن الهجرة معاناة.

إن الكاتب الأول يقول لنا: كونوا كما كنتم. وإن الكاتب الثاني يقول: كونوا كما لم تكونوا.. كونوا غير ما كنتم.. كونوا أكبر وأعظم وأصعب. ومع أن الناس حتماً يتغيرون فإنهم يرحبون في الأكثر بالدعاة الذين يباركون الإبقاء على ما هو موجود من العقائد والنظم والتقاليد. إنهم يباركون البقاء في الأماكن القديمة المألوفة.

إن تفكير الإنسان وإرادته أكثر رجعية، وأقل شجاعة من احتمالات حياته. لقد كان تطور الإنسان يجيء دائماً في النهاية متفوقاً على كل تقديراته الفكرية وأمانيه، وعلى كل ما كان يريده لنفسه، لأن الحياة تعمل بالقدرة لا بالإرادة ولا بالمعرفة. إنها كالطبيعة التي تعمل

ما تستطيعه، لا ما تعرفه أو تريده أو ترضى عنه.

*

إن قانون التراكم هو الذي يجعل العقائد والمذاهب، والنظم، والأشياء في تغير دائم. إن التراكم يرفض أن يكون الشيء دائماً صيغة واحدة، أو مستوى واحداً.. إنه يرفض أن يظل النهر في وقفة واحدة، أن يسير بسرعة واحدة.

إنه بهذا القانون أمكن أن يفسر الحق والخير والاستقامة بأنها مراحل للحركة الأبدية، وأن تفسر عمليات الكون الخالقة بأنها هي التعبيرات القوية عن هذا القانون. إن الشيء يأخذ بقانون الحركة الدائمة يتجمع، فإذا بلغ مستواه كره نفسه، وظهرت تناقضاته، وعجز عن البقاء. إن الحركة الدائمة توجد حالات متعاقبة دائمة. إن أي مذهب أو نظام أو تفكير أو اعتقاد أو وضع جديد، ما هو إلا تعاقب حركات.. وكذلك كراهته والتخلي عنه، حركات متعاقبة. وكذلك كل خلق جديد.. إن كل خلق جديد ليس إلا حركات متعاقبة.

إن الخلق الجديد ليس نضالاً سرياً.. ليس من عمل الآلهة ضد الكون. إن الخلق الجديد هو تعاقب حركات الخلق القديم.. ليس الخلق الجديد نشاطاً تقوم به جماعات سرية ترفض الظهور لأنها متأخرة أو غير شرعية.

إنه ليس البحث عن الأصلح أو عن الحق، هو الذي يجعل الناس يبحثون عن التغيير. إن البحث عنهما لا يعني إلا التعبير الأعلى عن قانون الحركة الدائمة. إنه إذا ما انتصر مذهب أو نظام بأسلوب التجمع، وهزم المذاهب والنظم الأخرى بهذا الأسلوب نفسه، خلق معه احتياجات وظروفاً أخرى جديدة. إنه محتوم أن يكون حينئذٍ عاجزاً عن التلاؤم مع كل هذه الاحتياجات والظروف. إنه سيكون على نحو ما متناقضاً معها. وهذا يعني حتماً فقده لمثاليته. واصطدامه بنفسه. إن مجرد وجود الشيء يؤدي إلى ظهور عيوب فيه، لاستمراره في تجربته لنفسه.

إن كل موجود لا بد أن يتناقض مع فكرته، ومثله الأعلى، ومع وجوده.. بل إنه لا بد أن يجيء متناقضاً مع الموجودات الأخرى. إن كل شيء يحمل ذاته ونقيضها.. إن كل شيء يحمل التوافق والتناقض مع نفسه.

والتراكم ـ تراكم الشعور والأفكار، وتراكم الموجود ـ يتحول إلى تناقض محتوم مع المذاهب والنظم الموجودة التي كانت يوماً ما بديلاً عما كان قبلها. إن الأشياء تستهلك نفسها.. إنه بالقانون الذي نغير به أزياءنا، وصناعاتنا، وأثاث منازلنا، نغير مذاهبنا وعقائدنا ونظمنا الاجتماعية.

الموجود عدو نفسه

وكما أن أية خطوة لا تكون هي الخطوة التي قبلها ولا التي بعدها، فكذلك المذهب أو النظام. لن يكون هو الذي قبل أو الذي بعد.. لن يكون هو الأمس واليوم والغد والأبد، مهما أريد له أو زعم له ذلك.

وإذا كانت الحركة تعني التغير، فإن الحياة أيضاً تعني المذاهب والفلسفات المتعاقبة التي لا تبحث عن هدف، ولا عن نهاية، ولا عن خير أو شر. إن كل تغير في الوجود هو انبثاق الحركة الدائمة، لا انبثاق البحث عن الصواب أو الخير أو المنطق. إن التغير ليس صلاة في معبد، إنه ضرب في التيه.

إن الشيء الذي يبدو ولا عيوب فيه، سيخلق لنفسه بقانون التراكم عيوباً تجعله محكوماً عليه بالتغير والإعدام. إن أفضل المذاهب والأوضاع سوف يحولها قانون التراكم وقانون تناقض الشيء مع نفسه، إلى أفسد المذاهب والنظم.

إن الوجود نفسه خطر وألم وتناقض. إنه إذا وجد الشيء فقد وقع في الخطر والألم والتناقض، لأن وجود الشيء معناه التناقض بين ما ينبغي وما يمكن، بين مثالية الشيء وكينونة الشيء، بين الشيء كما هو والشيء كما يراد له ويراد منه. ولهذا فإن جميع الرجال، والمذاهب، والنظم، والعهود، تقع في الورطة وتفقد مثاليتها وتفوقها إذا جربت وطالت تجربتها.. إنها لا بد أن تفقد جمالها.

إن الوجود عدو دائم للكمال. إن الموجود عدو نفسه. إن الشيء الكامل هو الذي يظل فكرة ولا يتحول وجوداً. لهذا كانت الآلهة والأوهام الرائعة دائماً فكراً، لا وجوداً. وقد ظل المؤمنون ينأون بأشيائهم المنزهة عن أن يقيدوها بالوجود، عن أن يجعلوها موجودة، وكأنهم أدركوا أن الوجود خطر عليها وعليهم.

إن الوجود تشويه. إن الشيء الرائع الذي لا يصيبه التشويه، هو الوجود بالفكرة لا الوجود بالتجربة.

إن أعظم ما في أي مذهب أو نظام أو إنسان، هو مستقبله الذي لم يوجد، أو ماضيه الذي ذهب فأصبح غير موجود. إن هذا ما يدعيه أنصاره، وما يعتقدونه فيه وله.

وقد احتاج البشر في كل عهودهم إلى أن يؤمنوا بأشياء غائبة، أن يؤمنوا بأشياء فكرية لا ترى ولا توجد، لأنهم محتاجون إلى الإيمان، ولأن الإيمان لا يكون إلا بأشياء كاملة منزهة، ولأن الأشياء الموجودة لا يمكن أن تكون منزهة ولا كاملة. إن عجز الموجود هو الذي أوحى إلينا بالإيمان بغير الموجود.. إنه من أجل هذا سوف يظل الإنسان دائماً محتاجاً إلى كائنات

غنائية شعرية غيبية، تهيج خياله وأمانيه وتملؤها بالأشباح.

إن الإنسان محتاج إلى أن يتصور. إن تصوره ينقذه من كآبة الموجود وسخفه.. إنه يهبه العزاء والراحة.

*

إن قانون التراكم يفسر لنا ظاهرة متكررة خادعة.

إن التغيرات الكبيرة التي تحدث وكأنها مفاجأة، كأنها اعتداء على القوانين الطبيعية، على وقارها المألوف البطيء، عندما يحكم عهد أو حزب أو رجل جديد؛ إن هذه التغيرات ليست سوى نهاية متراكمة معينة. فإذا جاء دكتاتور وأحدث أحداثاً لامعة ـ وهذا يقع كثيراً ـ فالتفسير لهذه الظاهرة أن هذا الدكتاتور قد جاء تعبيراً عن حالة تراكمية حادة. لقد استغل هذه الحالة التراكمية بأسلوب صارخ إعلاني.. إنه لم يصنع أكثر من إشعال الفتيل في الوقود المتجمع..

إن هذا التراكم لا بد أن يعبر عن نفسه، سواء أجاء الدكتاتور أم ظل وحشاً بعيداً. إنه على طول التاريخ جاءت التعبيرات في كل عهد وكل نظام. ولهذا فإن التغيرات في أي مجتمع تجيء متفاوتة في قوتها وعمقها.. إنها أحياناً تجيء بشكل قفزات. إنه كلما تكامل المجتمع كان أقدر على التغير. وقد تتجمع أشواطه وتحفزاته وأسباب انبعاثه داخله لتنطلق كقذيفة لها دوي وبريق هائلان..

إنه لا يمكن أبداً تفسير التغيرات الكبيرة التي صاغت الحضارة والتاريخ بأنها عمليات تفجير من الخارج.

ليست قوة الدكتاتور وتحركاته المثيرة إلا عملية استغلال لحالة موجودة. ولهذا فإنه لا يمكن أن يكون أكبر أو أفضل من عصره ومن ظروفه. إنه إذا جاء في عصر وظروف مختلفة فلن يكون إلا متخلفاً.. إنه يكون عظيماً، أو يبدو عظيماً، حينما تصنعه ظروفه وعصره كذلك.

إن مجيء الدكتاتور ليس إلا تعبيراً رديئاً وأليماً عن حالة التراكم.

إن حالة التراكم قد تختار أن تعبر عن نفسها بمجيء دكتاتور ما.. إنها بذلك كأنما تمارس الانتقام من الإنسان.

عارك.. أيتها الحضارة

«عارك أيتها الحضارة، في أن أصبحت خصماً للإنسان، محابية لخصومه..

لقد منحت أعداء الإنسان كل أسباب القدرة على التنكيل به.. لقد وهبت هؤلاء الزعماء الصغار المتوافدين عليك من أحراش القارتين المحترقتين بالظلام وبالشمس، كل وسائل الاستعلاء والجبروت والاغواء.. لقد أعطيتهم كل القدرة على ممارسة كل أساليب الطغيان والفجور، ثم سوغت لهم كل ذلك ودافعت بشتى التفسيرات والمسوغات..

لقد جعلتهم بتفسيراتك ومسوغاتك، يجدون أنفسهم بما يأتون من حماقات وفظاعات.. لقد دفعت بهم إلى ممارسة كل أسباب السقوط، ثم ذهبت تحاولين حمايتهم من السقوط.

عارك أيتها الحضارة تمارسينه ضد نفسك، في القارتين المتفجرتين عليك بالطوفان البشري وبالتاريخ الحزين، وبالمشاكل والأوبئة، وبالزعماء الصغار العتاة، القاهرين لشعوبهم...»

*

عارك أيتها الحضارة.

عارك في هؤلاء الصغار الذين راحوا يتوالدون على فراشك بتتابع فاجع، وبأسلوب وبائي؛ ليلوثوا أخلاقك وسمعتك وجسدك، بكل ما يحملون في أخلاقهم وأجسادهم وسمعاتهم من أدران وذنوب، وفحشاء وعاهات، وبكل ما في تاريخهم من ضعف وتوحش.

عارك أيتها الحضارة

في هؤلاء الصغار المولودين فوق سريرك كما تولد الآثام والفضائح العظمى في غير أماكنها.. كما يولد أبناء الخطيئة في غير بيوتهم.

عارك في هؤلاء الصغار الذين فقدت كل وقارك وكبريائك وفي افتتانك بهم.. في هؤلاء الصغار الذين ذهبت ـ بافتتان مهين ـ تصنعين منهم زعماء وطغاة كباراً، ليقهروا مجتمعاتهم المتعبة المقهورة.. ليمتصوا منها كل بقايا شجاعتها وذكائها ورخائها، كل احتمالات الشجاعة والذكاء والرخاء فيها.

عارك في هؤلاء الزعماء الصغار، الذين ذهبت دون احتشام تهبينهم كل تدليلك، كل تواضعك المنافق، كل عونك اللئيم؛ لكي يملكوا كل الشراسة والغرور.. لكي يتحولوا إلى افتضاح لأنفسهم، للمجتمعات التي يقفون فوقها، للقارات التي ينتمون إليها، للمعسكرات التي يحسبون عليها.. لكي يتحولوا إلى افتضاح للإنسان في كل تاريخه، في كل أجناسه، في كل قاراته.

عارك أيتها الحضارة.

في هؤلاء الصغار الذين تعذبت طويلاً، باحثة عنهم في عفونات التاريخ، وفي أحراش القارتين المريضتين بالزعماء والمعلمين، وبالفقر.. مبالغة متأنقة، عاشقة في منحهم ومحاباتهم، وفي تلميعهم وتقويتهم، وفي خلق الظروف المواتية لهم، وفي إسباغ المجد والشهرة عليهم، وفي تدريبهم على الوقاحة والجرأة، وفي تعليمهم كل لغات الزئير والصهيل، وكل اللغات الأخرى المتشابهة، وفي إشعارهم بالحماية والأمان مهما مارسوا كل الأخطاء القاتلة، كل الغباء المميت، لكي تطلقي منهم أعلى الأصوات الشاتمة المهددة لكل شيء، لكل أحد، المتطاولة على كل شيء على كل أحد، حتى على خالقتهم، حتى عليك أنت..

لكي تحوليهم إلى أزمات وتعقيدات دولية.. لكي تصنعي منهم أخطاراً وهموماً يعيشها ويعاني منها كل العالم، يعيشها ويعاني منها كل أحد.. حتى خالقتهم، حتى أنت، يتحولون في حياتك إلى أخطار وهموم.

عارك أيتها الحضارة.

في أن أوجدت أوضاعاً شريرة قسمتك إلى معسكرات متنافسة، لكي تحول كل المعسكرات مواقفها المتنافسة إلى تملق لهؤلاء الصغار.. إلى إعطائهم كل شيء حتى الكرامة والشرف.. وإلى تقبيل أقدامهم الحافية من كل مجد حضاري ومجد إنساني، لكي يتقبلوا ما يعطون، لكي يتواضعوا ويتقبلوا ما يعطون.

عارك أيتها الحضارة.

في أن هؤلاء الزعماء الصغار قد أدركوا ـ مع عجزهم في الإدراك ـ قوة الغواية، غواية التنافس بين معسكراتك، فذهبوا بكل ما فيهم من جلافة نفسية وتاريخية، يتدللون ويتكبرون عليك وعلى معسكراتك، ويسخرون منك ومن معسكراتك، ويضربون عليك وعلى معسكراتك كل ألوان الإذلال والتحقير وكل أنواع الجزية، دون أن يخشوا من غضبك ورفضك، أو من غضب معسكراتك ورفضها.. دون أن يتوقعوا تمرداً أو عصياناً. لقد اطمئنوا إلى هوانك، إلى استسلامك لجبروتهم، لشروطهم المخزية.

عارك أيتها الحضارة.

في أن المنافسات بين معسكراتك قد حولتها ـ أي حولت معسكراتك ـ إلى هزيمة وهوان وسخرية، بقدر ما حولت هؤلاء الزعماء الصغار إلى جبروت ووقاحة، ودلال بذيء مذل.

إن تنافس معسكراتك على هؤلاء الزعماء الصغار ليس أنظف أو أفضل من تنافس عدة عشاق أغنياء أقوياء سفهاء على غانية بذيئة لئيمة. إنها تستطيع أن تنتقل بين هؤلاء العشاق بالإهانات والتعدي والهجر، دون أن تكون شجاعة، ودون أن تخشى شيئاً.. إنها ستحمي، بل ستربح بذلك، ستربح بإثارة التنافس بينهم، وبالإقبال والإعراض، بالتوزيع وبحافز التحريش وخلق المنافسة.

عارك أيتها الحضارة.

أن حولت الضخام جداً جداً، إلى نمال تحت أقدام النمال، وأن حولت النمال جداً جداً، إلى ضخام جداً جداً، في انتصارها على الضخام، وفي تحقيرها للضخام جداً جداً، وفي تملق الضخام جداً جداً لها.

عارك أيتها الحضارة.

في أن وهبت هؤلاء الزعماء الصغار عضلاتك، ولم تهبيهم أخلاقك.. في أن وهبتهم لغتك، ولم تهبيهم ذكاءك.. في أن وهبتهم أجهزتك، ولم تهبيهم وقارك.. في أن وهبتهم جسمك، ولم تهبيهم ذاتك.. في أن أعطيتهم زيك، ولم تعطيهم موهبتك.. في أن أعطيتهم أساليب حياتك، ولم تعطيهم مستويات حياتك.. في أن أعطيتهم كل جنونك وشراستك، ولم تعطيهم شيئاً من عقلك أو ضميرك.. في أن أعطيت الوحش فيهم كل شيء، ولم تعطي الإنسان فيهم أي شيء.. في أن صنعت لهم أظافر وأنياباً قوية، ثم لم تصنعي لهم صفات متناسبة مع هذه الأظافر والأنياب..

عارك أيتها الحضارة.

في أن وهبت الجواد ولم تهبي الفارس.. في أن وهبت سلاح الفارس، ملابسه، هيئته، مظهره، تحدياته؛ ولم تهبي نفس الفارس، لم تهبي فروسيته.

عارك أيتها الحضارة.

في أنك تملكين قوة دون أن تملكي كرامة.. في أنك تملكين مجداً دون أن تملكي شرفاً.. في أنك تملكين علماً دون أن تملكي إباء. لهذا فإنك لم تجدي شرفاً أو إباءً، أو كرامة، لتعاني منها حينما قررت السقوط تحت أحذية هؤلاء الزعماء الصغار، تصلين لها بلا اشمئزاز أو كفران، وتلعقينها بلا قيء، وتتلقين منها الوحي بلا معارضة، بلا طلب تفسير، بلا سؤال عما يعجزك فهمه.

عارك أيتها الحضارة.

في أنك لا تشترطين لنفسك.. في أنك لا تختارين من تمارسين ذاتك معهم. إنك لا تبحثين عن الكفء.. إنك مبتذلة رخيصة مهما كنت رائعة، رائعة.. إنك مبتذلة رخيصة أيتها الحضارة.

إنك أيتها الحضارة، لست أكثر شمماً من الهمجية، من البداوة.. إنك لست أكثر رفضاً للهوان.. إن هامتك ليست أكثر ارتفاعاً.. إن قامتك ليست أعصى ركوعاً.

عارك أيتها الحضارة.

في أنك تذلين آباءك، أبناءك، أهلك، لمصلحة أعدائك، لمصلحة هؤلاء الزعماء الصغار.. في أنك تحقرين آباءك، أبناءك، أهلك، لكي تمجدي، لكي تعظمي خصومك، لكي تعظمي وتمجدي هؤلاء الزعماء الصغار.

لقد وضعت قومك في مكان الرثاء لهم.. لقد أهنت شرفهم.. لقد دفنت كبرياءهم في التراب.. لقد ألقيت بهم تحت أرجل هؤلاء الزعماء الصغار، يتملقون ويستجدون أن يقبلوهم كأصدقاء في موقف الأقل والأضعف، كحماة في موقف الشاكر المعترف، كرعايا، كأتباع، كخدم، كعاشقين بلا رغبة، بلا استمتاع، بلا عطاء من المعشوق، بلا ثمن للعاشق، بلا لذة، بلا حب، بلا سبب من أسباب الحب..

كم هو عناء أن تشمئز في كل مواقف الاشمئزاز، أن تشمئز عن كل الناس، عن كل من يجب عليهم الاشمئزاز فلم يشمئزوا.. كم هو تعذيب.

عارك أيتها الحضارة.

في أن أصبحت فضحاً لأصدقائك ولأعدائك..

لقد فضحت أصدقاءك بأن وضعتهم تحت أقدام أعدائهم، تحت أقدام هؤلاء الزعماء

الصغار. وفضحت أعداءك بأن وضعتهم تحت التجربة الفاضحة، بأن أعطيتهم القدرة على أن يكشفوا ما فيهم من ضعف وسخف، ومن مستويات إنسانية هزيلة.. لقد قسوت عليهم بأن جعلتهم يستطيعون الإعلان عن افتضاحهم وعقمهم وتخلفهم الإنساني. إنه لم يكن ممكناً أن يفتضحوا كما افتضحوا لولاك.. لقد جئت أقوى جهاز كشف لرذائلهم وعجزهم، ولإجداب طبيعتهم.. لقد عنفت بهم حيث بدا أنك ترفقين بهم.. لقد عاقبتهم حيث ظُنّ أنك تكافئينهم وتحابينهم. إنك قاسية جداً حيث بدا أنك رحيمة جداً.. إنك عدو لهؤلاء الصغار مهما بدا أنك أعظم صديق لهم.

عارك أيتها الحضارة

في أنك أصبحت عدواً للإنسان، محابية لخصومه..

لقد منحت أعداءه كل أسباب القدرة على التنكيل والبطش به.. لقد وهبت هؤلاء الزعماء الصغار المتوافدين من أحراش القارتين المحترقتين بالظلام، لقد وهبتهم كل وسائل وظروف الاستعلاء والجبروت، والإغراء والإغواء.. لقد أعطيتهم كل القدرة على ممارسة كل أساليب الطغيان والفجور، ثم سوغت لهم كل ذلك، ودافعت عنهم بشتى التفسيرات والمسوغات.. لقد جعلتهم بتفسيراتك ومسوغاتك يجدون أنفسهم بما يأتون من حماقات وفظاعات.. لقد أغريتهم بكل جنونهم.. لقد دققت لهم كل الطبول لكي تدفعي بهم إلى مزيد من الجنون والطغيان.. لقد ابتكرت أعظم وأفضل الأجهزة لكي تتحول إلى هتاف وتمجيد لهم، وإلى دفاع عنهم حينما يمارسون أقبح الذنوب وأفظع مستويات التوحش.

عارك أيتها الحضارة

أنك قد أصبحت عدواً للبشر، محابية لأعدائهم.. أنك أصبحت محابية لهؤلاء الزعماء الصغار المولودين في مستنقعات القارتين، العريقتين في التخلف والطغيان.

عارك أيتها الحضارة تمارسينه ضد نفسك في القارتين المتفجرتين عليك بالطوفان السكاني، وبالتاريخ، والمشاكل، والأوبئة، وبالزعماء الصغار العتاة..

عارك أيتها الحضارة..

عارك تمارسينه ضد شرفك مع هؤلاء الزعماء الصغار المولودين في القارتين الضاجتين بأزيز الوحوش والهوام، والبعوض وسائر سلالات الحشرات العريقة النسب، تمارسينه مع هؤلاء الزعماء الصغار الذين حولتهم إلى كبار، إلى كبار جداً، جداً، ويمارسونه هم ضدك بوقاحة واستعلاء.

عارك أيتها الحضارة

عارك.. عارك..

إذا لم تكن الحضارة سمواً للإنسان.. إذا كانت الحضارة، لا تعني إلا مزيداً من قدرة الإنسان وجرأته على أن يهبط ويهبط.. على أن يتخلى عن سموه؛ فهل الخير إذن أن تكون حضارة أم لا تكون حضارة..؟

إذا لم تكن الحضارة للإنسان فلمن إذن تكون.. إذا لم تكن سلوكاً في حياته، فلماذا إذن يعاني في إبداعها؟

هل الحضارة للحضارة، أم للحياة..؟

هل الحضارة للإنسان، أم الإنسان للحضارة..؟

لهذا.. أنا لست مذهباً

إن المذاهب والتعاليم تتحول إلى مخابىء يندس وراءها اللصوص والقتلة، وكل الملوثين والخادعين والمتسللين، ليمارسوا تحتها ذنوبهم وكأنهم إنما يصنعون للإنسان مجده وخلوده، وللآلهة أخلاقها ومستوياتها، وللشموس ضخامتها وإشراقها، وللسماء اتساعها وأسرارها، وللأرض وقارها ونبلها.

إن المذاهب والتعاليم هي أكبر وأكذب غطاء يغطي أقبح وأوقح الدمامات والأكاذيب والأحقاد، ونيات الغدر والعدوان والتسلط والتحقير.

إنها غطاء لكل اللصوص والقتلة والمغامرين، والملوثين والمتسللين.. إنها غطاء لكل عدواني مخرب كذاب..

إنها النبوة التي يستطيع أن يدعيها كل دجال دون أن تنزل عليه آية خاتم النبيين، دون أن تختم بأي نبي.

*

أنا أحتاج، أنا أرفض دائم..

أنا لست مذهباً، لست معلماً، لست صانع قيود، لست حامل قيود.

أنا أرفض الطغيان والقيود.. أنا أنقدها.. أنا أعدد ذنوبها.

لهذا أرفض التعاليم والمذاهب، لهذا أنقدها، أعدد ذنوبها، عيوبها..

لهذا أنا لست مذهباً..

*

أنا أرفض التعصب والكبرياء والبغضاء.. أنا أنقدها، أعدد ذنوبها.

لهذا أرفض التعاليم والمذاهب التي تحول هذه الشرور إلى مزية، إلى دين، إلى أفضل المزايا إلى أعنف الأديان.

أنا أنقدها، أعدد ذنوبها..

لهذا أنا لست مذهباً..

*

أنا أرفض أنا أمقت الحروب.. أنا أرفض، أنا أمقت تقسيم البشر إلى مواقع حربية متواجهة.

لهذا أرفض وأمقت التعاليم والمذاهب التي تجعل الحروب، التي تجعل تقسيم البشر إلى ميادين متحاربة، بطولة إنسانية، بطولة وطنية، بطولة مذهبية.

لهذا أنا لست مذهباً..

*

أنا أرفض أن أموت، أن يموت ابني، أن يموت صديقي، أن يموت أي إنسان، أن يموت خصمي، أن يكون لي خصم..

أنا أرفض كل ذلك تحت أي شعار، تحت أية فكرة تختفي وراءها أضخم الأكاذيب وأفجر الطغاة والمعلمين.

لهذا أنا أرفض التعاليم والمذاهب التي تعلمني كيف أكون قاتلاً، كيف أكون مقتولاً، كيف أؤمن بذلك، كيف أهتف لمن يدعونني إليه، لمن يوقعونه بي.

لهذا أنا لست مذهباً..

*

أنا أرفض أن يكون فوقي، أو فوق أحد المجتمعات، أو فوق الإنسانية كلها طاغية مريض، أو معلم جاهل، يذهب ينفذ ضدي طموحه، وجهله، وأحقاده، وعاهاته النفسية والعقلية والتاريخية، يذهب يفرضها على عقلي وأخلاقي، على حياتي وتاريخي، تحت اسم محبب، تحت علم ملون، تحت شعار هائل، تحت أكذوبة بليدة.

لهذا أنا أرفض التعاليم والمذاهب التي تحاول أن تضع فوقي، فوق كل مجتمع، فوق الإنسانية كلها أبهظ وأجهل وأخبث الطغاة والمعلمين ليؤدوا آفاتهم البذيئة تحت الأسماء المحببة، تحت الأعلام الملونة، تحت الصيحات، تحت أقبح الطبول.

لهذا أنا لست مذهباً..

أنا أرفض أن يكون إنسان واحد.. أن تكون ضروراته وظروفه وعاهاته واحتلامه.. أن تكون جماعة من الناس.. أن تكون ظروفها وهمومها ومتاعبها.. أن يكون صراخها ضد نفسها وضد من حولها.. أن تكون فترة من فترات التاريخ الجيدة أو الرديئة.. أن يكون يوم من أيام التاريخ.. أنا أرفض أن يكون شيء من ذلك أو كل ذلك مقياساً، أو نموذجاً أو مثالاً لكل التاريخ، لكل البشر، لا يتعدونه، لا يخرجون عليه، لا يفكرون في الخروج عليه ولا في التعدي له.

إن المذهب لا يعني إلا وضع كل الناس، كل التاريخ، كل الظروف في مقياس واحد، في نموذج واحد.. إن المذهب لا يعني إلا أن يصبح إنسان واحد، أو جماعة من الناس، أو مقطع من مقاطع التاريخ كل الناس، كل التاريخ. إن المذاهب ليس إلا إنساناً ما، ليس إلا جماعة ما، ليس إلا تاريخاً ما، قد تحول إلى تعبير، إلى قيد، إلى زي يراد له أن يلبسه بالإكراه أو بالخداع كل الناس في كل التاريخ، تحت كل الظروف.

إن أشهر التعاليم والمذاهب قد تدخل في صياغتها غضب إنسان ما، أو أرقه، أو تعبه، أو حقده، أو مرضه. وأنا أرفض أن تكون حياتي أو أخلاقي أو أفكاري، أن تكون حياة أي إنسان أو أخلاقه أو أفكاره محكومة بغضب إنسان أو بأرقه أو بتعبه أو بحقده أو بمرضه.. أنا أرفض أن يكون الغضب أو الأرق أو التعب أو الأحقاد أو الأمراض تعاليم ومذاهب يتقاتل ويتخاصم ويتعادى ويتقسم باسمها البشر.

لهذا أنا أرفض المذاهب والتعاليم.. لهذا أنا أخافها، أقاومها..

لهذا أنا لست مذهباً..

*

أنا أرفض أن يكون الأمس، هو اليوم، هو الغد، هو الأبد. والمذاهب والتعاليم ليست إلا محاولة لتوكيد سلطان الأمس على اليوم، على الغد، على الأبد.

لهذا أنا أرفض المذاهب والتعاليم..

لهذا أنا لست مذهباً..

*

أنا أرفض أن توجد قوة أخرى.. أن يوجد منطق أعلى، يخضع له عقلي، تخضع له رؤيتي للأشياء، إحساسي بالأشياء، تفسيري للأشياء، استجابتي الإنسانية للأشياء، مواقفي من الأشياء، من الناس، من مذاهب الناس، من مواقفهم..

أنا أرفض أن تقدم لي الأشياء مفسرة لي بغير منطقي، مرئية لي بغير بصري، محسة لي بغير أحاسيسي..

أنا أرفض أن توجد قوة أخرى.. أن يوجد منطق أعلى يخضع له عقلي ورؤيتي وأحاسيسي وأخلاقي ومواقفي..

إن المذاهب والتعاليم تحاول، أو يراد بها، أن تتحول إلى هذه القوة الأخرى، إلى هذا المنطق الأعلى.

لهذا أنا أرفضها..

هل تركت المذاهب والتعاليم للإنسان شيئاً من الحرية أو من الوقار أو من الكرامة، أو من الحب والاحترام للناس..؟

هل تركت له شيئاً من القدرة على الرؤية، أو على التعامل مع الأشياء ومع الآخرين..؟

هل تركت له شيئاً من القدرة على التفاهم مع نفسه ومع ذكائه..؟

هل قاتل الإنسان موهبته الإنسانية.. هل قوتلت موهبته الإنسانية مثلما قاتلها، مثلما قوتلت بالمذاهب والتعاليم..؟

لقد حولت المذاهب والتعاليم الإنسان إلى وحش بليد.. لقد جعلته وحشاً عدوانياً مفترساً.. لقد جعلته بليداً، بليداً.. جعلته لا يستطيع أن يفكر أو يفهم أو يرى.. لا يستطيع أن ينقد مواقفه البليدة جداً.. لا يستطيع أن يقيم أي حوار مع نفسه أو ضد نفسه.. جعلته أعمى.. جعلته لا يرى الأوحال التي تغوص فيها أقدامه.. لا يرى الدمامات التي يمتد عليها طريقه.. جعلته خامداً.. جعلته لا يستطيع الاحتجاج ضد شيء.. جعلته لا يحتج بالشعور أو بالرؤية أو بالرفض، بل بالتعليم والمذهب. إنه إذن لا يحتج، وإنما يصيح ويهتف بلا احتجاج، بلا رفض، بلا رؤية.

إن المذاهب والتعاليم قوة تأديبية، يراد لها أن تؤدب في الإنسان حواسه وذكاءه.. أن تحوله إلى شيء لا إلى إنسان، إلى شيء وقح لا إلى شيء نبيل.

لهذا أرفض المذاهب والتعاليم..

لهذا أنا لست مذهبياً..

*

إن الظروف والأسباب، والحوافز والأهداف، والنتائج التي تصمم وتعدّ بها ولها معتقلات وسياط الطغاة والحاكمين، هي نفس تلك التي توضع بها ولها المذاهب والتعاليم.

إن إعداد السياط والمعتقلات ليس إلا تعبيراً عن خوف، أو عن حقد، أو عن بغض، أو عن طموح، أو عن شهوة، أو عن ظروف، أو عن حالة نفسية، أو فكرية، أو تاريخية، أو اجتماعية يواجهها إنسان ما، أو جماعة ما، وكذلك وضع المذاهب والتعاليم.. إنها تعبير عن مواجهات ومواقف، وظروف إنسان ما أو جماعة ما.

إن مصممي السياط والمعتقلات ليسوا إلا معبرين عن ذواتهم، عن أنفسهم.. إن مثلهم واضعو المذاهب والتعاليم. إن هؤلاء وهؤلاء ليسوا إلا قوماً يحاولون أن يقهروا الإنسان، أن يخضعوه، أن يكون كما يريدون، أن يكون في قبضتهم، أن يكون محكوماً بسلطانهم، برغباتهم، بطموحهم، بنقائصهم، بعاهاتهم.

إن هؤلاء وهؤلاء لا يريدون أن يحرروا الإنسان، أن يرتفعوا به فوق نفسه.. إنهم يريدون أن يرتفعوا به فوق أنفسهم.. أن يرتفعوا فوقه به. إنهم محاربون للإنسان.. إنهم ليسوا منقذين له.. ليسوا محاربين دونه. إنهم أعداء.. إنهم قيود.. إنهم وحوش.

إن واضعي المذاهب والتعاليم ليسوا غير صانعي المعتقلات والسياط والقيود في النيات والحوافز والنتائج.. ليسوا أفضل منهم نيات أو حوافز أو نتائج. وأنا أرفض المعتقلات والسياط، لهذا أرفض المذاهب والتعاليم..

لهذا أنا لست مذهباً.

*

أنا أعرف أن البشر يستطيعون أن يتباغضوا ويتخاصموا ويتلاعنوا.. أن يتعادوا ويتحاربوا، دون أن تكون لهم مذاهب أو تعاليم. إنهم لم يزالوا يصنعون ذلك بلا مذاهب ولا تعاليم، مهما زعموا أو ظنوا أنهم لا يفعلونه إلا طاعة للمذاهب والتعاليم، ودفاعاً عنها وانتصاراً لها. ولكني أرفض ما يحرض على ذلك.

أنا أرفض أن نفعل الشر الذي لا بد أن نفعله بمسوغات مذهبية أو دينية بأية مسوغات أخرى.

أنا أفضل أن نمارس أعضاءنا باسم أعضائنا، على أن نمارسها باسم عقولنا أو مثلنا أو مذاهبنا.

إن الوحش يفترس، ولكن كم هو فظيع أن نضع للوحش، أو أن يضع الوحش لنفسه مذهباً يدافع عن افتراسه ويحرضه عليه.

كم هو فظيع أن ينزل على الوحش كتاب مقدس يحول وحشيته إلى عبادة للإله.. يحول أنيابه وأظافره إلى أقلام تكتب بحماس وتقوى أجمل التسابيح والتمجيد ثناء على الإله البر الرحيم.

إن الإنسان لا يحتاج إلى نبوة، إلى محرضين لكي يكون وحشاً، لكي يكون عدواً عدوانياً.. إن الطبيعة تعلمه ذلك.

والمذاهب والتعاليم هي تحريض لا ينكر نفسه، لا يحاول أن يخفيها.. هي تحريض على

الوحشية، على البذاءات السلوكية والنفسية التي يمارسها البشر.. التي يمارسها البشر بعضهم ضد بعض...

إن التعاليم والمذاهب دعوة إلى هذه الوحشية، إلى هذه البذاءات النفسية والسلوكية.. إنها تحولها إلى نشيد، إلى إنسانية، إلى بطولة، إلى تمجيد للإنسان..

ما أقبح الأنبياء الذي يجيئون إلينا لكي يقولوا لنا: كونوا وحوشاً، مهما كان محتوماً أن نكون وحوشاً.. إن رسالة الأنبياء والمعلمين أن ينهونا عما لا بد أن نفعل، وأن يأمرونا بما لا نستطيع أن نفعل.. إن كل نبي أو معلم لا يساوي إلا «نعم» حيث توجد «لا» أو حيث توجد «نعم».

لهذا أنا أرفض المذاهب والتعاليم..

لهذا أنا لست مذهبياً..

*

إن المذاهب والتعاليم تتحول إلى مخابىء خداعة يندس وراءها اللصوص والقتلة، والطامعون والمغامرون، وكل الملوثين والمخادعين والمتسللين، ليمارسوا باسمها ذنوبهم وعدوانهم، وكأنهم إنما يصنعون للإنسان مجده وخلوده، وكأنهم إنما يهبون السماء اتساعها وكبرياءها، وكأنهم إنما يصوغون للآلهة أخلاقها وكل مستوياتها، وكأنهم إنما يعلمون الشمس معنى الإشراق والضخامة.

إن المذاهب والتعاليم هي أشهر، هي أعظم المخابىء التي انطلق وينطلق منها أعداء الإنسان، بل وأعداء المذاهب والتعاليم، ليمارسوا كل أساليب القتل والعدوان، والخداع والختل في ضجيج من الإعلان والتمجد، والتباهي بما يفعلون.

إنها أي المذاهب والتعاليم، هي أعظم وأشهر المخابىء التاريخية التي تأوي إليها وتنطلق منها كل الجرذان والفئران، كل الحشرات والهوام، وأصناف الأفاعي، لتعتدي على الحياة، لتفسدها وتلوثها، لتقتلها، لتشوهها، لتبصق عليها كل سمومها وبذاءتها.

إن المذاهب والتعاليم هي أكبر وأكذب غطاء يغطي أقبح وأوقح الدمامات والأكاذيب والأحقاد، يغطي نيات الغدر والعدوان والتسلط والتحقير. إنها ـ أي المذاهب والتعاليم ـ غطاء لكل اللصوص والقتلة والمغامرين والملوثين، لكل المنافقين الكذابين والمتسللين.. إنها غطاء لكل عدواني مخرب كذاب.

إنها النبوة التي يستطيع أن يدعيها كل دجال دون أن تنزل عليها آية خاتم النبيين.. دون أن تختم بنبي.

أية حشرة، أية فأرة جاءت في صورة إنسان، لا تجد في المذاهب والتعاليم مكانها ومنبرها، دعايتها وحجتها وإنجيلها، سلاحها وأتباعها..؟

أية حشرة، أية فأرة لا تجد كل ذلك في المذاهب والتعاليم..؟

أية حشرة تستطيع المذاهب والتعاليم أن تتطهر من عفنها، أن ترفض عفنها..؟

يا من لم يجد في هذه الحياة مكاناً أو حظاً أو احتراماً أو أتباعاً يؤمنون ويهتفون..

يا من لم يصنع له القدر في هذا الكون كوكباً متألقاً محلقاً..

يا من لم يصبح هو كوكباً صاعداً بين الكواكب الكثيرة الصاعدة..

يا من لم يستطع أن يكون لصاً قاتلاً مستعلياً محترماً مشهوراً، كذاباً صادقاً، زنديقاً نبياً، ملوثاً طاهراً.

يا من لم يكن كذلك، لا تيأس، لا تيأس. إنك ستجد كل حظوظك، كل ما تفقد في المذاهب والتعاليم، في ادعاء المذاهب والتعاليم، في ابتكار المذاهب والتعاليم، في الدعوة إلى المذاهب والتعاليم.. ولكن هناك شرط، شرط واحد، ولكنه شرط ضخم صعب..

هذا الشرط الواحد الضخم الصعب، هو أن تكون مالكاً موهبة شريرة ضخمة. ولكن يجب أن تكون هذه الموهبة الشريرة الضخمة منطلقة، منطلقة على كل الجهات والجبهات والمستويات بلا أية شروط من الأخلاق أو الاحترام للحقيقة والصدق، بلا أية مستويات إنسانية.

أيتها المذاهب، أيتها التعاليم.

أنت مساكن لكل الجرذان والفئران، لكل العدوان، لكل التافهين والمنافقين، والغدارين والملوثين والأغبياء، لكل الآثام.

لهذا أنا أرفضك، أكرهك، أعلن الحرب عليك، أيتها المذاهب والتعاليم.. أعلن الحرب عليك، أعلنها علناً.

لهذا أنا لست مذهباً..

*

تتحول المذاهب والتعاليم إلى طقوس، إلى عبادات، وتلاوات، إلى نصوص وتفاسير، إلى ترديد وتأكيد، إلى كهان ومعلمين، إلى مراقبين ومتهمين، إلى مؤمنين ومشكوك في إيمانهم، إلى واعين ومشكوك في وعيهم، إلى تلامذة وأساتذة، إلى منابر ومعابد..

إنها تتحول إلى معركة يقيمها المجتمع ضد نفسه داخل نفسه.. إنها تتحول إلى معركة لها كل انفاقات المعركة وخسائرها، وهمومها وقتلاها، وتعقيداتها وأحقادها.

إن المذاهب والتعاليم تتحول إلى حرب باهظة التكاليف، يحشد لها المجتمع ذكاءه وقدراته، وحماسه وصراخه، يسرق لها المجتمع، يلقى فيها المجتمع، تغوص في أوحالها أقدام المجتمع، تعمى في غبارها عيون المجتمع.. إنها حرب لا تنتهي إلى نصر أو هزيمة.. إنها حرب لا تعلن، ولا تعلن هدنتها.. إنها حرب ليس لها زمان أو تاريخ.. إنها حرب لا يتحول المتحاربون فيها إلى معسكرات متباينة.

كم تخسر المجتمعات على المذاهب والتعاليم، على الدعاية لها، على توكيدها وتفسيرها، على ابتداعها وإخراجها ونشرها، على الاقناع والاقتناع بها، على الدفاع عنها، على شرح مزاياها وتفوقها، على الافتخار بها وتفضيلها على ما يخالفها..؟

كم تخسر المجتمعات، كم تنفق من ذكائها ووقارها ونضالها على المذاهب والتعاليم..؟

كم تنفق، كم تخسر المجتمعات على المذاهب والتعاليم..؟

كم أنت سرقة أيتها المذاهب والتعاليم.. كم أنت سرقة.

إن المذاهب والتعاليم تحول المجتمع إلى بوق هائل، هائل النفقات، هائل الخسائر، هائل الدوي.

إن المذاهب والتعاليم معركة خسائر، معركة انفاق لا تعويض ولا استرداد فيها.. إنها معركة في جسم المجتمع، في لحمه، في عظامه.. إنها معركة بلا عدو، بلا ميدان.. إن ميدانها هو مشعلها..

إنها معركة لا تعني الرصاصة التي تطلق فيها إلا نفس الهدف الذي تصيب.. إنها معركة لا تساوي الرصاصة التي تطلقها إلا تكاليف نفس الرصاصة وتكاليف إطلاقها.. إنها معركة لا ثمن لها سوى الخسائر.. إنها معركة لا تساوي إلا نفس المعركة.

إنها معركة لا يساوي الدفاع فيها إلا خسائر ذلك الدفاع، لا يساوي الهجوم فيها إلا ما تساويه متاعب وتكاليف وأحزان ذلك الهجوم.. إنها معركة فقط، معركة لها كل خسائر المعارك وآلامها، وضجيجها وانفاقاتها، وليس لها ثمن واحد من أثمان المعارك.

لهذا أنا أرفض المذاهب والتعاليم..

لهذا أنا لست مذهبياً.

*

إن الموجود ليس مذهباً.. إن أي شيء في الوجود لا يكون مذهباً.

إن المذهب فكرة مجردة، وليس مبدأ وجود، ولا حالة وجود، ولا هدف وجود، ولا حافزاً من حوافز الوجود.

إن الطبيعة قوانين وحركة وطاقة.. إنها ليست مذهباً.. إنها هي ذاتها فقط.. إنها لم تنشأ عن مذهب، ولا تحيا صيغة لمذهب، ولا تحقيقاً لمذهب، ولا تتجه لكي تنشىء مذهباً.. إنها هي الشيء كما هو، والشيء كما هو ليس مذهباً. إن المذهب أضيق وأقل، وأكثر شروطاً وقيوداً من الشيء كما هو.

إن الإنسان كذلك ليس مذهباً.. إنه لا يستطيع أن يكون مذهباً.. إنه لا يناضل لكي يكون مذهباً. وإنه لا يعرف ماذا يعني أن يكون مذهباً. وماذا يعني ألا يكون مذهباً، وإنه لا يتعذب لأنه ليس مذهباً، ولا لأنه لا يستطيع أن يكون مذهباً.

إن الإنسان يحيا فقط.. إنه حياة.. إنه يحيا بالضرورة والاحتياج والتلاؤم.. إنه يحيا بالقدرة والعجز، بالخوف والرغبة.. إنه يحيا بذاته، باحتمالات ذاته، بظروفها، بمستوياتها.. إنه لا يحيا بالمذهب.

إن الإنسان لا يمارس سلوكه أو حياته أو علاقاته، أو حتى مذاهبه وأربابه، أو حتى عقائده وشعاراته، بالمذهب.. إنه لا يحيا بالمذهب بقدر ما قلبه ورئتاه، وكبده وأعضاؤه، لا تمارس وظائفها بالمذهب.. بقدر ما جوعه وشهواته وأحاسيسه لا تتحرك بالمذهب. إنه يمارس سلوكه بالأسلوب الذي يمارس به جسمه حياته وضروراته وتلوثاته.

إنه يتحدث عن المذاهب بجنون.. إنه يصوغها ويحولها إلى معارك، إلى خصومات ودعايات وشعارات، إلى حدود وحواجز تبدده وتلعنه وتسلبه وقاره وذكاءه وأخلاقه، وإنه ليحسب أحياناً أو ليدعي أحياناً بكل كبرياء، أنه لا يمارس شيئاً من حياته إلا بالمذهب.. أنه لا يحب ولا يبغض ولا يعشق، بل ولا ينام أو يجوع أو ينظر إلى الطبيعة أو إلى الآخرين أو إلى المرآة، بل ولا يفهم أو يقتنع أو يتألم إلا على قياس مذهبي.. بل لقد يظن أن وجوده ليس إلا مذهباً، ليس إلا وجوداً مذهبياً. إنه ليظن أنه هو مذهب الإله.. إنه ليظن أن الله قد استعان على ابداعه بكل مستوياته المذهبية.. إنه مذهب الإله الكامل.

ولكن الإنسان يتحدث فقط.. إنه يتحدث دون أن يتفاهم مع نفسه على ما يعني، دون أن يتفاهم مع كلماته، مع لغاته. إن الإنسان منشق دائماً على لغته.

إن الإنسان ليس مذهباً أكثر من الحجر، من النهر، من النبتة، من الفرس، من البرغوث. إن أقوى الناس مذهباً ليس أكثر التزاماً لمذهبه ممن لا مذهب له.. ليس أقوى مذهبية من رافضي جميع المذاهب.

إن الناس يعلنون مذاهبهم ثم ينصرفون بلا مذهب، وكأنهم بلا مذهب يتصرفون خاضعين لاحتياجاتهم وظروفهم وضروراتهم، لقدرتهم وعجزهم، لجرأتهم وجبنهم، كما تتصرف أعضاؤهم وحياتهم، كما تجوع وتضعف أعضاؤهم. وإذا التزموا مذهباً فليس لأنه

مذهب، أو لأنهم مذهبيون، بل لأن التزامهم له يلائم احتياجتهم وظروفهم.

إن التزامهم المذهبي بحث عن التلاؤم وخضوع للتلاؤم، لا عن المذهب ولا خضوع للمذهب.. إن التزامهم حالة لا مذهب.. إن من لا مذهب له يحتم عليه أن يلتزم أحياناً موقفاً ما مثلما يلتزم أو أكثر أقوى الناس مذهباً. إن الالتزام في بعض المواقف لا يعني المذهبية، بل لا يعني نفس الالتزام. وهل التزام العمل أو الحرفة أو السكن أو الوطن يعني التزاماً مذهبياً..؟

إن الناس لو كانوا جميعاً بلا أي مذهب، لما كانوا أقل التزاماً لمواقفهم.. لما كانوا أقل التزاماً للمواقف الملائمة، كما يلتزمون أساليب معينة في أزيائهم وعلى موائدهم وفي تأثيث منازلهم وفي عرضهم لأنفسهم وتجميلهم لوجوههم بلا أي مذهب.

إن من يقول: هذا مذهبي إنما يعني هذا هو الشعار الذي سوف أمارس تحته أو باسمه شهواتي وأهوائي، ومصالحي وظروفي، وخروجي على مذهبي الذي سوف أمارس تحته وباسمه ذاتي، ذاتي فقط.. إنه لا يعني أن هذا هو مذهبي الذي سوف أترك من أجله ذاتي، أو سوف أحكمه فيها.

إنه لا يوجد من يلتزم مذهبه بمشاعره أو نياته أو سلوكه حينما يكون التزامه هذا خروجاً على ذاته. إن صاحب المذهب لا يلتزم مذهبه الذي يناقضه بأي أسلوب أو بأي مستوى من أساليب ومستويات الالتزام، أكثر مما يلتزمه أي خارج عليه، أي عدو له. وقد يلتزم مذهبك الخارج عليه، العدو له أكثر مما تلتزمه أنت حينما يكون مذهبك ملائماً للخارج عليه، العدو له، أكثر من ملاءمته لك..

إن أي نبي أو معلم لن يستطيع أن يخضع سلوكه أو نياته أو رغباته، لنبوته أو لتعاليمه التي لا تلائمه، أكثر مما يستطيع ذلك أي كافر بالأنبياء والمعلمين، بالنبوات والتعاليم.

إن الخارجين على الأنبياء لا بد أن يلتزموا ما جاء به الأنبياء حينما يكون ملائماً لهم، بينما يخرج عليه الأنبياء حينما يكون غير ملائم لهم.

إن أصحاب المذاهب يظلون معلنين ولاءهم لمذاهبهم، ولكنهم يظلون خارجين عليها، بل يظلون خارجين بها عليها.. إنهم يحولون مذاهبهم إلى خروج على مذاهبهم.. إن المذهب يتحول إلى خروج على المذهب، إلى خصم له.. إنهم لا يكتفون بالخروج على مذاهبهم بنياتهم وشهواتهم وسلوكهم، بل إنهم يحولون مذهبهم إلى نقيض لمذهبهم، إلى عدو له.. إنهم يسوغون الخروج من المذهب بنفس المذهب.. إن كل المذاهب خروج بالممارسة على نفسها.. إن المذاهب لا تلتزم نفسها.

إن المذاهب ليست مهجورة فقط، بل إنه ليستعان بها على ممارسة الخروج عليها، إنها لتفسر وتحرف وتحتقر حتى لتصبح سلاحاً ضد نفسها، حتى لتصبح تسويغاً لفعل ما يناقضها، لفعل ما جاءت هجاء له، حرباً عليه. إن المذاهب لم تكن في أي يوم خصماً أو هزيمة للأهواء أو للضرورات أو للمصالح، بل لقد كانت دائماً وقوداً جيداً لها.

إنه لم يوجد في التاريخ من خاف من مذهبه على فساده وغوايته أو على انتهازيته المتعرية، بل لقد كان المذهب دائماً تفسيراً وتسويغاً مقبولاً لكل الآثام والمراوغات.

إن النبي ليستطيع الخروج على تعاليم نبوته باسم النبوة، أكثر مما يستطيع الخروج عليها بلا نبوة.. إنه ليحول نبوته إلى تفسير للخروج عليها.

ماذا يعني «هذا ملتزم» وذاك غير ملتزم.. هل الناس ملتزمون وغير ملتزمين. هل هناك أديب، مفكر، كاتب، فنان، سياسي ملتزم، وآخر غير ملتزم..؟

هل يوجد التزام.. وإن كان يوجد فهل ينقسم الناس إلى ملتزمين وإلى غير ملتزمين.. ولكن ماذا يعني الالتزام.. وهل الذين يتحدثون عنه عرفوا ماذا يعني، وهل اتفقوا على ما يعني..؟

إنهم لكثيرون أولئك الذين يتحدثون عن الالتزام.. إنهم لكثيرون أولئك الذين يتحدثون عن الالتزام بحماس شديد، وبحماس أشد حينما يشيرون إلى أنفسهم.

إن الذين يتحدثون عن الالتزام متفقون في الغالب على انقسام الناس إلى ملتزمين وغير ملتزمين.. إن الخلاف بينهم غالباً ليس على مبدأ الانقسام، ولكن على مَن من هذا الفريق، وعلى مَن من الفريق الآخر.

إنه يوجد التزام.. إنه لا يوجد التزام، كل الناس ملتزمون، وكلهم غير ملتزمين.. إنهم لا ينقسمون إلى هؤلاء وهؤلاء. كل الناس ملتزمون التزاماً ذاتياً، ملتزمون بذواتهم، إذن يوجد التزام.. وكلهم غير ملتزمين إذا كان الالتزام يعني الخروج على الذات، إذا كان يعني عصيانها، إذن لا يوجد التزام.. إذن فالناس جميعاً ملتزمون، وإذن فالناس جميعاً غير ملتزمين.

لقد صار شيئاً مسلماً أو شيئاً معروفاً مشهوراً أن هناك فناً أو أدباً ملتزماً، وآخر غير ملتزم.

لنقل أن هذا الأديب ملتزم، ولنعن به أنه ملتزم بأدبه مذهباً من المذاهب، أو موقفاً من المواقف، أو نظرية من النظريات، أو نظاماً من النظم، أي ملتزم بالدفاع عنه وبالدعاية له وبوضع كل أدبه في خدمته، وفي عرض مزاياه، في الكذب له أيضاً، وفي تسفيه مخالفيه

ومشاتمتهم بتعصب وكبرياء وبذاءة. وهذه هي أفضل مزايا الالتزام، أي أفضل مزايا الالتزام أن يكون قتالاً وتكبراً وبذاءة، بل هذه هي كل مزايا الالتزام، بل لا التزام بدون ذلك.

إذا كان التزام هذا الأديب الذي قلنا إنه ملتزم استجابة لذاته، لرؤيتها واقتناعها، لشهوتها، لحاجتها إلى التلاؤم.. إذا كان ذلك استجابة لرغبته في أن يكون الصيغة التي يريد أن يكونها، الأسلوب الذي يريد أن يكونه.. إذا كان ذلك كذلك فإن جميع الأدباء سيكونون ملتزمين حينما يكونون في مثل هذه الحالة، في مثل هذه الحالة الذاتية. إن أي شيء، إن أي إنسان لا يستطيع الخروج على ذاته. إن الذي يعصي ذاته إنما يعصيها طاعة لها.. إنه يعصيها بأسلوب، ويستجيب لها بأسلوب آخر.

أما إذا لم يكن كذلك فإنه لن يكون ملتزماً، ولو التزم لما كان التزامه التزاماً، لما كان التزامه إلا كذباً أو نفاقاً أو إكراهاً. إذا التزم كاتب أو أديب أو فنان ما تريده السوق، أو ما يريده النظام أو المذهب أو الحاكم أو الحزب الذي يعيش تحت قبضته، فأي التزام هذا..؟

إنه كالتزام المحكوم عليه بالسجن، البقاء في السجن وطاعة أوامره وقوانينه وجلاديه. حتى الالتزام بمصلحة الآخرين أو برغبتهم ـ بدون أهواء النفس ـ إنه ليس التزاماً، ولكنه نفاق أو دعاية. ولكن أليس النفاق والدعاية استجابة للذات على نحو ما..؟

إن الحياة ليس فيها التزام، وإنه لا ينبغي أن يكون فيها التزام.. إنها رؤية متبدلة.. إنها مشاهد وممارسات متبدلة.. إنه إذن مشاعر وأفكار ورغبات متبدلة.. إنها إذن مواقف وأساليب وتعبيرات متبدلة.

إن الجماد أكثر التزاماً من الحياة، وإن الحياة في مستوياتها التي هي دون الإنسان لأكثر التزاماً من الإنسان، وإن الإنسان المتخلف والغبي لأكثر التزاماً من الإنسان الأكثر تقدماً وذكاء. إن الالتزام ـ لو وجد التزام ـ أسلوب من أساليب العجز والاستسلام والجمود.. إنه ليس مزية.. إنه رذيلة.. إنه هوان.

إن الإنسان لا يحيا ولا يخلق نظمه وأساليب حياته المتطورة الجيدة، الملائمة والعادلة، بالمذاهب ولا بالالتزام؛ كما أن النهر أو النبتة أو الثمرة أو الزهرة لا تهب نفسها أو تصوغ نفسها بالمذهب أو الالتزام.. كما أن الإنسان لا يكون ذكياً أو عبقرياً أو مكتشفاً أو مخترعاً أو مطوراً لصناعاته وفنونه، أو مجيداً ومغيراً لأزيائه ولأدوات منزله بالمذاهب أو الالتزام.. كما أن الطيور والحشرات لا تصنع أعشاشها أو أبراجها بالمذاهب والالتزام. إن الإنسان يحيا مجتمعاً مشحوناً بالتعقيدات وبالصيغ الملائمة التي تبدو وكأنما صاغها الذكاء. ولكن ذلك لم يكن تعبيراً عن مذهب أو التزام، وإنما هو تعبير عن مستويات وجود بقدر ما الشمس والنهر وبراعة النحل والنمل تعبير عن مستويات وجود، لا عن مذهب أو التزام. الإنسان لو

كان منذ وجد بلا مذهب لما كانت مستويات وجوده أقل ذكاء، ولما كانت أكثر ظلماً أو فساداً أو تخلفاً.

إن المذهب هو محاولة من محاولات الإنسان للتعبير عن كينوناته، هو حديث ولغة عن كينوناته. ولكن كينوناته ليست إبداع مذاهبه.

*

إني برفضي الالتزام والإيمان والمذاهب أصبح مؤمناً ملتزماً صاحب مذاهب.. إني بإعلاني رفض القيود إنما أعبر عن معاناتي لأبهظ القيود.. إن رافض المذاهب والالتزام ليس أقل التزاماً ومذهبية من أنبياء المذاهب والالتزام.. إن أنبياء المذاهب والالتزام ليسوا أقوى التزاماً ومذهبية من كل محاربي الالتزام بالمذاهب.. إن محاربي القيود لا يتحركون إلا بالقيود. إنك لا تلقي بالقيد إلا وأنت محكوم بالقيد، إلا لأنك محكوم بالقيد.. إنك بلا قيد لن تقاوم أي قيد.

إن أي نبي ليس أقوى التزاماً لنبوته من أكبر جاحدي النبوات، من أشرس أعداء الأنبياء. إن الناس لا يتفاوتون في الالتزام أو في رفض الالتزام، إنما يتفاوتون في التعبير، لتفاوتهم في أسباب هذا التفاوت.

*

أيها الإنسان..

أنت لست مذهباً ولا التزاماً.. أنت لست أخلاقاً ولا بسالة.. أنت لست امتيازاً ولا نظافة أو ذكاء.. أنت كائن لغوي. ولأنك كائن لغوي فقد أعطيت نفسك مجداً لغوياً، فقد مجدت نفسك باللغة، ثم علمت أجيالك المتعاقبة أمجادك اللغوية، أمجادك التي أضفتها عليك بسرف وبلا وقار لغاتك.

إن اللغات هي أقوى جهاز لتعليم الأكاذيب والغباء، لتعليم التقليد، لتحويل التقليد إلى اقتناع عالمي، لتحويل أخلاق القطيع إلى منطق عالمي.

إنه إذا كانت اللغة تهبنا ذكاء ومعرفة، فإنها أيضاً تهبنا غباء وجهلاً.. إنها تعلمنا الجهل والغباء.. إنها مذنبة بقدر ما هي فاضلة.

أنت أيها الإنسان مأساة، عذاب، ذنب من ذنوب الطبيعة مهما كان إبداعك، مهما كانت عبقريتك.

إن عبقريتك لن تستطيع أن تغفر لك تفاهاتك، نفاقك، كذبك، هوانك، طغاتك، ظلمك، تلونك، أحقادك، صغائرك، جبنك، ضعفك، تلوثك.. إنها لن تستطيع أن تغفر لك

ذلك.. إنها لن تستطيع أن تنقذك من ذلك.. إن اللغة لن تستطيع، لن تستطيع أن تشفيك من أنانيتك، من جوعك، من خستك، من شهواتك، من بلادتك، من زعمائك ومعلميك القتلة الأغبياء المهرجين الدجالين.

إنك خطيئة من خطايا الطبيعة، ألم من آلامها مهما كان إبداعك، مهما كان تفوقك.

إنك لست انتصاراً لنفسك ولا للطبيعة مهما كانت انتصاراتك في علاقاتك بنفسك وفي علاقاتك بالطبيعة.

إن طغاتك.. إن تاريخ طغاتك فيك.. إن طغاتك فقط ليمحون جميع مزاياك، ليحولون كل عبقرياتك إلى هجاء، إلى هباء.

أنت أفظع دمامة عانت منها الطبيعة وعانت منها نفسها مهما امتلكت من مدن وشعر، وآداب وأفكار، وفنون وحضارات باهرة، مهما فتنت عيون أحد جنسيك ضعف وجوع وغواية جنسك الآخر، مهما رأى أحد جنسيك جنسك الثاني بأعضائه لا بعيونه، بشهوته لا بتجربته، مهما افتتنت لأنك تشتهي، لا لأنك ترى جمالاً.. لأنك كائن يجوع ويتلوث، لا لأنك فتان النظرات، عبقري العيون.

أنت أكبر عار لنفسك وللطبيعة. إن كل مواهبك ومزاياك لتتحول إلى هزيمة، إلى سباب، إلى استهزاء أمام موقف واحد من مواقفك الحمقاء الفاضحة البليدة الأليمة الخسيسة التي هي كل تاريخك، التي يعيشها كل تاريخك.

إن طاغية جاهلاً قاتلاً واحداً يمارس نفسه بواسطتك، فوقك، باستسلامك له، بانخداعك به بخوفك منه، ليحول كل تفوقك وانتصاراتك إلى تفوق حشرة وانتصارات حشرة. إن كل عبقرياتك لم ترتفع بك عن هوان الحشرة.. إن مجدك مجد صرصار.

أنت لست مجداً ولا كرامة، لست ذكاء ولا شجاعة، لست نظافة ولا صدقاً.. أنت لست مذهباً أو التزاماً.. أنت ذنب وعار وألم.. أنت عاهة ودمامة وهوان.. أنت استسلام وكذب وغباء.. أنت تلوث. وأنت أيضاً عبقرية، ولكنها عبقرية لا تستطيع أن ترتفع بك فوق صفاتك. إنها عبقرية تخضع لصفاتك ولا تخضع لها صفاتك. إنها تهتف لذنوبك، تستقوي بها ذنوبك.. إنها لا تزجر ذنوبك، لا تستقوي على ذنوبك.. إنها عبقرية لا تقود نفسها، وإنما يقودها الطغاة والحكام الصغار والزعماء الإعلانيون، وسائر طابور اللصوص والمخربين. إن العبقرية لا تتحول إلى زواج لكفء، إنها أبداً اغتصاب، يغتصبها غير الأكفاء وغير الأسوياء، إنها إذن فسوق بكرامة الإنسان وبذكائه.

إن العبقرية ترتفع بمستويات افتضاحك وهمومك وذنوبك..

إن لك عبقرية فهل لك حياة عبقرية..؟

هل لك نفس عبقرية.. هل لك أخلاق عبقرية.. هل لك هموم عبقرية.. هل لك شروط عبقرية.. هل لك وجود عبقري.. هل لك رفض عبقري..؟

إية مزية لعبقريتك إذا لم تكن تستطيع أن تهبك من النظافة ومن الرفض للهوان والطغاة وللهزيمة وللوحل، أكثر مما تستطيع أن تهبك بلادتك..

إن تفاهاتك وقباحاتك، إن كبرياء طغاتك لتقتات بعبقريتك أكثر مما تقتات بعجزك. إذن أي فضل لعبقريتك على عجزك..؟

إنك بعبقريتك تفقد حريتك ووقارك، وصدقك وذكاءك وشرفك أكثر مما تفقده بعجزك.

*

أيها الإنسان..

أنت افتضاح كوني.. أنت نزق كوني.. أنت عذاب كوني مهما كانت مواهبك المبدعة.. ومسراتك الوقحة.. أنت انهزام مهما كنت انتصاراً.. أنت تلوث مهما اغتسلت، مهما توضأت، مهما صليت.. أنت جحود مهما آمنت، مهما هتفت بأربابك.

أنت ترى نفسك من داخل نفسك.. أنت لا ترى نفسك.. أنت لا ترى نفسك من خارج نفسك.. أنت لا ترى نفسك ناظراً أو مبصراً.. أنت ترى نفسك ممارساً.. أنت لا ترى نفسك، لهذا لا ترى بشاعة الهزائم والفضائح والقباحات التي تعيشها، وتعيشها، وأبداً تعيشها.

أنت تمارس هزائمك وفضائحك وقباحاتك ممارسة عالمية بالديمومة والتكرار، لهذا لا تراها، لهذا لا تقتل عينيك، لهذا لا تخاصمك عيناك، لا تشتمك عيناك.

إن عالمية افتضاحك وتكراره في عينيك ومشاعرك وممارساتك جعلاه شيئاً لا يستبشع، لا يرى، جعلاه عبقرية إله. منحة إله.

ماذا أيها الإنسان لو انفصل منك كائن آخر ليشاهدك من خارجك، ليرى كيف تمارس نفسك، كيف تمارس أحزانك ومسراتك، كيف تمارس لذاتك وآلامك، ليرى كيف تمارس صلواتك وخطاياك، كيف تمارس أربابك وشياطينك، كيف تمارس هوانك وجوعك، كيف يمارسك هوانك وجوعك.. ليرى كيف تمارس خوفك وضعفك، كيف يمارسك خوفك وضعفك، كيف تصغر وتصغر وتظل تصغر بلا حدود، بلا مقاييس.. تصغر على كل الاتجاهات، وتحت كل المقاييس.. ليرى كيف تركع إلى الأرض، إلى التراب، كيف تركع لتلتقط كرامتك من التراب، لتشتري بقاءك في التراب بالسقوط على التراب.. ليرى كيف

تتعاقب عليك الطغاة، كيف تخضع لكل الطغاة، كيف لا تضع حداً أدنى لكرامتك ولا حداً أعلى لجنون طغاتك أو لتفاهة حياتك..

ماذا لو انفصل منك كائن آخر ليراك كما أنت، ليراك في أبعادك، في كل أعماقك، في كل أزيائك في كل مستوياتك.. ليراك وأنت تمارس ذاتك وكيف تمارس ذاتك..؟

هل أنت تمارس ذاتك..؟

إنك لا تمارس ذاتك.. إن ذاتك هي التي تمارسك.. إن أعضاءك هي التي تمارسك. إنك لست إنساناً يسكن أعضاء.. إنك أعضاء تسكن إنساناً، تسكن ما يسمى إنساناً.

إنك لست إنساناً، إنك أعضاء سمت نفسها إنساناً. إنك لست صراعاً بين أعضاء وإنسان.. إنك لست مزيجاً من الأعضاء والإنسان.. إنك أعضاء، إنك أعضاء فقط. إنك أعضاء تتكلم اللغات وتتحدث عن المذاهب والمثل والأخلاق، لكنها تظل أعضاء، أعضاء غير مهذبة ولا محتشمة.

ماذا أيها الإنسان لو انفصل عنك كائن ليراك من خارجك.. ماذا لو أصبحت مبصراً لنفسك قارئاً لنفسك.. ماذا، ماذا..؟

أيها الإنسان.

إنك لم تر نفسك.. إنك لم تر نفسك قط. إنك كائن يمارس نفسه، ولست كائناً يرى نفسه.. إنك أعضاء تمارس نفسها، ولست إنساناً يواجه نفسه. إنك لست إنساناً.. إنك أعضاء، وستظل أبداً أعضاء.. ستظل أبداً أعضاء همجية مهما لبست الأزياء الحضارية.

أيها الإنسان.

أيها الكائن المتكلم اللغات، المتحدث عن المذاهب والأديان والآلهة والنظريات.

تكلم، تحدث، فلست إلا أعضاء تجوع وتعوي، وتتخاصم وتتصادم وتتشاتم.

لتتكلم، لتتحدث عن المذاهب والأديان، والآلهة والنظريات، متخطياً كل وقار واحتشام في تحدثك وتكلمك، فليست مذاهبك وأديانك، وآلهتك ونظرياتك إلا لغات أعضائك جائعة صارخة، متخاصمة متصادمة متشاتمة.

لتعقد المؤتمرات الدولية.. لتهز المنابر بالخطب الكونية.. لتصغ أروع المذاهب والتعاليم والشعارات.. لتخاطب الآلهة.. لتملأ المعابد بالصلوات والخشوع.. لتعلم النجوم معاني الارتفاع.. لتتكلم عن كبرياء الروح، عن قوة الضمير، عن هزيمة الأعضاء، عن هوانها.. لتصنع كل ذلك بلا وقار أو احتشام فلست إلا أعضاء تجوع وتتعرى، وتفسق وتتخاصم، وتتصادم وتتشاتم.

لتنتقل من مذهب إلى مذهب، ومن نظام إلى نظام، ومن موقف إلى موقف، ومن معسكر إلى معسكر، ومن معبد إلى معبد.. لتقف كل المواقف المتناقضة.. لتفعل الشيء وتقاومه.. لتحارب وتسالم.. لتهتف وتلعن.. لتمدح وتذم.. لتصل لهذا الإله ثم لتصلبه.. لتكن حليفاً أو تابعاً ثم خصماً.. لتتعر بكل جسمك، بكل عاهاتك، ثم لتتحدث عن الذين لا يستحيون، ثم لتتحدث عن فضيلة الاحتشام، لتفعل كل ذلك باسم الصدق والاقتناع، والإيمان والحب.. لتفعله بلا وقار ولا احتشام، فلست إلا أعضاء تجوع وتفترس، وتخاصم وتشاتم وتصادم.

لتقاتل كل الناس.. لتعادهم.. لتكرههم.. لتشتمهم.. لتتهمهم.. لتتحول إلى بذاءة، إلى وقاحة، إلى عدوان، إلى سباب، إلى حشرة سامة، إلى وحش.

لتفعل كل ذلك باسم الصدق والإيمان، والاقتناع والإخلاص، والحب للمذاهب والأديان، والآلهة والنظريات.. لتفعله بلا وقار أو احتشام فلست إلا أعضاء تجوع وتأكل وتفتضح وتعبر عن جوعها وافتضاحها بالمذاهب، بالنبوات، بالكتب المنزلة.

ليصرخ زعماؤك ومعلموك.. ليطلقوا بصراخهم الأعاصير.. ليشتموا الرياح.. ليبكوا.. ليذرفوا من عيونهم السحاب.. ليعادوا كل التاريخ، كل الأشياء، كل الناس.. ليتكلموا كمجانين.. ليتكلموا عراة من التهذيب، من الاتزان، من الذكاء.

ليفعلوا كل ذلك دفاعاً عنك، وغيرة عليك، واحتراماً لك، وإيماناً بك.. ليفعلوه دفاعاً عن مذاهبهم وأديانهم، وآلهتهم ونظرياتهم، ونظمهم وغيرة عليها واحتراماً وإيماناً بها.

ليفعلوا كل ذلك، ومهما فعلوا فليسوا إلا أعضاء تجوع وتبكي، وتتألم وتكذب، وتنهار وتموت.

ليفعلوا كل ذلك، ومهما فعلوا فليسوا إلا أعضاء همجية لا تستطيع أن تتحضر مهما أبدعت الحضارة وعاشتها.

إن الفرق بين مذاهبك وأديانك، ونظمك وأربابك ومواقفك يساوي الفرق بين أعضائك، بين ظروف أعضائك، بين مستوياتها وتعبيراتها، بين قدرتها وعجزها بين تلاؤمها وتنافرها.. إنه يساوي أسلوب ممارستها لنفسها، أو ممارستها لك. أو ممارستها لتفاهاتها وضروراتها وجوعها.. إن هذا الفرق يساوي الفرق في استجابتك لها، في استجابتك لإملاءاتها عليك، لشروطها على حياتك.

إن أشد زعمائك ضجيجاً مذهبياً أو أخلاقياً أو وطنياً.. إن أشدهم ارتجافاً في تعبيراته عن

إيمانه أو إخلاصه، ليس إلا أشد زعمائك امتلاكاً لأشد الأعضاء وحشية وتوتراً، وبداوة وعدوانية.

إن الفرق بين زعيم وزعيم يساوي الفرق بين أعضاء وأعضاء. يساوي الفرق في القدرة على التعبير بين أعضاء وأعضاء.

*

أيها الإنسان..

أنت أعضاء تحول ممارستها لنفسها إلى مذاهب وأديان. وآلهة ونظريات، ولست إنساناً يحول أعضاءه إلى آلهة وأديان، ونظريات ومذاهب.

لست إنساناً يحكم أعضاءه بالصدق وبالنموذج العقلي.. لست إنساناً يعاني من التناقض بين نماذجه وضروراته، بل أعضاء تعاني من التناقض بين ضروراتها وضروراتها.



صحراء بلا ابعاد

لا تستطيع أن تمسك به .

فهو صراخ يقول كل شيء ولا يقول شيئاً . يخاطب الجميع ، ولا يخاطب أحداً إنه الوجه والقفا . ثائر ومتلائم . ملتزم وغير ملتزم . بريء وفتاك . .

مسكون بشحنة الاحتجاج . متناقض ومنطقي . شعري وعقلاني . . معتم وصاف ، كأنه الرمل وقطر المطر .

إنه صرخة خلاص من الأقنعة وسفر إلى الأطراف القصوى . هكذا تتقاطع في صوته أصداء كثيرة : من هراقيطس حتى العبثية المعاصرة مروراً بنيتشه وماركس . لكنه يبقى عربياً ، أصيل النبرة والبعد ، نفاذ الحضور ، حتى ليصعب أن يوصف العربي الذي لا يقرؤه بأنه مثقف أو بأنه يحيا على هذه الأرض العربية الرائعة المضطربة في هذه الحقبة الرائعة المضطربة .

عبد الله القصيمي ، في الفكر العربي ، حدث ومجيء . .

حدث لأن صوت هذا البدوي الآتي من تحت سماء المدينة ومكة ، صوت هائل فريد . ومجيء لأن في هذا الصوت غضب الرؤيا والنبوة .